



الشعر العربي في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين أغراضه وخصائصه



الطاف أحمد مالاني



الشعر العربي في الهند

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

أغراضه وخصائصه

الطاف أحمد مالاني



الشعر العربي في الهند.

ألفاف أحمد مالاني

الرياض ، ١٤٤٥ هـ

البريد الإلكتروني: nashr@ksaa.gov.sa

ح / مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية ، ١٤٤٥ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ص..؛ سم

رقم الإيداع : ٣٦٩٥ / ١٤٤٥

ردمك : ٣٤-٨٤١٣-٦٠٣-٩٧٨

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو نقله في أي شكل أو وسيلة ، سواء أكانت إلكترونية أم يدوية ، بما في ذلك جميع أنواع تصوير المستندات بالنسخ ، أو التسجيل أو التخزين ، أو أنظمة الاسترجاع ، دون إذن خطي من المجمع بذلك .
(صدر هذا الكتاب عن مركز الملك عبدالله للتخطيط والسياسات اللغوية ، والذي جرى دمجه في مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية) .

هذه الطبعة إهداء من المجمع، ولا يُسمح بنشرها ورقياً، أو تداولها تجارياً



أطلق مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية ضمن أعماله وبرامجه مشروع: (المسار البحثي العالمي المتخصص)؛ لتلبية الحاجات العلميّة، وإثراء المحتوى العلمي ذي العلاقة بمجالات اهتمام المجمع، ودعم الإنتاج العلمي المتميّز وتشجيعه، ويضم المشروع مجالات بحثية متنوعة، ومن أبرزها: (دراسات التّراث اللّغوي العربي وتحقيقه، والدّراسات حول المعجم، وقضايا الهوية اللّغوية، ومكانة العربيّة وتعزيزها، واللسانيّات، والتخطيط والسياسة اللّغوية، والترجمة، والتّعريب، وتعليم اللّغة العربية للتّاطقين بها وبغيرها، والدّراسات البيئيّة).

وصدر عن المشروع مجموعة من الإصدارات العلمية القيمة (جزء منها-ومن بينها هذا الكتاب- صدر عن مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز للتخطيط والسياسات اللّغوية والذي جرى دمجها في مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية). ويسعد المجمع بدعوة المختصين، والباحثين، والمؤسسات العلميّة إلى المشاركة في مسار البحث والنشر العلمي، والمساهمة في إثرائه، ويمكن التواصل مع المجمع لمسار البحث والنشر عبر البريد الشبكي: (nashr@ksaa.gov.sa).

والله ولي التوفيق

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن اللغة العربية قد شرفها الله تعالى بأن جعلها لغة كتابه الحكيم، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين، فكتب لها الخلود لاحتوائها الرسالة السماوية الخالدة، وقُدِّر لها الذيوع بانتشار الإسلام في جميع الأقطار، تصديقاً لما جاء على لسان خير البشر محمد ﷺ إذ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام»^(١).

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، خرجت اللغة العربية أيضاً من مهدها، وذاعت في أرجاء المعمورة، فوجدت بيئات تغلبت لغة الضاد على لغاتها الأصلية، ووجدت دول وأمصار - وإن لم يكتب للعربية فيها السيطرة على الساحة اللغوية، إلا أنها- فرضت فيها نفسها مع لغات محلية، ووجد في كل بقعة من بقاع الأرض من يسعى إلى تعلمها وتعليمها، ليقيم بها شعائر دينه، ويفهم بها كتاب ربه وسنة نبيه، ومنهم من فتح الله عليه في أمر هذه اللغة، فبلغ فيها شأواً عالياً، وأثرى ساحتها بنظمه ومصنفاته.

ومن البيئات التي دخلتها العربية فوجدت لها مجالاً رحباً - مع اللغات المحلية

١ - جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/٤ .

الأخرى - بيئُ الهند، فقد دخلتها العربية في القرن الأول مع الجيوش الفاتحة حيناً، ومع الدعاة إلى الله حيناً آخر، وبقي لها فيها وجود مستمر منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا. ونجد في تلك البلاد القاصية كثيرين ممن تملكوا ناصية البيان، وبلغوا فيها شأواً بعيداً في الإجابة والإتقان، وراضوا فيها القول فأجادوا، وقرضوا فيها الشعر فأحسنوا، هذا علاوة على عدد كبير من الذين لهم أيادٍ في خدمة العلم وتدوينه بهذه اللغة الشريفة. ولما كانت آداب هذه اللغة في تلك البلاد النائية محجوبة عن العالم العربي - مع كثرة التطلع إليها - وكانت المكتبة العربية خالية من أي دراسة علمية مستفيضة، لبعد هذه الديار، ولأنه يصعب على باحثي غير تلك البلاد العثور على تلك الآثار الأدبية في بلاد الهند، عزمت - بعد الاستشارة والمشورة - على أن أدرس جانباً من آداب اللغة العربية في الهند؛ ليكون ذلك إسهاماً متواضعاً في سدّ هذا الفراغ، وليكون أداءً لبعض حق تلك الديار، ووفاءً لأولئك الأعلام الأفاضل، فاخترت جانب الشعر لما له من تأثير في النفوس، وصقل للعقول، وتهذيب للطباع، واخترت حقبة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين؛ لكونها أقرب عهداً، وأوفر مصدراً، وأملأها بالحوادث الضخمة، والوقائع العظيمة، كانتهاء الحكم الإسلامي في الهند وسيطرة الاستعمار البريطاني عليها، وقيام الحركات المناوئة للاستعمار، الداعية إلى التحرير والاستقلال، ثم نهاية الاستعمار وقيام دولة باكستان، ثم انفصام بنغلاديش عنها. وقد جاء عنوان الرسالة على النحو الآتي:

الشعر العربي في الهند

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

أغراضه وخصائصه

_ وقد قسمت البحث إلى ثلاثة فصول، تسبقها مقدمة وتمهيد، وتعقبها خاتمة وفهارس:

أما المقدمة فتتناول أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطة البحث، ومنهجي فيه، والدراسات السابقة عليه، وفي التمهيد تحدثت عن: بلاد الهند وجغرافيتها.

حالة الهند السياسية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.
حالة اللغة العربية وآدابها في الهند.

أما الفصول الثلاثة فهي كما يأتي:

الفصل الأول : أشهر شعراء القرنين وأهم العوامل المؤثرة في شعرهم.
ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: أشهر شعراء القرنين.
المبحث الثاني: أهم العوامل المؤثرة في شعرهم.

الفصل الثاني : أغراض الشعر العربي في الهند.
ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: الدعوة الإسلامية.
وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: شعر العقيدة الإسلامية.
المطلب الثاني: شعر الزهد.
المطلب الثالث: شعر التأسف على ما آل إليه حال المسلمين والدعوة إلى استنهاض الهمم.
المطلب الرابع: شعر الجهاد في سبيل الله.

المبحث الثاني: المدح.
ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: المديح النبوي.
المطلب الثاني: مدح الخلفاء والولاة.
المطلب الثالث: مدح الشخصيات الإسلامية والعلماء والأساتذة.

المبحث الثالث: الرثاء
ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: رثاء العظماء
المطلب الثاني: رثاء الأقارب

المبحث الرابع: الغزل
المبحث الخامس: الإخوانيات
المبحث السادس: المناسبات
ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: المناسبات السياسية

المطلب الثاني: المناسبات الثقافية والاجتماعية
الفصل الثالث : الخصائص الفنية للشعر العربي في الهند

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: خصائص الشكل

ويشتمل على أربعة مطالب:

المطلب الأول: الألفاظ والتراكيب

المطلب الثاني: الصورة الفنية

المطلب الثالث: موسيقى الشعر

المطلب الرابع: بناء القصيدة

المبحث الثاني: خصائص المضمون

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: المعاني والأفكار

المطلب الثاني: التجربة الشعرية

أما الخاتمة فبينت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

وفي الفهارس ذكرت أربع فهارس:

الفهرس الأول: فهرس الآيات القرآنية

الفهرس الثاني: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.

الفهرس الثالث: فهرس المصادر والمراجع.

الفهرس الرابع: فهرس الموضوعات.

— وكان منهجي في هذا البحث يقوم على جمع المادة العلمية من مصادرها، مستخدماً في دراستها المنهج الفني التكاملي الذي يفيد من جميع المناهج النقدية، ويتخذ من النص الشعري مجالاً للتأمل والحديث، يتذوقه ويلتحم معه، ويسبر أغواره ويستكنه العلاقة التي تربطه بصاحبه، مع الاستعانة بتلك المؤثرات التي تعين على فهم النص، وقد راعيت في منهجي وتناولي لهذا الموضوع الخطوات التالية:

عزوت الآيات القرآنية إلى سورها مع ذكر أرقامها.

خرجت الأحاديث النبوية الشريفة من مصادرها الأصلية.

اخترت من بين النصوص الكثيرة تلك النصوص التي رأيتها أنسب للمقام.

اضطرت إلى ابتسار بعض النصوص، وإيرادها مكررة أحياناً في عدة مواضع من البحث، وذلك لدلالات عدّة وفي سياقات مختلفة.

اعتمدت على المصادر الأصلية في استيفاء المعلومات ما أمكنني ذلك. ضبطت الكلمات التي تحتاج إلى الضبط.

أشرت في الهامش إلى الأخطاء التي وجدت في بعض النصوص، كما أشرت فيه أيضاً إلى ما وجد من اختلاف في النص الواحد بين المصادر المتعددة. ترجمت في الهامش للشعراء الذين أوردت نصوصهم في أثناء الدراسة، باستثناء عدد قليل منهم، حيث لم أجد المصادر التي تمدني بمعلومات عنهم. عرفت بالأماكن التي رأيتها تحتاج إلى التعريف.

وقد استندت في إنجاز هذا البحث إلى مصادر متنوعة تتمثل في الدواوين والمجاميع الشعرية، وكتب التاريخ والتراجم، والرسائل والمخطوطات، والمجلات والدوريات، وهذه المصادر والمراجع تتوزع على أربع لغات: العربية، والأردية، والفارسية، والإنجليزية.

وكان «كتاب الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» المسمى بـ «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للعلامة الشريف عبد الحي الحسني، من المصادر التي استقيت منها معلومات كثيرة في مواضع متفرقة من الرسالة؛ لما يشتمل على ذكر عدد كبير من أعيان الهند من الأدباء والعلماء والزعماء؛ ولأنه يحتوي على قدر كبير من النصوص الشعرية المختارة، رفيعة المستوى، وبليغة الأسلوب؛ لما كان يتمتع به صاحبه من ذوق وحس مرهفين، ومكانة أدبية مرموقة، وكانت كتب النقد القديمة والحديثة أيضاً معينة لي في إجراء الدراسة الفنية حول النصوص الشعرية.

— ولم أجد — حسب علمي وإطلاعي — أي دراسة لا في اللغة العربية ولا في غيرها، تخصّ الشعر العربي في الهند في هذه الفترة، على وجه التحديد، بيد أن هناك دراسات تناولت الموضوع من بعيد على وجه العموم، ومن أهمها وأقدمها:

«هندوستان كي عربي شاعري» أي (الشعر العربي في الهند) نال بها صاحبها د. حامد عليخان شهادة الدكتوراه من قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة عليكره، وقد تناول الباحث في رسالته هذه الشعر العربي في الهند من القرن الأول الهجري إلى سنة أربعين وتسع مائة وألف للميلاد، وهذه الرسالة إلى كونها معجم الشعراء أقرب

منها إلى الدراسة الموضوعية الفنية؛ لأن الدراسة الفنية فيها لم تعدّ خمساً وستين صفحة من بين خمس وخمسين وأربعمئة صفحة مكتوبة باليد، وموزعة على النحو التالي: من (ص ٣٠٩) إلى (ص ٣٣٣)، دراسة موضوعات الشعر العربي في الهند ولغته وعروضه، ومن (٣٣٤) إلى (٣٥٧) أثر البيئة الهندية في هذا الشعر، ومن (٣٥٨) إلى (٣٧٥) قيمة هذا الشعر، أما الصفحات الباقية من الرسالة فكلها مختصة بذكر تراجم موجزة للشعراء، مع إيراد نموذج موجز أو اثنين من شعر كل منهم. ولكن هذا الباحث له فضل السبق؛ فهو الرائد في دراسة الشعر العربي في الهند، وقد أفادني كثيراً في الدلالة على مظان الشعر ومراجعته.

«الشعر العربي في كيرالا، مبدؤه وتطوره»، د. ويران محيي الدين الفاروقي، نال بها صاحبها شهادة الدكتوراه من جامعة كاليكوت، وهي كسابقتها تقريباً من حيث المدة الزمنية، فقد تناولت الشعر العربي في «ولاية كيرالا» فقط من القرن الأول إلى سنة ألفين للميلاد، وجاءت أيضاً خالية من دراسة فنية، كما وجدت دراسات تناولت الأدب العربي في إقليم معين من أقاليم الهند^(١) أو في مدرسة معينة فيها^(٢)، أو لدى عَلم معين من أعلام الهند^(٣) لكن هذه الدراسات في مجملها قد لوحظ فيها ما يأتي:

١ - أنها استخدمت كلمة «الأدب» بمعنى الثقافة كما فعل الدكتور زبيد أحمد في كتابه «الآداب العربية في شبه القارة الهندية».

٢ - أن هؤلاء الدارسين قد خصصوا للشعر قسماً من دراساتهم، لكن أكثرهم يكتفون بذكر أبيات من مصادرها، وقد يعلقون عليها أحياناً تعليقاً عابراً، مكتفين بذلك عن الدراسة العميقة.

وقد استفدت من بعض هذه الدراسات في الوصول إلى مراجع المادة ومظانها. وبناءً على ما تقدم أرى أن رسالتي هذه يمكن أن تكون أول عمل منهجي يتناول

١ - «بیسویں صدی میں یوپی میں عربی ادب» أي (الأدب العربي في إقليم أترابرايش في القرن العشرين). د. أطر حسين، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره، سنة ١٩٩٤م، «حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر». د. جميل أحمد، جامعة دمشق.

٢ - «مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي حتى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م». د. زبير أحمد الفاروقي، الجامعة المليية الإسلامية بدلهي.

٣ - «عربي أدب میں سید سلیمان ندوی کی خدمات» أي (جهود السيد سليمان الندوي في خدمة أدب اللغة العربية). د. سطوت ريجانه، قسم اللغة العربية، جامعة عليكره.

الشعر العربي في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين بدراسة موضوعية فنية.

هذا، وأشكر الله الكريم المنان على نعمة الإسلام، وأن وفقني لطلب العلم في مدينة المصطفى ﷺ كما أشكر جميع من أعانني على طلب العلم وعلى رأسهم الوالدان الكريمان والأساتذة الأفاضل، والقائمون بمؤسسات التعليم، وأخص بالشكر جامعتنا العريقة التي شرفها الله تعالى بقيامها في مهبط الوحي، ومهاجر رسول الله ﷺ، فاشكر جميع القائمين عليها، وأساتذتها الأجلاء، وأزجي أسمى آيات الشكر والامتنان إلى جميع أساتذة كلية اللغة العربية وعميدها ورئيس قسم الأدب والبلاغة الذين يبذلون كل غال ونفيس في تثقيف أبنائهم، إذ أتاحوا لي فرصة مواصلة الدراسات العليا، وأرى نفسي مدينة بالشكر لأساتذتي الأفاضل المشرفين على الرسالة الدكتور عبد الله الطرازي حفظه الله الذي أشرف عليّ طوال هذه الرحلة العلمية الممتعة النافعة، والدكتور حسن عبد السلام حفظه الله الذي غرس بذور هذا البحث ورعاه حتى قام على سوقه، والدكتور محمد عبد الجواد الفاضل الذي أنعم الله عليّ بإتمام البحث تحت إشرافه، فلولا توجيهات هؤلاء الجهابذة الكرام لم يكن من الممكن أن يخرج العمل بهذه الصورة الأنيقة، فجزاهم الله خير ما يجزي عباده الصالحين، وبارك فيهم، كما لا يفوتني أن أشكر جميع من ساعدوني في إنجاز هذا البحث بإعارة كتاب، أو توجيه رأي أو غيره وأرجو لهم حسن المثوبة، وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يرزقنا الإخلاص في كل قول وعمل، وأن يجنبنا طريق الضلال، وأن يثبتنا على الصراط المستقيم، إنه خير هادٍ وأكرم مسئول، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



التمهيد

بلاد الهند وجغرافيتها

الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين - اللذين هما حقبة الدرس - كانت تطلق على شبه القارة الهندية، وهي تضم في الوقت الراهن ثلاث جمهوريات: الهند، وباكستان، وبنغلاديش. والمقصود بالهند في عنوان الرسالة هو شبه القارة الهندية كلها. وتحتها شمالاً جبال «الهمالايا» الفاصلة بينها وبين بلاد «التبت»، وجنوباً المحيط الهندي، وشرقاً جبال آسام، وغرباً جبال «الهندوكوش».

ويلاحظ الدكتور جمال حمدان أن أهم ما يميز جغرافية الهند هو العزلة الجغرافية الكبيرة^(١)، إذ تنفصل الهند عن بقية بلاد آسيا بحاجز من الجبال الشاهقة، منها «همالية» التي تفصلها عن الصين، وتعد أعلى جبال العالم إذ تصل أكثر قممها ارتفاعاً إلى علو ٨٨٨٨ م. وجبل «قراقرم» في كشمير، ومنها جبال «سليمان» التي تفصلها عن بلاد الأفغان، وفي هذه الأخيرة ممرات تصل بين الهند وأفغانستان، وأشهرها ممر «خير» وممر «بولان». ومن هذه الممرات دخل الفاتحون، وعبر المستوطنون، وسلك طرقها النازحون والمهاجرون.

١ - تاريخ الهند الحديث، د. عادل حسن نعيم ود. عبد الرحيم عبد الرحمن، ص ١٣، مكتبة الخانجي بمصر، ط ١، ١٩٨٠ م (بتصرف).

وفي جنوب هذه الجبال تنفرج سهول واسعة تمتدّ من الغرب إلى الشرق بطول ٣٥٠٠ كم من البحر العربي إلى خليج البنغال ، ويتراوح عرضها بين ٣٥٠-٥٠٠ كم. وتنقسم هذه السهول بهضبة قليلة الارتفاع تقع إلى الغرب من مدينة «دهلي» أو أن هذه المدينة تقع على سفوح الهضبة الشرقية، وتنقسم السهول إلى قسمين: يجري في الجزء الغربي نهر السند، ويجري في القسم الشرقي نهر «الكنج» وفيه تكثر الأمطار الموسمية فتزداد الفيضانات، وتحدث النكبات بالأرض والسكان.

وفي جنوب هذه السهول يمتدّ شبه جزيرة ذات صخور قديمة على شكل مثلث قاعدته في الشمال ورأسه في الجنوب، ويعد «رأس كماري»^(١) نهاية شبه الجزيرة التي تكوّن هضبة تعرف باسم هضبة «الدكن» ويبلغ معدل ارتفاعها ١٠٠٠ م وترتفع عن السهول الساحلية على شكل درجات تعرف باسم «الغهاات»^(٢) أي: السلام، ويعرف الرابط الساحلي الضيق في الغرب باسم «مالابار»^(٣)، وفي الشرق باسم «كورومندل»^(٤)، وتنحدر الأنهار من الهضبة نحو الغرب ونحو الشرق، وتكون قصيرة نسبياً وغير منتظمة الجريان. تعد هذه المنطقة من البلاد الحارّة إذ تمتدّ بين خطّي عرض ٨-٣٧ شمالاً، وتغزر الأمطار الصيفية فيها بسبب الرياح الموسمية حتى لتُعدّ من أغزر بلدان العالم وبخاصة على سفوح جبال «الهمالايا»، وأما فصل الشتاء فيكون جافاً، وتعد صحراء «تهر» الواقعة في الغرب عن مدار السرطان أكثر المناطق جفافاً. وفي نهاية الشهر الجاف ترتفع الحرارة وتزداد حتى تبدأ الأمطار في الانهيار في فصل الصيف، وتحميها الجبال الشمالية من الرياح الآسيوية الباردة^(٥).

وأهم مدن الهند: بشاور، ولاهور، وملتان، وكراتشي، وتقع الآن في باكستان ودكا، وجايطكام، وتقعان في بنغلاديش، ودلهي ولكهنؤ، وكلكتة، وبومباي، ومدراس، وحيدرآباد، وبتنة، وبهوفال، وأحمدآباد، وبنجلور وغيرها وتقع في الهند^(٦).

١- وتعرف الآن باسم «كُنْيَا كماري» Kanya Kumari .

٢- ك يرمز هذا الحرف إلى الكاف المجهورة، ونطقها كالكاف باللهجات السعودية المعاصرة.

٣- وتعرف الآن باسم «كيرلا» Kerala .

٤- قد انقسم الآن بين ولايتي «تامل نادو» و «آندهرابديش».

٥- تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، إعداد: د. إسماعيل أحمد ياغي، والشيخ محمود شاكر ص ٣١٦-٣١٧. مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٩ هـ.

٦- للاستزادة في الموضوع ينظر: الهند في العهد الإسلامي، للشريف عبد الحي الحسني. ص ٣١. ط ١٢٣. دار عرفات رائي بريلي، الهند. ١٤٢٢ هـ.

حالة الهند السياسية

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

إن مما لاحظته الباحثون في تاريخ الهند القديمة والحديثة أن الهند وإن جمعتها الوحدة الاسمية فهي بلاد كثيرة، مختلفة باختلاف أقطارها، ومختلفة باختلاف أصول سكّانها، قديماً وحديثاً، ومختلفة باختلاف عقائد أهلها وتفكيرهم.

هذا بالإضافة إلى أن هذه البلاد لم تكن في يوم من الأيام بلداً واحداً بكل معنى الكلمة، ولا كانت تحت سيطرة حكومة مركزية واحدة^(١)، بل كان هناك عشرات من الوحدات السياسية المستقلة^(٢) ولم تجتمع الهند تحت تاج واحد إلا زمن الإمبراطوريات الإسلامية التي حكمت الهند وخاصة المغولية، وزمن الإمبراطورية الإنجليزية، إذ كانت السلطة المركزية تسيطر على الهند كلها مع وجود إمارات مستقلة استقلالاً داخلياً يتسع أو يضيق^(٣).

وتدل المعلومات التي بين أيدينا على أن أهل الهند الأصليين يرجعون في أصولهم إلى أصول سكان سوماطرة وأستراليا ونيوزيلاندا، ويغلب على الظن أنهم كانوا يعيشون حياة بدائية، ثم جاء الدرافيديون فاتحين، فاستولوا على شملها. وزحزحوا أهلها عنها. ففرّ من فرّ منهم إلى الجنوب - وأحفاد هؤلاء لا يزالون موجودين في جنوب الهند حتى يومنا هذا - واندمج من بقي في الشعب الفاتح، وانصهروا فيه وانصهر فيهم، حتى أصبحوا أمة واحدة، وأنشأوا مدينة ذات شأن كبير، عاشت ثلاثة آلاف سنة، ثم انقرضت بمجيء الآريين.

ويرجح العلماء أن استيلاء الآريين على الهند كان في بدء الألف الثانية قبل الميلاد، وقد أصاب الدرافيديين من جرّاء هذا الفتح ما أصاب أهل الهند الأصليين من قبل، إذ فرّ فريق منهم، من وجه الفاتح إلى الجنوب، وبقي آخرون فانصهروا في الآريين، وكان استيلاء الآريين على شمال الهند، وأسسوا فيه مدينة عظيمة وأقاموا هناك ستّ عشرة

١ - تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، إحسان حقّي، ص ٨، مؤسسة الرسالة بيروت، ط أولى، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م (بتصرف).

٢ - تاريخ الهند الحديث، ص ١٩، (بتصرف).

٣ - تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص ٩ (بتصرف).

إمارة أعظمها شأنًا وأكبرها أهمية إمارة مكده^(١) التي قضى عليها التتر في نهاية القرن الخامس الميلادي، ثم ظهرت إمارات كثيرة منها إمارة السند التي فتحها المسلمون بقيادة محمد بن قاسم الثقفي الذي انتزعها من يد واليها «داهر» سنة ٧١٢م أيام الوليد بن عبد الملك الأموي، وبهذا أصبحت السند تابعة للخلافة الأموية في دمشق.

ثم امتدت الفتوحات الإسلامية في الهند على يد الغزنويين ابتداء من القرن الرابع الهجري. فقد بدأت غزوات الأتراك من أفغانستان إلى شمال الهند عندما وصلت قوات السلطان محمد الغزنوي عام ١٠٠١م. وقد قام هذا السلطان بسبع عشرة غزوة واستطاع أن يتوغل في قلب السهول الهندية على الرغم من المقاومة الهندوكية الشديدة، وأن يقيم حكمًا إسلاميًا في مناطق شبه الجزيرة الهندية.

لكن النفوذ الإسلامي لم يتوطّد في الهند إلا في أواخر القرن الثاني عشر على يد الدولة الغورية عندما تمكّن قطب الدين أيبك من الاستيلاء على المناطق الهندية شمال مرتفعات فنديا، ودخل دهلي عام ١١٩٣م، واستمرت الدولة الغورية في الهند حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي عندما سيطر المماليك على مقاليد الحكم ما يقرب من قرن من الزمان، ثم تبعهم الأمراء الخلجيون (١٢٩٠-١٣٢١م)، ثم دولة آل تغلق (١٣٢١-١٤٢١م) التي حدثت في نهايتها غزوة تيمورلنك للهند سقطت خلالها مدينة دهلي في يد القوات التيمورية عام ١٤١٤م، وكانت هذه الغزوة العامل الرئيس في تفكك دولة تغلق إلى عدة ولايات يخضع كل منها لإحدى الأسر الإسلامية الحاكمة، وهيأت تلك الأوضاع السياسية المتفسخة الفرصة لظهير الدين محمد بابر كي يندفع بقواته إلى شمال الهند ليستولي على دهلي ويؤسس الدولة المغولية التي تعدّ أكبر وأهمّ دولة إسلامية عرفتها الهند في تاريخها الطويل.

وكان أهم غزوات بابر للهند سنة ١٥٢٦م في وقعة باني بت^(٢) حيث لقي ملك الأفغان السلطان إبراهيم لودهي واقتتل الفريقان، فسحق الجيش الهندي، وقتل السلطان إبراهيم في هذه المعركة التي كانت حاسمة في تاريخ الهند، إذ سار بابر بعدها حتى دخل دهلي من غير أن يلقي مقاومة. وبعد معارك حاسمة مع القوى المناوئة

١ - مملكة قديمة في الهند، كانت تقع في ولاية بهار الحالية، وكانت نواة لممالك وإمبراطوريات كثيرة (الموسوعة البريطانية مادة: Encyclopedia of Britanica Magadha).

٢ - اسم مدينة، تقع الآن في ولاية «هريانه».

من كل من الأفغان وملوك راجبوتانة^(١) استطاع بابر أن يوطد سلطانه في الهند، ويضع أساساً قوياً لإمبراطورية مترامية الأطراف خلال خمس سنوات فقط.

ولما مات بابر سنة ١٥٣٠م خلفه ابنه همايون، وفتح أكثر بلاد الهند، ثم خرج عليه شير شاه وقاتله أشد القتال، فانهزم همايون على يده، ولم يبق معه إلا القليل فقصد عراق العجم، والتجأ إلى طهماسب شاه الإيراني فاستقبله طهماسب باحترام لا مزيد عليه، فأقام عنده مدة، ثم قصد الهند، وفتح قندهار^(٢) وكابل^(٣) وجمع أسباب السلطة، ورجع إلى الهند، وكانت مدة خروجه من الهند نحو ١٣ سنة.

استقل شير شاه بالملك حوالي خمس سنوات، وكان من أحسن ملوك الهند، أدخل إصلاحات كثيرة في النظام الإداري، واهتم بمجال الزراعة وأحوال الفلاحين، كما وحد الأحكام والنظم، وأدخل إصلاحات كثيرة على النقد والمحاكم والبريد، وكان عصره عصر ازدهار وقوة للهند، ولما مات سنة ١٥٤٥م خلفه ابنه إسلام شاه (١٥٤٥ - ١٥٥٤م) ثم محمد عادل شاه (١٥٥٤ - ١٥٥٦م) ثم اسکندر شاه.

ولم يكن خلفاء شير شاه - على الرغم من قوة بعضهم - قادرين على الحفاظ على قوة الدولة وتماسكها مما شجع همايون على استعادة ملكه المفقود.

وإذا كان همايون قد استطاع أن يرى الهند ثانية وأن يدخلها فاتحاً منصوراً بعد أن فر منها خائفاً يترقب، فإنه لم يستطع بأن ينعم بهذا النصر إذ سقط سنة ١٥٥٥م - قضاءً وقدرًا - من الطابق الأول في قصره إلى الأرض فمات، وخلفه ابنه جلال الدين وتلقب بـ «أكبر» وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره، وبالنظر إلى صغر سنّه فقد تولّى إدارة الملك القائد الحازم الأمين «بيرم خان» نيابةً عن الملك^(٤).

وكان أكبر رحيماً، لطيف المعاشرة، ظريف المحاضرة، شجاعاً مقداماً، محظوظاً جداً، حتى كان لا يقصد باباً مغلقاً إلا انفتح، ولا يقدم على أمر مبهم إلا اتضح، ولا يتوجه إلى مطلب إلا نجح، وهو أول من أظهر بالهند هيبة الملك بسعده، وأسس قواعد السلطة

١ - مجموعة إمارات، كانت تقع فيما يعرف الآن باسم راجستهان، وتعني كلمة راجبوتانا: أرض الراجبوت (الموسوعة البريطانية Rajputana).

٢ - اسم مدينة في أفغانستان.

٣ - اسم مدينة في أفغانستان.

٤ - تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، د. إحسان حق، ص ١٤١.

بعد الخلجي، والسوري، ومهدا لمن بعده، واجتمع لديه من أهل السيف والقلم ما لم يجتمع عند غيره بعد الخلفاء العباسيين، وفي أيامه فتحت بلاد كشمير، وبلاد السند، وبلاد البنغال، وبلاد كجرات، ومالوة، وبرهانپور، وغيرها. وأصبحت الهند خلال حكمه أغنى دول القارة الآسيوية وأكثرها هدوءاً واستقراراً، وذكر أغلب المؤرخين أنه أنشأ ديناً جديداً يسمى بالدين الإلهي، وكان يرى أن نبوة محمد ﷺ ودينه كانا لمدة ألف سنة، ولذا أنشأ هذا الدين للألفية الثانية، مات سنة أربع عشرة وألف للهجرة، وكانت مدة حكمه إحدى وخمسين سنة.

وبعد وفاة أكبر ولي ابنه سليم ولقب نفسه «جهانكير» واستمر في الحكم ٢٢ سنة حتى توفي سنة ١٠٣٧ هـ.

وبعد وفاة جهانكير ولي ابنه شهاب الدين محمد شاهجهان السلطة وافتتح بالعدل والسخاء والكرم، ورفع سجدة التحية التي اخترعها جدّه أكبر، وأزال المظالم عن البلاد وعمّرها، وأخذ الفتنة والبدعة وأسس المساجد والرباطات. وكان عصره أحسن الأعصار وزمانه أنضر الأزمنة.

وبعد أكثر من ثلاثين سنة حكم خلالها شبه القارة الهندية، وبعد سجل حافل بالفتوحات والتحسينات الإدارية، وما امتاز به عصره من الرقي والازدهار في العمارة الإسلامية وتشييد المباني أقعده ابنه أورنكزيب سنة ١٦٥٨ م بقصر الإمارة بأكبر آباد (آكرا) ليستريح، فعاش بعد ذلك عشر سنين وتوفي سنة ١٠٧٨ هـ.

تولى أورنك زيب عرش الدولة المغولية سنة ١٦٥٨ م بعد صراع كبير دار بينه وبين إخوته الثلاثة حول تولي العرش، وافتتح أمره بالعدل والإحسان، واعتنى بإقامة الجمع والجماعات، وإعلاء الشرع والدين، وفصل القضايا على وفق الشريعة الإسلامية، وأمر العلماء بتدوين الفقه، حتى جمعت بأمره «الفتاوى الهندية»، وأبطل المكوس والمظالم عن المسلمين، ونصب الجزية على الكفار - بعد أن لم تكن - وأقام دولة العلم، وبالع في تعظيم أهله، وفتح الفتوحات العظيمة، ووسّع ملكه حتى بلغت حدود ملكه في الجهة الشرقية إلى «بوري»^(١) في منتهى «أريسه»، وفي الجهة الغربية إلى «سومنا» على شاطئ بحر الهند، وفي الجهة الشمالية إلى «خيوة أو بخاري» وفي الجهة الجنوبية إلى المحيط الهندي.

١ - اسم مدينة مقدسة لدى الهندوس.

مات على فراشه سنة ١١١٨ هـ وعمره تسعون سنة، ومدة ملكه خمسون سنة^(١). ومما يؤسف له أن هذا الإمبراطور كان آخر إمبراطور قوي من بني أباطرة المغول المسلمين، فقد جاء بعده خلفاء ضعاف لم يكونوا في مثل قوته وحزمه وتديره، فأخذت الدولة الإسلامية تنهوى من فوق القمة التي أقعدها فوقها. وبدأت رقعتها الواسعة تنقص شيئاً فشيئاً، ويستقل هنا أو هناك أمير بحكم ولايته، وتتاح الفرصة لبعض الأمراء الهندوس والسيخ ليجمعوا الجيوش ويشنوا حرباً على الدولة الإسلامية، ويقطعوا لهم من جسمها الكبير ولايات يحكمونها، ويتمكن الفرس والأفغان من غزو الهند وإحداث مجزرة عظيمة في دلهي تضرب بها المثل، والاستيلاء على مناطق مختلفة، والملوك المسلمون في دلهي يضعفون شيئاً فشيئاً، وينحسر نفوذهم وينكمش حتى لم يعد لهم مع الأسف سلطان ولا نفوذ^(٢).

الهند والاستعمار البريطاني

في الوقت الذي كان المغول يحتاجون الهند من الشمال الغربي كان القراصنة الأوربيون ينزلون على السواحل الهندية، ويقومون بهجمة صليبية على المسلمين. فبعد ما طرد النصاري البرتغاليون والأسبان المسلمين من الأندلس، وضعوا مخططاً لمتابعة المسلمين ومطاردتهم والالتفاف عليهم من الجنوب والشرق لإمكانية تطويقهم. وحسب هذا المخطط كان على البرتغاليين أن يتجهوا إلى جنوب بلاد المسلمين، فانطلقوا في المحيط الأطلسي فعرفوا رأس الرجاء الصالح، والتفوا حول إفريقيا عام ٩٠٣ هـ وبعد عام وصلوا إلى الهند، ونزلوا على ساحلها الغربي، واستولوا على «غوا»^(٣) التي غدت منذ عام ٩٣٧ هـ (١٥٣١ م) عاصمة الهند البرتغالية. وظهرت محاكم التفتيش في هذه المدينة على النحو الذي حدث في الأندلس، ولم تكن طلائع الصليبيين لتدخل إلى الداخل وإنما تكتفي بالمراكز الساحلية، إذ كانت على خوف من المسلمين.

وبعد أن كانت أوروبا تدعم الأسبان والبرتغال في قتال المسلمين وملاحقتهم لأسباب

١ - الهند في العهد الإسلامي، ص ١٨٥-١٨٩ بتصرف.

٢ - كفاح المسلمين في تحرير الهند، د. عبد المنعم النمر، ص ٢٠-٢١، مكتبة وهبة بمصر، ١٣٨٤ هـ.

٣ - مدينة على الساحل الغربي للهند، وما زال يكثر فيها النصاري، وهي منطقة شهيرة لجمال طبيعتها، وفساد سكانها، وانتشار الخمر والقبائح فيها إلى الآن.

عدائية أو صليبية محضة بدأت دولها المتعددة تنافسهم وتحسد لهم لما حصلوا عليه من غنى وثروات، فقد استطاع الهولنديون القضاء على نفوذ البرتغاليين في ساحل «مالابار» واتبعوا سياسة احتكارية ارتكبوا في سبيلها أبشع الجرائم وأحسّ الأساليب^(١).

وفي بداية القرن السابع عشر الميلادي دخل البريطانيون في هذه الحلبة ينافسون الهولنديين في تجارة الهند وأسسوا شركة الهند الشرقية الإنجليزية. وبدأت هذه الشركة تسعى ما أمكنها السعي حينذاك لتحظى بالمقام الأوّل في الحصول على مركز تجاري يتيح لها مكسباً تجارياً في محصولات الهند التي كانت تصدرها إلى أوروبا، وكان الأباطرة المغول في أوج قوتهم، فلا ينظرون إلى هؤلاء إلا نظرتهم لتاجر يريد أن يكسب مالاً من تجارته، لا أن يكسب أرضاً ويبسط نفوذاً، ولذلك تركوهم يتاجرون، وربما منحوهم بعض التسهيلات التجارية.

ولكن هؤلاء كانوا كالمرايبي الذي لا ينظر إلى فائدته الربوية بقدر ما يرمي من بعيد للحصول على الأرض والاستيلاء عليها. وكانت الشركات تعمل ومن ورائها حكوماتها التي تسعى إلى التوسع والاستعمار، وأتتها الفرصة حين ضعف الحكم الإسلامي، وتفككت وحدة البلاد، وانشغلت بحرب بعضها بعضاً، فبدأت هذه الشركات في دور جديد وهو دور بسط النفوذ على البلاد، وأخذت تتصارع على اللقمة الدسمة الكبيرة التي أمامها.

واستطاعت شركة الهند الإنجليزية أن تحظى بالمقام الأوّل في الهند حيث صارت لها مراكز تجارية كبيرة في كل من مدراس وبومباي وكلكتة، وحصلت على امتياز لتشييد القلاع والحصون وتحصين هذه المدن. وبدأت في بسط نفوذها عن طريق ضرب الولايات بعضها ببعض، وإعانة بعضهم على بعض مقابل تنازلات عن بعض مناطقها، حتى استولت على مدراس سنة ١٠٤٩هـ الموافق ١٦٩٣م.

وكان المسلمون الغياري يحاولون أن يوقفوا هذا السرطان الذي يسري في جسم البلاد دون جدوى.

فقام الأمير «سراج الدولة» في البنغال بالهجوم على حصونهم ليقضي عليهم ويريح البلاد من شرورهم سنة ١١٧٠هـ الموافق ١٧٥٨م، وكان من الممكن أن يحقق للبلاد ما

١- تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، د. إسماعيل أحمد ياغي والشيخ محمود شاكر، ١/ ٣٢١ بتصرف، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٩هـ.

تصبو إليه لولا خيانة بعض قواده فكانت نهاية هذه الحرب هزيمة المسلمين، ومن ثم إلقاء القبض على الأمير وقتله. وأتاحت هذه النهاية المؤلمة للنفوذ الإنجليزي أن يزداد في البنغال ويتخذ منها قاعدة للسيطرة على البلاد كلها^(١).

وفي عام ١٧٦٤م حارب الإنجليزي قاسم علي خان حاكم البنغال، وشجع الدولة أمير أوده، وشاه عالم ملك الهند المغولي، ولكن هزمهم الإنجليزي في «بكسر»^(٢) هزيمة فاحشة، وقبضوا على شاه عالم، ثم حصلوا منه على حق جباية ضرائب البنغال، وبهار، وأريسة، لقاء راتب قدره ٩٠٠٠٠ روبية سنوياً، يتقاضاه منهم، ولم يعد هو وأعقابهم إلا موظفين عند الشركة، ولم تكن أحكامهم تتجاوز قصرهم وهو القلعة الحمراء بدلهي.

وفي عام ١١٩٥هـ الموافق ١٧٨١م قام حيدر علي حاكم ميسور^(٣) للقضاء على النفوذ الإنجليزي، ثم جاء من بعده ابنه الباسل الشجاع فتح علي المعروف بـ «تیبو سلطان» وأخذ على عاتقه هذه المهمة، ودخل مع الانجليز في حروب عديدة، كاد يتم له فيها النصر لولا خيانة بعض قواده، وضعف نفوس بعض أمراء الولايات الذين استمالهم الإنجليزي، فهزم القائد الشجاع وخرّ شهيداً في المعركة وذلك في عام ١٧٩٩م. وتنفس الإنجليزي الصعداء واستراحوا من أقوى خصم لهم في الهند^(٤) كاد يقضي على كل آمالهم فيها، ولم يبق هناك من يستطيع الصمود أمام هذا النفوذ الإنجليزي وإن كانت هناك إمارات إسلامية وهندوكية لكن أغلبها كانت تابعة للاستعمار البريطاني، فانطلقوا بعد ذلك ينفذون المخطط الذي رسموه، ويستعجلون التهام اللقمة الناضجة^(٥).

ولم تمض على شهادة السلطان تيبو بضع وعشرون سنة إلا ونرى حركة شعبية أخرى تقوم في الجزء الشمالي الغربي للهند يترجمها السيدان الشهيدان والعلمان الشاخوان سليل بيت النبوة ورضيع لبان الشرف والعلم السيد أحمد بن عرفان وزميله وصاحبه قرّة عين بيت ولي الله ودرة تاجه الشيخ إسماعيل بن عبد الغني فحصلت في الهند بهذه

١ - كفاح المسلمين في تحرير الهند، د. عبد المنعم النمر، ص ٢١-٢٢.

٢ - اسم موضع في البنغال.

٣ - اسم مدينة في جنوب الهند، كانت عاصمة ملوك الهندوس، واستولى عليها حيدر علي بقوة شخصيته وحكته السياسية.

٤ - مما يدل على هبة السلطان تيبو في قلوب الإنجليز أنه لما بلغ القائد الإنجليزي هورس Horse شهادة السلطان حضر ووقف على جثته وقال: اليوم الهند لنا. ينظر المسلمون في الهند للشيخ أبي الحسن علي الندوي، ص ٨٣، وسيرة تيبو سلطان شهيد لمحمد إلياس الندوي).

٥ - كفاح المسلمين في تحرير الهند، ص ٢٣. بتصرف.

الدعوة المباركة نهضة دينية جديدة مستقيمة معتدلة سائرة على طريق الشريعة المستقيمة اخترقت السهول والجبال واجتازت العقبات والعراقيل حتى بلغت الحدود الشمالية الغربية واستقرت في كهوفها وشعابها وتغلغلت في مغاراتها وأوديتها، تدعو إلى الاعتصام بالكتاب والسنة والجهاد في سبيل الله، وكان هدفها من هذه الدعوة هو إقامة الجهاد على الوجه المشروع، وتنظيم جيش المسلمين على الطريق الأقوم، وكانا يسعيان لإجراء العمل بقانون الشرع وتنفيذ أحكام الله تعالى في معظم بلاد الهند بل في جميع أقطار العالم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله^(١).

فأعلنوا الجهاد الشرعي - بعد جمع العُدَّة والعَدَد - على السيخ Sikhs الطغاة الذين كانوا يعيشون في الأرض فساداً. ويتعاطون المنكرات من قتل النساء والعجزة وهتك الأعراض وسفك دماء الأبرياء من أبناء الإسلام وهتك حرمة المساجد وتعطيل شعائر الإسلام إلى غيرها مما جعلهم أعدى عدو للإسلام وأشد أعدائه بغضاً وأكثرهم خبثاً وعداءً للمسلمين في هذه البلاد في تلك الفترة الحرجة الشديدة.

واشتدت المعارك بعد سنة ١٢٤٢ هـ الموافق ١٨٢٧ م وبقيت الحرب سجالاً بين الفريقين أربع سنين اعترف خلالها العدو الغاشم بشدة بأسهم وصلابة قناتهم، ولكن خيانة بعض العشائر الأفغانية أدت إلى القضاء على هذه الدعوة المباركة واستشهد الإمامان وصفوة من خيار علماء المسلمين ورجالهم في أرض «بالاكوت»^(٢) بعد معركة حامية الوطيس.

وكان لهذه الدعوة المباركة والنهضة الإصلاحية والحركة الجهادية أثر عميق بارز ملموس في ثورة سنة ١٨٥٧ م وفي حياة المسلمين من النواحي العقيدية والاجتماعية ومازالت^(٣).

وتمكن الإنجليز في الفترة ١٨٤٦-١٨٤٨ م من ضم آخر الممالك الهندية المستقلة إلى نفوذهم وهي مملكة البنجاب وبذلك أصبحت ممتلكات شركة الهند الشرقية الإنجليزية تمتد من كشمير إلى رأس كماري ومن جبال هندوكوش إلى آسام.

وقد تم تسلط الإنجليز على أرض الهند - مع قلة عددهم وجنودهم - بقوة الأسلحة الحديثة، والتنظيم الجيد، وأهل الهند يومئذ في دور تقهقرهم وانحلال دولتهم وانقسام على أنفسهم، فوقعت هيبة الإنجليز في قلوبهم واحتملوا نيرهم مرغمين وفي نفوسهم

١ - ينظر كتاب سيرة سيد أحمد شهيد بالأردية للأستاذ أبي الحسن علي الحسيني الندوي، ص ١١٠-١١١.

٢ - موقعها الآن في مديرية «هزاره» من مقاطعة «سرحد» على تخوم ولاية كشمير الباكستانية، وهي كلها بلاد جبليّة.

٣ - تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، مسعود الندوي، ص ١٦٣-١٧٥، دار العربية (بيانات الشر غير موجودة في الكتاب).

غل عميق وفي قلوبهم كراهية شديدة، ولما رأى الإنجليز انقياد أهل الهند ازدادوا عتواً واستبداداً واستخفوا بذلك الشعب ملوكاً وعامةً وسوقة، وأهانوا معاملتهم ونهبوا خيرات البلاد وعادوا بها إلى وطنهم، ويضاف إلى ذلك تدخلهم في شؤون الشعب الدينية -مسلمين وهنادك- ومنعهم من ممارسة بعض طقوسهم، ومحاوله نشر النصرانية وتنصير أهل البلاد بالجبر والإكراه. فملئت البلاد بالغضب وانتشر الاضطراب وعمّ القلق في الجيش الحكومي المؤلف من الهنود.

فلما أقبلت سنة ١٨٥٦م أخذ أهل الهند يسعون في تدبير الوسائل لخلع ذلك النير، فألفوا عصابات سرية، وأصبحت نفوس الناس مضطربة تنتظر من يشعل فتيلها لتنفجر، فثارت الجنود -لأسباب هيأها الإنجليز أنفسهم- في مايو سنة ١٨٥٧م في ميرته^(١) وانتشرت الثورة في جميع أرجاء الهند انتشار النار في الهشيم، فكانت ثورة شعبية ساهم فيها المسلمون والهنادك سواءً بسواء. وتوجه الثوار إلى دلهي مقر الملك المغولي الأخير أبوظفر سراج الدين بهادر شاه وجعلوه قائداً للثورة، ورمزاً للوطنية الموحدة والكفاح الشعبي، ونادوا به ملكاً شرعياً للهند وخليفة آبائه ملوك الهند الصناديد المغول الأباطرة، وقاتل الثوار في كل بقعة من بقاع الهند تحت رايته وباسمه ناظرين له زعيماً للجهاد الديني والوطني، وينظرون إلى دلهي عاصمة الحكومة الهندية.

ورأى الإنجليز أن يقضوا على رأس الثورة في دلهي ليقضوا على آمال الثوار فيها ثم يتجهوا إلى النواحي الثائرة، وهكذا كان، فقد استولى الإنجليز من جديد على زمام الأمور في دلهي ولكهنو وكانفور وغيرها من المدن الرئيسية التي كانت المقاومة فيها قوية ومنظمة، وظلوا بعد ذلك نحو سنتين وهم يقاتلون الهنود في كل مكان حتى أعادوا فتح الهند من جديد وقضوا على جذور الثورة، وقد رافقت أعمالهم العسكرية أعمال انتقامية وحشية لا نستطيع تبريرها إلا بأنهم كانوا في حالة حرب مع عدو، والحرب -حينما تخرج عن الإطار الإسلامي- لا تعرف قانوناً، ولا ترعى محظوراً، ولا تقيم للاعتبارات الإنسانية وزناً. وقد صبوا جام غضبهم على أهل دلهي ولكهنو ومدن كبيرة أخرى رأوا أنها مراكز للثورة، وصاروا يأخذون الناس بالشبهات فساقوا آفاً من الناس إلى المحاكم التي حكمت عليهم بالموت بعد أن عذبوهم عذاباً أليماً.

١ - بلدة في غرب دلهي على بعد أربعين ميلاً.

يقول أحد المؤرخين الإنجليز: «إن ما ارتكبه جنودنا من ظلم ووحشية ومن حرق وتقتيل لا نجد له مثيلاً في أي عصر ومصر»^(١).

وكتب جون لورنس الحاكم الإنجليزي المشهور في ديسمبر ١٨٥٧م إلى القائد الإنجليزي: «أعتقد أن الطريقة التي انتهبنا بها جميع الطبقات من غير تمييز بينها ستصب علينا السخط العام، وستصب علينا اللعنات إلى الأبد، وإننا نستحق ذلك».

وكانت المجزرة شعبية وطنية عامة ولكن لما كان للمسلمين النصيب الأكبر في القيادة والتوجيه وكان منهم العدد الأوفر والأهم من القادة والزعماء مثل الشيخ مولانا أحمد الله ومولانا لياقت علي، والجنرال بخت خان، والحاج إمداد الله التهانوي، ومولانا محمد قاسم النانوتوي، ومولانا رشيد أحمد الكنكوهي، والحافظ محمد ضامن شهيد وغيرهم، ولما كان الإنجليز يرون أنها ثورة إسلامية، وأن المسلمين هم أصحاب فكرتها كان المسلمون بصفة خاصة هدف هذه الإهانات والفتك الذريع.

يقول أحد المؤرخين المعاصرين: «قد كان شعار بعض رؤساء الإنجليز أنهم كانوا يعتبرون كل مسلم ثائراً، وكانوا يسألون الرجل أ هندوكي أنت أم مسلم؟ فإذا قال مسلم، قتلوه بالرصاص»^(٢).

ويقول آخر: «إن سبعة وعشرين ألفاً من المسلمين قتلوا شنقاً، واستمرت المجزرة سبعة أيام متواليات لا يحصى من قتل فيها، أما السلالة التيمورية فقد حاول الإنجليز أن يستأصلوا شأفتها فقتلوا حتى الصبيان، وعاملوا النساء معاملة همجية تقشعر منها الجلود»^(٣).

ويقول قائد قواد الجيوش الإنجليزية اللورد روبرتس Lord Roberts: «إن هدفنا أن نثبت للمسلمين الأشرار أن الإنجليز لا يزالون - بنصر الله - سادة الهند»^(٤).

وهكذا أخفقت هذه الثورة الهائلة ولو كتب لها النجاح لغيرت مجرى السياسة العالمية، ولكن كل شيء بقدر.

وعلى إثر هذه الثورة نفى الملك المغولي بهادر شاه ظفر إلى «رنجون» في بورما حيث بقي مسجوناً إلى أن لقي ربه سنة ١٨٥٨م ودفن بأرضها. وكان ذلك إعلاناً بالقضاء على

١ - تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص ٣٠٢.

٢ - المسلمون في الهند ص ٨٨.

٣ - المصدر السابق، ص ٨٢-٩٠.

٤ - المسلمون في الهند، ص ٨٢-٩٠.

الدولة الإسلامية في الهند ما عدا بعض الإمارات التي بقيت تابعة للهند إلى الاستقلال. وأعلنت الملكة فيكتوريا ضم الهند إلى التاج البريطاني مباشرة وانتهى حكم الشركة المشؤم.

ولما رأى المسلمون معاملة الإنجليز لهم -بعد الثورة- وسياستهم بإضعاف المسلمين سياسياً واقتصادياً بمصادرة أملاكهم وأوقافهم ومحاكمة زعمائهم وعلماهم والحكم عليهم بالإعدام أو النفي أو السجن، وكان أهم ما يقض مضاجع المسلمين هو خوفهم على دينهم إذ رأوا المحتل يركز حربته ضد هذا الدين فأكثر من فتح المدارس الحديثة، وساند المبشرين بقوته. فرأى بعض المفكرين من المسلمين أن سلطانهم وإن ضاع منهم فإنهم يستطيعون أن يبذلوا من نفوسهم ومن أموالهم ما يحفظون به دينهم حتى لا تكون نكبتهم في سلطانهم ودينهم معاً، وكانت الفكرة التي تستولي عليهم هي أن يربّوا شبابهم تربية بعيدة عن التيار الاستعماري الجديد، تربية مستقلة، تغرس فيهم روح الدين، وكرهية المستعمر، وتحفظهم من الانحلال والذوبان في الغرب وشخصيته. ولا سبيل إلى ذلك إلا بإنشاء مدارس دينية مستقلة في كل شيء عن الحكومة، فكانت أول مدرسة قامت على هذا الأساس مدرسة «دار العلوم» بديوبند^(١) على يد الشيخ محمد قاسم النانوتوي سنة ١٢٨٣هـ الموافق ١٨٦٧م ثم أنشئت على غرارها مدارس أخرى في طول الهند وعرضها، وكانت تدعو إلى مقاطعة الثقافة الإنجليزية بكل مظاهرها، وقد نتج عن هذه الروح أن قاطع المسلمون المتأثرون بالعلماء -وكثير ما هم- مدارس الحكومة بينما انصرف إليها غيرهم من الطوائف الأخرى وتعلموا فيها وتخرجوا ليتولوا الوظائف الحكومية الصغيرة. وسار ركب الحياة في الهند إبان العهد الأول من الاحتلال الإنجليزي على هذا الأساس، أكثرية غير مسلمة تتعاون مع المحتل، وتقبل على مدارس ووظائفه، وأقلية مسلمة تحجم عن هذا التعاون بل وتحاربه، وتلاقت نتائج هذه الفكرة مع فكرة الإنجليز العدائية للمسلمين ورغبتهم في قتلهم عملياً ومالياً وإبعادهم عن الحياة العامة.

وقد هالت هذه الحالة نفراً من المسلمين الذين لا ينظرون إلى الإنجليز وثقافتهم النظرة العدائية التي يحملها العلماء المجاهدون ومن سار على فكرتهم، ورأوا أن النتيجة الطبيعية لنظرية العلماء هذه أن يتأخر المسلمون عن ركب الثقافة الحديثة، بينما يتقدم غيرهم من

١- بلدة تقع شمال دلهي بنحو ٩٠ ميلاً، من بلاد مديرية سهارنפור.

أبناء البلاد ويسيطرون شيئاً فشيئاً على مقاليد الأمور في بلادهم، علاوة أن النظرة العدائية المتبادلة بين المسلمين وبين أسيااد البلاد الجدد لا تؤدّي في نهايتها إلا إلى حرمان المسلمين. من أجل هذا قام هؤلاء نفر وعلى رأسهم السيد أحمد خان يدعون إلى إزالة الجفوة بين المسلمين والإنجليز، وإلى غرس الثقة في نفوس الفريقين حتى يتقبل كل منهم الآخر فيفيد ويستفيد^(١).

وفي سنة ١٨٦٩م ذهب السيد أحمد خان إلى إنجلترا، ومكث فيها سنة ونصف السنة يدرس برامج التعليم الإنجليزي ومناهجه، وانتهى إلى الاعتقاد بأن طريقة مماثلة من التعليم تجعل الشباب المسلمين قادرين على خوض معترك الحياة إلى جانب الأقوام الناهضة، فلما عاد إلى الهند سنة ١٨٧٠م بدأ بالسعي إلى إقناع المسلمين بالإقبال على هذا التعليم الجديد، وتمكن هو وزملاؤه سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م من إنشاء مؤسسة علمية إسلامية يتلقى فيها أبناء المسلمين التعليم الحديث مع تعاليم دينهم في جو مأمون موثوق به وذلك في مدينة على كره^(٢) وسموها «مدرسة العلوم للمسلمين» وعمل على توسيعها لتصير جامعة ذائعة الصيت داخل الهند وخارجها، وكانت هذه الجامعة المصنع الذي صنع كثيراً من رجالات مسلمي الهند الذين قادوا الحركات العلمية والوطنية^(٣). ولم يلبث أن تحول هذان المركزان الجديدان للتعليم في الهند «مركز ديوبند» و«مركز على كره» إلى مدرستين للفكر وحركتين للتعليم، وكانتا على طرفي نقيض، وبدأ الصراع بينهما، وظهرت آثاره في كل فرع من فروع الحياة، إضافة إلى خلافات بين علماء الدين أنفسهم في مسائل في الفقه والعقيدة، وأحس جماعة واعية من العلماء وأولي الرأي بالخطر الداهم وأرادوا أن يتداركوه قبل أن يتفاقم الخطب ويتسع الخرق، فأسسوا سنة ١٣١١هـ - ١٨٦٣م جمعية «ندوة العلماء» وكانت غايتهم القصوى إيجاد حل لخلافات الطائفتين وإدخال إصلاحات في مناهج المعاهد الدينية حتى تكون جامعة بين علوم الكتاب والسنة والعلوم العصرية، ولقيت هذه الحركة مخالفة شديدة في بداية أمرها إلا أنها لاقت رواجاً كبيراً فيما بعد وآتت ثماراً يانعة^(٤).

١ - كفاح المسلمين في تحرير الهند ص ٣٥-٤٧. بتصرف.

٢ - اسم مدينة على بعد ١٣٠ كيلو من دلهي، اشتهرت بجماعة إسلامية، أنشأها سر سيد أحمد خان.

٣ - تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص ٣٦٠.

٤ - صدائي رستاخير، أعده النشر خليل أحمد الحامدي، ٥٦-٥٨، إدارة معارف إسلامي، لاهور، باكستان، ١٩٩٣م.

ونرى أن فترة ما بين عامي ١٨٥٧-١٩١٤ م مرت على الهند هادئة ساكنة لم يشهد المسرح السياسي في الهند خلالها أحداثاً ذات شأن كبير ماعدا تأسيس حزب المؤتمر الوطني الهندي سنة ١٣٠٣ هـ-١٨٨٥ م باقتراح وسعي بعض الإنجليز، وتأليف حزب الرابطة الإسلامية سنة ١٩٠٦ م وصار لهذين الحزبين أثرهما وثقلهما في مجريات الأحداث عند الاستقلال والتقسيم.

وبقي الإنجليز ينعمون بالحكم في الهند -على أنقاض الدولة الإسلامية- غير مباين بما يحتمله أبنائها من الولايات والمصائب بسبب سياستهم المدمرة لاقتصاد البلاد وأهاليها، ونهب لثرواتها وخيراتها على أيدي نواب طيعية من المجاعة وانتشار بعض الأمراض والأوبئة الفتاكة مكتفين بإدخال بعض الإصلاحات في إدارة البلاد وإدخال بعض وسائل التقنية الحديثة كالتلغراف والسكة الحديدية ونحوها.

نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م وكانت انجلترا بحاجة شديدة إلى الجندي الهندي، فأخذت الدولة الإنجليزية تغدق الوعود للزعماء الهنود وقامت بدعاية أن الخلافة العثمانية في خطر وأن انجلترا وحلفاءها يريدون إنقاذها، واستطاعت بهذه الوعود أن تسوق إلى ساحات الوغى مئات الآلاف من الهنود من المسلمين والهنداكة، وربحت بفضلهم هذه الحرب^(١).

وعادت الجنود الهندية إلى الوطن وقد أدركوا أشياء كانوا يجهلونها، وعرفوا أنهم قادرون على نزع استقلالهم من بريطانيا إذا أخلفت الوعود. وبدأت المطالبة بالحكم الذاتي^(٢).

وفي سنة ١٩١٦ م أسرت حكومة الشريف حسين في مكة الشيخ محمود الحسن الذي كان يسعى على حصول التأييد السياسي والعسكري من الدولة العثمانية ومن حكومة أفغانستان لطرد الإنجليز من الهند وإعادة الحكم إلى أهلها. وطرده الحكومة الإنجليزية وأعوانه إلى مالطة^(٣) فبقوا هناك إلى سنة ١٩٢٠ م^(٤).

ولما رأى المسلمون ازورار انجلترا عن الدولة العثمانية قاموا سنة ١٩١٩ م بإنشاء

١- كفاح المسلمين في تحرير الهند ص ٥٠-٧٧، تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص ٣٠٥-٣٢٧، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ١/٣٢٥-٣٢٦.

٢- تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، ص ٣٢٧.

٣- جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، كانت مستعمرة بريطانية.

٤- المسلمون في الهند، ص ٩٧.

حركة الخلافة كي يضغطوا على الإنجليز للبر بوعودهم بإبقاء الخلافة^(١)، وكان يتزعمها الأخوان محمد علي وشوكت علي بمساندة مئات العلماء^(٢)، واتحد المسلمون والهنداكة تحت لوائها في مهاجمة الحكومة الإنجليزية وسياسة حلفائها في قضية الحكومة العثمانية، فأصبحت الهند كمرجل يغلي، واشترك في هذه الحركة «غاندي» بكل نشاط وحماسة، وقام برحلات طويلة مع محمد علي وشوكت علي يخاطبون الجمهور ويخطبون في الحفلات الكبيرة التي لم تشهد البلاد مثلها وكان الجمهور يستقبل هؤلاء الزعماء بحماسة منقطعة النظير ويهتف بحياتهم.

وفي سنة ١٩٢٠م اقترح غاندي ومولانا أبو الكلام آزاد مقاطعة البضائع الأجنبية ومقاطعة الحكومة الإنجليزية والإضراب عن التعاون معها في دوائرها وفي جيوشها فكان أمضى سلاح استعمل في حرب التحرير وكاد يشل الجهاز الإداري وينشر الثورة العامة^(٣).

وكانت هذه الأحداث جرس إنذار بنهاية الحكومة الإنجليزية في الهند، وظهر تفوق المسلمين وحماستهم وحسن نظامهم في حركة الخلافة والتحرير إذ كانت القيادة السياسية في أيديهم، فأطلقت السياسة الإنجليزية سهمها الأخير الذي لا يطيش عادة وهو سهم التفريق والإفساد^(٤). فظهرت -على إثارة الإنجليز- الدعوة لهندكة المسلمين والآرية، وتنظيم الهنادك على طراز حربي، وانفجرت الاضطرابات الطائفية واستمرت وعنت حتى كانت حديث النوادي والصحف والشغل الشاغل للبلاد^(٥) ولم يستطع زعماء المؤتمر وحركة الخلافة أن يوقفوا هذه الاضطرابات ويرجعوا المسلمين والهنداكة إلى الصفاء والثقة التي كانت تسود قبل ذلك، ولم تزل الفجوة بين الطائفتين -الهنداكة والمسلمين- تتسع وتعمق، وكان المسلمون يشعرون أن غاندي وزملاءه لم يستخدموا كل نفوذهم في إيقاف هذه الاضطرابات الدينية وفي محاسبة شعبهم وأصحاب ديانتهم

١ - باكستان ماضيها وحاضرها ص ١٧٩.

٢ - تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند ص ٢٢٨.

٣ - المسلمون في الهند ص ٩٧-٩٨.

٤ - المسلمون في الهند، ص ٩٨.

٥ - للاستزادة في الموضوع ينظر: صدائي رستاخيز ص ٩٦، ١١٢-١١٦، ١٢١-١٢٥، ١٥٠، ٢٣٤-٢٤٣، ٢٦٢-٣٨٢، ٢٦٤.

مما أجبرهم إلى الشكوى من ضيق تفكير زعماء حزب المؤتمر فيما يتصل بالمسلمين، وأدى إلى انفصال مولانا محمد علي وكثير من زملائه عن المؤتمر، وانضموا إلى الرابطة الإسلامية وقويت حركة الانفصال التي كان يتزعمها السيد محمد علي جناح. واستمر العصيان المدني ضد الانجليز، وتتابعت الاضطرابات الدامية بين الطائفتين الهندوس والمسلمين، وطفق الإنجليز يشركون الهنود في الحكم شيئاً فشيئاً حتى بدأت الحرب العالمية الثانية وتيقن الإنجليز على أنهم لن يستطيعوا الاحتفاظ بالهند بعد الحرب فعملوا على كسب الهند إلى جانبهم خلال مدة الحرب، وحتى لا يسببوا لأنفسهم مشكلة تشغلهم مدة الحرب^(١).

وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى أعلنوا -تحت ضغط أمريكا- رغبتهم في منح الهند الاستقلال التام. وأرسلت الحكومة الإنجليزية سنة ١٩٤٦ م وفداً لدراسة كيفية نقل السلطات من الإنجليز إلى الهنود^(٢).

وفي عام ١٩٤٧ م حصلت الهند على استقلال عن الاستعمار الإنجليزي، وقسمت إلى دولتين: جمهورية الهند العلمانية، وجمهورية باكستان الإسلامية^(٣)، وأعطيت باكستان الشمال الغربي من الهند وجزءاً من البنغال في الشرق، وليس بين جزئي هذه الدولة أي اتصال إلا عن طريق الجو أو المرور بالأرض الهندية. واندجت الإمارات في الجمهورية التي كانت تقع في حدودها.

ولما كان التقسيم على أساس الدين لم يتم الأمر بسهولة، بل حدثت مذابح وكانت أشد بكثير من المذابح التي قامت قبل التقسيم وانعدم الأمن وعمت الفوضى واستمرت شهوراً عدة^(٤).

يقول الشيخ عبد المنعم النمر: «كانت فتنة عمياء، لم تبق ولم تذر، ولم تفرق بين البريء والمذنب، وتحول شمال باكستان وشرقها، وشمال الهند وشرقها ووسطها على الخصوص إلى ميدان حرب في كل مكان، في القرية والمدينة، والحقل والمصنع،

١- تاريخ الهند الحديث ١٧٥.

٢- تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص ٣٣٧-٣٤٠.

٣- لمعرفة ملابسات التقسيم والدور الذي أداه فيه كل من المسلمين والهندوس ينظر كتاب مولانا أبي الكلام آزاد «الهند تنال الاستقلال» بالأردية هماري آزادي ص ٢٠٨-٣٠٩.

٤- تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص ٣٣٩-٣٤٧. وتاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ١/٣٢٩-٣٣١.

والسيارات والقطارات، والمساجد والمعابد، في كل مكان تجد ضحايا، وتجد دماء، وتجد أشلاء متناثرة، رأس وحده، تنبئ عن صاحبه، ويد متطايرة تخبر عن صاحبها، وجسم مهشم ضاعت معالمه، ودماء تفصح عن اعتداء، أهوال ومناظر بشعة ورعب في كل نفس وفي كل مكان، أعمال وحشية اشترك فيها المسلمون في باكستان والهندوس والسيخ في الهند»^(١).

وذهب ضحيتها مئات الآلاف من الضحايا من المسلمين والهندوس، إلا أن المسلمين كانوا هم الأكثر اكتواء بنارها وذلك لوقوعهم في وسط أغلبية هندوسية في شمال الهند وشرقها ووسطها، ولأن المسلمين كانوا يطعمون في إقامة دولة لهم وقد فازوا بما يطعمون فيه وفرحوا به في الوقت الذي أثار نفوس الحاقدين عليهم من الهندوس والسيخ فانطلقوا يشفون غيظهم وحقدهم في صور شتى من البشاعة المنقطة النظير. وهجر الناس بلادهم فارّين إلى أبناء دينهم فهجر الهند سبعة ملايين مسلم إلى باكستان، وهجر باكستان ستة ملايين هندوكي إلى الهند.

وكانت هذه الهجرة في غير صالح المسلمين، وفي غير صالح باكستان أيضاً، لأن كل هذه الملايين من النفوس البشرية التي هاجرت إلى باكستان لم تكن تحمل معها إلا ما في صدورهم من إيمان، بينما كان الهنادكة الذين هاجروا إلى هندوستان في حالة اقتصادية حسنة وقد حملوا معهم كل ما يملكونه من مال ومتاع، كما كانوا بالنسبة إلى سكان الهند أقلية ضئيلة يسهل على البلاد احتلالها.

وقررت الحكومتان سنة ١٩٤٨م منع الهجرة، وأن تعمل كل منهما على تهدئة الخواطر، وتقديم الضمانات لغير أبناء دينها حتى يطمئنوا ويستقروا^(٢).

ويقول الشيخ عبد المنعم النمر معلقاً على التقسيم وما أعقبه من أحداث فظيعة: «لقد قلت: إن الجيل الذي عاصر تقسيم الهند إلى دولتين يعتبر أتعس جيل سكن الهند، وحقاً هذا فقد رأى من الأهوال والمصائب والمناظر والغدر ما لم يره جيل سابق، وكابد من الآلام ما لم يكابده غيره من الأجيال»^(٣).

١- كفاح المسلمين في تحرير الهند ص ٢٥٢.

٢- تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص ٣٤٠-٣٤١.

٣- كفاح المسلمين في تحرير الهند ص ٢٥٣.

الهند بعد الاستقلال:

نالت الجمهوريتان: الهند وباكستان الاستقلال في منتصف أغسطس ١٩٤٧م وقبل أن تتم فرحتهما وتستكمل حدث مذابح ومجازر لأصحاب كلتا الديانتين وكانت في الهند جماعات وعصابات متطرفة مثل «مهاسبها» ومنظمة «خدام الشعب»^(١) (R.S.S) تدعو إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، وترى فيهما أكبر خطر على الشعب الهندوكي^(٢) وكانت تسعى إلى إجبار مسلمي الهند على اعتناق الهندوكية وإقامة دولة هندوكية بحثة^(٣) ومحاولاتها ما زالت حيثة، وهي لا تبرح تخطو إلى أهدافها بخطوات جريئة.

وفي يناير سنة ١٩٤٨م اغتيل غاندي اغتالته تلك الطوائف المتطرفة إذ كانت تكرهه بحجة أنه يسعى لإرضاء المسلمين وأنه حرم الشعب الهندوكي من مزاياه وحقوقه^(٤). ومرت الهند بخطوات واسعة إلى التقدم والازدهار في شتى ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والتعليمية والتقنية والعسكرية، كما استمرت الاضطرابات والمذابح الطائفية بين الهندوس والمسلمين بين فترة وأخرى هنا وهناك، وواجه المسلمون كثيراً من الصعاب والعراقيل في مجال التعليم والتوظيف وعمولوا معاملة غير عادلة في الاقتصاد، وحوربت اللغة الأردية لأنها تضم مكتبة دينية لمسلمي الهند^(٥).

وعلى صعيد آخر لم تصفُ العلاقات بين الجارتين الهند وباكستان بل كانت كلتاهما تخاف صاحبتهما وتنظر إليها نظرة الخوف والكراهية والعداوة^(٦) ووقعت الحرب بين باكستان والهند عام ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م بشأن كشمير وامتدت على طول الحدود الهندية الباكستانية، ثم توقفت بعد التقاء الطرفين في طاشقند^(٧) عام ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م. وفي شوال من عام ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م أجريت الانتخابات العامة في باكستان وأسفرت نتائجها عن فوز «حزب عوامي» من باكستان الشرقية وحصل على أغلبية

١- للاستزادة حول هذه المنظمة وتاريخها وأهدافها ينظر «آر، إيس، إيس إيك مطالعة، حارث بشير. كاسمز بكر. دلهي. ط١. مارس ٢٠٠٣م.

٢- المرجع السابق ص ٧٠.

٣- صدائي رستخير. أبو الأعلى المودودي ص ١٢٢-١٢٤. تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية ص ٣٧٤.

٤- هماري آزادي. (الهند تنال الاستقلال). أبو الكلام آزاد ص ٣٠٧ بتصرف.

٥- المسلمون في الهند. ص ١٠٣-١٠٢ بتصرف.

٦- الهند تنال الاستقلال ص ٣١٥ بتصرف.

٧- مدينة شهيرة ذات تاريخ حافل بخدمة الإسلام في مجال العلم والسياسة، تقع في أوزبكستان، وهي عاصمتها الآن.

في المجلس النيابي، وكان على الجنرال يحيى خان أن يدعو المجلس النيابي للانعقاد ويسلم السلطة لمجيب الرحمن لكنه أُجِّلَ انعقاد المجلس النيابي مما أثار هياجاً شعبياً كبيراً، وقامت الاضطرابات وحركات العصيان في باكستان الشرقية وحاول يحيى خان القضاء عليها بقوة السلاح ورفض تسوية هذا النزاع السياسي القائم على مائدة المفاوضات بدلاً من استخدام العنف، فقامت حرب أهلية واستغلت الهند هذه الفرصة واقتحمت قواتها العسكرية حدود باكستان الشرقية لمساعدتها ضد الجيش الباكستاني، وفي ١٧/١٢/١٩٧١م أمر الرئيس يحيى خان بوقف إطلاق النار رافقه استسلام تسعين ألف جندي باكستاني^(١) للجيش الهندي وأسفر ذلك عن تنحي يحيى خان وتعيين ذي الفقار علي بوتو رئيس حزب الشعب رئيساً لباكستان دون باكستان الشرقية التي انفصلت واتخذت اسم بنغلاديش.

وبعد تولية ذي الفقار علي بوتو مهام منصبه عقد مؤتمر «شملة»^(٢) لتسوية الخلافات بين الهند وباكستان عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، وقامت الدول الإسلامية الصديقة بالوساطة بين باكستان وبنغلاديش للتوفيق بينهما وتم اعتراف باكستان بالدولة الجديدة بنغلاديش. وفي عام ١٣٨٩هـ حكم على «بوتو» بالإعدام بعد انقلاب الجيش عليه إثر اضطرابات ومظاهرات استمرت في البلاد ما يزيد على خمسة أشهر.

وهكذا رأينا أن فترة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين لم تكن فترة هدوء واستقرار بل كانت فترة مليئة بالاضطرابات الشديدة والأحداث الجسيمة لجميع أبناء الهند عموماً وللمسلمين خصوصاً الذين فقدوا ذلك الفردوس الذي نعم بحكمه آبائهم أكثر من ثمانية قرون وأوصلوه إلى أوجه في الازدهار والرفي والرفاهية والمدنية والتقدم والعمران والعلم والعرفان والعدل والمساواة.

ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل تعرض المسلمون للاستعباد من أمة غريبة تختلف معهم في الدين وفي الوطن وفي اللغة وفي كل شيء حاولت جاهدة إذلال المسلمين وتوهمينهم وقمعهم واستئصال شأفتهم والقضاء عليهم دينياً وعلمياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً.

ولما رحل ذلك العنصر الغريب ترك المسلمين هدفاً لحقد رعاياهم السابقين بعد ما

١ - باكستان ماضيها وحاضرها، د. إحسان حقّي ص ٢٨٠

٢ - اسم مدينة هندية تعد من أجمل مصايفها.

أشعل النار في قلوبهم وأضرَم فيها حتى اكتوت بتلك النار ملايين المسلمين سواء في الإضرابات الدامية أو المذابح الجماعية والمجازر الشعبية أو عن طريق الهجرة الإجبارية. وهذه الأحداث لم تكن لتمر سهلة يسيرة بل تركت بصماتها واضحة في الشعر العربي. وتمت أحداث أخرى - لها أهميتها في أماكنها - لكنني أغفلت ذكرها لأنها لم يكن لها أثر مباشر في موضوعنا.

حالة اللغة العربية وآدابها في الهند

كانت الهند على اتصال وثيق بالجزيرة العربية وباللغة العربية منذ آلاف السنين، يقول الشيخ أبو محفوظ الكريم المعصومي بعد إيراده الدلائل والشواهد التي تدل على قدم هذه الأواصر: «استمرت حلقات سلسلة الوشائج فيما بين العرب والهند متواصلة ومتلاحقة على تعاقب الأزمان إلى أن انبثق فجر الإسلام. ثم حصل انغراس بذرة في بلاد الهند الواسعة الأرجاء من أقصاها إلى أقصاها»^(١).

وبدأت أشعة الإسلام تنير هذه البقعة النائية منذ وقت مبكر، فقد ثبت تاريخياً أن جيش المسلمين وصل إلى أرض «تانه»^(٢) أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولما فتح السند سنة ٩٢هـ رحب أهلها بالإسلام والمسلمين وأقبلوا على الثقافة العربية بشوق وحماس^(٣).

وتوطنت في بعض أمصار السند جاليات عربية فاستوطن هذا اللسان المبين تلك المنطقة في وقت مبكر في القرن الأول الهجري^(٤). كما نجح تجار العرب ودعاة الإسلام في تكوين جاليات عربية على سواحل الهند الغربية أيضاً^(٥).

١- بحوث وتنبهات لأبي محفوظ الكريم المعصومي، ١/ ٤١٩-١٢٠، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط أولى، ٢٠٠١م. وللإستزادة في الموضوع ينظر الصلات بين الهند والعرب لسيد سليمان الندوي.

٢- تانه وتنطق في الأردية تهانه (Thane) وهي بلدة على الساحل الغربي للهند، متصلة الآن بمدينة بومباي في ولاية مهاراشترا.

٣- دراسات أدبية إصدار نادي المدينة المنورة الأدبي، ص ١٥٨. محاضرة للدكتور عبد المقصود شلقامي، وعنوانها: الآداب العربية في شبه القارة الهندية ص ٥.

٤- بحوث وتنبهات لأبي محفوظ الكريم المعصومي ص ٤٢٢.

٥- تقويم البلدان عماد الدين إسماعيل بن محمد أبو الفداء ص ٣٦١، دار صادر بيروت، طبعة مصورة من طبعة باريس سنة ١٨٥٠م تاريخ الطبع غير مذكور، مروج الذهب للمسعودي ١/ ١٧٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار المعرفة بيروت لبنان ١٤٢٠هـ، العرب وبلاد الهند لخواجه بهاء الدين إكرامي الندوي ص ٥١، دار السلام بهتكل الهند ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

ولما صارت الهند أحد المواطنين المخلدة -إن شاء الله- للإسلام والمسلمين تمتعت اللغة العربية فيها بنفوذ ظاهر، واهتم المسلمون بها واستمروا يعضون عليها بالنواجذ لكونها لسان القرآن الكريم ولسان رسول الله محمد بن عبد الله خاتم النبيين -عليه الصلاة والتسليم-، فلا يتأتى العكوف على معالم الدين الحنيف إلا بالوقوف على هذه اللغة الشريفة ودراستها دراسة جادة. بيد أن الظروف لم تسمح للعربية أن تتمتع بسلطان النفوذ تماماً فترقى إلى مستوى اللغة الرسمية ولغة التعليم المنهجي في المراحل كلها لأن الفارسية كانت تتمتع بتفوق مستمر في البيئة والبلاط الملكي والنظم الإدارية وحلقات الدروس^(١)، وذلك لأسباب جغرافية وتاريخية منها أن السلاطين الذين استقر على أيديهم الحكم الإسلامي في الهند قد دخلوها من أفغانستان وإيران وكانت لغتهم الفارسية فكان من السهل للغة الفارسية أن تحل محل اللغة الرسمية في هذه البلاد الجديدة أيضاً، كما كان هناك اتصال مباشر بين الهند وفارس بينما البحر يفصل الهند عن البلاد الناطقة بالعربية^(٢)، فبغض النظر عن مقررات الدراسة الدينية كادت اللغة العربية أن تصل إلى درجة الشيع السائد التي استقرت بها اللغة الفارسية طوال ثمانية قرون متتالية لكنها ظلت تؤدي دورها من حيث إنها لغة دينية صميعة تهم المسلمين أجمعين^(٣).

ولما كان التأثير والتأثير والأخذ والعطاء سنة معهودة وناموساً متبعاً بين اللغات وخاصة اللغات المجاورة^(٤) كان للغة العربية أثر بارز ملموس في اللغات الهندية، وقد تجلّى هذا التأثير في عدة صور وأشكال مثل إيجاد لهجة مستقلة جديدة في لغة ما متأثرة باللغة العربية فحسب كما حصل في لغة ماليلام^(٥) حيث وجدت لهجة جديدة مستقلة سميت بهاليم العربية، وكتب الدكتور محيي الدين الألوائي أنها: «تعتبر لغة مستقلة ذات خصائص ومميزات»^(٦).

١ - بحوث وتنبهات ١/ ٤٢١-٤٢٢ بتصرف.

٢ - الآداب العربية في شبه القارة الهندية، د. زبير أحمد، ص ٢٣، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.

٣ - بحوث وتنبهات ص ٤٢٢.

٤ - للاستزادة في الموضوع ينظر علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وفي ص ٢٣٣-٢٣٩ دار النهضة مصر الطبعة السابعة.

٥ - لغة أهالي منطقة كيرالا الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي للهند.

٦ - الأدب الهندي المعاصر للدكتور محيي الدين الألوائي ص ١٣٣ دار العلم للطباعة القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.

ومن صور هذا التأثير ما نراه من تأثير واضح وشديد للعربية في الأردية في نواح عدة: في الخط وفي الأصوات والمفردات والأبنية والتركيب^(١) وفي العروض أيضاً. ولشدة هذا التأثير ظن بعض الباحثين أنها مزيجة بأربع لغات وهي: الفارسية والعربية والسنسكريتية والتركية ووليدها جميعاً^(٢).

ولم يقتصر تأثير اللغة العربية على هذين الشكلين وعلى هاتين اللغتين فحسب بل تجاوزهما إلى اللغات واللهجات الأخرى وإن اختلفت درجات هذا التأثير. يقول الشيخ المعصومي: «قلما توجد في الهند لغة إلا وهي تزخر بقليل أو كثير من المفردات العربية كالآسامية والأردية والمليبارية والهندية وما إليها. فكما أن لغات الهند القديمة صَدَّرت إلى العربية قبل الإسلام وبعده عدداً من الألفاظ الهندية، فكذلك اللغة العربية لم تتأخر بدورها عن تزويد لغات الهند ولهجاتها بجمهرة من نفائس معدنها العربي الأول ومجوهراتها الرائعة و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾»^(٣).

ولم يكتف العلماء في الهند بالاقتراس من لغة القرآن الكريم ولغة الرسول الأمين -عليه الصلاة والتسليم- بل ضربوا بسهم كبير في مجال إثراء هذه اللغة الشريفة بالكتابة والتأليف في كل عصر وحين «ونراهم في بعض فترات التاريخ في مقدمة القافلة ومأخذ الزمام»^(٤). ومؤلفات المسلمين في الهند في اللغة العربية والعلوم الإسلامية لا تحصى كثرة -وذلك موضوع كتاب كبير- ككتاب الفهرست لابن النديم، أو كشف الظنون لحاجي خليفة، وجولة في كتاب الثقافة الإسلامية في الهند للعلامة السيد عبد الحي الحسني تدل على مركز الهند العلمي وقسط علمائها ومؤلفيها في حركة التأليف والنشر. وكان من بين هذه الكتب التي تخطت شهرتها حدود الهند وسارت بها الركبان واحتفى بها علماء العرب مثل كتاب «العباب الزاخر» للإمام حسن بن محمد الصغاني اللاهوري الذي يعدّ من

١ - للاستزادة في هذا الموضوع ينظر رسالة «أثر اللغة العربية في اللغة الأردية، دراسة لغوية» إعداد محمد قاسم خواجة تحت إشراف الدكتور ف. عبد الرحيم بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، إلا أن الرسالة لم تناقش لأسباب صحية لدى الباحث فشفاه الله تعالى عاجلاً.

٢ - الأدب الهندي المعاصر ص ٥٨ .

٣ - بحوث وتنبهات ١/ ٤٢٣ .

٤ - المسلمون في الهند ص ٣٥ .

مراجع اللغة العربية وقرر كتبها، وقد عُني به أئمة اللغة قديماً وحديثاً واعترفوا له بالدقة والإتقان ووزارة المادّة، واعترفوا لصاحبه بالفضل والإمامة في هذا الشأن. وكذلك كتابه «مشارك الأنور» في الحديث من الكتب المشهورة المقبولة في العالم الإسلامي.

ومنها كتاب «كنز العمال» للشيخ علي بن حسام الدين المتقي البرهانفوري وهو ترتيب جمع الجوامع للسيوطي، وهو من الكتب التي انتفع بها علماء الحديث كثيراً واعترفوا لصاحبه بمجهود عظيم.

ومنها كتاب «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» للشيخ محمد طاهر الفتني جمع فيه المؤلف كل المؤلفات في غريب الحديث، فجاء كالشرح للصحيح الستة وكذلك كتابه «تذكرة الموضوعات» من الكتب السائرة المتداولة في الموضوع.

ومنها «الفتاوى الهندية» التي تُعدّ من المراجع الفقهية الكبرى التي عليها العمدة في كثير من الأقطار الإسلامية التي تحكم بالفقه الحنفي.

يقول الشيخ عبد الحي الحسني: «أما الفتاوى العالمية ويسمونها الفتاوى الهندية فهي أجملها وأنفعها في كثرة المسائل وسهولة العبارة وحل العقد، وهي التي اشتهرت في بلاد العرب بالفتاوى الهندية، وهي في ست مجلدات كبار، وقد ولّى السلطان أورنگ زيب عالمكير التيموري -أنار الله برهانه- الشيخ نظام الدين البرهانفوري في أوائل سلطنته تدوينها بمشاركة الفقهاء الحنفية»^(١). ثم ذكر المؤلف أربعة وعشرين رجلاً من كبار علماء الهند في ذلك العصر ممن ساهموا في تدوينها.

ومنها كتاب «مسلم الثبوت» في أصول الفقه للعلامة محب الله بن عبد الشكور الحنفي البهاري وقد رزق القبول العظيم في الأوساط العلمية المدرسية في الهند وبلاد الإسلام، وتناوله كبار العلماء في عصورهم بالتدريس والشرح، وله عشرة شروح لكبار الأساتذة الفضلاء في الهند.

ومنها كتاب «كشاف اصطلاحات الفنون» للشيخ محمد أعلى التهانوي وهو كتاب عظيم النفع تلقاه المشتغلون بالعلم في بلاد العرب بالقبول وأثنوا عليه لأنه كمعجم للمصطلحات العلمية يغني عن مراجعة الآلاف من الصفحات والمئات من الكتب، وهذا موضوع لم يكن فيه كتاب كبير على شدة الحاجة إليه.

١ - الثقافة الإسلامية في الهند للشيخ عبد الحي الحسني ص ١١٠ طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣ هـ.

وفي هذا الموضوع كتاب آخر وهو «جامع العلوم» المشهور بدستور العلماء في أربعة مجلدات للشيخ عبد النبي عبد الرسول الأحمد نكري.

ومنها بل من أعظمها كتاب «حجة الله البالغة» للإمام ولي الله الدهلوي في أسرار أحكام الشريعة وفلسفة التشريع الإسلامي، وهو كتاب مبتكر في موضوعه لا يوجد له نظير في المكتبة العربية على سعتها وقد أجله علماء هذا الموضوع. ويتسم هذا الكتاب بنصاعة العربية وقوة العبارة وانسجامها ويعدّ بحق المثال الثاني للنثر الطبعي السلسال والتعبير العلمي الحاضر بعد مقدمة ابن خلدون في عصور انحطاط العربية وغلبة العجمة والصناعة على الكتاب والمؤلفين في العالم الإسلامي^(١).

ومنها كتاب «تاج العروس في شرح القاموس» للسيد مرتضى بن محمد البلكرامي المشهور بالزبيدي، وهو مكتبة لغوية علمية عظيمة في عشر مجلدات كبار، وقد اشتهر أمر هذا الكتاب في حياة صاحبه فاستكتب منه الخليفة العثماني نسخة، وسلطان دارفور^(٢) نسخة، وملك المغرب نسخة، وغيرهم أيضاً^(٣).

وقد نبغ في الهند مؤلفون اشتهروا في العالم الإسلامي كله بسرعة التأليف وكثرة المؤلفات وضخامة الإنتاج وكان كل واحد منهم مجمعاً علمياً نشيطاً وقد قام بعضهم شخصياً بما لا تقوم به مجاميع علمية في أكثر الأحيان، فالأمير صديق حسن خان أمير بهوفال بلغ عدد مؤلفاته اثنين وعشرين ومئتي كتاب منها ستة وخمسون كتاباً في اللغة العربية وفيها كتب كبار ذات قيمة علمية منها: «فتح البيان في تفسير القرآن» في عشر مجلدات كبار، و«أبجد العلوم» و«التاج المكلل» و«البلغة في أصول اللغة» و«العلم الخفاق من علم الاشتقاق».

ويبلغ عدد مؤلفات علامة الهند فخر المتأخرين الشيخ عبد الحي بن عبد الحليم اللكهنوي مائة وعشرة كتب منها ستة وثمانون كتاباً بالعربية من أشهرها وأجلها «السعاية في شرح الوقاية» و«مصباح الدجى» و«التعليق الممجّد على مؤطّ الإمام محمد» و«ظفر الأمانى» ولا يزال كتابه «الفوائد البهية» عمدة المؤلفين في تراجم علماء المذهب الحنفي ومرجعهم الكبير.

١ - المسلمون في الهند، ص ٣٩، (بتصرف).

٢ - ملكة في السودان.

٣ - المسلمون في الهند، ص ٣٩، (بتصرف).

ومن الكتب المؤلفة في الهند والتي عُني بها العلماء في الأقطار الإسلامية وعدوها من خيرة ما كتب في الموضوع كتاب «إظهار الحق» و«إزالة الأوهام» للشيخ رحمة الله الكيرانوي و«الإمعان في أقسام القرآن» و«جمهرة البلاغة» للعلامة حميد الدين الفراهي. وكان للأدب أيضاً بقسميه النثر والشعر نصيب وافر في الهند، فوجد من أقسام النثر الخطابة والمقامة والقصة والمنتخبات الأدبية وشروح القصائد والمقال. كما وجد شعراء مفلقون ملكوا ناصية البيان وعبروا في الشعر عن مشاعرهم وأحاسيسهم من أمثال القاضي عبد المقتدر الكندي الذي قال في قصيدته اللامية^(١):

يَا سَائِقَ الظَّنِّ فِي الْأَسْحَارِ وَالْأُصْلِ سَلِّمْ عَلَى دَارِ سَلَمَى وَابْكُ ثُمَّ سَلِ
عَنِ الطَّبَاءِ الَّتِي مِنْ دَأْبِهَا أَبَدًا صَيْدُ الْأَسْوَدِ بِحُسْنِ الدَّلِّ وَالنُّجْلِ
وَعَنْ مُلُوكٍ كِرَامٍ قَدْ مَضَوْا قِدْدًا حَتَّى يُجِيبَكَ عَنْهُمْ شَارِدُ الطَّلَلِ
أُصْحَتْ إِذْ أَبْعَدَتْ عَنْهَا كَوَاعِبُهَا أَطْلَاهَا مِثْلَ أَكْفَانٍ بِلَا مُقَلِّ
يَا طَالِبَ الْعِزِّ فِي الْعُقْبَى بِلَا عَمَلٍ هَلْ تَفْعُنْكَ فِيهَا كَثْرَةُ الْأَمَلِ
اِقْنَعْ مِنَ الْعَيْشِ بِالْأَذْنَى وَكُنْ مَلِكًا إِنَّ الْقَنَاعَةَ كُنْزُكَ لَمْ يَزُلْ

ومنهم الشيخ أحمد بن محمد التهانيسري الذي يقول في داليته:

أَطَارَ لُبِّي حَنِينُ الطَّائِرِ الْغَرْدِ وَهَاجَ لَوْعَةُ قَلْبِي التَّائِهِ الْكَمِدِ
وَأَذْكَرْتَنِي عُهُودًا بِالْحِمَى سَلَفَتْ حَمَامَةٌ صَدَحَتْ مِنْ لَاعِجِ الْكَبِدِ

ومن هؤلاء شاعر الهند الكبير غلام علي آزاد البلجرامي الملقب بحسان الهند لإكثاره من المديح النبوي، والذي ترك وراءه عشرة دواوين وأرجوزة طويلة جداً، ويرى بعض الباحثين^(٢) أنه يقف بمدحه للرسول ﷺ في مستوى القمة بل يسمو فوق كثير من أعلام

١ - الثقافة الإسلامية في الهند ص ٤٤، دراسات أدبية ٤/ ١٦٩.

٢ - دراسات أدبية ٤/ ١٦٩.

المديح النبوي أحياناً وذلك عندما يصف الأماكن المقدسة، ومن قوله في المدينة المنورة^(١):

سَوْحُ الْمَدِينَةِ مَا أَجَلَ تَرَاهَا تَجَلُّو الْبَصَائِرُ فِيهِ فَعَلَ الْإِثْمِدُ
وَعُبَارُهَا الْمَحْسُوسُ فَوْقَ هَوَائِهَا كَحُلِّ الْيَقِينِ لِمُقَلَّةِ الْمُتَرَدِّدِ
نُصِبَتْ لِمَنْ ضَلَّ الطَّرِيقَ بِسَوْحِهَا عَلِمَ الْهُدَى مِنْ أَصْبَعِ الْمُتَشَهَّدِ
قَلْبِي حَمَامٌ فِي الْمَدِينَةِ طَائِرٌ لَكِنَّ جِسْمِي مُوثَقٌ فِي مَسْجِدِي
قَالَتْ لِطَرْفَاءِ الْفَلَاةِ حَمَامَةٌ: لَمْ تَمَرَّحِينَ وَتَفَخَّرِينَ فَارْشِدِي
قَالَتْ لَهَا: أَوْ مَا تَرَيْنَ مَكَانَتِي قَدْ كَانَ مِنَّا مِنْبَرٌ لِمُحَمَّدِ

وله قصيدة تبلغ مائة وخمسة أبيات في وصف أعضاء المرأة من شعرها إلى أخمص قدميها على الترتيب، لكل عضو بيتان وسمى هذه القصيدة «مرآة الجمال».

وقد حاول آزاد أن يدخل إلى العروض العربي أشكالاً على نظام الطريقة الفارسية، وترجم الشعر الهندي إلى الشعر العربي، ويرى على شعره أثر لبعض عادات الهنود^(٢).

وتوجد في الهند آلاف من المدارس الأهلية العربية تبذل قصارى جهدها في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية تدريجاً وتأليفاً كما وجدت أقسام خاصة لدراسة اللغة العربية في العشرات من الجامعات الحكومية أيضاً والتي تعنى بتدريس اللغة العربية وتمنح درجات الماجستير والدكتوراه.

وقد أصدرت في الهند في فترات مختلفة مجلات وصحف عربية تدل على عنايتهم بهذه اللغة ونشرها وإحيائها منها: مجلة «البيان» الشهرية التي كانت تصدر من لكهنؤ، وصحيفة «الجامعة» الأسبوعية التي كانت تصدر من كلكتا، ومنها مجلة «الضياء» الصادرة من دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ، ومجلة «المجمع العلمي الهندي» الصادرة من جامعة علي كرة، ومجلة «الداعي» والتي تصدر من دار العلوم بديوبند.

كما تصدر وزارة الثقافة الهندية مجلة «ثقافة الهند» والتي أنشأها مولانا أبو الكلام

١- المرجع السابق ٤/ ١٧٣.

٢- المرجع السابق ٤/ ١٧٤-١٧٥.

آزاد ولها اهتمام خاص بصلات الهند والعرب، وقد نشرت فيها بحوث ومقالات جيدة. وقد خصصت الدولة جائزة سميت بـ«جائزة رئيس الجمهورية التقديرية» تشجيعاً للباحثين على بذل مزيد من الجهد في سبيل نشر هذه اللغة وتقديرًا لجهودهم السابقة. وعلى هذا يمكن القول بأن اللغة العربية وجدت - ولا تزال - عناية فائقة في الهند في مختلف المجالات درساً وتأليفاً، وساهم أبناء الهند في نمائها وإثرائها في شتى ميادين العلم، وفي فروعها المتعددة.



الفصل الأول

أشهر شعراء القرنين وأهم العوامل المؤثرة في شعرهم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : أشهر شعراء القرنين.

المبحث الثاني : أهم العوامل المؤثرة في شعرهم.

المبحث الأول

أشهر شعراء القرنين

لقد وجد في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين عدد كبير ممن لهم مشاركات في الشعر العربي، لكن أغلب هؤلاء لم يكن الشعر العربي همهم الوحيد أو صناعته الأولى، بل كان معظمهم من طلبة العلم الشرعي وحملته، وكان دافعهم إلى الاهتمام باللغة العربية الحرص على فهم الكتاب والسنة، والتعمق في أحكامها واستنباط هديها، حتى وصل كثير منهم إلى درجة استطاعوا أن يعبروا فيها عن مشاعرهم وخلجات أنفسهم بالشعر والقريض، ومن ثم قلّ أن نعثر على عالم اشتهر كشاعر عربي، بل كان معظمهم ممن اشتهر بفرع من فروع العلم كالفقه أو الحديث أو التفسير أو غير

ذلك. وكان مع تمكنه في فنه يجيد قرض الشعر، ويعبر به عما يدور في خلدته؛ ولذا كان من الصعب جداً تحديد أولئك الذين يمكن أن نطلق عليهم أشهر شعراء القرنين. كما كان هناك عامل آخر زاد هذا التحديد صعوبة وعسراً، وهو كون الهند شبه قارة واسعة، شاسعة الأرجاء، مترامية الأطراف، لم تكن فيها - خلال مدة الدرس - وسائل المواصلات والاتصال ميسرة موفورة مثل الآن، ومن ثمّ يمكن أن نرى شاعراً أو عالماً يلمع نجمه في أفق من آفاق الهند، ويبقى مغموراً فيما سواه.

وبعد ملاحظة هذين الأمرين المهمين يمكننا القول بأن الشيخ باقر بن مرتضى المدراسي كان أشهر من نظم الشعر العربي في الهند في هذه الفترة، لكن أغلب نتاجه الشعري كان قبل هذه الفترة أي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، كما ذكرت الدكتورة ذاكرة غوث^(١). هذا الشاعر الكبير يأتي بعده في الشهرة بالشعر العربي والاشتغال بالأدب العربي عموماً الشيخ فيض الحسن بن علي بخش بن خدا بخش القرشي الحنفي السهارةفوري، ولد سنة ١٢٣٢هـ - ١٨١٦م، كان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وعلماً، لم يكن في عصره أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب، قرأ على والده وعلى الشيخ فضل حق الخير آبادي في رامفور، ثم سافر إلى دهلي وأخذ الحديث عن الشيخ أحمد سعيد بن أبي سعيد العمري، وأخذ الطب عن الحكيم إمام الدين، ثم صرف عمره في الدرس والإفادة. له مصنفات جلية ممتعة، منها: حاشية على تفسير الجلالين، وحاشية على تفسير البيضاوي، وحاشية على مشكوة المصابيح، وشرح على ديوان الحماسة على المعلقات السبع، ومصنف جليل في الأنساب وأيام العرب، والتحفة الصديقة رسالة في شرح حديث أم زرع، وديوان شعر بالعربية. توفي سنة ١٣٠٤هـ^(٢)، ومن جيد شعره، قوله في رثاء الشيخ محمد قاسم النانوتوي^(٣):

نَعَى نَاعِيًا حَبِيَّ الْكَرِيمِ فَأَسْمَعَا نَعِيًّا يَدُقُّ الْحُلَّ مِنْهُ فَصَدَّعَا
جَوَادًا جَلِيدًا لَوْرَمَتَهُ بِجَنْدَلٍ يَدَا حَادِثٍ لَمْ تُلْفِهِ مُتَصَدَّعَا

١ - مولانا باقر آكاه ويلوري، شخصيت اور فن، د. ذاكرة غوث (ص ٥٢٦-٥٣٢)، تملنادو اردو بيلي كيشنز، مدراس ١٩٩٥م، ويلحظ أن المؤلفه إحدى حفيدات الشاعر.

٢ - الإعلام ٣ / ١٣٢٨ - ١٣٣٠.

٣ - ديوان الفيض، ص ٨٣-٨٦، تحقيق الدكتور ظهور أحمد أظهر، المجمع العربي الباكستاني، لاهور - باكستان ١٩٩٥م.

وَكَا نَمَعِي دَهْرًا فَفَرَّقَ بَيْنَنَا
مَضَى بِاسْقَافِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ صَادِقًا
لَطِيفًا، نَظِيفًا، مُسْتَعِفًّا، مُوَفَّقًا
مَضَى حِينَ أَضْحَى قَابِضَ الْجُودِ وَالنَّدَى
مَلَاذَ الْيَتَامَى، مُسْتَعَاثَ أَرَامِلِ
لَقَدْ كَانَ مَرَعَانَا خَصِيصًا وَثَمَرَعَا
رُزِينَا فَتَى لَوْنِيلَ فِتْيَانِ أَرْضِنَا
فَوَيْلٌ لِعَيْنٍ لَمْ تَجِدْ يَوْمَ مَوْتِهِ
أَقَامَ بِأَرْضٍ لَوْ أَقَامَ بِغَيْرِهَا
وَلَكِنَّهُ قَدْ حَلَّ أَرْضًا لَظِيَّةً
عَصَى نَفْسُهُ فِيمَا أَطَاعَ إِلَهَهُ
عَفَا اللَّهُ عَمَّنْ عَادَرُوهُ بِمُضْجَعِ
وَمَا كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَصَابَ وَأَنْ أُرَى
وَمَا عِشْتُ إِلَّا لِلشُّجُونِ فَلَمْ أَزَلْ
لَقَدْ نَعَيْتُ لِي فِتْيَةً مِنْ أَحِبَّةِ
دَهَاهُمْ فَأَفْنَاهُمْ وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ
عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ مَا رَأَى مِنْ ذُنُوبِهِمْ
أَبْعَدَ أَخْلَائِي الَّذِينَ تَتَابَعُوا

فَصِرْنَا كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
أَعَزَّ كَرِيمِ النَّفْسِ نَدْبًا سَمِيدَعَا
نَقِيًّا، تَقِيًّا، عَالِيًّا، عَامِلًا مَعَا
وَلِلنَّفْعِ مِذْرَارًا وَلِلْخَيْرِ مَنَبَعَا
يَبِيتُ خَمِيصَ الْبَطْنِ مُلْتَصِقَ الْمِعَى
فَلَمَّا تَوَلَّى صَارَ قَفْرًا وَبَلَقَعَا
بِمَا نَالَهُ مَا كَانَ أَبْكَى وَأَوْجَعَا
بِدَمْعٍ وَفِينَا أَعْيُنُ فِضْنٍ أَذْمَعَا
لَزُرْنَاهُ صَيْفًا أَوْ لَقِينَاهُ مَرْبَعَا
أَرَى دُونَهَا لِلْعَيْسِ وَالرَّكِبِ مَضَرَعَا
فَهَلْ مِنْ فَتَى يَسْعَى عَصِيًّا وَطَبِيْعَا
مُقِضُّ، وَلَمْ يَرْضَوْا لَهُ نَمَّ مُضْجَعَا
سَلِيمًا وَلَكِنْ كَانَ لِي أَنْ أُفْجَعَا
أُرَاعُ وَلَا يَنْفَكُ قَلْبِي مَرُوعَا
عَلَيَّ كِرَامٍ كُنْتُ فِيهِمْ مُمْتَعَا
مُصَابٌ إِلَى لُقْمَانَ عَادٍ وَتُبْعَا
وَمَنْ يَغْفُ عَنْهُ اللَّهُ فَارَ وَأَنْجَعَا
أُبَايَ بِأَنْ أَلْقَى حِمَامِي فَأُضْرَعَا

فَإِنْ مِتُّ فَادْعُوا لِي بِخَيْرٍ فَرُبَّمَا
يَكُونُ دُعَاءُ الْخَيْرِ لِلْمَيِّتِ أَنْفَعًا
وَمَنْ ظَنَّ أَنْ لَا نَفْعَ مِنْهُ لِمَيِّتٍ
بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ فَضَلَّ وَأُفْظَعًا

ومنهم الشيخ فضل حق بن فضل إمام بن محمد أرشد العمري الخير آبادي ، ولد سنة ١٢١٢ هـ، ودرس على والده وعلى الشيخ عبد القادر بن ولي الله العمري الدهلوي، وحفظ القرآن في أربعة أشهر، وقرأ فاتحة الفراغ وله ثلاث عشرة ستة، وفاق أهل زمانه في الخلاف والجدل، والميزان والحكمة ، واللغة وقرض الشعر وغيرها، ونظمه يزيد على أربعة آلاف بيت.

من مصنفاته : الجنس الغالي في شرح الجوهر العالي، والهدية السعيدية في الحكمة الطبيعية، وحاشية على شرح السلم، وتاريخ فتنة الهند، وغيرها.
توفي سنة ١٢٧٨ هـ في جزيرة من جزائر « السيلان »^(١)، ومن جيد قوله^(٢):

فَوَادِي هَائِمٌ وَالْدَّمَعُ هَامٌ وَسُهُودِي دَائِمٌ وَالْجَفْنُ دَامٌ
فَقَلْبٌ مَا فِتِي بِجَوَى وَلَوْعٍ وَلُوعٌ فِي اضْطِرَابٍ وَاضْطِرَامٍ
وَدَّمَعٌ بَلْ دَمَّ صَرْفُ جَرَى مِنْ نِيَاطِي سَاجِمًا أَيَّ أَنْسَجَامٍ
وَطَرْفٌ أَرَمَدٌ يُؤْذِنُهُ غَمَضٌ وَلَيْلٌ سَرَمَدٌ سَاجِي الظَّلَامِ
طَوِيلٌ لَا يَقَاسُ بِهِ زَمَانٌ فَسَاعَتُهُ كَشْهَرٍ بَلْ كَعَامِ
كَأَنَّ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ نِيْطَتْ بِأَجْفَانٍ دَوَامٍ بِالْـدَّوَامِ
حَمَامِي حَاضِرٌ، وَالْوَجْدُ بَادٍ وَجِسْمِي ذَابِلٌ، وَالشَّوْقُ نَامٍ
أَذَابَ الشَّوْقُ أَحْشَائِي وَأَوْرَى لَطْفِي فِي أَضْلَعِي أَبْلَى عِظَامِي

١- الإعلام ٣/ ١٠٦٣-١٠٦٥، باغي هندوستان ١١/ ١٩٥.

٢- آثار الصناديد، سرسيد أحمد خان، ص ٥٧١، ترتيب وتدوين: خالد نصير هاشمي، سنترل بكديو، دهلي ١٩٦٥ م، والإعلام ٣/ ١٠٦٥.

سَرَى فِي الْغَرَامِ فَصَارَ غُرْمًا وَذَاكَ الْغُرْمُ مِنْ أَذْهَى الْغَرَامِ

ومنهم الشيخ السيد أحمد بن أولاد حسن بن أولاد علي الحسيني البخاري القنوجي، ولد سنة ١٢٤٦ هـ وأخذ العلوم متفرقة في بلاد شتى عن أساتذة عصره، أجلمهم الشيخ عبد الجليل الكوثلي، والشيخ المحدث عبد الغني بن أبي سعيد العمري الدهلوي، فاق أقرانه في الذكاء والفطنة، وقوة الحفظ وجودة الذهن، سافر إلى الحجاز قاصداً الحج، لكن لما بلغ مدينة «برودة» في أرض غجرات، مرض هناك وتوفي سنة ١٢٧٧ هـ وعمره آنذاك ثلاثون سنة وبضعة أشهر.

كانت له اليد الطولى في الشعر العربي والفارسي، ومن مصنفاته «الشهاب الثاقب» في مبحث الاجتهاد والتقليد^(١)، ومن عيون شعره قوله^(٢):

يَعَاقِبُنِي بُؤْسُ الزَّمَانِ وَخَفْضُهُ وَأَدَبُنِي حَرْبُ الزَّمَانِ وَسَلْمُهُ
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا نَهْبُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ تَلُمُ بِهِ شُهْبُ الْفَنَاءِ وَذُهُمُهُ
يُعَلِّلُهُ بَرْدُ الْحَيَاةِ يَمْسُهُ وَيَغْتَرُّهُ رَوْحُ النَّسِيمِ يَشُمُهُ
أَلَا إِنَّ خَيْرَ الزَّادِ مَا سَدَّ فَاقَهُ وَخَيْرُ بِلَادِي الَّذِي لَا أَجْمُهُ
وَأِنَّ الطَّوَى بِالْعِزِّ أَحْسَنُ يَافَتَى إِذَا كَانَ مِنْ كَسْبِ الْمَذَلَّةِ طَعْمُهُ
وَإِنِّي لَأُنْهِى النَّفْسَ عَنْ كُلِّ لَذَّةٍ إِذَا مَا ارْتَقَى مِنْهَا إِلَى الْعَرَضِ وَصْمُهُ
وَأَعْرِضْ عَنْ نَيْلِ الثَّرِيَّا إِذَا بَدَتْ وَفِي نَيْلِهِ سَوْءُ الْمَقَامِ وَذَمُّهُ

ومن الشعراء المشهورين جداً أيضاً الشيخ عبد الحميد بن عبد الكريم، ولد في قرية «فريها» من مديرية أعظم كره سنة ١٢٨٠ هـ - ١٨٦٢ م، كان اسمه الذي سماه به والده «حميد الدين» لكنه كان يفضل عبد الحميد لما فيه إظهار التذلل والعبودية لله تعالى. بدأ دراسته بحفظ القرآن، ثم بالدراسات الفارسية، وبعدها بدأ يتلقى اللغة

١ - أبجد العلوم سيد صديق حسن خان القنوجي ٣/ ٢٦٨، والإعلام ٣/ ٨٩٧-٨٩٩.

٢ - ديوان الشاعر المخطوط برقم: ١٤٦٢، كتب خانة شبلي نعماني دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ، صفحاته غير مرقمة، الإعلام ٣/ ٨٩٩.

العربية من الشيخ فيض الحسن السهارنفوري، والشيخ شبلي نعماني، والشيخ عبد الحي الفرنجي محلي، وتفرغ من الدراسات الإسلامية وعمره عشرون سنة، ثم التحق بالدراسات الانجليزية وحصل فيها شهادة الليسانس، وكان يرغب في مواصلة دراسة الماجستير ولكنه لم ينجح.

عمل مدرساً في مدرسة الإسلام في كراتشي من ١٨٩٧م إلى ١٩٠٦م وطبع له خلال هذه المدة ديوان شعر بالفارسية، ورسالة جمهرة البلاغة بالعربية، ثم انتقل إلى جامعة علي كره، وتلقى فيها اللغة العبرانية عن زميله المستشرق البروفيسور هارويز، وعلمه العربية، ثم عمل أستاذاً للعربية في جامعة إله آباد من ١٩٠٨م إلى ١٩١٣م، وفي ١٩١٤م تولى عمادة دار العلوم الحكومية العثمانية في حيدر آباد، وشارك في تدوين المصطلحات، وترجمة الكتب، وإعداد المناهج، رجع من حيدر آباد سنة ١٩١٩م لعدم ملاءمة الجو له، وتفرغ لمدرسة الإصلاح التي أسسها سنة ١٩١٠م، وكان من أهم مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية والاختصاص في علوم القرآن، انتخب رئيساً للجنة «دار المصنفين» الإدارية، نال شهرة عظيمة كمفسر للقرآن، وأديب متضلع في العربية. له مؤلفات عدة بالفارسية والعربية، من أهمها: دلائل نظام القرآن، الإمعان في أقسام القرآن، القائد في عيون العقائد، الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، أساليب القرآن، جمهرة البلاغة، ديوان شعر بالعربية وبالفارسية، توفي سنة ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م في متهرا^(١).

ومن جيد شعره قوله^(٢):

سِرْ مَعَ الْعُقُلِ أَيْتَمَا سَارَا دُرْمَعَ الْحَقِّ حَيْثُ مَا دَارَا
لَا تَهْوُلَنَّكَ لَيْلَةٌ عَكَرَتْ إِنَّ بَعْدَ الظُّلَامِ أَنْوَارَا

١ - مجلة «معارف» الصادرة من دار المصنفين «أعظم كره» المجلد ٢٧، عدد ١ / ٨-١٧ والعدد ٢ ص ٨٥-٩٤، الإعلام ١٢٦٧ / ٣، علامه حميد الدين فراهي، ايک عظيم مفسر، ايک مايه ناز محقق، ايک بلند بايه مجدد، محمد عنايت الله سبحاني، اصلاحي، ص ٧-١٤، مكتبة الإصلاح، سرائي مير أعظم كره نوفمبر ١٩٧٨م.

٢ - ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، جمعه: بدر الدين الاصلاحي ٣٥، الدائرة الحميدية بسرائير، أعظم كره ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

وقوله^(١):

يَا بُؤْسَ لِلدُّنْيَا شَقِيًّا سَعِيدُهَا فَيَا وَيْلَ مَنْ يَسْعَى لَهَا يَسْتَزِيدُهَا
فَلَا يَرْجِعَنَّ إِلَّا إِلَى الضَّرِّ نَفْعُهَا وَلَا يَرْجِعَنَّ إِلَّا إِلَى الشُّحِّ جُودُهَا
فَسَيَّانِ عِنْدِي عَدْمُهَا وَوُجُودُهَا وَصِنَوَانِ عِنْدِي وَصْلُهَا وَصُدُودُهَا

ومن الشعراء المشهورين أيضاً الشيخ أبو محفوظ الكريم بن الشيخ محمد أمير حسن ابن الشيخ محمد معصوم، ولد سنة ١٩٣١م في بهار شريف، كان أبوه وجده من العلماء الأفاضل، فعنى الوالد بتربية ابنه تربية دينية، فدرس العربية، وشاركه فيه ابنه الأكبر د. محمد صغير حسن المعصومي أيضاً، حتى فاق هذا الابن الذكي، واستطاع أن ينظم أول قصيدة له في العربية وعمره ٩ سنوات، كما تتلمذ على أساتذة آخرين من أمثال الشيخ ولایت حسين، والشيخ عبد المنعم الجاتكامي، والشيخ عبد الرحمن الكاشغري الندوي، نجح في عدة اختبارات حكومية في اللغتين: العربية والانجليزية بتفوق وحصل على عدة أوسمة، عمل في المدرسة العالية بذاكا باحثاً، ثم في المدرسة العالية بكلكتا مدرساً مساعداً إلى أن ترقى إلى درجة الأستاذ وأحيل إلى المعاش سنة ١٩٩١م، نال جائزة رئيس الهند لخدمة اللغة العربية سنة ١٩٩١م. وهو لا يزال حياً^(٢) - حفظه الله وبارك في علمه. له بحوث وتبنيها، في مجلدين، ومقالات كثيرة منشورة في دوريات ومجلات، ومن غرر قصائده قوله: في قصيدته التي سماها بذكر العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي يقول فيها^(٣):

تَحَدَّثَ عَنِ الْحَبْرِ الْمُشَاطِرِ لِلْبَحْرِ وَعَنْ لُجَجِ الْبَحْرِ الْمُسَايِرِ لِلْحَبْرِ
حَدِيثُكَ عَنْ حَبْرٍ تَصَدَّرَ لَا فُظًّا بِدُرٍّ وَمَرْجَانٍ حَدِيثٌ عَنِ الْبَحْرِ

١ - ديوان الفراهي ص ٣٦.

٢ - بحوث وتبنيها، أبو محفوظ الكريم المعصومي، ص ٦٣-٧٠، باعثناء الدكتور محمد أجمل أيوب إصلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط ١، ٢٠٠١م.

٣ - مجلة المجمع العلمي الهندي، العدد الممتاز عن الأستاذ العلامة عبد العزيز الميمني رحمه الله على مرور مائة عام على ميلاده ٣١٤-٣٢٣، شوال ١٤٠٥هـ-يونيو ١٩٨٥م.

سَوَاءٌ إِذَا لَقَّبْتَهُ الْبَحْرَ طَامِيًّا أَوِ الْحَبْرَ غَوَّاصًا عَلَى نَاصِعِ الدَّرِّ
سَمِيَّ (ابْنَ مَرْوَانَ) الْأَمِيرَ عَلَى (مِصْرٍ) عَلَى أَنَّهُ حَقًّا سَمِيَّ أَبِي (الْبَكْرِيِّ)
إِخَالُ أَبَا الْحَجَنَاءِ وَافَاهُ مُنْشِدًا (لِعَبْدِ الْعَزِيزِ) الْمَطْلَعِ الْغَضِّ بِالْجَهْرِ
فَهَبْنِي (نَصِيبًا) عَنْ سَمِيٍّ أَمِيرِهِ تَحَدَّثْتُ مَا اسْطَاعَتْ مُطَاوَعَةُ الْفِكْرِ
إِذَا كَانَ حَيًّا، لَمْ أَزُرْهُ مُشَافِهًا فَجَاءَ قَرِيضِي الْيَوْمَ مُنْجَبِرِ الْكُسْرِ
عِبَارَاتُنَا عَنْهَا سَنَا الْبَدْرِ فِي غِنَى فَهَلْ نَحْنُ عِشْنَا فِي غِنَى عَنْ سَنَا الْبَدْرِ
يُفُوقُ الْفَتَى أَقْرَانَهُ، فَكَأَنَّهُ حَكَى الْقَمَرَ السَّارِي، لَدَى الْأَنْجُمِ الزَّهْرِ
تُجَلِّي عِبَارَاتِي عَنْ الْبَدْرِ زَاهِيًا فَهَبْهُ رَدِيفَ (الْمِيمَنِيِّ) عَلَى ظَهْرِ
لَهُ مِنْ فِي جِيدٍ فَضَحَى لُغَاتَنَا قَلَّادُهَا أَزْدَانَتْ بِمُلْتَمَعِ الشُّذْرِ
تُبَاهِي بِهِ الْهُنْدُ الْكَرِيمَةَ مَوْطِنًا فَقَدْ أَنْجَبْتَهُ (الرَّاجِكُوتُ) مِنْ (الْجَزْرِ)
أَقَامَ (بِدِهْلِي) فِي ذُرَا أَدْبَائِهَا وَفِي (رَامْفُورَ) عِنْدَ أَعْيَانِهَا الْغُرِّ

ويقول بعد ذكر مشايخ الميمني، ورحلاته التي قام بها، وذكر الأماكن التي درس فيها، ومكانته لدى المستشرقين والعرب وبعد ذكر أعماله وهجرته إلى باكستان، والرد على حساده وأعدائه، وبعد ذكر أشهر تلاميذه وأعمالهم يتحسر على أنه لم يستطع اللقاء بهذا الجبل الشامخ، والعلم البارز، يقول:

وَلَهْفِي عَلَى أَنِّي حُرِمْتُ لِقَاءَهُ وَإِنْ خِلْتَنِي مِنْ كُتْبِهِ فِي دُمَى الْقَصْرِ
دُمَى الْقَصْرِ، كَلَّابِلُ جَاذِرٍ (جَاسِمٍ) مَسَارِبُهُ ابْنُ الْأَعَارِبِ فِي قَفْرِ
فَطَابَ بِهَاعْهَدِي خَدِينًا مُنَاغِمًا لَهَا، حَيْثُ أَهْوَاهَا بِحَقِّ الْهَوَى الْعُذْرِي
وَمَدْرَسَةٍ لِلضَّادِ قَدْ كَانَ قُطْبُهَا وَإِنِّي لَمِنْ أَقْلَامِهَا الْقَلَمِ الْمَبْرِي

وَهَذِي بَرَايَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ الْحِجَى مِنْ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ وَالنَّعَمِ الْحُمْرِ

ثم يشيد باللغة العربية، ويمجدها فيقول:

هِيَ اللُّغَةُ الْفُضْحَى الضَّمِيْنَةُ لِلْهُدَى
وَجَامِعَةُ الدُّنْيَا إِلَى قِمَّةِ الْعُلَى
وَقَامِعَةُ الْأَهْوَاءِ وَالضَّيْمِ وَالْجَنَاءِ
فَإِنَّ (كِتَابَ اللَّهِ) غُرَّةَ وَجْهِهَا
فَسَارَتْ مَسِيرَ الشَّمْسِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
بِأَسْمَى رِسَالَاتِ الْإِلَهِ، تُفِيْدُهَا
لَهَا فِي قَرَارَاتِ النَّفُوسِ تَعْلُغُ
تُنَادِي عَلَى وَجْهِ الْبَسِيْطَةِ جَهْرَةً
زَهَاهَا (كِتَابُ اللَّهِ) نُورًا وَبَهْجَةً
لَهَا غَيْرُ مَغْنَاهَا الْعَيْتِيقُ مَوَاطِنُ
تَفُوقُ لُغَاتِ الْأَرْضِ طَيِّبًا وَحِكْمَةً
فُسُبْحَانَ مَنْ أَنْشَأَ اللُّغَاتِ بِأَسْرَهَا
وَأَبْدَعَ فِي تَفْوِيْفِهَا فَقَضَى لَهَا
فَطَبْعًا أَتَى بَعْضُ اللُّغَى فَوْقَ بَعْضِهَا
فَمَا ذَنْبُهَا إِنْ عَطَرَتْ نَفَحَاتُهَا
وَلَوْ لَا مَزَايَا الضَّادِ لَمْ تَصُمْ مُهْجَتِي

فهؤلاء الشعراء هم إن شاء الله - حسب علمي واطلاعي - أهم من اشتهر بالشعر

العربي في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، من بين شعراء كثيرين سيواجهوننا في صفحات البحث القادمة.

المبحث الثاني

أهم العوامل المؤثرة في شعرهم

الشعر العربي في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين تنازعت عواطفه عوامل ساعدت على وجوده وازدهاره وعوامل أخرى أدت إلى ضعفه وقلته؛ ولذا كان الأجدر بنا أن نتناول كلا الأمرين:

أولاً- عوامل ازدهاره:

تلك المؤثرات التي كان لها دور عظيم في وجود الشعر العربي وازدهاره في الهند خلال فترة الدرس، ومن أبرز هذه العوامل أمران:

(أ) المدارس الإسلامية:

ازدهر التعليم في الهند إبان الحكم الإسلامي ازدهاراً عظيماً، فكانت في كل بقعة من بقاع الهند مدارس وكتاتيب، يؤمها الطلاب، ويقصد إليها العلماء من داخل الهند وخارجها، وقد ذكر غاندي «أنّ الهند الإسلامية كانت تزخر بالمدارس، حتى كان لكل ٤٠ شخصاً مدرسة مستقلة»^(١).

وكان التعليم في هذه المدارس الإسلامية على عدّة مراحل ومستويات، ويُدرّس فيها منهج معين يُسمّى بـ«المنهج النظامي» نسبة إلى واضعه «الملا نظام الدين» وهو المنهج السائد في جميع مدارس شبه القارة الهندية، والمدارس التي أقامها متخرجو هذه المدارس في عدة أقطار في العالم كسري لنكا، وجنوب إفريقيا، وكينيا، وموزمبيق، وبريطانية وغيرها، وكان العلماء يطورون هذا المنهج ويعدلون فيه بين فينة وأخرى؛ ليلائم العصر والبيئة، ويلبي حاجات العصر، ويواكب تطوراتها.

وكان في هذا المنهج نصيب كبير للعربية، لقواعدها وآدابها، فكانت تدرس عدّة كتب في الأدب العربي منها: المقامات،^(٢) وديوان الحماسة، وديوان المتنبي، والمعلقات السبع،

١- مجلة «سه ماهي» تحقيقات إسلامي، علي كره، ص ٨٦ عدد يوليو-سبتمبر ١٩٩٤م.

٢- الثقافة الإسلامية في الهند، عبد الحي الحسني، ص ١١، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٣هـ.

وكانت ثقافة علماء الهند الأدبية - في الغالب - مقصورة على هذه الكتب وعلى الدواوين الشهيرة؛ ولذا كثر لديهم تتبع الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين. وترسخت في أذهان هؤلاء العلماء أساليب هؤلاء الشعراء ومعانيهم وأفكارهم، ورأوا فيهم النموذج الأمثل للشعر العربي، فدانوا لهم بالفضل، وأقروا لهم بالسبق والتقدم في حلبة الشعر، وترسموا خطاهم في شعرهم.

وبهذا كانت هذه المدارس أول عامل أثر في هؤلاء الشعراء في تكوينهم الثقافي، وحبب إليهم الشعر العربي، وأطلعهم على أفضل نماذجه، وزودهم بمعانيه وأفكاره، ولغته وأساليبه، وشجعهم على قرض الشعر والنظم باللغة العربية.

(ب) الهجرة:

إن للهجرة أثراً عظيماً في تاريخ الأمم والشعوب دينياً وثقافياً واقتصادياً وسياسياً، فكم من أمة كانت خاملة الذكر في موطنها، نالت العزّة والسّيادة في المهاجر، وكم من أمة كانت متمسكة بالوحي السماوي، ولما هاجرت أو هاجر إليها قوم آخرون، تأثرت بعقيدتهم، وسري إليها الفساد من أخلاقهم.

وقد هاجر إلى الهند منذ القدم أقوام كثيرون، منهم الآريون، والأفغان، والمغول، ومنهم الإنجليز والأوروبيون الآخرون وغيرهم، وكما هاجرت إلى الهند طوائف وجماعات، هاجر إليها أفراد وأعيان أيضاً، طلباً للعلم، أو كسباً للمال، أو فراراً من الظلم، أو بحثاً عن رفاهية العيش.

ونجد أن كثيراً ممن اشتهر في الهند بالشعر والأدب العربي - في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين - كان من أولئك الشعراء الذين هاجروا إلى الهند لأسباب عديدة، كأمثال الشيخ محمد بن أحمد اليميني، والشيخ محمد بن حسين اليماني، والشيخ محمد طيب مكّي، والشيخ تقي الدين الهلالي، والشيخ عبد الرحمن الكاشغري الندوي، والشيخ عبد الحق حقي العظمي، والشيخ محمد الجفري وغيرهم.

كما تنقل بعض الشعراء واغتربوا في داخل الهند من منطقة إلى أخرى لأسباب معيشية على نحو ما حصل للشيخ فيض الحسن السهارنفوري، والشيخ الطاف حسين حالي، والشيخ أحمد بن مصطفى الكوبامثوي. وقد ساهمت هذه الهجرات والتنقلات في ازدهار الشعر العربي في الهند بطرق مختلفة على النحو التالي:

ساعد هؤلاء الشعراء المهاجرون والمغتربون في إيجاد جو ملائم لازدهار الشعر في

بيئاتهم التي انتقلوا إليها، بوجودهم وبما كان بينهم من مجالس ومكاتبات شعرية، كما سنري بين الشيخ محمد بن حسين الأنصاري، والشيخ محمد طيب مكّي، وبين الشيخ محمد اليمني والشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي، وغيرهم. كما كان لهم أثر بارز وملموس في توجيه تلاميذهم، فكثير من هؤلاء الشعراء كان لهم دروس وحلقات علم، وكان الطلاب يؤمونهم من كل فجّ وشعب، وكانوا يتأثرون بملازمتهم والتلمذ عليهم. فكان هذا التلمذ حافزاً لصقل مواهبهم الشعرية، ومشجعاً لهم على قرض الشعر، والتعبير عن أحاسيسهم في القالب الشعري.

كان هؤلاء الشعراء المهاجرون والمغتربون يشعرون بألم الفراق والغربة، ويتشوقون إلى ديارهم، ويحنون إلى ذويهم وأقاربهم في بلدانهم التي غادروها، فكانت هذه العاطفة تذكّي ملكاتهم الشعرية للتنفيس عن خلجات صدورهم في هذا القالب، كما نرى أثر هذه العاطفة واضحاً في قصائد محمد اليمني، وألطف حسين حالي، وفيض الحسن السهارنفوري، يضاف إلى ذلك تلکم التجارب التي كانوا يمرون بها خلال هذه التنقلات والهجرات، فكانت توحّي إليهم بموضوعات يعبرون عنها في شعرهم كما نرى ذلك في بعض قصائد الشيخ أحمد الكوبامثوي.

ثانياً: عوامل القلة والضعف:

مع وجود العاملين السابقين لازدهار الشعر العربي في الهند كانت هناك عوامل أخرى، لها أثرها في ضعف المستوى الشعري لدى شعراء العربية هناك، ومن أهم هذه العوامل:

(أ) قلة العناية بالنقد:

لم يكن للنقد وكتبه أيُّ مجال في المنهج النظامي، ولعل واضعي هذا المنهج لا يرون للدراسات النقدية تلك الأهمية في الهند، في منهاج المدارس الدراسي؛ لأنّ مهمتهم الأولى في هذه البيئة هي الحفاظ على عقيدة الإسلام الصّافية، وتعليم المسلمين أحكام دينهم، ونشر الإسلام وتبليغه لغير المسلمين.

ولذا كان تركيزهم على العلوم الشرعية، ولم يكن لديهم تلك الفسحة الكافية للاشتغال والتعمق في الدراسات الأدبية والنقدية.

وكان من نتائج غياب هذه الدراسات النقدية أن الأدباء والشعراء كانوا يبالغون في الثناء على بعضهم وعلى أعمالهم الأدبية والشعرية، ويفرطون في الإشادة بها، فلم يكن النقد لدى هؤلاء الشعراء أداة رفع الشعر، وتقويمه، ورقيه، والنهوض بمستواه، بل

كان لهذه التقريظات وتلك المبالغات آثار سلبية على هؤلاء الشعراء؛ إذ فرح كل منهم بما لديه، وبقي معجباً بنفسه وشعره، ولم يكن لديه ما يدفعه إلى تعميق ثقافته الأدبية، والعمل على رفع مستواه الشعري ومعلوم لدينا أنّ كثرة الخداع في كثرة المجاملة كما يقول المثل الإنجليزي: «full of courtesy, full of craft»^(١).

(ب) وجود بيئة أجنبية:

سبق أن ذكرتُ في التمهيد أن الفارسية كانت هي اللغة الرسمية في الهند أيام الحكم الإسلامي، ولما جاء الاستعمار البريطاني بدأت الإنجليزية وأدائها تنافس الفارسية حتى أزالها عن مكانتها السابقة، وحلت محلّها، وبعد الاستقلال عن الاستعمار البريطاني بدأت اللغات المحلية تقوم وتنفض عن نفسها الغبار، وتحيي أدائها ومآثرها، كما حلت اللغة الأردية مكان اللغة الفارسية لدى المسلمين. فلم يكن للعربية سيادة في الدواوين الرسمية في الهند، كما لم يكن لها رواج لدى عامة الشعب، ولذا قل في الهند - على مستوى العامة والخاصة - من يتذوق الشعر العربي، بينما لقيت الآداب الأخرى تشجيعاً من الولاة والعامة، فكانت تُصرف لأدبائها مكافآت جزيلة، وهدايا قيمة؛ ولذا انصرفت الهمم واتجهت الأنظار إلى لغات أخرى، وبقيت العربية في معازلها في المدارس والزوايا، ولم يلق أصحابها وأدباؤها من الدعم والتشجيع ما يدعوهم إلى بذل جهودهم في سبيل النهوض بالشعر العربي. فنرى مثلاً أن أصحاب المواهب الجبارة التي وجدت في الهند في هذه الفترة كأسد الله خان غالب، ومحمد إقبال، وربندر ناتھ طاغور، وغيرهم لم يستخدموا العربية للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم، بل لجأوا إلى لغات أخرى تضمن لهم نشر رسالتهم، واكتساب جمهور كبير، كالفارسية والأردية أو لغات أخرى محلية كالبنغالية وغيرها.

فكما ضعف الأدب العربي في العصر المملوكي والعثماني بسبب عدم التشجيع من قبل الأمراء، ضعف الأدب العربي في الهند أيضاً لهذا السبب نفسه.

(ج) قصور المواهب وضعفها:

لما انصرفت أصحاب المواهب الجبارة، والعقول الفذة، والقدرات العالية، إلى آداب

1-See: English proverbs explained by Ronald Ridout & Clifford Witting – page: 72 – printed in Lebanon by Typo Press – 1976..

وطبيعة الأمثال بين العربية والإنجليزية، د. محمد عبد الجواد فاضل، ص ١١١، ط ١، ١٩٩٢م.

أخرى، لم يبق للعربية إلا من قلت مواهبهم، وضعفت ملكاتهم، عن السابقين، بل عن كثيرين من غيرهم أيضاً. ومن دلائل هذا الضعف والقصور، أن كثيراً من هؤلاء الشعراء لهم مشاركات في الشعر الفارسي والأردني، مثل المفتي صدر الدين آزرده، وأطاف حسين حالي، وباقر آكاه المدراسي، وغيرهم، ولكن لم تكن لهم -في الغالب- منزلة عالية أو مرتبة سامية في تلك الآداب أيضاً، مع أن تلك الآداب كانت في لغاتهم الأصلية التي كان لهم فيها مجال رحب للبراعة والإبداع والإجادة والتفوق.

(د) قرب العهد بعصور الضعف والانحطاط:

من العوامل التي أدت إلى ضعف الشعر العربي في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين أن هذه الفترة تالية لعصر يُعدُّ من عصور الضعف في الأدب العربي، وهو العصر العثماني الذي يرى أغلب مؤرخي الأدب العربي أن الضعف نال الأدب العربي في هذا العصر بسبب عدم تشجيع الخلفاء الأتراك له، فلم يكن الضعف لدى شعراء العربية في الهند ناتجاً من أنفسهم فقط دون غيرهم، بل كان متوارثاً من عصور سابقة، فظلوا عليه، مع محاولاتهم للتخلص منه.

ويلحظ أن هذه الفترة كانت فترة نهوض وإحياء للشعر العربي في موطنه في مصر والشام والجزيرة العربية، وظهرت هناك مواهب جبارة، ومدارس عديدة، ونظريات جديدة في الأدب والنقد، إلا أن قلة المواصلات في أكثر هذه الفترة، وقلة اهتمام العلماء الهنود بالأدب والنقد، حالاً دون الاطلاع على هذا النتاج الجديد، والتأثر به، والسير على خطاه، وإن حاول بعض الأدباء في نهاية القرن الرابع عشر الهجري ممن تمكنوا من الدراسة في الجامعات العربية إخبار الشعراء الهنود بما جدَّ في العالم العربي.

وقد بدا لي أن هذه العوامل التي أثرت في شعر هؤلاء الشعراء المشهورين لم تكن خاصة بهم، بل كان لها آثارها في غيرهم من الشعراء أيضاً وسيبدو ذلك جليلاً وواضحاً في الصفحات القادمة -إن شاء الله تعالى-^(١).



١- أكثر ما ورد في هذا البحث هو استنتاج من دراسة ما لديّ من الشعر؛ لأنّي لم أجد -فيما لديّ من المراجع- مادة علمية في هذا الخصوص.

الفصل الثاني

أغراض الشعر العربي في الهند
ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول : الدعوة الإسلامية.

المبحث الثاني : المدح.

المبحث الثالث : الرثاء.

المبحث الرابع : الغزل.

المبحث الخامس : الإخوانيات.

المبحث السادس : المناسبات.

المبحث الأول الدعوة الإسلامية

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول : شعر العقيدة الإسلامية والشعائر.
- المطلب الثاني : شعر الزهد.
- المطلب الثالث : شعر التأسف على ما آل إليه حال المسلمين والدعوة إلى استنهاض الهمم.
- المطلب الرابع : شعر الجهاد في سبيل الله.

المطلب الأول

شعر العقيدة الإسلامية والشعائر

العقيدة من أهم ركائز الدين الإسلامي، وتمتاز العقيدة الإسلامية بتقائها ووضوحها، إذ لا لبس فيها ولا تعقيد، ولا إبهام ولا غموض، كما تمتاز ببراءتها من أي شائبة من الشرك بالله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته، والإيمان بالله تعالى هو الركن الأول من بين أركان الإيمان الستة.

كما انفردت العقيدة الإسلامية برؤيتها الواضحة ليوم القيامة والتي توافق جميع مقاييس العدل والعقل، وتبين ما يحصل في ذلك اليوم العسير من أهوال ومقامات، وحشر وميزان للأعمال، وعبور للصراط ثم الجنة بظلالها ونعيمها أو النار بشقائها وعذابها.

وتبدو آثار هذه العقيدة واضحة في الشعر العربي في الهند على نحو ما نجد لدى الشيخ محمد كفاية الله^(١) إذ يعبر عن معرفته بالله - عز وجل - وإيمانه به رباً وإلهاً، ويذكر بعض صفاته العلى كالرحمة والعلم، وأنه سبحانه وتعالى منزّه عن جميع صفات النقص، لا يماثله شيء، هو قادر، حي، قيوم، عالم الغيب والشهادة، خالق الخلق، وهادهم إلى الصراط المستقيم، يقول^(٢):

عَرَفْتُ اللَّهَ رَبِّي مِنْ بَعِيدٍ	فَكَمْ بَيْنَ الْإِلَهِ وَالْعَبِيدِ
عَرَفْتُ اللَّهَ رَبِّي مِنْ قَرِيبٍ	أَشَدَّ الْقُرْبِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ
قَرِيبٌ رَحْمَةً مِنَّا وَعِلْمًا	بَعِيدٌ فِي اكْتِنَاهِ عَنِ بَعِيدِ
تَعَالَى عَنِ سِمَاتِ النَّقْصِ طُرًّا	تَقَدَّسَ فِي الصِّفَاتِ عَنِ النَّدِيدِ
فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَلَيْسَتْ	مُشَارَكَةُ الْأَسَامِيِّ فِي الْعَدِيدِ
تَنَزَّاهُ عَنِ مُشَابَهَةٍ وَجِنْسٍ	فَسُبْحَانَ الْمُقَدَّسِ وَالْمَجِيدِ
أَظْلَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلْقِ فَضْلًا	بِظِلٍّ مِنْ عَطَايَاهُ مَدِيدِ
مَلِكٌ، قَادِرٌ، حَيٌّ، قَدِيمٌ	عَلِيمٌ بِالْمَغِيبِ وَبِالشَّهِيدِ

١- هو الشيخ المفتي: كفاية الله بن عناية الله بن فيض الله الحنفي، ولد ١٢٩٢ هـ بشاهجهانپور، درس في مدرسة شاهي مراد آباد، ودار العلوم بديوبند، من أشهر أساتذته شيخ الهند محمود الحسن، والشيخ خليل أحمد الأنبيتهوي، والشيخ منفعة علي الديوبندي.

له مشاركات سياسية قوية في الدعوة إلى استقلال الهند، وفي انتصار الخلافة العثمانية، كما له الفضل في تأسيس جمعية العلماء، وكان من كبار أنصار الحركة الوطنية التحريرية، سجن مرتين، قاوم حركة الردّة، وشارك رئيساً لوفد جمعية العلماء لحضور المؤتمر الإسلامي الذي عقده الملك عبد العزيز آل سعود، وشارك في مؤتمر فلسطين، كان قليل الاشتغال بالتصنيف لكثرة أشغاله الإدارية والسياسية، وكان منصرفاً إلى الإفتاء والتدريس، حتى اشتهر بـ«المفتي»، من أشهر تلاميذه: الشيخ إعزاز علي الديوبندي، سبحان الهند أحمد سعيد الدهلوي، مفتي ضياء الحق الدهلوي، محمد حسين الرانديري.

له شعر بالعربية، وتعليم الإسلام في ٤ أجزاء، ومجموع فتاواه في مجلدات كبار، توفي سنة ١٣٧٢ هـ (البلاغ، تعليمي نمبر ٢٨٦-٣٠٠، كريمي بريس بومباي ١٣٧٤ هـ، مختصر تاريخ مدرسة أمينه إسلامية دهلي، حفيظ الرحمن واصف ٣١-٧٦، يونين برنتنك بريس دهلي، ١٣٧٧ هـ، الإعلام ٣/ ١٣٣٢-١٣٣٤).

٢- روض الرياحين محمد كفايت الله، ص ١، أفضل المطابع دهلي سنة ١٣٢٧ هـ.

تَبَارَكَ مَنْ حَكِيمٍ ذِي اخْتِرَاعٍ وَمُبْدِعِ ذَلِكَ النَّسَقِ السَّيِّدِ
بَرَى خَلْقًا وَأَتَاهُمْ هُدَاهُمْ وَعَقْلًا لِّلْفَرَازِ عَنِ الْمَحِيدِ
ونجد القاضي محمد ارتضا خوشنود^(١) يذكر أن الله تعالى ليس له شريك في القضاء،
وأنه لم يلد ولم يولد، وأنه واحد، صمد، سميع، عالم بكل شيء، يقول^(٢):

وَأَنْتَ الْفَاعِلُ الْمُخْتَارُ رَبِّي شَرِيكَكَ لَيْسَ أَحَدٌ فِي الْقَضَاءِ
وَأَنْتَ وَاحِدٌ، صَمَدٌ، سَمِيعٌ بَصِيرٌ، عَالِمٌ بِالْإِحْتِوَاءِ
وَلَمْ تَلِدِ الْبَنِينَ وَلَا بَنَاتٍ وَلَمْ يُولِدْكَ فَرْدٌ يَأْمَنَائِي^(٣)

ويذكر الشيخ محمد ناصر البليايوي^(٤) أن الله تعالى هو الملك السلام، ذو الفضل
العظيم، مستحق الحمد والثناء، لا يموت ولا ينام، خالق الخلق ومعيدهم بعد الفناء،
هو الرقيب وبه الاعتصام، يقول^(٥):

تَبَارَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّلَامُ وَأَنْتَ اللَّهُ يُحْمَدُكَ الْأَنَامُ
وَنَشْهَدُ أَنَّهُ أَحَدٌ جَلِيلٌ مَلِكٌ لَا يَمُوتُ وَلَا يَنَامُ
وَنَحْمَدُ رَبَّنَا سَعَةً وَضِيقًا عَظِيمٌ شَأْنُهُ وَهُوَ الْعَظَامُ

١ - هو الشيخ محمد ارتضاء علي بن مصطفى علي خان، سافر إلى لكهنؤ وسنديلة وبلكرام لتلقي العلم، ودرس على الشيخ
حيدر علي بن حمد الله، والشيخ إبراهيم المليباري، تولى القضاء الأكبر في مدراس.
من مصنفاته: منحة السراء في شرح الدعاء، النفائس الارتضائية، ورسائل وشروح، توفي سنة ١٢٧٠ هـ (حركة التأليف
باللغة العربية ص ٣٠٣-٣٠٤).

٢ - النفائس الارتضائية، ارتضاء عليخان الكوبامثوي، ص ٦، دائرة المعارف، حيدر آباد، بدون تاريخ.

٣ - الصحيح: لم يلدك، لكن الشاعر لعله اضطر إلى هذه الصيغة الخاطئة لاستقامة الوزن.

٤ - هو الشيخ محمد ناصر من أهالي «بليا» من أترابرايش، تلقى العلوم في دار العلوم بديوبند، وعمل فيها موظفًا، (جرعة
الضرب ص ٢-٣)، لم أعثر له على تاريخي الميلاد والوفاة.

٥ - جرعة الضرب في مدح سيد العرب، محمد ناصر البليايوي، ص ٦، مطبعة الجامعة المليية دهلي ١٣٥١ هـ.

وَرَبِّي وَاحِدٌ مَلِكٌ عَظِيمٌ رَقِيبٌ خَالِقٌ وَبِهِ اغْتِصَامٌ
نَظِيفٌ ذَاتُهُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ جَلِيلُ الشَّانِ يَذْكُرُهُ الْكَرَامُ
وَلَا يَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ شَيْءٌ مُحِيطُ الْعِلْمِ ذُو الْفَضْلِ الْعُظَامِ^(١)
وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فَخَامُ
لَهُ مُلْكُ السَّمَاءِ وَمُلْكُ الْأَرْضِ هُوَ الْحَيُّ الْقَدِيمُ لَهُ الدَّوَامُ
هُوَ اللَّهُ الْعَظِيمُ مُعِيدُ خَلْقٍ هُوَ الرَّحْمَنُ ذُو الْعَرْشِ السَّلَامُ

ويرى الشيخ عبد الأول الجونفوري^(٢) أن الله هو الأول والآخر، وأنه هو الظاهر والباطن، يجيب دعوة المضطرين، ويعلم أحوال المبتلين، ويدفع الضرر والبأس يقول^(٣):

تَبَارَكَ رَبِّي وَحْدَهُ وَلَهُ حَمْدٌ وَلَيْسَ لَهُ ضِدٌّ وَلَا نِدٌّ وَلَا حَدٌّ
عَلِيمٌ، عَلِيٌّ، أَوَّلٌ، آخِرٌ، مَوْلَى سَلَامٌ، عَزِيزٌ، ظَاهِرٌ، بَاطِنٌ، فَرْدٌ
فَسُبْحَانَ رَبِّي لَا يَزَالُ وَلَمْ يَزَلْ مُجِيبًا، سَوَاءٌ عِنْدَهُ الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ
قَرِيبٌ مِنَ الدَّاعِينَ رَبِّي وَإِنَّهُ يُجِيبُ دُعَا الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَا الْعَبْدُ^(٤)
عَلِيمٌ بِحَالِ الْمُبْتَلِينَ وَدَافِعٌ لِمَسَّهِمْ سُبْحَانَهُ وَلَهُ جَدٌّ

١- وقع الشاعر هنا في عيب من عيوب القافية يسمى الإبطاء وهو إعادة القافية بلفظها ومعناها قبل مضي سبعة أبيات.

٢- هو الشيخ: عبد الأول بن كرامة علي بن إمام بخش بن جار الله بن كل محمد بن دائم الجونفوري. ولد سنة ١٢٨٤هـ. تتلمذ على تلامذة مولانا عبدالحق بن عبدالحليم اللكهنوي، ثم سافر إلى الحجاز وأخذ عن الشيخ رحمه الله الكيراني، والشيخ عبدالله بن السيد حسن المرحوم، ثم لازم الشيخ عبدالحق بن شاه محمد الإله آبادي المهاجر. توفي ١٣٣٩هـ في كلكته جاوزت مؤلفاته ١٠٠ كتاب ورسالة، منها: الطريف للأديب الطريف، عرائس الأفكار في مفخرة الليل والنهار. ينظر لترجمته: الإعرام ٣/ ١٢٥٨-١٢٥٩.

٣- الدر النضيد، ص ٢٨.

٤- في المرجع: إذا ما، لكن فيه انكسار لوزن البيت.

المطلب الثاني

شعر الزهد

لقد جاء الإسلام فأخبر الإنسان أن الكون وما فيه لم يخلق سدى، ولم يترك هملاً، وإنما كل شيء بحق وغاية، فالدنيا دار ابتلاء واختبار للإنسان، وفرصة استعداد وتزود لما بعد الممات، حيث القبر ثم النشر والحشر، وعندئذ يُحاسب العبد ويُسأل عن كل قول وعمل، ويجازى على كل صغيرة وكبيرة، ومن هنا دعا الإسلام الإنسان إلى الاستعداد للآخرة بالتقوى وعمل الصالحات وترك السيئات، وعدم الانشغال بزخارف الدنيا ومتعتها ولذاتها، وحث على التذكر الدائم للموت وسكراته، ودعا إلى تدبر حال المرء وعجزه وفوات فرصته بعد وفاته.

وكان هذا هو الأساس والمنطلق للزهد والزهاد في الإسلام وبين المسلمين، فكانت كل حياتهم هي الإقبال على الله تعالى بالتضرع والابتهال، طلباً لغفران الذنوب، ودخول الجنة وحصول رضا الرحمن، وكان شعارهم الرضا بالقضاء، والقناعة بما حصل دون الاستشراف إلى المزيد، والإعراض عن الدنيا، واستحضار الموت ومباغتته للمرء.

وكان شعر الزهد تعبيراً صادقاً عما تحيش به خواطرهم، وصورة واقعية لحياتهم وأحاسيسهم ومشاعرهم، ومن أمثلة هذا الشعر في الهند ما قاله الشيخ السيد سليمان الندوي^(١) في الحث على الرضا بالقدر، فذكر أن كل شيء في الحياة الدنيا زائل فإن

١- هو الشيخ: سليمان بن أبي الحسن الحسيني الزيدي الدسنوي البهاري. ولد بدسنه سنة ١٣٠٤هـ ونشأ بها. وقرأ على صنوه الشيخ أبي حبيب النقشبندی ثم سافر إلى «بهلوارى» و«درهنگه» لتلقي العلم، وأخيراً وصل إلى دار العلوم ندوة العلماء لكنائز ونجرح فيها. وتأدب على العلامة شبلى بن حبيب الله البندوي، ولازمه وشارك في تحرير مجلة «الندوة» و«الهلل» وعمل أستاذاً في دارالعلوم ندوة العلماء، لكهنؤ، وكلية «بونا» التابعة لجامعة مومباي، أستاذاً للآلكنسة الشرقية، وتولى نظارة «دارالمصنفين» ورئاسة تحرير مجلة «المعارف» بأعظم كره بعد وفاة العلامة شبلى النعماني.

زار لندن، وباريس، والقاهرة مشاركا ورئيسا في حركة الخلافة، وزار المملكة العربية السعودية على دعوة الملك عبد العزيز يرحمه الله، وزار أفغانستان مع الشاعر الإسلامي محمد اقبال على دعوة واليها الملك نادر خان، وتولى رئاسة القضاء هناك، ورئاسة الجامعة الأحمدية، والإشراف على التعليم الديني والمعاهد الدينية في ولاية «بهوفا» ولما ضمت الولاية إلى الحكومة الهندية هاجر إلى باكستان، وشارك في وضع الدستور الإسلامي هناك، كما اختير رئيسا للجنة التعليقات الإسلامية، توفي في باكستان في كراتشي سنة ١٣٧٣هـ.

كان من كبار المؤلفين في هذا العصر، ومن المكثرين من الكتابة والتأليف مع سعة علم ودقة بحث وتنوع مقاصد، له تكملة «سيرة النبي» لأستاذه شبلى النعماني في خمسة مجلدات كبار، تعتبر موسوعة في السيرة النبوية والعقيدة الإسلامية، و«خطبات مدراس» من خير ما كتب في السيرة النبوية، ونقل إلى الإنجليزية والعربية، و«أرض القرآن» و«سيرة عائشة»، و«سيرة مالك» و«خيام» و«نقوش سليمان» في البحوث اللغوية والأدبية، و«حياة شبلى» في سيرة أستاذه، و«عرب وهند كي تعلقات» (الصلات بين العرب والهند) ونقل إلى الإنجليزية، وعربون كي جهازراني (الملاحاة عند العرب). (الإعلام ٣/ ١٢٣٨، مجلة «الضياء» ص ٢٠، عدد رمضان).

لا يدوم، فعلى المرء ألا يتسجر بما يصيبه من المصائب والصعوبات، بل يرضى بها قدر له الرحمن، يقول^(١):

يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا دُمْتُمْ عَلَى الْأَرْضِ لَا تَخْلُصُونَ مِنَ الْإِبْرَامِ وَالنَّقْصِ
فَإِنَّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ قَاضِيكُمْ مِنْ شِدَّةٍ وَرَخَاءٍ كُلُّهُ يَمْضِي
وينكر على من يخشى الموت، مع أنه آت يقيناً، وقد أفنى قبلنا أجيالاً وأقواماً، ويشبهه بالدنس على الأثواب، فكما أن الأثواب لا بد أن تتدنس ولو بعد حين، فكذلك المنية لا بد أن توافي الإنسان، يقول^(٢):

حَتَّامٌ تَخْشَى الْمَنَائِبَ فَهِيَ آتِيَةٌ وَيَنْفَدُ الْمَوْتُ أَعْدَادًا مِنَ النَّفْسِ
إِنَّ الْحَيَاةَ نِيَابٌ وَالرَّدَى دَنَسٌ حَتَّى مَتَى تَتَّقِي الْأَثْوَابَ مِنْ دَنَسٍ

وأرى أن الشاعر خالفه التوفيق في استخدامه كلمة «الدينس» للموت، لما توحى كلمة الدينس من معاني الإهانة والصغار، مع أن الله خلق الموت لحكم عظيمة، حيث قال عز وجل: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ^(٢) ﴿٣﴾.

ويدعو العلامة مرتضى البلكرامي الزبيدي^(٤) إلى التوكل على الله تعالى، والخشية من عقابه، وحفظ الجوارح، وتقديم أعمال البر وما يرضي الله سبحانه، وعدم المبالاة

١- الإعلام ٣/ ١٢٣٨.

٢- المرجع السابق نفسه.

٣- سورة الملك، الآية: ١.

٤- هو الشيخ الإمام العالم المحدث: مرتضى بن محمد بن قادري بن ضياء الله الحسيني الواسطي البلكرامي نزيل مصر ودفنها المشهور بالزبيدي، ولد بـ «بلكرام» سنة ١١٤٥ هـ.

تلقى العلم من أساتذة بلده ثم سافر إلى «خير آباد» و«دهلي» و«سورت» ثم سافر إلى الحجاز واليمن، ومصر واستوطن بها، له نحو من ثلاثمائة شيخ من أهمهم الشيخ ولي الله ابن عبد الرحيم الدهلوي، والشيخ عبد الخالق بن أبي بكر المزاجي، والشيخ أحمد الملوي.

توفي في شعبان سنة ١٢٠٥ هـ، له مصنفات كثيرة من أهمها: تاج العروس شرح القاموس، وتكملة القاموس وإنالة المنى في سر الكني وألفية السند، والأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة.

(الإعلام ٣/ ١١٠٨-١١١٢).

بأقاويل الناس حيث إن رضا الناس غاية لا تدرك، يقول:

تَوَكَّلْ عَلَى مَوْلَاكَ وَاخْشَ عِقَابَهُ وَدَاوِمْ عَلَى التَّقْوَى وَحِفْظِ الْجَوَارِحِ
وَقَدِّمْ مِنَ الْبِرِّ الَّذِي تَسْتَطِيعُهُ وَمِنْ عَمَلٍ يَرْضَاهُ مَوْلَاكَ صَالِحِ
وَأَقْبِلْ عَلَى الْفِعْلِ الْجَمِيلِ وَبَذِلْهُ إِلَى أَهْلِهِ مَا اسْطَعْتَ غَيْرَ مُكَالِحِ^(١)
وَلَا تَسْمَعْ الْأَقْوَالَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَلَا بُدَّ مِنْ مُثْنٍ عَلَيْكَ وَقَادِحِ^(٢)

ويذم الشيخ عبد الجبار^(٣) الدنيا ويبين أنها فتانة، تُوقع في البلاء والحيرة، خضرتها أشواك يأس وحسرة، ونضارتها سقم للروح، عاشقتها في تعب، وراغبها في نصب، لا منجى منه ولا منقذ، زخارفها تثير المرء وتجعله يحترق في حبّها، يقول:

لَحَا اللَّهُ دُنْيَا فَتَنَّتْنِي بِزَهْرَةٍ وَقَدْ أَوْقَعْتْنِي فِي بَلَاءٍ وَحَيْرَةٍ
بِخُضْرَتِهَا أَشْوَاكُ يَأْسٍ وَحَسْرَةٍ بِنُضْرَتِهَا أَسْقَامُ رُوحٍ وَمُهْجَةٍ
غَدَائِرُهَا حَيَاتٌ حُزْنٍ وَوَحْشَةٍ عَقَارِبُ أَدْوَاءٍ وَزُورٍ وَنُكْبَةٍ
لَقَدْ لَدَغَتْ مَنْ كَانَ يَهْوَى وَصَالَهَا فَلَا زَالَ فِي بُؤْسٍ وَكَرْبٍ وَنَقْمَةٍ
فَلَيْسَ لَهُ رَاقٍ وَوَاقٍ وَنَافِعٌ وَلَمْ يَسْتَرِحْ مِنْ كُزْبَةٍ وَصُعُوبَةٍ
رَزَاخِرُهَا قَدْ هَيَّجَتْ لَوْعَةَ الْهَوَى فَأَوْرَتْ بِنَفْسِي وَالْفَوَادِ بِشُعْلَةٍ^(٤)

ويبدأ الشيخ حبيب الرحمن العثماني^(٥) قصيدته بذكر الأحباب الذين حال الموت

١ - من كَلَحَ فلان يَكْلَحُ كُلُوحًا. عبس وزاد عبوسه (المعجم الوسيط).

٢ - الإعلام ٣/ ١١١٢.

٣ - هو الشيخ: عبد الجبار بن بدر الدين العمر بوري، ولد سنة ١٢٧٧ هـ بعمريور قرية من أعمال «مظفرنغر» قرأ على مولانا محمد مظهر النانوتوي، والشيخ أحمد علي بن لطف الله، والعلامة فيض الحسن السهارنفوري، ثم لازم السيد نذير حسين الدهلوي المحدث وأخذ عنه الحديث، له رسائل في الخلاف والمذهب، وله ديوان الشعر العربي، ولم نثره على تاريخ الوفاة. (الإعلام ٣/ ١٢٦٠)، تراجع علماء اهلحديث هند ١/ ١٦٥-١٦٦).

٤ - الإعلام ٣/ ١٢٦٠.

٥ - هو الشيخ حبيب الرحمن بن فضل الرحمن العثماني الديوبندي، ولد في ١٢٧٩ هـ في مدينة ديوبند، ودرس في دارالعلوم ديوبند من المرحلة الابتدائية حتى تخرج فيها عام ١٣٠٠ هـ ورشح لوكالة إدارة الدار سنة ١٣٢٥ هـ. ثم سافر إلى حيدرآباد

بينه وبينهم، فلا لذة بعدهم في العيش، ويذكر أن كل حي مصيره إلى الفناء، وأن الموت لا مفر منه لأحد، ولا ينفع دونه شيء، وهو خير واعظ للمرء يذكره الآخرة، ويوقظه من سبات الغفلة، وهو جسر للقاء الأحبة، ومن يجب لقاء الله ويستعد له يفز برضاه ويدخل جنته، يقول:

مَضَى قَبْلَنَا مَنْ كَانَ يُخْشَى فِرَاقَهُمْ وَمَنْ بِهِمْ كُنَّا نَقْلُ الصَّوَاكِمِ^(١)
وَكَانُوا لَنَا إِلْفًا فَبَانُوا وَلَا قِلَى وَنَحْنُ عَلَى الْأَثَارِ نَقْفُو الْمَنَاسِمَا^(٢)
فَمَا لِحَيَاةٍ بَعْدَهُمْ مِنْ لَذَاذَةٍ وَلَا طَيْبُ نَوْمٍ يَطْرُقُ الْمَرْءَ حَالِمًا
هُوَ الْمَوْتُ لَا يَبْقَى لَجَلْدٍ جَلَادَةٍ يُخْصُّ الْقَوَافِي نَمَّ يُودِي الْقَوَادِمَا
هُوَ الْمَوْتُ مُرَّ طَعْمُهُ وَمَذَاقُهُ يُحْيِي آمَالًا وَيُرْدِي الدَّعَائِمَا
هُوَ الْمَوْتُ لَا يَرْفِي لِبَاكِ وَلَا شَجٍ وَلَا لِأَنْبِيِ الثُّكُلِ يَرْحَمُ وَاجِمَا^(٣)
هُوَ الْمَوْتُ مَا نَجَّى الشَّجَاعَةُ خَالِدًا حَنِيفًا وَلَا نَجَّى السَّخَاوَةُ حَاتِمًا
هُوَ الْمَوْتُ لَمْ يَثْرِكْ لِيُوثَا حَوَارِدَ بِغَابٍ وَلَمْ يَثْرِكْ نُسُورًا قَشَاعِمَا^(٤)
هُوَ الْمَوْتُ إِلَّا أَنَّهُ خَيْرٌ وَاعِظٌ يُرَوِّعُ مِنْهُوَمَا وَيُوقِظُ نَائِمًا
وَلَكِنَّهُ جَسْرٌ لَوْصَلِ أَحِبَّةٌ إِذَا كَانَ حُبُّ اللَّهِ فِي الْقَلْبِ قَائِمًا
أَخْلَايَ مَنْ يَحْبِبُ وَيَشْتَقِي لِقَاءَهُ تَلْقَاهُ رِضْوَانٌ يُرْحَبُ قَادِمًا^(٥)

وتولى منصب الإفتاء هناك عام ١٣٤٤ هـ ثم رجع إلى ديوبند بأقل من سنة وعين مديراً لدار العلوم بعد وفاة الشيخ محمد أحمد في السنة نفسها.

توفي في سنة ١٣٤٨ هـ وكان إدارياً ماهراً وأديباً بارعاً، له ديوان شعر بالعربية (تاريخ دارالعلوم ديوبند لمحبوب رضوي ٥٩/٢).

١- هكذا في الديوان، ولعل الصواب: الصوارما.

٢- المناسم: جمع منسم: خفّ البعير (القاموس المحيط مادة ن س م).

٣- وجم يجم وجماً ووُجوماً: سكت على غيظ (القاموس المحيط مادة و ج م).

٤- حوارد: جمع حارد، الحرد: الغضب، ومنه قل: أسد حاردوليوت حوارد (لسان العرب مادة: ح ر د).

٥- معين اللبيب في جمع قصائد الحبيب، جمع محمد اعزاز علي، ص ٧٨-٦٨.

ثم يتطرق الشاعر - بعد تقريع النفس وزجرها على الغفلة والمعاصي - إلى بيان حقيقة الدنيا وأنها مثل ظل شجرة يستريح تحتها الراكب ليستظل بها ويستعين على إتمام سفره، وأن الإنسان يدفن في القبر الذي هو روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ويأتيه ملكان يسألانه، ويذكر بشدة الموقف يوم القيامة حيث تعرض الأعمال، وتبلى السرائر، وتكشف الأسرار، ويحث على التزود بالتقوى لذلك اليوم الرهيب، يقول:

وَمَا هِيَ إِلَّا مُسْتَظَلٌّ لِرَاكِبٍ يُجِدُّ مَسِيرًا لِلْمَنَازِلِ عَازِمًا
فَهَإِذَاكَ قَبْرٌ رَوْضَةٌ أَوْ حَفِيرَةٌ مِنَ الرُّوحِ أَوْ مِنْ لَهَبِهَا الْمُتْرَاكِمَا
وَيَأْنِي لِمَثْوَاهُ نَكِيرٌ وَمُنْكَرٌ يَزُورَانِ لِلتَّسَالِ مَيْتًا، وَمَاهُمَا
أَلَا وَادٌّ كَرَاهٍ وَلَا لِمَوْقِفٍ مُحْشَرٌ يُصَيِّرُ رِعْدِيدًا أُسُودًا ضَرَاغِمَا
وَتُعْرَضُ أَعْمَالٌ وَتُبْلَى سَرَائِرُ وَيُكْشَفُ فِي عَيْنِكَ مَا كُنْتَ كَاتِمًا
أَعِدُّوْا لَهُ زَادًا وَمَا الزَّادُ نَافِعًا إِذَا لَمْ تَكُنْ تَقْوَى إِلَاهَهُ مُلَازِمًا^(١)

ونجد في شعر الزهد عند بعض الشعراء التضرع إلى الله تعالى بطلب العفو والتوبة، والاعتراف باقتراف الذنوب والمعاصي، والتحسر على اتباع الهوى وإطاعة النفس، والتندم على ما سلف، وذكر رجاء المغفرة من الله تعالى وأنه أهل لذلك، وجوده عميم، وفضله واسع، ورحمته هي المرجوة، وأنه إن شاء عذبهم فهو قادر عليه، وهو عدل منه، إلا أن عفوه أوسع، يقول الشيخ أحمد بن مصطفى الكوبامثوي^(٢):

ظَلَمْتُ وَكُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ تَرَحَّمْ يَا وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ

١ - معين اللبيب ص ٦٨-٦٩.

٢ - هو الشيخ العالم الفقيه: أحمد بن مصطفى بن خير الدين بن خير الله العمري الكوبامثوي. ولد ونشأ «بكوبامثو» وقرأ العلم على ربحم الدين الكوبامثوي، وغلām طيب البهاري، والعلامة حيدر علي بن حمد الله السنديلوي، ثم سافر إلى مدراس فوله والاجاه حاكم مدراس التدريس بمدرسته التي كانت في كوبامثو، ثم تولى قضاء «ترتشناقلي» ولما توفي به قاضي القضاة محمد مستعد خان المدراسي قام مقامه في القضاء الأكبر واشتغل به مدة حياته.

توفي بمدراس سنة ١٢٣٤ هـ له ديوان الشعر الفارسي في مجلد، وله قصائد بالعربية. (الإعلام ٩٠٤-٩٠٥).

أَضَعْتُ الْعُمْرَ فِي كَسْبِ الْخَطَايَا وَصِرْتُ بِمَا اكْتَسَبْتُ بِهِ رَهْنِيَا
أَطَعْتُ النَّفْسَ حِينًا بَعْدَ حِينٍ وَإِنَّ النَّفْسَ شَرُّ الْحَاكِمِينََا
أَنْخَتُ النُّوْقَ فِي بَيْدَاءِ غَيٍّ وَلَمْ أَسْمَعْ لَوْ غَظِ الْوَاعِظِينَا
فَإِنْ جَارَيْتَنِي شَرًّا بِشَرٍّ فَعَذْلُ مِنْكَ رَبِّ الْعَالَمِينََا
وَإِنْ جَاوَزْتَ عَن ذَنْبِي فَعَفُوْ وَفَضْلُ رَبَّنَا فَضْلًا مُّبِينَا^(١)

ويقول الشيخ محمد يوسف البنوري^(٢):

سَأَلْتُكَ يَا إِلَهِي فِي لَيْالٍ بِخَوْفٍ قَدْ عَرَانِي فِي دُجَاهَا
أَتَيْتُكَ سَائِلًا وَالنَّفْسُ تَرْجُوْ وَأَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُؤْنِفُ مِنْهَا
فَطَنَّبَ فَوْقَهَا فُسْطَاطَ عَفْوٍ وَقَوَّضَ مِنْ خَطَايَاهَا خَبَاهَا
ذُنُوبِي إِنْ عَدْتُ عَدًّا وَحَصْرًا فَفَضْلُكَ يَا إِلَهِي قَدْ عَدَاهَا
فَعَامِلُنِي وَجَامِلُنِي بِفَضْلٍ كَمَا أَنْتَ لَهُ أَهْلٌ إِلَهَا^(٣)

ويكثر في هذا الشعر أسلوب النداء ويتكرر تأدبا مع الله عز وجل، وإظهاراً للتذلل

١- الإعلام ٣/ ٩٠٤، ٩٠٥.

٢- هو الشيخ محمد يوسف بن سيد محمد زكريا بن مير مزمل شاه بن مير أحمد شاه البنوري الحسيني، ولد سنة ١٣٢٦هـ في قرية بمديرية بشاور، ودرس القرآن على والده وخاله، ثم ذهب إلى كابل وبشاور وتلقى العلم هناك، ثم رحل إلى دار العلوم ديوبند لدراسة الحديث ولازم العلامة محمد أنور شاه الكشميري.

عمل مدرسا في جامعة داهيل في الهند ثم اختير رئيسا لهيئة أعضاء التدريس ثم شيخ الحديث، وبعد انفصال باكستان من الهند هاجر إلى باكستان وعين شيخ التفسير في دار العلوم الإسلامية في «تندو الله يار» ثم انتقل إلى كراتشي وأقام معهد التربية، لخريجي المعاهد والمدارس العربية الإسلامية تعرف الآن بجامعة بنوري تاون بكراتشي.

زار الحجاز، ومصر والعراق وليبيا، والأردن، وسوريا، وبيروت، وأفغانستان وتركيا، واليونان وشرقي إفريقيا، نشرت له مقالات في مجلات مصر وسوريا.

توفي سنة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م في راولپندي.

له معارف السنن في شرح الترمذي في ستة مجلدات، وله نفحة العنبر في حياة الشيخ الأثور، وكتب أخرى (مجلة البيانات كراتشي، العدد الخاص يناير، فبراير ١٩٧٨م).

٣- القصائد البنورية، ص ١٤١، ١٤٢.

والخضوع، كما يكثر ذكر بعض صفات الله العليا مثل الرحمة والمغفرة والفضل والإنعام، ويتكرر ذكر شدة الحاجة إلى الله تعالى، كما نرى ذلك عند الشيخ عبد الأول الجونفوري يقول:

يَا رَبِّ إِنَّا خَائِفُونَ مِنَ اللَّظَى وَارْحَمْ عَلَيْنَا إِنَّنَا تَتَوَاضَعُ^(١)
وَالَيْكَ قَدْ رُفِعَتْ أَكْفُ تَضَرُّعٍ مَنْ لَمْ يُؤْمَلْ مِنْكَ خَيْرًا ضَائِعٍ
وَاعْفِرْ ذُنُوبَ الْمُسْلِمِينَ مَحْنًا وَذُنُوبِي اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاسِعٌ
وَأَنْصُرْ عَصَاةَ الْمُسْلِمِينَ وَعَافِهِمْ وَأَقْبَلْ دُعَائِي رَأْفَةً يَسَامِعُ^(٢)

ويكثر في هذا المقام التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة من الإيمان بالله تعالى، وإثبات توحيده وعدم الإشراك به، والإيمان باليوم الآخر، والإقرار برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وتعلق الرجاء بالله تعالى وحسن الظن به، كما يقول القاضي طلائع محمد البشاوري^(٣):

تَجَاوَزْ وَلَا تَسْخَطْ وَأَسْبِغْ عَلَى طَلَا عَطَاءَكَ جَمًّا أَنْتَ بِالْجُودِ وَاسِعٌ
وَسَامِعٌ بِهِ وَاعْفِرْ وَأَحْسِنْ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ حَقِيرٌ عِنْدَ بَابِكَ قَارِعٌ
أَتَيْتُ مُنِيبًا حُسْنَ عَفْوِكَ رَاجِيًا وَجَلَّتْ خَطِيئَاتِي فَمَا أَنْتَ صَانِعٌ
إِلَهِي لَقَدْ أَبْرَزْتُ كَفِّي سَائِلًا فَأَعْطِ، فَإِنِّي فَاقِدُ الزَّادِ طَامِعٌ
إِلَهِي أَذِقْنِي بَرْدَ عَفْوِكَ إِنَّنِي ضَعِيفٌ ذَلِيلٌ خَائِفٌ لَكَ ضَارِعٌ

١ - الصواب: وارحمنا، لكن الشاعر وقع في هذا الخطأ بسبب ترجمة الأسلوب الأردني.

٢ - الطريف للأديب الطريف، ص ٢٩، مطبعة مجتبائي دهل، ١٩٦٤ م.

٣ - هو الشيخ القاضي: طلائع محمد بن القاضي محمد حسن بن محمد أكبر بن خان العلوم الأفغاني البشاوري، كان جده قاضي القضاة بأفغانستان، وكذلك صنوه عبد الكريم وابن أخيه عبد القادر، وكان الشيخ طلائع محمد متولياً بديوان الإنشاء في كلكتة، وولده محمد أسلم كان والياً من تلقاء الإنجليز في بعض المنصرفات. تأدب على ذويه وتفقه، ثم أخذ الحديث عن السيد نذير حسين الدهلوي المحدث المشهور، ولازم الشيخ عبد الله بن محمد أعظم الغزنوي، توفي سنة ١٣١٠ هـ بمكة المكرمة. له نشأة الطرب في أسواق العرب. (الإعلام ٣/ ١٢٥١-١٢٥٢).

إِلَهِي لَئِنْ نَاقَشْتَنِي أَوْ أَمَرْتَنِي حِسَابًا وَمِيزَانًا فَهَذَا أَنَا ضَائِعٌ^(١)
وَأَشْهَدُ يَا رَحْمَنُ أَنَّكَ وَاحِدٌ وَأَشْهَدُ أَنَّ الدِّينَ لَا شَكَّ وَاقِعٌ
وَأَشْهَدُ بِالتَّسْلِيمِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوكَ حَقًّا وَهُوَ هَادٍ وَشَافِعٌ
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ كُلِّ حُوبَةٍ صَنَعْتُ قَدِيمَ الْعَصْرِ أَوْ أَنَا صَانِعٌ
إِلَهِي فَأَكْرِمْ وَاعْفِرِ الْحُوبَ رَحْمَةً وَفَضْلًا فَإِنِّي خَاشِعٌ لَكَ خَاضِعٌ^(٢)

ويذكر الشيخ حبيب الرحمن العثماني أن الله تعالى خلق الخلق على صنفين: سعيد يفوز بدخول الجنة، ورضا المنان، وشقي يدخل النار ويبوء بالخسران، والله سبحانه وتعالى فعال لما يريد، يجعل من يشاء من أهل السعادة بفضله وإحسانه، وآخر يدخله في الأشقياء بعدله وحكمته، ثم يسأله الجنة، والنعيم تفضلاً ورحمة، كما يسأله الإيناس في القبر، والوقاية من الجحيم، ويشبه عفوهُ بالحصن المتين، وبالشمس المشرقة التي ينجلي منها ظلام الذنوب، ويذكر أن العفو من الله تعالى هو أعلى منيته وبغيته. ويظهر في هذا تأثر واضح بالكتاب المجيد والحديث الشريف في ذكر أصناف الناس، وفي طلب الجنة تفضلاً من الله سبحانه، يقول^(٣):

إِلَهِي خَلَقْتَ الْخَلْقَ لِلنَّارِ غَضَبَةً وَأُخْرَى لِرَوْضِ الْخُلْدِ قَسَمًا مُوزَعًا
وَلَسْتَ تُبَالِي مَنْ جَعَلْتَ لَهُ اللَّظَى وَمَنْ شِئْتَ خَلَدْتَ النَّعِيمَ مُتَعًا
وَلَا عِلْمَ لِي أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ غَضَبَتِي؟ سَعِيدًا أُنَادِي أَمْ شَقِيًّا مُقَرَّعًا؟
إِلَهِي ، فَأَدْخِلْنِي بِفَضْلِكَ وَاحِبُنِي نَعِيمًا مُقِيمًا خَالِدًا وَمُوسَّعًا
وَلَسْتُ بِأَعْمَالِي أُرِيدُ كَرَامَتِي وَلَا لِي أَنْ أَرْجُو وَأَنْ أَتَوَقَّعًا

١ - هكذا في المصدر لكن فيه انكسار الوزن ، ولعل الصواب « فإني لضائع ».

٢ - نشأة الطرب في أشواق العرب محمد طلا البشاوري ص ٤٣ .

٣ - معين اللبيب ص ٦-٧.

وَلَكِنَّكَ التَّوَّابُ وَالْعَبْدُ مُذْنِبٌ
إِلَهِي، وَأَنَسُ وَخَشْيَتِي وَارْتِ غَرَبْتِي
وَأُخْلَى بِأَعْمَالِي وَحِيدًا بِحُفْرَتِي
وَكُنْ لِي وَقَاءً عَنِ جَحِيمٍ وَنَارِهَا
إِلَهِي رَجَائِي فَوْقَ ذَنْبِي وَإِنِّي
وَعَفْوُكَ مَحَاءٌ، وَعَفْوُكَ شَامِلٌ
وَعَفْوُكَ شَمْسٌ لَا يَقُومُ لَهَا الدُّجَى
وَتِلْكَ مَنَى قَلْبِي وَنِي بُغْيَتِي الَّتِي
وَأَنْتَ كَرِيمٌ، لِلْخَلَاصِ مَوْقِعَا
إِذَا بَتُّ فِي لَحْدِي أَجَاوِرُ بَلَقَعَا
وَلَيْسَ أَنِيسُ غَيْرَ لُطْفِكَ مُتِمِّعَا
إِذَا صُبَّتِ الْأَهْوَالُ وَالْأُمُرُ أَقْطَعَا
لَأَعْلَمَنَّ أَنَّ الْعَفْوَ يُنْجِي الْمُرُوءَا
وَعَفْوُكَ حِصْنٌ كَانَ أَرْسَى وَأَمْنَعَا
وَذَنْبِي ظَلَامٌ يَنْجِلِي مُتَقَشَّعَا
إِذَا نِلْتُهَا حَازَتْ لِي الْفُوزَ أَجْمَعَا

المطلب الثالث

شعر التأسف على ما آل إليه حال المسلمين والدعوة إلى استنهاض الهمم

للإسلام في الهند وجود قديم، يرجع تاريخه إلى القرن الأول الهجري، وخلال هذا الزمن المديد تراوحت أحوال المسلمين في هذه البلاد بين قوة وضعف، وعز وذل، وتوحد وافتراق.

وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين - وهما الإطار الزمني لهذه الدراسة - انتاب المسلمين من الضعف والهوان ما أفزع المهتمين بشؤون الإسلام والمسلمين في تلك البلاد.

والشعراء - بما منحهم الله من حسّ مرهف - أدركوا خطورة هذا الأمر وأسبابه، ووصفوا للمسلمين في تلك الأحوال ما يكفل لهم إعادة مجدهم التليد وماضيهم المجيد. فنرى في هذه الحقبة جملة من الشعر يتأسف أصحابها على ما آل إليه حال المسلمين

من ضعف وذُلَّ وهوان، وما شاع بينهم من حقد وضغائن وخلافات، يقول عبد الحميد الصادق بوري^(١):

فَصِرْنَا نَحْنُ فِي وَهْنٍ وَهُونٍ يَرِقُّ لَنَا الْمُعَانِدُ وَالْحَسُودُ
سَعَى فِي الْأَرْضِ طُغْيَانًا وَعَدْوًا مَعَ الْأَحْزَابِ شَيْطَانٌ عَنُودُ
يَشِيْعُ الْبُغْضَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَفَرَّ الْجَمْعُ وَأَنْهَزَمَ الْجُنُودُ
وَكَانَ النَّاسُ قَبْلًا فِي شِقَاقٍ وَنَارُ الضُّغْنِ يُوقِدُهَا الْوَقُودُ
وَشَبَّ ضِرَامٌ نِيرَانِ النَّفَاقِ وَنَارُ الْبَغْيِ لَيْسَ هَا خُمُودُ
وَفِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالٌ غِلٌّ وَمِنْ حَقْدٍ بَارِئٍ جِلْهِمْ قُيُودُ
وَهُمْ عَنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ رَغِبُوا وَقَدْ بَعُدُوا كَمَا بَعُدَتْ تُمُودُ^(٢)

ويذكر الشاعر أبو سلمى محمد جمال الدين^(٣) على لسان الإسلام أنه قد أطبق عليه الظلام، بسبب الضلال المنتشر في العالم وبسبب فقدانه البصر بكثرة البكاء، على ما أصابه من رزايا ومصائب، وأنها لو أصابت السماء لتبعثرت نجومها، ولم يبق لها ضياء وزينة، وأنه قد ألبس زياً شوه منظره للناظرين بعد ما كان أجمل ما يرى، يقول:

غَارَ النُّجُومُ وَلَا صَبَاحٌ يَظْهَرُ وَأَنْبَثَ فِي الْأَرْضِ الظَّلَامُ الْأَكْبَرُ

١- هو الشيخ عبد الحميد بن أحمد الله بن إلهي بخش بن هداية على الهاشمي الصادق بوري العظيم آبادي. ولد سنة ١٢٤٥هـ ببلدة عظيم آباد، وقرأ المختصرات على عمه الشيخ فياض علي، ثم سافر إلى لکناؤ، ولازم دروس المفتي واجد على البنارسي وأخذ عنه العلوم الحکمية، وأخذ الطب عن الحکيم طالب على اللکهنوي توفي سنة ١٣٢٣هـ بعظيم آباد. (الدر المنثور في تراجم أهل الصادقفور، عبد الرحيم زبيري هاشمي ٨٢-٨٤، مطبع يوناني دوا خانة، إله آباد، ١٣٤٢هـ- ١٩٢٤م، الإعلام ٣/ ١٢٦٦).

٢- الإعلام ٣/ ١٢٦٦.

٣- هو أبو سلمى محمد جمال الدين بن كنج أحمد كوتي «ولد في قرية» كيزال» بولاية كيرالا، سنة ١٩١١م: تلقى التعليم الابتدائي في الكتائب، ثم التحق بجامعة دارالسلام بعمرآباد وتخرج فيها وعمل مدرسا في عدة مدارس. من أساتذته: عبدالرحمن مسليار تركنديل، ومحمد بن أحمد الشيرازي. توفي سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م (الشعر العربي في كيرالا مبدوه، وتطوره، د. ويران محي الدين الفاروقي، ص ٢٢٤، مكتبة عربيت، كاليكوت سنة ١٤٠٠هـ).

وَبَدَتْ نَوَائِبُ لَوْ أَصِيبَ بِهَا السَّمَا
لَرَأَيْتُ كُلَّ نُجُومِهَا تَتَشَتَّرُ
وَأَيْضَ عَيْنِي بِالْعَوِيلِ وَبِالْبُكََا
وَأَنْسَابَ مِنْهَا سَيْلٌ دَمَعٍ يَغْمُرُ
أَلَيْسَتْ زِيَّ تَشَوُّهُ مِنْ بَعْدَمَا
قَدْ كُنْتُ أَجْمَلَ مَا يَرَى مَنْ يَنْظُرُ^(١)

ويصرخ الشيخ أحمد بن عبد القادر الكوكني^(٢) صرخات عالية متتابعة تحسرا على ما آلت إليه أحوال المدارس الإسلامية من درس وعفاء، فهي تبكي العلم والعلماء، وتصرخ مثل صراخ الثكلى على وليدها الذي اخترمته المنية، وما يرى من تعطل شعائر الدين، ونقص في أرضه، وما يجد من خذلان المسلمين وتقاعسهم عن نصره دينهم، فليس هناك من يقوم بنصرة الدين ويحمي حوزته، يقول:

عَفَى دِيَارَ عُلُومِ الدِّينِ قَاطِبَةً
نَسِجَ الدُّبُورِ وَأَزْيَاحَ جَرَتْ نِقَمًا
يَا لِلْمَدَارِسِ أَضْحَتْ وَهِيَ دَارِسَةٌ
يَا لِلْمَكَاتِبِ تَبْكِي الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ
أَمَّا سَمِعْتُمْ بُكَاءَهَا وَهِيَ صَارِخَةٌ
صُرَاخُ ثَكْلَى عَلَى مَوْلُودِهَا اخْتَرَمَهَا
هَذِي الْمَشَاعِرُ صَيِّمُ الدَّهْرِ عَطَّلَهَا
وَرَدَّ وَارِدَهَا غَيْظًا وَمَا كَظَلَمَهَا
هَذِي الشَّعَائِرُ لَمْ تَبْقِ الصُّرُوفُ بِهَا
مِقْدَارُ عَشْرِ الْعَشِيرِ الْوُزْنَ وَالْقِيَمَا
وَارْحَمَتَاهُ لَأَرْضِ الدِّينِ يَنْقُصُهَا
رَيْبُ الْمُنُونِ مُدَّاسِيَلَهَا الْعَرَمَا
وَارْحَمَتَاهُ لِدِينٍ قَلَّ عُصْبَتُهُ
مِنْ كُلِّ حَامٍ حَمَاهُ رَاسِخٌ قَدَمًا^(٣)

ونلاحظ مثل هذه الصيحات الصارخة عند صنوه وشقيقه الشيخ عبد الله الجيتيكر^(٤) أيضاً، فهو يدعو إلى الجِد وتترك الهزل، ويدعو إلى الاستعداد لرفع ما نزل بالمسلمين من

١ - الشعر العربي في كبرالا، ص ٢٢٥.

٢ - هو الشيخ أحمد بن عبد القادر الجيتيكر الشافعي الكوكني، ولد سنة ١٢٧٢ هـ له شعر رائع، توفي سنة ١٣٢٠ هـ في مدينة بومباي. (الإعلام ٣/ ١١٧٣).

٣ - الإعلام ٣/ ١١٧٤.

٤ - هو الشيخ عبد الله بن المفتي عبد القادر الجيتيكر الشافعي الكوكني، ولد ونشأ بمدينة بومباي، وقرأ العلم على صنوه الكبير الشنخ أحمد، وعلى غيره من العلماء، توفي سنة ١٣٢٥ هـ في بومباي. (الإعلام ٣/ ١٢٩٤).

الخطوب ويتأسف على ما اعتاده المسلمون من البطالة والكسل، فلا يتحرك لهم حراك، مع شدة النوازل، وكثرة المصائب، وتكثر عنده الاستفهامات التوبيخية، محاولا إيقاظ المسلمين من سباتهم العميق، يقول:

دَعِ ذِكْرَ رَبِّاتِ الْكِلَلِ^(١) وَذَرِ الصَّبَابَةَ وَالْغَزَلَ
أَلْقِ لُبَّ مَشْغُورٍ، فَمَا
يَا لِلرَّجَالِ أَلَمْ تَرَوْا
لِلْعِشْقِ فِيهِ مِنْ مَحَلٍّ
هَلْ عُدَّةٌ مَعَ عِدَّةٍ
مَاذَا بِقَوْمِكُمْ نَزَلَ؟
قَدْ عَمَّنا الدَّاءُ الْعُضَا
نَرْجُو بِهَا دَفْعَ الْجَلَلِ؟
دَاءٌ بِهِ فَسَدَ الْمِرْزَا
لُ مِنْ الْبَطَالَةِ وَالْكَسَلِ
دَاءٌ تَعَطَّلَ مِنْهُ إِحْسَا
حُجٌّ وَفِي الطَّبَاعِ بَدَا الْخَلَلُ
خَطْبٌ أَبَادَ جُمُوعَنَا
سَاسُنَا وَالْخَطْبُ جَلَلٌ
حَتَّى وَصَفْنَا بِالْفَشَلِ
خَطْبٌ لَهُوْلٍ وَقُوعِهِ الْـ
وَلَدَانُ شَيْبِهِمْ اشْتَغَلُ^(٢)
خَطْبٌ نَزَلَتْ الْأَرَا
ضِي مِنْهُ وَأُنْدَكَ الْقُلَلُ^(٣)
خَطْبٌ أَقَامَ قِيَامَةً
قَبْلَ الْقِيَامَةِ مُنْذُ حَلَلُ
وَارْحَمْتَاهُ لِحَالِنَا
إِذْ نَجْمٌ عِزَّتَنَا أَفْلُ^(٤)

ومما زاد الطين بلةً، والمرض فتكا، أن المسلمين، مع سوء أحوالهم الدينية والدنيوية قد قام فيهم متنبئ يدعي النبوة كذبا وبهتاناً، ويزعم نفسه المسيح عليه السلام، ويرى أن النبوة لا تزال مستمرة، وصار له شأن - بحماية الانجليز - وأتباع كثيرون، وكان مقرهم في «قاديان».

١ - في الأعلام: الكليل، ولعل الصواب ما أثبتته.

٢ - في الإعلام: والسهم اشتغل، ولعل الصواب ما أثبتته.

٣ - في الإعلام: من، ولعل الصواب هو ما أثبتته.

٤ - الإعلام ٣/ ١٢٩٥.

وقد تصدى له الغياري من أبناء الأمة الإسلامية، فبينوا زيغه وضلاله، وحاولوا استرداده إلى الصراط المستقيم، ولكن الله قد طبع على قلبه فمات على ضلاله، واتفقت كلمة المسلمين على خروجه من الإسلام.

وكان من المتصدين من له باع طويل في الشعر العربي، فاستخدمه لكشف زيغه، وهتك ستره، وبيان باطله، وبينوا أن من انخدع به لم ينخدع إلا لجهله، وأن القوم لم يعلموا أبناءهم القرآن، ولم يجهروا بالأذان إلا لبسا لباطلهم بالحق الإلهي، يقول الشيخ حبيب الرحمن العثماني في مقدمة قصيدته التي قسمها إلى ثلاثة أقسام، المقدمة، والغرض، والخاتمة، والتي بين في مقدمتها عظم المصيبة التي حلت بالمسلمين ورأى أن السبب هو وانتشار الجهل واختفاء العلم، يقول:

مَبَالُ عَيْنِكَ بِالْعَبْرَاتِ لَا تَكْفُ	وَمَا لِقَلْبِكَ لَا هَمٌّ وَلَا أَسْفُ ^(١)
وَكَيْفَ تَرْقُدُ طُولَ اللَّيْلِ فِي دَعَا	وَلَا يَرُوعُكَ أَمْرٌ دُونَهُ تَلْفُ
أَمَّا تَرَى الْأَرْضَ إِسْوَدَّتْ مَعَالِمُهَا	وَأَدْرَكَ الْبَدْرَ وَاسْتَوَى بِهِ الْكَفُ
كَذَا إِذَا فَشَتِ الْفَحْشَاءُ فِي مَلَأُ	يُودَى الْبَرِيِّ مَعَ الْجَانِي وَيُنْتَصَفُ
رَزِيَّةٌ فَجَعَتْنَا لَا يُدَانُ بِهَا	تَكَادُ مِنْهَا فَاقَارُ الظَّهْرِ تَنْقَصُ
عَمَّ الْبَلَاءُ وَشَاعَ الْجَهْلُ وَأَنْقَشَتْ	سَحَائِبُ الْفُضْلِ لَا ظِلُّ وَلَا وَكْفُ
وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي عَمِيَاءٍ مُظْلِمَةٍ	لَا يَهْتَدُونَ لِمَعْرُوفٍ وَلَا عَرَفُوا
إِذَا عَلَتْ هَيْعَةٌ مِنْ مُبْطِلٍ تَبَعَتْ	هَآ الرَّجَالُ فَلَا وَاعٍ وَلَا تَقِفُ
فَهْمُهُمْ لَا تَبَاعَ الزَّيْغِ مُتَّفِقُ	وَرَأْيُهُمْ فِي قُبُولِ الْحَقِّ مُخْتَلِفُ
إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا مَالُوا لِوَجْهِهِ	وَلَا يُنْهَنُّهُمْ دِينٌ وَلَا شَرَفُ ^(٢)

وبعد هذه المقدمة الطويلة يشروع في بيان ادعاء هذا الكاذب المفترى، ويكشف زيف

١- وَكَفَّ يَكْفُ وَكُفًّا: الدمع والماء: سال (اللسان مادة: وك ف).

٢- معين اللبيب ص ٧١-٧٢.

دعواه، وأنه متبع للضالين السابقين كالخرمية والباطنية، كما يبين ما يقومون به من أعمال الخداع المسلمين فيقول:

تَزَعَزَعَتْ جَنَابَاتُ الْأَرْضِ عَنْ حَدَثٍ شُمُّ الْجِبَالِ لَهُ تَهْوِي وَتَتَسِفُ
بِقَادِيَانِ تَنْبَا غَيْرِ مُكْتَرِثٍ مَنْ جَاءَنَا بِقُضُولِ الْقَوْلِ يَخْتَرِفُ
دَعَا إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ حَيْثُ دَعَا إِلَى بُبُوتِهِ يَهْذِي وَيَقْتَرِفُ
أَبْدَى مِنَ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ الدَّجَاجِلَةُ الْمَاضُونَ وَالْخَلَفُ
أَوْحَى إِلَيْهِ شَيْاطِينُ تُلَاعِبُهُ وَرَيْنُوا بِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ مَا خَطَفُوا
وَكَانَ مِنْ إِفْكِهِ أَنْ جَاءَ يُخْبِرُنَا أَنَّ النُّبُوَّةَ مَنشُورٌ لَهَا الصُّحُفُ
وَمَا دَرَى الْمَرْءُ جَهْلًا أَنَّهُا خُتِمَتْ وَأَنَّهُ بَعْدَهُ سُدَّتْ لَهَا الْغُرُفُ
بِالْبَاطِنِيَّةِ^(١) حَذَوُ النَّعْلِ قَدْ شَبَّهُوا وَالْخُرْمِيَّةِ^(٢) لَا يَأْلُونَ إِذْ خَلَفُوا
صَالُوا عَلَى الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ فِي مَالٍ وَلَوْ خَلَا مُسْلِمٌ فِي جَمْعِهِمْ خَطَفُوا
أَلْقُوا عَلَى الْكُفْرِ سِرًّا مِنْ شَعَائِرِنَا عَلَى الْمَنَائِرِ بِالتَّأْذِينَ إِذْ هَتَفُوا
يَعْلَمُونَ كِتَابَ اللَّهِ صَبِيَّتَهُمْ كَيْ يَخْدَعُونَا إِذَا مَا نَابَهُمْ شَطَفُ

ويختتم قصيدته بالدعاء عليهم بالهلاك بالرجم أو الخسف أو نزول الصّاعقة، ويدعو المسلمين إلى عدم الاغترار إن طال مكثهم؛ لأن عاقبة أمرهم إلى الخسران في الدنيا والآخرة فيقول:

يَأَلَيْتَ صَاعِقَةً حَلَّتْ بِدَارِهِمْ وَلَيْتَهُمْ هُلِكُوا بِالرَّجْمِ أَوْ خُسِفُوا
فَلَا تَظَنَّ لَهُمْ خَيْرًا أُرِيدَ بِهِمْ إِنْ طَالَ مُكْثُهُمْ أَوْ عَمَّهُمْ تَرْفُ

١ - الباطنية: فرقة من فرق المجوس، ظهرت دعوتهم في أيام المأمون، (الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي ٢٨٢، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، التاريخ غير مذكور).

٢ - تحرم: دان بدین الخرمیه وهم أصحاب التناسخ والإباحية (القاموس المحيط: خ ر م).

عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ تَهْوِي بِصَاحِبِهَا إِلَى جَحِيمِ اللَّظَى هَارِبِهِ جُرْفُ^(١)

وذكر الشعراء أن الفساد لم يقتصر على الجانب الديني فقط، بل تعداه إلى الجانب الاجتماعي أيضاً، وصوروا ضعف أحوال المسلمين الاقتصادية في تلك الفترة، وما عمهم من الجهل والفقر، وما شاع في أثريائهم من الترف والتبذير وغير ذلك من عادات مؤسفة، وأنهم إن انتهوا عن أفعالهم القبيحة فهم لا ينتهون عنها رهبة من عقاب الله أو رغبة في ثوابه، بل لما بلغوه من الضعف والعجز بسبب تقدم السن أو نفاذ المال، ولم تفش فيهم هذه العادات القبيحة مع أنهم مؤمنون إلا بسبب بعدهم عن الدين وضلالهم عن الحق، يقول المولوي نذير أحمد الدهلوي^(٢):

الْمُتْرِفُونَ هُمُ الْفُسَّاقُ أَكْثَرُهُمْ يُبْذَرُونَ تِلَادَ الْمَالِ وَالنَّشَبَا
إِنْ يَنْتَهُوْا يَنْتَهُوْا عَنْ سُوءِ فِعْلِهِمْ لِلْعَجْزِ وَالضَّعْفِ لَا خَوْفًا وَلَا رَهَبًا
أَخْلَافُ قَوْمٍ عَلَوْا فِي الْأَرْضِ مَرْتَبَةً وَآمَنُوا بِنَبِيِّ شَرَفَ الْعَرَبَا
ضَلُّوا طَرِيقَ الْهُدَى وَالَّذِينَ قَدْ نَبَذُوا وَرَاءَهُمْ فَاسْتَحَقُّوا الْمَقْتِ وَالْغَضَبَا
لِيَهْلِكَ الْقَوْمُ حَتَّى لَا مَعَاشَ لَنَا وَلَا كَفَافًا إِذَا لَمْ نَأْلِهِ دَابَّا
الْجَهْلُ فَقُرُّ وَدَاءٌ لَا شِفَاءَ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ إِلَّا الْمَوْتَ وَالْعَطَبَا
بِالْقُلِّ وَالذَّلِّ دُنْيَانَا مَكْدَرَةٌ وَالْجَهْلُ فِينَا يُنَادِي الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا^(٣)

ويذكر الشيخ حبيب الرحمن العثماني في قصيدته الطويلة المشهورة التي مطلعها:

١ - معين اللبيب ص ٧١-٧٢.

٢ - هو الشيخ نذير أحمد بن سعادة علي بن نجابت علي الأعظمبوري البجنوري، أحد الأدباء المشهورين، أعان على نقل القوانين الهندية من الإنجليزية إلى الأردية، ثم استقدمه وزير الدولة الأصفية إلى الدكن وولاه بعض الأقطاع، حفظ القرآن بعد كبر سنه، ونقل معانيه إلى الأردية، وكان كثير الافتخار بها، ويؤخذ عليه أنه قد يختار التعبير الذي لا يليق بالملك العلام وجلال الكلام. توفي بالشلل سنة ١٣٣٠ هـ ببلدة دهلي. له «ما يغنيك في الصرف» و«الحقوق» و«الفرائض» وروايات عديدة وله شعر رقيق رائق (الإعلام ٣/ ١٣٨٩-١٣٩١، نقوش شخصيات نمبر ٥٦٣-٥٦٦، الطبعة الثانية يناير ١٩٥٦ هـ، مطبع فروغ أردو).

٣ - الإعلام ٣/ ١٣٩٠.

أَلَا مَا لِلدَّوَّائِرِ لَا تَزُولُ وَمَا لِلنَّازِلَاتِ لَهَا إِتِهَامٌ

يذكر فيها بعد ذكر ما نال المسلمون من عزٍّ ومجدٍّ، ورفعة وشرف، وعلم وعرفان، ومملك وسلطان، وتقدم في جميع مجالات الحياة، بسبب اتباعهم الحق وإطاعتهم للملك العلام، واجتماع كلمتهم ووحدة صفهم، يذكر متأسفاً ما آلت إليه حال المسلمين من ضياع وفرقة، وذل ومهانة، وانحلال ومعصية، وما ذاقوا من الويل والخزي على أيدي أقوام قد ملكهم المسلمون زمناً، وما ذاك إلا بسبب بعد المسلمين عن طاعة المولى جل وعلا، واتباعهم لسلطان الهوى، يقول:

أَضَعْنَا الدِّينَ لَمَّا أَنْ بَطَرْنَا وَغَرَّرْنَا الْأُمَانِيَّ وَالْمَحَالَ
وَصَرَرْنَا صَاغِرِينَ وَلَا نُذَالُ وَضِعْنَا الشَّرِيعَةَ فَافْتَضَحْنَا
وَحَلَفْنَا أَصُولَ الدِّينِ زَهْوًا وَرَاءَ الظَّهْرِ فَأَنَحَلَّ الْعِقَالَ
رَكِبْنَا مَا نُهَيْنَا وَانْتَهَكْنَا مَحَارِمَهُ وَذَا دَاءٌ عُضَالُ
وَلَمْ نَكْبِرْ مِنَ الْحَنَاتِ سُكْرًا وَحُبِّبَتِ الْمَبَازِلُ وَالْبُزَالُ
وَلَمْ تَزَلِ الْمَعَابِدُ مُحْرَبَاتٍ وَلَمْ تَزَلِ الْمَبَانِي تُسْتَطَالُ
ظَلَمْنَا إِذْ ظَلَمْنَا وَاسْتَكْبَرْنَا وَمَا كُنَّا لَهُمْ فِيهِ نَكَالُ
سُلِبْنَا الْمُلْكَ وَالْأَمْوَالَ طُرًّا وَفِيهَا بَيْنَنَا نَحْنُ الْأُكَالُ
وَصَرَرْنَا بَعْدَ أَنْ كُنَّا مُلُوكًا عَيِّدًا تُسْتَهَانُ وَلَا تُشَالُ
وَدَاسْتْنَا بِأَرْجُلِهَا فَنَامُ مَلَكْنَاهُمْ فَيَا بُسَّ الزَّوَالُ
أَذَاقُونَا الْهَوَانَ وَجَرَّعُونَا شَرَابًا مَجَّجَهُ عَيْقًا بِغَالُ
تَدُورُ رَحَاهُمْ دَوْرًا سَرِيعًا فَتَعْرُكُنَا وَنَحْنُ لَهَا ثِقَالُ^(١)
سَقُونَا مِنْ كُؤُوسِ الْمَوْتِ صَرْفًا فَنَشْرَبُ مُكْرَهَيْنَ وَلَا نُقَالُ

١ - ثفال: جلد يسط فتوضع فوقه الرحي، فيطحن باليد ليسقط عليه الدقيق... وربما سمي الحجر الأسفل بذلك، (الصباح: ث ف ل).

ثم يبين طريق الخلاص من هذه الحالة المؤسفة المرزية التي تذيب القلوب وتدمع العيون، والذي يتمثل في التوبة الصادقة، والأوبة الخالصة إلى الله تعالى، وينفر من اليأس والقنوط ويدعو إلى الأمل، فيقول:

وَإِنْ تُبْنَا إِلَيْهِ يُتَّبِعْ عَلَيْنَا وَيَكْشِفَ ضُرَّنَا الْمُنَّ الْجَزَالَ
وَلَا تَقْنَطْ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ وَإِنَّ الْحَرْبَ فِي الدُّنْيَا سِجَالٌ
وَوَعْدُ اللَّهِ حَقٌّ لَيْسَ خُلْفٌ وَمَا فِيهِ لِمُرْتَابٍ مَقَالٌ^(١)

وقد خص بعض الشعراء فئات معينة من المجتمع بتوجيه الخطاب لما رأوا لهم من دور بارز في الأمة، في صلاحها وفسادها، وحاولوا تذكيرهم بتلك المسؤولية العظيمة التي أنيطت بأعناقهم، وألقيت على أكتافهم، فيخاطب الشيخ عبد الحميد النعماني^(٢) زعماء الأمة، ووكلاء الأحزاب، ويبين لهم ما عليه المسلمون من جهل وفوضى، معنوياتهم متدهورة، وقواهم منهوكة، تחדت أعصابهم وتفككت أوصالهم، ثم يتطرق إلى ذكر حال الزعماء وأن بهم استبداداً بآرائهم، ويريدون بناء المجد على إثارة العواطف المؤقتة، ويبين خطأهم فيه، يقول:

هَلْ يَقْظَةُ هِيَ أَمْ هِيَ الْأَخْلَامُ؟ أَمْ ذَاكَ مَا حَمَلَتْ بِهِ الْإِيَامُ؟
فَأَرَى الْكَرَامَةَ دُونَ كُلِّ دَنَاءَةٍ وَأَرَى الْحَقَّائِقَ فَوْقَهَا أَوْهَامُ
يَا لِلرَّزَايَا مَا يُشَاهِدُ بَيْنَنَا غَشَى عَلَى وَجْهِ الضِّيَاءِ ظِلَامُ
نَكِسَتْ بُنُودُ الْعِلْمِ رَغَمَ أُتُوفِنَا وَالْجَهْلُ قَدْ رُفِعَتْ لَهُ الْأَعْلَامُ
سُنْتُ لَهُ الْفَوْضَى إِمَامًا فَيَصَلَا "وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامٌ"
وَالشَّعْبُ مِنْهُوْكَ الْقَوَى مُتَخَاذِلٌ مُتَكَاسِلٌ حَلَّتْ بِهِ الْأَسْقَامُ

١- معين اللبيب ٣٩-٤٥.

٢- لم أعثر له على ترجمة.

وَتَحَدَّرْتُ أَعْصَابُهُ، وَعُرُوقُهُ
وَتَفَكَّكَتْ أَوْصَالُهُ فَتَنَاثَرَتْ
وَزَعِيمٌ حِزْبٍ يَسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ
يَبْدُو كَسِرْحَانِ الْغَصَا مُتَنَمِّراً
أَفْمِثْلُهُمْ يَأْتِي يَقُودُ زَمَانَنَا
يَبْنُونَ بَيْتَ الْمَجْدِ فَوْقَ عَوَاطِفِ
وَهِيَ الَّتِي تَنْهَالُ أَمْثَالَ الرِّمَالِ
يَا أَيُّهَا الْوُكَلَاءُ عَنْ أَحْزَابِنَا
جَفَّتْ، فَلَمْ تَنْهَضْ بِهِ الْأَقْدَامُ
وَتَفَرَّقَ الْأَحْزَابُ وَالْأَخْلَامُ
فِيمَا يُرِيدُ فَمَا لَهُ إِحْجَامُ
وَالنَّاسُ فِيهَا حَوْلُهُ أَغْنَامُ
فَعَلَيْكَ مِنِّي يَا زَمَانُ سَلَامُ
وَبِأَنْ يُثِيرُوهَا يَكُونُ قِوَامُ
لِ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ بِنَا أَوْهَامُ
مَا لِلْبِنَاءِ عَلَى الرِّمَالِ دَوَامُ^(١)

ويرى الشيخ عبد الله الجيتيكر أن اختلاف العلماء وتشاجرهم وتكفير بعضهم بعضا سبب مهم في وصول المسلمين إلى هذه الحالة السيئة، وهو السبب في ضياع المسجد الأقصى وبيت المقدس وسقوطه في أيدي اليهود الغاصبين، ويدعو إلى رَأْب الصدع ، وإصلاح الأمر، وحفظ الدم ورعاية حقوق الأخوة الدينية، يقول في قصيدته التي مطلعها:

يَا شَوْقُ، بَلِّغْ إِلَى سَادَاتِي الْعُلَمَاءِ
سَلَامَ عَبْدٍ كَنِيْبٍ كَابِدِ الْأَلَمَاءِ
يقول فيها:

أَلَمْ تَرَوْا فَاتَ مَنْ تَشَاجَرَكُمْ
قَدْ حَيَّرْتَنِي أُمُورٌ مِنْكُمْ صَدَرَتْ
كَانَ اخْتِلَافُكُمْ لِلْقَوْمِ رَحْمَتَهُمْ
فَوَائِدُ، وَاسْتَفَادَ الْغَيْرُ مُغْتَنَمًا
وَقَدْ تَرَكْتُمْ وَرَاءَ الظَّهْرِ مَا لَزِمَا
فَصُحِّفَتْ لِنِزَاعٍ بَيْنَكُمْ دُهُمَا

١ - مجلة «الضياء» جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هـ، ص ٢٨.

أَمَّا لَدَيْكُمْ كِتَابٌ جَلَّ مَنْزِلُهُ هُدًى وَنُورٌ وَتَفْصِيلٌ حَوَى حِكْمًا
كَمْ آيَةً خَاطَبْتُكُمْ فِي إِقَامَةِ مَا أَتَى الْبَشِيرُ وَقَدْ أَحْيَا بِهِ أُمَّمًا
وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَبِالإِصْلَاحِ أَمْرٌ آيَاتٌ حَقٌّ فَمَنْ يَعْمَلْ بِهَا سَلِمًا
فَأَصْلِحُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَارْزَعُوا حُقُوقَ إِخْوَانٍ وَاحْفَظُوا ذِمَمًا
كَمْ ذَا الْخِصَامِ، وَكَمْ ذَا الْخُلْفِ بَيْنَكُمْ لَقَدْ فَشِلْتُمْ، وَرُزُّهُ فِينَكُمْ عَظْمًا
كَمْ ذِي الْفِتَاوَى، وَكَمْ تَكْفِيرُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، وَكَيْفَ إِذَا شَدَدْتُمُ الرِّضْمَا
قَوْمُوا فَكُونُوا كَنَفْسٍ وَهِيَ وَاحِدَةٌ إِنَّ التَّفَرُّقَ مِنْكُمْ ضَيَعَ الْحَرَمَا^(١)

وقد خصَّ بعضهم أمة العرب بتوجيه الخطاب لما ميزها الله تعالى بإرسال آخر
رسله منهم، وإنزال أفضل كتبه بلغتهم، فذكرهم ماضيهم المجيد، ونعم الله التي كانت
تأتيهم، حيث قادوا العالم أجمعه في حركة العلم والإصلاح، وبددوا ظلام الجهل من
الكون، وأخذوا بنواصيه إلى الخير والهدى، ونشروا الألفة والمحبة، والأخوة والصداقة،
وعلموا الناس المدنية، والحضارة، وفاقوا بالآداب والأخلاق، وامتازوا بالرأي السديد
والشجاعة الخارقة.

ثم يريهم صورة أخرى مؤسفة محزنة، حاضرة قائمة، لما هم عليه من سلب العز
والسلطان، وتغيير الحال والشأن، وتدمير الديار والبلدان، وتضييع الأملاك والأوطان،
وتفكيك روابط الاتحاد، وفصم عرى المحبة والوداد، وتبديد الأحساب والأعجاذ،
وتحول الأخلاق الفاضلة إلى صفات سافلة، والمساعي الحميدة، إلى أعمال مبيدة،
وتفريق الكلمة وتمزيق الشمل، ونزول المصائب الجمة، وتبديل العسر باليسر، والمر
بالحلو، والسقوط بالرفعة، والقنوط بالرجاء، والصبب بالرقى، والتعب بالراحة،
والكسل بالنشاط، والجهل بالعلم، والعبودية بالحرية، والتبعية بالاستقلال، فيقول:

يَا أُمَّةَ الْعِرَّةِ الْقَعَسَاءِ مَالِكٍ قَدْ أَصْبَحَتْ نَهْبًا بِأَيْدِي كُلِّ مُنْتَهَبٍ

أَصْبَحَتْ هَاوِيَّةٌ مِنْ كُلِّ مَرْتَبَةٍ فَرَعَتْ ذُرْوَتَهَا الْعُلْيَا مِنَ الرُّتَبِ
أَصْبَحَتْ فَائِضَةٌ بِالذُّلِّ خَائِضَةٌ فِي مَنْقَعِ السَّوْءِ لِلْأَذْقَانِ وَالرُّكْبِ
أَصْبَحَتْ فِي ضَعَةٍ مَا مِثْلَهَا ضَعَةٌ وَمَا كَمِثْلِ الَّذِي قَاسَيْتِ مِنْ تَعَبِ
وَبِتَّ فِي نَوْبٍ لِلظَّهْرِ قَاصِمَةٍ لَمْ يَذْكُرُوا مِثْلَهَا فِي سَائِرِ النُّوْبِ
وَبِتَّ لَا أَنْتِ فِي عَيْرٍ إِذَا ذَكَرُوا عَيْرًا وَلَا فِي نَفِيرِ السَّادَةِ النُّجُبِ
بَلْ فِي تَفَرُّقِ شَمْلٍ وَاخْتِلَافِ هَوَى وَفِي تَحَاذُلِ سَادَاتٍ وَفِي عَطَبِ
فَمَنْ يَحِدُ عَنْ سَبِيلِ الْجِدِّ جَدِّبَهُ صَرَفُ الزَّمَانِ وَلَا قَى حَسْرَةَ اللَّعِبِ
أَنْهَيْتِ مُلْكَكَ لَا تَذَرِينَ مِنْ سَفِهِ أَنَّ الْبِلَادَ عَدَتْ لِلْأَجْنَبِ الثَّلَبِ
أَضَحَتْ دِيَارُكَ غُثْمًا لِلشُّعُوبِ وَقَدْ حُرِمْتَ مِمَّا بِهَا مِنْ خَيْرِهَا السَّرَبِ
هَدَمْتَ أَرْكَانَ مَجْدٍ قَدْ بَنَاهُ لَنَا أَجْدَادُنَا الصَّيْدُ مِنْ أَسْلَافِنَا الْعَرَبِ
قَوَّضْتَ أَطْنَابَ عِزٍّ شَامِخٍ فَمَضَى وَصَرْتَ لَا فِي عُلَى مِنْهُ وَلَا عَتَبِ
وَمَنْ يُضَيِّعْ تَلِيدَ الْمَجْدِ ضَاعَ بِهِ وَهَانَ فِي قَوْمِهِ الْأَذَنِينَ وَالْجَنَبِ
أَفْرَطْتَ فِي جَمْعِ مَا يَخْزِي بَيْنِكَ وَقَدْ صَيَّرْتَهُمْ هَدَفًا لِلْأَسْهُمِ الصُّيْبِ
نَصَبْتَهُمْ غَرَضًا لِلدَّهْرِ يَرْشُقُهُمْ بِأَنْصُلٍ أَكَلْتَهُمْ أَكَلَ ذِي كَلْبِ
مُفَوَّاتٍ إِلَيْهِمْ مِنْ هِنَا وَهِنَا بِالْإِثْمِ وَالْعَارِ مِنْ بُعْدٍ وَمُقْتَرَبِ
فَأَصْبَحَ الْعِزُّ فِي ذُلٍّ وَفِي ضَرَعٍ وَأَصْبَحَ الْأَمْنُ فِي وَيْلٍ وَفِي حَرَبِ

وبعد هذا العرض الطويل لحالتهم المؤسفة، انتقل إلى تذكيرهم بماضيهم المشرق،
لعل ذلك يحيي في نفوسهم الأمل، ويحثهم على العمل، يقول:

فَأَصْبَحَ الْعَرَبُ الْأَنْجَادُ قَاطِبَةً عَنْ مَجْدِهِمْ وَعَنْ الْأَوْطَانِ كَالْغُرَبِ

بِالْأَمْسِ هُمْ سَادَةُ التَّارِيخِ إِنْ ذَكَرُوا
 بِالْأَمْسِ هُمْ سَاسَةُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
 بِالْأَمْسِ أَوْطَانُهُمْ بِالْعِزِّ عَامِرَةٌ
 بِالْأَمْسِ تَمْتَلِكُ الْأَقْطَارَ أُمَّتُهُمْ
 كَمْ بَيْنَ أَمْسٍ وَبَيْنَ الْيَوْمِ مِنْ عِبَرٍ
 يَا خَيْرَ مَنْ أَخْرَجْتَ لِلنَّاسِ مِنْ أُمِّ
 قَدْ كُنْتَ رَأْسًا لِأَجْيَالِ الْوَرَى عَصْرًا
 وَكُنْتَ تَاجًا عَلَى رَأْسِ الْأَعَاظِمِ مِنْ
 وَكُنْتَ بَيْتَ قَصِيدِ الشُّعْرِ إِنْ مَدَحُوا
 وَكُنْتَ مَحْبُوبَةً لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ
 فَصِرْتَ مَذْمُومَةً فِي كُلِّ مَجْمَعَةٍ
 وَكُنْتَ هَذَبَتْ أَخْلَاقَ الْوَرَى زَمَنًا
 وَكُنْتَ حَرَزَتْ مِنْ رِقِّ الطُّغَاةِ وَمِنْ
 وَكُنْتَ أَنْقَذْتَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ عَنَتٍ
 فَالْيَوْمَ تَظْلِمُكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
 وَكُنْتَ أَنْقَذْتَ مِنْ جَهْلٍ وَمِنْ عَمَةٍ
 وَالْيَوْمَ أَنْتِ أَبُو جَهْلٍ وَزِدْتَ بِهِ

وَالْيَوْمَ هُمْ جُزْءُ تَارِيخٍ مِنَ السَّيِّئِ
 وَالْيَوْمَ هُمْ سَوْقَةٌ بِالرَّحْلِ وَالْقَتَبِ
 وَالْيَوْمَ أَوْطَانُهُمْ كَالْمَقْفَرِ الْخَرِبِ
 وَالْيَوْمَ أُمَّتُهُمْ مَمْلُوكَةٌ الرَّقَبِ
 وَمِنْ تَجَارِبِ اللَّسَاهِي وَمِنْ دُرَبِ ^(١)
 نَعْتُ نَعْتٍ بِهِ فِي أَصْدَقِ الْكُتُبِ
 فَصِرْتَ مِنْ جِيلِ هَذَا الْعَصْرِ فِي الذَّنْبِ
 مَلُوكَهَا فَغَدَوْتَ الْيَوْمَ فِي الْعَقَبِ
 وَكُنْتَ إِنْ خَطَبُوا مَدْحًا خَطَبِ
 وَالنَّاسِ نَحْوِكَ مِنْ هَآوٍ وَمُنْجَذِبِ
 مَعْصُوبَةِ الذَّمِّ فِي الْأَقْوَامِ وَالْعُصْبِ
 وَالْيَوْمَ مِنْكَ سِوَى الْأَخْلَاقِ لَمْ يُعَبِ
 أَغْلَاهُمْ أُمَمًا عُدَّتْ مِنَ السَّلْبِ
 قَوْمًا مِنَ الظُّلْمِ وَالظَّلَامِ فِي نَصَبِ
 وَلَا يَهَيِّجُكَ هَيَّاجٌ إِلَى الْغَضَبِ
 بَنِي جَهْلِيَّهَا الْهَآوِينَ فِي الرَّيْبِ
 زِيَادَةُ الْحَمَقِ فِي حَمَالَةِ الْحَطَبِ

١ - الدرب: ما يتدرب به كالتجارب.

وَكُنْتَ أَمْرَةَ الْمَعْرُوفِ قَائِمَةً بِالنَّهْيِ عَنْ مُنْكَرَاتِ الشُّوْءِ فِي دَابٍ
فَصِرْتَ أَنْتِ عَنِ الْمَعْرُوفِ مُعْرِضَةً وَصِرْتَ لِلْمُنْكَرِ الْمَذْمُومِ فِي طَلَبٍ
وَكُنْتَ مُؤَفُّورَةَ الْخَيْرَاتِ صَاعِدَةً بِالدِّينِ ذِرْوَةَ عِزٍّ غَيْرِ مُضْطَرِبٍ
فَصِرْتَ أَسْفَلَ سُفْلَاهَا كَمَا انْقَلَبَتْ بِالْخَسْفِ ذِرْوَةَ طُودٍ شَرٍّ مُنْقَلَبٍ
يَا عَرَبُ كُلِّ الذِّي قَدْ كَانَ فِي مَدْحٍ فِي مَجْدِكُمْ عَادَ لِلرَّائِثِينَ مِنْ نُدَبٍ^(١)

ولم يكتف الشعر بتصوير مآسي المسلمين وتوبيخهم وتقريعهم، بل حاول الشعراء أن يصفوا للأمة الدواء، وأن يدلوها على طريق العزة والنصر.

وقد سلكوا في ذلك سبلاً شتى، فأحدهم كان يدعو إلى هذا بتذكير المسلمين حال أسلافهم وما كانوا فيه من عزٍّ وشأن، وتمكين وإقبال، ومنعة وكرامة، لعل ذلك يعيد إلى نفوس المسلمين بعض الآمال، ويحثهم على التطلع والاجتهاد لنيل تلك المآثر والأعجاد، وفي هذا يقول عبد الحميد الصادقوري:

فَوَا أَسْفًا وَنَحْنُ بَنُو كِرَامٍ تُؤُورِثَ^(٢) فِيهِمْ عِلْمٌ وَجُودٌ
ذَوِي الْأَعْلَامِ وَالْأَقْلَامِ طُرًّا يَزِينُهُمُ الْمَكَارِمُ وَالْجُنُودُ
وَهُمْ قَدْ سَخَّرُوا شَرْقًا وَغَرْبًا مِنَ الْأَقْطَارِ وَأَفَاهُمْ وَفُودُ
وَقَدْ كَانُوا مَلَاذَ النَّاسِ طُرًّا لِكُلِّ مُصِيبَةٍ خُصُّوا وَنُودُوا
وَقَدْ كَانُوا أُولِي طَوْلٍ وَمُلْكٍ تُطِيعُهُمُ الْعَسَاكِرُ وَالْجُنُودُ
وَتَخَضَّعَ عِنْدَ رُؤُوسِهِمْ رِقَابٌ وَتَرْتَعِدُ الْهَزَابُ وَالْفُهودُ.^(٣)

١ - أعجب العجب من أحوال العرب في ماضيهم المنيف وحاضرهم المخيف، للسيد عبدالحق حقي الأعظمي البغدادي، ص ٢٣-٢٨.

٢ - في: الإعلام: تورات، ولعل الصواب ما أثبتته.

٣ - الإعلام ١٢٦٦/٣.

ويقوم آخر بالمقارنة بين حالهم السيئة وبين حال أقوام حكمهم المسلمون مدة طويلة وما وصلوا إليه من عز وسلطان، ورفعة وتمكين بسبب جدّهم واجتهادهم في تحصيل العلوم وكسب المعالي، وبفضل اختراعاتهم الحديثة في وقت نام فيه المسلمون في سباتهم العميق، وعمهم الكسل، وشاع فيهم الجهل، ونشأ فيهم فتور الهمة، وعدم المبالاة بكسب المعالي، يقول الشيخ حكيم محمد وحيد الدين عالي الحيدر آبادي^(١):

يَا مَعْشَرَ بَلَّغِ السَّيْلِ الزُّبَى وَطَمًا	بَحْرُ الْخُطُوبِ، بَهَا فِي الْأَرْضِ طُوفَانُ
يَا لَهْفَ أَنْفُسِكُمْ أَنْتُمْ دَوُو سِنَةٍ	جَهْلًا وَغَيْرُكُمْ ذُو الرَّأْيِ يَقْظَانُ
أَمَّا بِكُمْ خَبَرٌ مِنْ مَعْشَرٍ لَهُمْ	فِي كُلِّ مُتَّسِعٍ عِزٌّ وَسُلْطَانُ
مَنْ كَانَ فِي أَرْضِهِمْ قَدْ كَانَ مُهْتَضِمًا	يُغْضَى عَلَى الضَّيْمِ وَهُوَ خَزِيَانُ
سَادُوا الْأَنْبَاءَ وَقَادُواهُمْ بِسَعِيهِمْ	فَنِي أَكْفَهُمْ لِلْمُلْكِ أَرْسَانُ
قَوْمٌ إِذَا نَهَضَتْ بِالْعِلْمِ طَالَ لَهَا	إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ بِالْعِزِّ بَيَانُ
فِي الْمَاءِ تَرَقُّمٌ حَذَقًا حَيْثُ إِنَّ لَهَا	مَهَارَةً وَصِنَاعَاتٍ لَهَا شَانُ
يَا أَيُّهَا الْقَوْمُ مَنْ فِي الدَّهْرِ مَخْلُصُكُمْ	عَنْ كُلِّ خَطْبٍ بِهِ ذُو الْحَزْمِ خَشْيَانُ
مَا عِنْدَكُمْ مِنْ فُنُونٍ عِنْدَ غَيْرِكُمْ	يَزُولُ عَنْكُمْ بِهَا ذُلٌّ وَحِرْمَانُ
إِنَّ الْأَكْلَى بَلَّغُوا فِي الْعِلْمِ غَايَتَهُ	فِي النَّوْعِ لَيْسَ لَهُمْ فَضْلٌ وَرُجْحَانُ
هُمْ مِثْلُنَا بِشَرِّ مَا فِي عُرُوقِهِمْ	إِلَّا دَمٌ كَدِمٌ تَحْوِيهِ أَبْدَانُ
وَمِثْلُنَا لَهُمْ أَيْدٍ وَأَرْجُلُهُمْ	كَمِثْلِنَا وَكَذَا مُقَلٌّ وَأَذَانُ

١- هو الشيخ محمد وحيد الدين بن منشي محمد كلال، ولد في ١٢٨٨هـ في حيدر آباد الدكن، تبت في صباه، لكن استمر في طلب العلم وسافر من أجله إلى شمال الهند، وأخذ الطب عن الحكيم منصور عليخان المراد آبادي، اشتغل بالطب، وتصحيح الكتب في دائرة المعارف، له قصائد في الفارسية والعربية، توفي سنة ١٣٤٤هـ. (عقد اللائي، حكيم نظام الدين، ص ٢٤/٥، طبع حيدرآباد ١٣٦٦هـ، ونقوش شخصيات نمبر ٢/١٢٦٦-١٢٦٨).

لَكِنَّهُمْ مِنْكُمْ أَوْفَى بِمَا لَهُمْ بِهِ يُرَجَّحُ لِلتَّفْضِيلِ مِيزَانُ
 قَدْ شَمَّرُوا الذَّلِيلَ عَنْ سَاقِ اجْتِهَادِهِمْ فَأَذْرَكُوا غَبَّ أَحْوَالٍ بِهَا زِدَانُوا
 إِنَّ الْأَلَى لَمْ يَكُنْ لِلْعِلْمِ سَعْيُهُمْ وَلَا وَرَى زَنْدُهُمْ فِيهِ لَذَلَانُ
 فُؤُومُوا لِكَسْبِ مَعَالٍ عَنْكُمْ ذَهَبَتْ وَاسْعَوْا لَهَا وَهِيَ لِلْأَزْوَاحِ أَثَمَانُ^(١)

وهكذا نرى أن الشعر العربي في الهند قد أدى دوره في تصوير حالة المسلمين في ذلك الزمن العصيب، ولم يكتف بالتصوير فقط، بل حاول الشعراء تغيير تلك الحالة المؤسفة، وإيقاظ المسلمين، وسلوكوا في هذه السبيل طرقاً عدة ومسالك شتى، ببيان الداء، والتنبيه على أسباب التخلف، والدعوة إلى العمل، ودعوا إلى الاتعاظ بالتاريخ، والتأمل في سيرة السابقين، والاعتبار بالآخرين، لعل كل هذا يجدي شيئاً، ولم تذهب جهودهم سدى، فإننا نرى ثمرات هذه الجهود في التقدم الذي أحرزه المسلمون في القرن الراهن.

المطلب الرابع

شعر الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله من أهم أحكام الإسلام، وله منزلة سامية ومكانة عالية بين شرائع الإسلام، لما يترتب عليه من نتائج عظيمة في إرجاع الحق إلى أهله، وتيسير السبل وتمهيد الطرق لإنقاذ العباد والبلاد من نجاسة الشرك، ونشر عقيدة التوحيد في أرجاء الأرض، ودفع الظلم والطغيان، وإقامة العدل بين الأنام، ولذا عبر عنه بذروة سنام الإسلام كما جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قوله: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»^(٢).

ولما كان الأدب مرآة الحياة، فقد انعكس فيه آثار هذا العمل الجليل، فمنذ زمن الرسول الكريم ﷺ أكثر الشعراء من قرض الشعر في الجهاد، حثا على هذه الفريضة

١ - قصيدة عربية محمد وحيد الدين عالي، ص ١٢-١٩.

٢ - أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة عن معاذ بن جبل (٢٦١٦).

العظيمة، وبياناً لأهميتها وعظم شأنها، ووصفا للمعارك، وتهنئة بالنصر والظفر، وثناءً على من أبلوا فيه بلاء حسناً، ورثاء لمن نالوا فيه مرتبة الشهادة.

ولقد سار الشعر العربي في الهند على هذا النهج في جهاد الغزاة والمستعمرين الذين استهدفوا بلاد المسلمين في المشرق والمغرب، فوصف المعارك الحربية، وأشاد بالأبطال، وحث على استمرار القتال، حتى الوصول إلى الهدف المنشود، ومن أمثلة هذا الشعر ما نراه لدى الشاه عبدالعزيز الدهلوي^(١) الذي يذكر في قصيدته التي بعث بها إلى عمه «شاه أهل الله» يذكر فيها تلك الأحوال المريعة التي كانت تمر بها عاصمة المسلمين دلهي بسبب غارات أهل الكفر عليها، ويدعو عليهم، ويذكر أنهم يقومون كل سنة بنهب البلاد، وقتل العباد، ويستغيث من تلك المصيبة الدهماء لعله يجد من يجر العباد منها ويخلصهم من ضيقهم يقول: (٢)(٣)(٤)

جَزَى اللَّهُ عَنَّا قَوْمَ سِكِّهِ^(٢) وَمَرَهْتِ^(٣) مَثُوبَةً شَرًّا عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ
وَقَدْ قَتَلُوا جَمْعًا كَثِيرًا مِّنَ الْوَرَى وَقَدْ أَوْجَعُوا فِي أَهْلِ شَاءٍ وَجَامِلٍ^(٤)

١- هو الشيخ العلامة: عبد العزيز بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي، ولد ١١٥٩هـ، أخذ العلم عن والده الشاه ولي الله الدهلوي، وبعد وفاته درس على الشيخ نور الله البرهانوي، والشيخ محمد أمين الكشميري، من أجلة أصحاب والده.

ثم اشتغل بالتدريس والإفادة وعمره خمس عشرة سنة، وقرأ عليه إخوته عبد القادر، وعبد الغني ورفيع الدين وغيرهم كالمفتي إلهي بخش الكاندهلوي، وسيطه إسحاق بن أفضل العمري، وآخرون كثيرون.

له مصنفات كثيرة، منها: تفسير القرآن المسمى بفتح العزيز، والفتاوى في المسائل المشككة، وتحفه اثنا عشرية، في الرد على مذهب الشيعة، وهو كتاب لم يسبق مثله، وبستان المحدثين، والعجالة النافعة، وله شرح على أرجوزة الأصمعي، وشعر حسن رائق، توفي سنة ١٢٣٩هـ، (حيات ولي، محمد رحيم بخش دهلوي ص ٣٢٠-٣٤٤ أفضل المطابع دهلي ١٣١٩هـ، تذكره علماء هند، رحمان علي ١٢٢، مطبع نولكشور، لكهنؤ ١٩١٤م، حديقة الأفراح لإزالة الأتراح، أحمد الشرواني ٢٣٢-٢٣٣ طبع كلكتة ١٣٣٦هـ، حقائق الحنفية، حافظ فقير محمد جهلمي لاهوري ٤٧٠ مطبع نولكشور لكهنؤ ١٣٠٣هـ، للإعلام ٣/١٠١٤-١٠١٨).

٢- سكهه: أو السيخ (Sikh) ومعناه التلميذ، اسم أطلق على طائفة هندوسية اتبعت تعاليم كورونانك (١٤٦٩هـ- ١٥٣٨م)، مؤسس هذه الطائفة، بنيت عقائدهم على أساس أقوال وتعاليم الأولياء والصوفية من المسلمين والنسائك من الهندوس والبوذيين، حاربوا الفوارق الطبقية بين الهندوس، كانت الطائفة في البداية سلمية ثم أخذت طابع العنف. (الموسوعة البريطانية مادة: SIKH)

٣- مرهتا: شعب كبير في الهند، عرفوا بكونهم غزاة وحماة للهندوسية، وظهرهم «مهاراشترا» الحالية: المناطق الناطقة باللغة الموهتية التي تمتد من بومباي إلى غوا على الساحل الغربي وشرقاً إلى ناغفور (الموسوعة البريطانية مادة: Marhatha).

٤- شاء جمع شاة، وجامل: قطيع من الإبل مع رعاته وأربابه (الصحاح).

لَهُمْ كُلَّ عَامٍ نَهْبَةٌ فِي بِلَادِنَا يُخَوِّضُونَ فِيهَا بِالضُّحَى وَالْأَصَائِلِ
فَهَلْ هَهُنَا مِنْ مَعَاذٍ لِعَائِدٍ وَهَلْ مِنْ مُغِيثٍ يَتَّقِي اللَّهَ عَادِلٍ^(١)
ويقول في قصيدة أخرى:

ثُمَّ إِنَّ الْبِلَادَ فَاسِدَةٌ مِنْ أَيْدِي الْعَشُومِ وَالظَّلَامِ
غَيْرُ خَافٍ عَلَيْكَ مَا صَنَعْتَ قَوْمٌ سَكَّهَ بِجَانِبِ التُّوشَامِ^(٢)
خَضَعُوا كُلَّ قَرْيَةٍ وَمَضَوْا يَفْتَحُونَ الْحُصُونِ وَالْأَطَامِ
نَهَبُوا عِدَّةً مِنَ الْأَمْوَالِ أَوْثَقُوا عِدَّةً مِنَ الْإِيْتَامِ^(٣)

فقد رأينا في الأبيات السابقة شكوى الشاعر لما أصاب المسلمين من قتل ونهب، وما شاع في الأرض، من فساد وخوف ورعب.

ونرى الشيخ أبا الزبير كان عبد الرحمن الكاشغري الندوي^(٤) يشكو لما أصاب المسلمين في الهند وفي الشام بأيدي الغرب، ويذكر أن الهند تبكى ماضيها الغابر المجيد وليس الهند فقط بل كل الشرق في بؤس وشقاء بسببهم، ويدعو الله تعالى ألا يسلط الله الغرب على أي قوم فيذيبهم عذاب السوء، ويلتمس من المخاطب الشامي أن يبلغ المسلمين القاطنين في أرجاء المعمورة أحوال إخوانهم المسلمين في الهند، يقول:

قَدْ حَلَّ بِالْهِنْدِ مَا قَدْ حَلَّ بِالشَّامِ مِنْ ضَرَبَةِ الْغَرْبِ، فَاعْلَمْ أَيُّهَا الشَّامِيُّ
فَحَاضِرُ الْهِنْدِ يَبْكِي مَجْدَ غَابِرِهَا وَأَهْلُهَا كَمَهَاةٍ صَادَهَا الرَّامِيُّ

١ - تذكره شاه عبد العزيز، مولانا نسيم أحمد فريدي أمروهي، ص ٣٦، ط لكهنؤ ١٩٩٢ م.

٢ - اسم مكان في ولاية «هريانه».

٣ - شاه ولي الله اور ان كى سياسي تحريك، ص ٢٥٦.

٤ - هو الشيخ عبد الرحمن الكاشغري، ولد في مدينة كاشغر عاصمة تركستان سنة ١٩١٢ م وتلمذ على علمائها، ثم سافر إلى الهند للدراسة فيها وهو ابن عشر سنين، والتحق بدار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ، سنة ١٩٢٢ م وتخرج فيها عام ١٩٣٠، عمل مدرساً في دار العلوم ندوة العلماء ثم في المدرسة العالية بكلكتة ثم بذاكا.

من مصنفاته: المفيد لمن يستفيد، المجهرات في المؤنثات والمذكرات، إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (تعريب وتنقيح وتعليق)، الزهرات - ديوان شعر بالعربية، وغيرها. (مقدمة الزهرات للشيخ مسعود عالم الندوي ص ٢٥-٢٩، مجلة «الرائد» الصادرة من دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ ص ٩، عدد ١١-٢٦، صفر ١٤١٤ هـ).

هُمُ الرَّمَايَا وَلَكِنْ فِيهِمْ رَمَقٌ لَا الْبُرْءُ يُرْجَى لَهُمْ إِلَّا بِإِزْهَامِ
لَا سَلَّطَ اللَّهُ ذَا الْغَرْبِ النَّحْسَ عَلَى قَوْمٍ فَيَسْلِمُهُمْ يَوْمًا إِلَى السَّامِ
قَدْ عَذَّبَ اللَّهُ أَقْوَامًا ذَوِي عَدَدٍ بِالْغَرْبِ فَالْشَّرْقُ فِي بُؤْسٍ وَآلَمِ
جَاؤُوا بِدَاهِيَةٍ عَمِيَاءَ مُنْكَرَةٍ يَجْرِي بِنَا وَبِكُمْ تَيَّارُهَا الطَّامِي
يَأْتِيهَا الرَّجُلُ الْجَوَّابُ مُحْتَبِرًا أَحْوَالَنَا، ذَاكَ حَالُ الْمُسْلِمِ الدَّامِي
إِنْ زُرْتَ أَرْضًا وَفِيهَا الْمُسْلِمُونَ فَقُلْ لَهُمْ سَلَامِي وَأَنْذِرْهُمْ بِأَيَّامِ^(١)

ولم يكتف الشعراء في الهند بتصوير مصائب المسلمين الهنود، بل شاركوا إخوانهم المسلمين في محتهم وآلامهم في مشارق الأرض ومغاربها فهذا الشيخ عبد الحميد الفراهي نراه مرة يذكر ما ذاqqته ليبيا على أيدي الإيطاليين من الظلم والهوان، وقتل الأهالي، وتدمير البلدان بوسائلهم الحربية الحديثة المتطورة، بدون وازع من الضمير، أو زاجر من أقوام أخرى، ويرى أنهم لا ينتمون إلى النصرانية إلا كذبا وزورا، حيث ينافي عملهم تعالىهم الديانة النصرانية يقول في قصيدته التي سماها «في ذكر هجوم الطليان وظلمهم»:

يَا عَيْنُ بَكِّي بِالْهُوَامِغِ^(٢) لَا تَرْقَانَنَّ لَكَ الْمَدَامِغِ
قَتَلَى طَرَابُلُسَ الَّذِي نَ تَطَحَّطَتْ^(٣) بِهِمُ الْقَوَارِغِ
نَبْكِي عَلَى إِخْوَانِنَا أَهْلِ الْمَكَارِمِ وَالْدَسَائِعِ^(٤)
دَهَمَتْهُمْ الرُّوْمُ الْفَفَا تِكُ بِالْمَرَائِبِ وَالْمَدَافِغِ

١ - مجلة «الضياء» ربيع الآخر ١٣٥٤ هـ ص ١٣٨.

٢ - الهوامع: من هَمَعَ يَهْمَعُ هَمْعًا وَهُمُوعًا: سال (اللسان. مادة هم ع)

٣ - طحطح الشيء طحطحة: كسره وبذده إهلاكاً. (القاموس مادة: طحح)

٤ - في الأصل الدسائس، لعله خطأ مطبعي، والصواب: الدسائع ج دساعة: الجفنة الواسعة، المائدة الكريمة، العطية الجزيلة، والقوة. لسان العرب مادة (دس ع)

جَارُوا عَلَى حَرْدٍ بَجْمٍ — عَمِهِمْ فَضَّاقَ بِنَا الْمَفَارِغُ
دَخَلُوا الْمَدِينَةَ يَقتُلُوا — نَ بِهَا الْمَشَايخَ وَالرَّعَارِغُ^(١)
قَتَلُوا الْمَرَاضِعَ فِي الْمَضَا — جِعَ، وَالضَّوَارِغَ فِي الشَّوَارِغُ
وَعَلَوْا بِطَطَائِرِهِمْ — يَتَحَسَّسُونَ لَنَا الْمَوَاقِعُ
صَارَتْ تُحَلَّقُ فَوْقَنَا — مِثْلُ الْغَرَانِيقِ^(٢) الطَّوَالِغُ
يَرْمُونَ مِنْهَا بِالْكِرِي — نِ تَمْجُّ بِالزُّبْرِ الْقَوَارِغُ
لِيُيَدِّدُوا أَفْرَاسَنَا — وَيَحْرِقُوا مِنَّا الْوَشَائِعَ^(٣)
لَا دِينَ عِنْدَهُمْ وَلَا — حِلْمٌ عَنِ الْعُدَوَانِ وَازِغُ
يُبْدُونَ نَصْرَانِيَّةً — زُورًا وَقَدْ رَفَضُوا الشَّرَائِعَ
بَلْ يَشْمِزُ الْكُفْرُ مِمَّا — يَرْكَبُونَ مِنَ الشَّائِعِ
الْبَغْيِ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ — وَالْغَدْرِ سَيْطَ مِنَ الطَّبَائِعِ^(٤)

ونراه تارة أخرى يصور ما أصاب إخواننا المسلمين من فتن بثورة البلقان^(٥) ضد أهل الإيمان، ويستنفر المسلمين شرقا وغربا إلى الجهاد ونصرة دين الله القويم، ويوبخهم لما يرى منهم من التباطؤ والتثاقل، ويبشرهم بالفتح والنصر إذا صبروا وقاموا بواجبهم تجاه الدين وتجاه إخوانهم المسلمين، يقول في قصيدته المسماة «في ثوران الفتنة البلقانية»:

١- الرعارع: جمع رُعْرُع وِرْعْرَاعٍ: مراهق وقيل: محتلم (لسان العرب مادة ر ع ع).

٢- الغرانيق: جمع غُرْنُوق وِغْرْنِيق: نوع من الطير (لسان العرب مادة غ ر ن ق).

٣- الوشائع: جمع الوشيع: الحُصُص، وقيل: هو شريحة من السعف تلقى على خشبات السقف (اللسان: مادة: وش ع).

٤- ديوان الفراهي ص ١٧-١٨.

٥- منطقة جبلية في جنوب أوروبا، أهم دولها: رومانيا، ألبانيا، بلغاريا، اليونان، يوغسلافيا، البوسنة والهرسك، وتركيا الأوربية (المنجد في الأعلام، ص ١٤١، الطبعة الثانية عشرة).

شَبَّتْ عَلَى بَلْقَانَ نَارُ الْحُرُوبِ أَشْعَلَهَا بِالْبَغْيِ أَهْلُ الصَّلِيبِ
لَمْ تَبْقَ فِي الْآفَاقِ أَرْضٌ بِهَا إِلَّا نَالَهَا مِنْ هَيْبِ
قَدْ حَزَبَ الشَّيْطَانُ أَحْزَابَهُ وَحَثَّهُمْ لِكُلِّ شَرٍّ وَحُوبِ
شَتُّنُوا عَلَى الْإِسْلَامِ غَارَاتِهِمْ يَذْهَلُ فِيهَا عَنْ حَبِيبٍ حَبِيبِ
يَا كُرْدُ، يَا تَائَارُ، يَا كَابُلُ يَا كُلُّ مَنْ لِلَّهِ عَبْدٌ مُنِيبِ
فِي مَشْرِيقِ الْآفَاقِ أَوْ مَغْرِبِ أَوْ فِي شِمَالِ الْأَرْضِ أَوْ فِي جُنُوبِ
يَدْعُوكُمْ الْإِسْلَامُ جَهْرًا إِلَى ذُبِّ الْعِدَى عَنْهُ فَهَلْ مِنْ مُجِيبِ
قُومُوا لِنَصْرِ الْحَقِّ مِنْ فُورِكُمْ وَاسْتَنْفِرُوا مِنْ كُلِّ مُرْدٍ وَشَيْبِ
مُسْتَنْصِرِينَ اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ بِنَصْرِهِ الْمَوْعُودِ غَيْرِ الْكَذُوبِ
كُنْتُمْ سُيُوفَ اللَّهِ مِنْ وَقَعَهَا فِي الْكُفْرِ وَالْأَوْثَانِ تَبْقَى تَذُوبِ
فَالآنَ يَا إِخْوَانُ مَا لَكُمْ قَدْ مَسَّكُمْ مِنَ الْجِهَادِ لُغُوبِ
مَا بَالُكُمْ لَا تَنْفِرُونَ وَقَدْ حَلَّ عَلَى الْإِسْلَامِ يَوْمٌ عَصِيبِ
يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِبَاسِ الْعِدَى فَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ يَبْلُو الْقُلُوبِ
إِنْ تَصْبِرُوا لِلَّهِ لَا يُخْزِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا رَقِيبِ
يَا قَوْمَنَا إِنْ تَصْبِرُوا يَأْتِكُمْ "نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ" (١)

ونرى في هذه القصيدة تأثراً واضحاً بالقرآن الكريم حيث أكثر الشاعر فيها من استخدام الكلمات الواردة في القرآن الكريم نحو: لغوب، يوم عصيب، مرد وشيب، عبد منيب، شروحو، أحزاب الشيطان، الكفر، الأوثان، الإسلام، الجهاد، كما كرر فيها لفظ الجلالة ثماني مرات، وختم القصيدة بجزء من الآية الكريمة في سورة الصف

وهو قوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾^(١).

ونراه في قصيدة أخرى يبدى أسفه الشديد وألمه البالغ مما أصاب المسلمين في طرابلس بيد الإيطاليين من قتل وتشريد ونهب وتدمير، ويحرض المسلمين ويحثهم على مساعدة إخوانهم ويستنكر عليهم إخلادهم إلى الراحة في مثل هذا الوقت العصيب، ويذكرهم بنوايا الأعداء في القضاء على المسلمين والسيطرة على بلادهم واحدة تلو الأخرى، بدءاً بليبيا ثم تركيا ثم القدس، كما فعلوا بالأندلس، وأخبرهم أنهم إن لم يفيقوا من غفلتهم فسوف ينجح الأعداء في خططهم الماكرة، ولذا يدعوهم إلى الاستعداد وأخذ الأهبة بكل ما يلزم، وطلب النصر بالناصر القوي، يقول:

كَيْفَ الْقَرَارُ وَقَدْ نَكَسْ	أَعْلَامُنَا بِطَرَابُلُسْ
كَيْفَ الْقَرَارُ وَحَوْلَنَا	أَعْدَاءُ تَرْتَقِبُ الْخَلَسْ
مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ إِنْ رَأَى	مِنْ عِزَّةٍ فِينَا اخْتَلَسْ
أَوْ أُنْعُوَانِ مُطْرِقِ	إِنْ لَمْ نُبَادِرْهُ نَهَسْ
نُبْكِي عَلَى إِخْوَانِنَا	بَيْنَ الْقَتِيلِ وَمَنْ حُسْ
كَمْ مِنْ تَقِيٍّ طَاهِرٍ	فِيهِمْ، وَنَحْرِيرِ نَدَسْ ^(٢)
نُبْكِي لِرَبَّاتِ الْخُدُو	رِشْرِقْنَ بِالْمَاءِ السَّلَسْ
جَرَتِ الْحُتُوفُ عَلَى الْأُو	فِ مِنْ الزُّخُوفِ وَمَنْ جَلَسْ
هُمْ أَهْلُنَا وَعَشِيرُنَا	أَفْيَأْلُمُونَ وَلَا نَحْسْ
يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ يَا	أَبْنَاءَ آبَاءِ شُمُسْ
هَلْ تَنْعَسُونَ وَخَضْمُكُمْ	عَنْ كَيْدِهِ مَا إِنْ نَعَسْ

١- الصف: - الآية ١٣.

٢- تحرير: العالم الحاذق في علمه ج نحارير، الندس: الذي يجالط الناس دون أن يثقل عليهم ج، ندسون.

إِلَّا تَهَيَّأُوا لِلْيَوْمِ فَالْأَمْرُ
 قَدْ زُلْزِلَ أَزْكَانُهُ
 فَأَلْخَصُمْ يَجْهَدُ أَنْ يَرَى
 هَلَّا ذَكَرْتُمْ مَا أَصَا
 سَلَبُوكُمْ شَطْرَ الْبِلَا
 أَفَكُلَّ يَوْمٍ يَنْكُصُ الـ
 هَلْ يَذْهَبُ الْحَقُّ النَّقْـ
 هَلْ تَرْتَضُونَ بِذُلِّ دِينِـ
 وَاللَّهِ لَا نَرْضَى بِهِ
 فَالْيَوْمَ إِنْ لَمْ تَذْفَعُوا
 إِنِّي أَرَى فِتْنًا تَمُوءُ
 نَارًا تَأْجَجُ فِي الْبِلَا
 يَبْغُونَ قُسْطَ ظُلْمِيَّةٍ
 قَدْ صِيحَ فِي حُجْرَاتِهَا
 فَلَنْنُصَحْنَ أَوْ نَقُتِلَنَّ
 فَاحْمُوا ذِمَّارَ الْمِلَّةِ الـ
 وَاسْتَجْمِعُوا عَدَدًا فَمَا

إِسْلَامٌ يَتَعَسَّ^(١) بَلْ تَعِسْ
 حَتَّى تَقْعَقَعَ الْأُسُـ
 الْإِسْلَامُ فِي بُؤْسٍ بَسِ
 بَ الْمُسْلِمِينَ بَأْنَدَلُسَ
 دِ وَمَا هَا مِنْ مُلْتَمَسِ
 إِسْلَامٍ حَتَّى يَنْدَرِسَ
 يُّ وَيَغْلِبُ الْكَذْبُ الرَّجِسُ
 نِكْمٌ وَلَيْسَ بِمُلْتَبَسِ
 مَا دَامَ فِينَا مِنْ نَفْسِ
 فَلْيَأْتِينَ يَوْمَ النَّحْسِ
 جُ وَقَدْ ظَهَرَ لِمَنْ حَادَسَ
 دِ وَقَدْ تَلَاهَبَتِ الْأُطْسُ
 وَبَعْدَهَا أَرْضُ الْقُدْسِ
 وَلَتَسْمَعَنَّ هَا الْجَارِسُ
 عَن قُدْسِنَا الْقَوْمِ النَّحْسِ
 بَيْضَاءٍ كَالْأَسَدِ الشَّكْرِصِ
 تَجْرِي السَّفِينُ عَلَى الْيَبْسِ

١ - في الديوان: تيعس، لكن الصواب هو ما أثبتته.

أَعْنِي الْمَرَاقِبَ وَالْمَدَا فِعَ وَالْكَتَائِبَ وَالْحَرَسَ
وَتَعَلَّمُوا حِيلَ الْحُرُوفِ بِ لِتَغْلِبُوا الْخَصَمَ الشَّرِسَ
فَتَأْهَبُوا وَتَأَلَّبُوا وَتَلَبَّيْوا لِوَعْدِي ضَرِسَ
وَاسْتَنْصُرُوا اللَّهَ الْمُهِيمَ مِنْ فِي الْعَيْثِيِّ وَفِي الْغَلَسِ
"وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن" يَنْصُرُهُ" (١) فَلَيَحْتَمِسْ (٢)

ونرى أن هذه القصيدة أيضاً كسابقتها - ختمت باقتباس جزء من الآية الواردة في موضوع الجهاد في سبيل الله.

وكان الشيخ الفراهي كان يتابع الأحداث بدقة، فكما رأيناه في النماذج السابقة يحث المسلمين على قتال إيطاليا، ويخبرنا بما ارتكبته به من مذابح ضد المسلمين، نراه في القصيدة القادمة يستبشر بنجدة الأتراك لأهالي طرابلس ومن ثم ما أحرزوا به من نصر وفتح، وما منيت به إيطاليا من هزيمة، ويفند مزاعم الإيطاليين الباطلة، فيقول:

عَدَرْتُ بِنَا الرُّومَ الْفَوَاجِرَ ذَاكَ الَّذِي كُنَّا نَحَازِرُ
شَبَّتْ إِطَالِيَّةُ الْحُرُوفِ بَ وَمَالَهَا فِي النَّاسِ عَاذِرُ
لِتَنَالَ فَخْرًا ثُمَّ ذُخْرًا لَوْ أَطَاعَهَا الْمَقَادِرُ
حَثَّتْ لَهَا أَبْنَاءَهَا الـ غَاوِينَ فِي الْهَيْجَاءِ الْمَضَاجِرِ
لِيُدَوِّخُوا مُلْكًا وَيَنْـ تَهَبُّوا الْمَدَائِنَ وَالْعَمَائِرُ
فَأَتَوْا طَرَابُلُسَ الَّتِي لَاحَتْ لَهُمْ أَدْنَى الْمَعَابِرِ
هَجَمُوا عَلَيْهَا مُفْعِمِ نَ الْبَحْرَ بِالسُّفْنِ الْمَوَاحِرِ

١- سورة الحج: ٤٠

٢- الديوان ص ١٥-١٦

دَخَلُوا الْمَدِينَةَ يَاقُتُلُونَ
لَمْ يَتَّقُوا إِثِمًا وَقَدْ
لَا دِينَ عِنْدَهُمْ وَلَا
عَرَّوْا بِأَنَّ النُّزْكَ لَا
وَبِأَنَّ شِدَّةَ وَقْعِهِمْ
غَرَّتْهُمْ الْأَمَالُ مِثْلُ
فَرَّأَوْا بِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ
وَالْكَلْبُ يَجْهَلُ أَنَّ بَعْدَ
فَإِذَا هُمْ يَتَغَلَّبُونَ
كَرَّتْ عَلَيْهِمْ شَجْعَةُ الْـ
وَأَتَتْهُمْ الْأَعْرَابُ تَحْـ
فَتَفَلَّلُوا بِدَدًا كَمَا
فَاقْنِي حَيَاءُكَ يَا إِطَا
أَوْضَعْتَ نَفْسَكَ بَيْنَ أَقْوَا
وَلَأَنْتَ فِي السُّدُولِ الْبَعْظَا

نَ بِهَا الْأَكَابِرَ وَالْأَصَاغِرَ
أَلْقَوْا عَلَى الشَّرِّ الشَّرَّاشِرَ^(١)
حُلِمَ عَنِ الْعُدْوَانِ زَاكِرُ
تَأْتِي إِلَيْهِمْ بِالْعَسَاكِزِ
تُوهِي مِنَ الْعَرَبِ الْمَرَائِرَ^(٢)
سَرَابٍ مَعْمَعَةِ الْهُوَاجِرِ^(٣)
نَ كَفَقَعَ قَاعٍ بِالْقَرَاكِزِ^(٤)
ضَ الْعَظَمِ يَنْسَبُ فِي الْحَنَاجِرِ
نَ جَرَاهُمْ بِالشُّومِ طَائِرُ
أَتَرَكَ كَالْأُسْدِ الْهُوَاصِرِ
طَفُهُمْ كَعُقْبَانٍ كَوَاسِرِ
ذَعَرَتْ مِنَ الصَّقْرِ الْغَرَاغِرَ^(٥)
لِيَةُ الْمُرْغَمَةِ الْمَنَاخِرِ
مِ كِرَامٍ فِي الْمَفَاخِرِ
مِ، كَمَا مِنَ الْأَيْدِي الْحَنَاصِرِ

١ - الشراشر: مفردها: شُرْشُرَة، يقال: ألقى عليه شراشره، أي ألقى عليه نفسه حرصا ومحبة.

٢ - المريرة ج المرائر: العزيمة. وعزة النفس (اللسان). مادة م ر ر

٣ - الهواجر: مفردها هاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر (اللسان: مادة ه ج ر).

٤ - القراقر: جمع قرقر، وقرقرة: الصحراء البارزة، أرض مطمئنة ليئة (لسان العرب. مادة: ق ر ر).

٥ - الغراغر: غرغرة: دجاج الحبشة (اللسان: مادة غ ر ر).

ولما عقد الأتراك الصلح مع إيطاليا - بعد ما أحرزوا من فتح في ليبيا - نراه ينكر ذلك عليهم، ويعتب على الأتراك بلسان العرب، وينهاهم عن الاستمرار في الصلح، ويذكرهم بما ارتكبت إيطاليا من شنائع ومجازر، كما يذكرهم بما بين العرب والأتراك من جامع الدين والخلافة، ويستنكر عليهم خذلانهم لإخوانهم، ثم يرفض الصلح مع الإيطاليين حتى يتركوا ليبيا، ويفضل الموت على الصلح معهم بالشجاعة والصبر والخوض في الحروب، ويتبرأ من الدنيا وزهرتها ويعلن أفراد عبادته لرب العالمين، وعدم رضاه بعباد الصليب، يقول:

يَا تُرْكُ، لَا تَبْغُوا الْهُوَيْنَا	لَا تُنْعِمُوا الْحُسَّادَ عَيْنَا
أَتَسْأَلِ الْمُؤْنَ الظَّالِمِينَ الْـ	غَانِمِينَ لِمَا حَمَيْنَا
أَلَنَاهِينَ بِلَادَنَا	وَالْغَاصِينَ لِمَا حَوَيْنَا
أَتَسْأَلِ الْمُؤْنَ عَدُونَنَا	وَتَرْكُتُمُونَا بَيْنَ يَنَانَا
هَلَّا ذَكَرْتُمْ يَوْمَ أَلْـ	قَيْتُمْ أَمْوَرَكُمْ إِلَيْنَا
كُنتُمْ لَنَا الْإِخْوَانُ إِذْ	فِي الدِّينِ وَالْوُدِّ اسْتَوَيْنَا
فَنُفُوسُنَا وَنُفُوسَكُمْ	خَلَطَتْ مَعَالَمًا تَقِينَا
حَتَّى تَخَالَطَنَا كَأَمْـ	وَأَجِ الْخَلِيجِ إِذَا جَرَيْنَا
نَحْمِي الْخِلَافَةَ بِالسُّيُـ	فِ الْبَاتِرَاتِ إِذَا انْتَضَيْنَا
فَرَبَتْ حَدَائِقُ مَجْدِهَا	بِدِمَائِنَا لِمَا سَقَيْنَا
تُنْبِي عُيُونَ الْكَاشِـ	حِينَ الْحَاسِدِينَ لِمَا سَعَيْنَا
أَفَبَعْدَ ذَاكَ تُخَاذِلُونَا	وَتَذْهَبُونَ فَأَيْنَ آيِنَا
إِنَّ الْعَدُوَّ هُمْ هُمْ	لَوْ تَبْصُرُونَ كَمَا رَأَيْنَا

هَلْ تَأْمُنُونَهُمْ فَقَدْ
كَالصِّلِ يَطْرُقُ ثُمَّ يَقْـ
فَلَيْنَ بَدَا لَكُمْ مُسَا
لَاسْلَمَ بِالطُّلَيْحَانِ حـ
نَنْفِيهِمْ عَنْ أَرْضِنَا
فَالَمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَا
إِنَّا لَأَخْرَارٌ نَعُدُّ
صُبْرٌ إِذَا لَجَّ الْوَعَى
مِثْلُ الْجِبَالِ الشُّمِّ نَحْتَقِـ
لَا نَرْهَبُ الطُّلَيْحَانِ إِنْ
نَلْقَاهُمْ بِهَشِيئٍ^(٢) نَقْـ
يَبْضَا كَشَحْمِ الْكُومِ لَمْ
حَتَّى يَقَالَ لَنَابِحُ
كَمْ نَابَنَا حَرْبُ الْمُلُ
لَمْ يَبْسُطُوا الْأَيْدِيَ إِلِـ
لَمْ يَرْفَعُوا الْأَعْنَاقَ إِلِـ

عَرَّوْكُمْ زُورًا وَمَيْنَا
طُرْنَا بَهُ سُمًّا وَحِينَا
لَمَّا الْعَدُوُّ لَقَدْ أَبَيْنَا
تَى يَتْرُكُوا بَلَدًا ثَوِينَا
لَا نَرْعَوِي عَمَّا قَضَيْنَا
ةٍ تَحْتَوِي ذُلًّا وَشَيْنَا
ذُ الْقَتْلِ لِلْأَخْرَارِ زَيْنَا
لَا نَشْتَكِي نَصَبًا وَأَيْنَا^(١)
رُ السُّيُولِ إِذَا أَتَيْنَا
يَسْتَكْثِرُوا فَلَقَدْ كُفِينَا
رِيهِمْ كَمَا كُنَّا قَرِينَا
تَرَ فَوْقَهَا صَدَاءٌ وَرَيْنَا
قِ النَّازِلِينَ لَقَدْ وَفَيْنَا
لِ فَلَمْ نَمَلْ وَلَا وَنَيْنَا
لَا مَا كَسَرْنَا أَوْ لَوَيْنَا
لَا مَا قَطَعْنَا أَوْ كَوَيْنَا

١- الأين: الإعياء والتعب (القاموس المحيط واللسان: مادة: أي ن)

٢- لم أجد هذه الكلمة في القاموس واللسان، وهو هكذا في الديوان، ولعله: مشين: والمشين: الآلة بالإنجليزية، أو هي اسم موضع.

حَتَّى انْتَبَهُوا طُرًّا سِوَى جَمْعٍ قَتَلْنَا أَوْ سَبَيْنَا
لَوْلَا الْحَمَاسَةُ وَالْحِمَا يَهُ قَفَرٍ لِيُبَيَّا مَا امْتَطَيْنَا
فَخُرُورُهَا وَصُخُورُهَا مِمَّا ارْتَدَيْنَا وَاحْتَدَيْنَا
نَضْلِي بِنَارِ الْحَرْبِ أَجْـ سَادًا صَهْرَنَا وَاشْتَوَيْنَا
لَا نَبْتَغِي الدُّنْيَا وَرَهْـ رَتْمَهَا فَبِاللَّهِ اكْتَفَيْنَا
لَا هَمٌّ فِي تَرْفٍ فَأَسْبَا بَ الْغَوَايَةِ مَا ارْتَضَيْنَا
فَاللَّهُ نَعْبُدُهُ وَعَبُّـ بَادَ الصَّلِيبِ فَقَدْ قَلَيْنَا^(١)

ونرى الشيخ ذا الفقار علياً^(٢) يصف إحدى تلك المعارك التي خاضتها الجيوش العثمانية ضد الروس، ويشيد فيه بقائد الجيش العثماني وأبطاله، ويصفهم بالشجاعة والبسالة والإقدام ورباطة الجأش، ويدعو الله لهم بالجزاء الحسن والنصر المبين، ويحثهم على قتال أهل الكفر، ويصف ما أصابهم من الذلّ والفشل والهلاك، جزاء وفاقا لكفرهم النعم ولتزويرهم ومكرهم، حتى صار الكفر في خطر، ويصفهم بالغباء والوقاحة، ويدعو عليهم بالخزي، ويذكرهم أنهم إن عادوا لحربهم عادوا ندامى، مخاطبا الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد، بعد التشبيب ومدح الخليفة، يقول:

لِللّهِ جَيْشُكَ أَبْطَالُ النَّزَالِ وَمَنْ فِي الْكَرِّ كَاللَّيْثِ، فِي التَّمَكُّنِ كَالْجَبَلِ

١ - الديوان ص ٢١-٢٣.

٢ - هو الشيخ ذو الفقار علي بن فتح علي الحنفي، ولد ١٢٧٤هـ في ديوبند، وسافر للعلم إلى دلهي، فقرأ على مملوك علي النانوتوي، والمفتي صدر الدين ولازمها مدة طويلة، حتى برع وفاق أقرانه في اللغة والأدب وفرض الشعر، تولى رئاسة قسم الأدب في دار العلوم بديوبند.

من مصنفاته: الهدية السنية في ذكر المدرسة الإسلامية الديوبندية، وشرح ديوان الحماسة، وشرح ديوان المتنبي، وشرح السبع المعلقات بالأردية، توفي سنة ١٣٢٢هـ. (علماء هند كا شاندار ماضي ١٩٥/٢، شمع انجمن ١٦٢، الإعلام ١٢٢٥-١٢٢٧).

أَبْنَاءُ حَرْبٍ، قَتَالَ الْعِلَجِ بُغْيَتَهُمْ
الْحَايِضُونَ غِمَارَ الْمَوْتِ مِنْ طَرَبٍ
قَضَوْا حُقُوقَ الْمَعَالِي بِالسَّلَاحِ وَالْ
عَبْدُ الْكَرِيمِ عَظِيمُ الْجَيْشِ يَقْدُمُهُمْ
النَّصْرُ يَقْدُمُهُ وَالْفَتْحُ يَخْدُمُهُ
تَبَّ الْقَوْمِ بَغَوْا كُفْرًا بِنِعْمَتِكُمْ
فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ
لِلْهَدْمِ مَارَفَعُوا، لِلخَرْقِ مَارَفَعُوا
لِلسَّبِي مَا وَلَدُوا، لِلخَرْقِ مَا حَصَدُوا
لِللَّهِ دُرُّكُمْ، لِللَّهِ دُرُّكُمْ
سَقَوْا كُؤُوسَ الرَّدَى كُرْهَا وَقَدْ شَرِبَتْ

أَسَادُ حَرْبٍ لَهُمْ غَابٌ مِنَ الْأُسُلِ
وَالْقَاهِرُونَ عَلَى الْأَقْيَالِ وَالْبُسُلِ
يَبِيضُ الْقَوَاضِي وَالْعَتَالَةِ الذُّبُلِ^(١)
ثَبَّتُ الْجَنَانَ، قَوِيَ الْقَلْبُ فِي الْجَلَلِ
وَاللَّهُ يَحْمِيهِ مِنْ زَلَلٍ وَمِنْ خَلَلِ
فَأَهْلِكُوا الْوَبَالَ الْمَكْرَ وَالِدَّغْلِ
بَيْنَ الْبَلَاقِعِ وَالْغَابَاتِ وَالطَّلَلِ
لِلنَّهْبِ مَا جَمَعُوا بِالزُّورِ وَالْبُخْلِ
لِلسَّلْبِ مَا حَشَدُوا، بِالْغَدْرِ وَالِدَّغْلِ
إِذْ قَدْ تَدَارَكْتُمُ الْعَطَشَى عَلَى عَجَلِ
طَوْعًا دِمَاءُهُمُ الْأَسْيَافُ بِالْعِلَلِ

حَمَاكُمْ اللَّهُ، مَا أَمْضَى سُيُوفِكُمْ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْيَمِينُ طَلَعَتْهُ
وَكَيْفَ دَسُّوا وَقَدْ حَثُّوا الْبُغَاةَ عَلَى الْ
جَاؤُوا لِحَرْبِكُمْ مَعَهُمْ فَرَدَّهُمْ

قَطَعْتُمُوهُمْ وَهُمْ أَكْسَى^(٢) مِنَ الْبَصْلِ
أَمَاتَرَى الرَّؤُوسَ^(٣) فِي التَّزْوِيرِ وَالْحِيلِ
غَدَرَ الشَّيْنِيعِ فَجُوزُوا الذَّلَّ بِالْفَسْلِ
ظَبَا سَيُوفِكُمْ بِالْوَيْلِ وَالْأَلِ^(٤)

١ - السلاهب ج سلهب: وهو الطويل من الخيل والناس (لسان العرب س ل ه ب). العتلة: العصا الضخمة من حديد لها رأس مفلطح (لسان العرب ع ت ل).

٢ - يقال: فلان أكسى من بَصَلَةٍ: إذا لبس الثياب الكثيرة: (اللسان: ك س ي).

٣ - الأُل: الأُتُن (اللسان: أ ل ل)، الرؤوس، هكذا في الأصل، والصواب: الروس.

٤ - الصَّحْل: حدة الصوت مع بَحَح: (اللسان: ص ح ل).

لَمَّا رَأَوْكُمْ مُدْبِرِينَ وَتَحْدُولِينَ
فَالْكُفْرُ فِي خَطَرٍ، وَالدِّينُ فِي ظَفَرٍ
أَضْحَى سَيُوفُهُمْ، أَمْسَى مَدَافِعُهُمْ
يَابِسَ مَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ وَقَاحَتِهِمْ
وَقَدْ أَصَبْتُمْ إِذَا أَعْرَضْتُمْ أَنْفَا
أَخْرَاهُمْ اللَّهُ مَا أَغْبَاهُمْ فَنَسُوا
هَذَا، وَإِذْ جَرَّبُوا فِيكُمْ مُجَرَّبَهُمْ
وَقَدْ دَعَانِي إِلَى الْإِنْشَادِ مَجْدُكُمْ
أَبْقَاكُمْ اللَّهُ فِي عِزٍّ، وَفِي شَرَفٍ
أَعْدَاؤُكُمْ فِي حَضِيضِ الدَّلِّ مِنْ حِيَلٍ

نَ مَا اكْتَرْتُمُوا بِالْأَهْلِ وَالثَّقَلِ
وَالرُّوسُ فِي خَجَلٍ وَالرُّومُ فِي جَدَلٍ
فِي الْغَمْدِ مِنْ عَطَلٍ وَالْحَرْسُ مِنْ صَحَلٍ^(١)
بَدْعًا فَيَأْنَفُ مِنْهُ كُلُّ ذِي نُبُلٍ
عَنْ قَوْلِ كُلِّ سَخِيفٍ الرَّأْيِ مُتَبَذَلٍ
قُدُمًا هَزِيمَاتِكُمْ فِي الْأَعْصِرِ الْأَوَّلِ
عَادُوا وَانْدَامَى، كَمَا قَدْ قِيلَ فِي الْمَثَلِ
قَسْرًا فَلَسْتُ بِأَهْلٍ الشَّعْرِ وَالْغَزَلِ
وَفِي عُلُوٍّ، وَفِي مَجْدٍ، وَفِي رَعَلٍ^(٢)
أَحْبَابُكُمْ مِنْ ذُرَى الْعِلْيَاءِ فِي قَلَلٍ

بِهَاشِمِيٍّ كَرِيمٍ سَيِّدٍ سَنَدٍ هَادٍ بِشِيرٍ نَذِيرٍ سَيِّدِ الرُّسُلِ^(٣)

وفي هذه القصيدة الطويلة تأثر واضح بأبي تمام في قصيدته البائية في فتح عمورية:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدبين الجد واللعب
في كثير من المعاني والأفكار، وفي كثرة استخدام المحسنات البديعية، مع صدق
العاطفة وحرارتها، والشعور بالفرح والنشوة.

١- الصَّحَل: انشقاق في الصوت من غير أن يستقيم (القاموس ص ح ل).

٢- الرَّعَلُ: النشاط (القاموس ز ع ل).

٣- الإعلام ١٢٢٧/٣.

المبحث الثاني

المدح

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : المدح النبوي.

المطلب الثاني : مدح الخلفاء والولاة.

المطلب الثالث : مدح الشخصيات الإسلامية والعلماء والأساتذة.

المدح أهم أغراض الشعر العربي قديماً وحديثاً، حاز ضمن الأغراض الشعرية الأخرى بنصيب الأسد، وأخذ حيزاً كبيراً من ديوان الشعر العربي، وهو سجل مفاخر الأمة العربية والإسلامية، حفظ حوادث كثيرة مما غفل عنه التاريخ، كما كان صحيفة تربية للأجيال الناشئة، تدلهم على تلك الخصال الكريمة، والسجايا الحميدة التي ينبغي لهم أن يتحلوا بها، لكي ينالوا رضا شعبهم وأمتهم في الدنيا، ويقوموا بأداء تلك الأعباء والمسؤوليات التي تناط بهم، حتى ينالوا رضا الله في الآخرة، يقول الدكتور شوقي ضيف:

«لقد ظهر العرب في مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلي وهم يتغنون بمدح شيوخهم وأبطالهم، راسمين فيهم الأمجاد الحربية لقبائلهم، ومثاليتهم الخلقية الكريمة، مذكين بذلك الحماسة في نفوس الشباب، وبذلك كان الشعر ديوان مفاخرهم، أو بعبارة أدق كان المدح هو هذا الديوان، وأيضا كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة، وانضمت إلى ذلك إشعاعات إسلامية منذ ظهر الدين الحنيف، إذ مضى شعراء المدح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدثون عن العدل أو العدالة التي لا تصلح حياة الناس بدونها، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم في الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه، ولم يتركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجلوا مجدنا الحربي فيها ليدفعوا الشباب إلى سلّ السيوف وقطع رقاب الأعداء ومحققهم محققاً، وبذلك كله كان المدح صحيفة تربية يجد فيها الشباب القدوة الحسنة في العمل المجيد،

وفي الخلق الحميد»^(١) ويقول سامي الدهان:

«المدح فن الثناء والإكبار والاحترام، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية، إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك، وسياسة الوزراء، وشجاعة القواد، وثقافة العلماء، فأوضح بذلك بعض الخفايا، وكشف عن بعض الزوايا، وأضاف إلى التاريخ - صادقاً أو كاذباً - ما لم يذكره التاريخ، فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان، لم تكن تُعلم لولاه»^(٢).

وهذا الدور وهذه المكانة اللذان تمتع بهما المدح في الشعر العربي في بيئات عربية مختلفة تمتع بهما في الشعر العربي في الهند أيضاً، فنرى له مكان الريادة بين أغراض أخرى من الشعر العربي في الهند، ويمتاز بالوفرة والكثرة. وبالنظر إلى الموضوعات التي قيل فيها المدح يمكننا تقسيمه إلى أقسام آتية:

أولاً- المديح النبوي.

ثانياً- مدح الخلفاء والولاة والوزراء.

ثالثاً- مدح الشخصيات الإسلامية والعلماء والأساتذة.

وسأتحدث فيما يلي عن كل قسم حديثاً مستقلاً.

المطلب الأول

المديح النبوي

المديح النبوي قديم منذ عهد الرسول ﷺ ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له، تنوياً بخلقه الكريم، ورسالته العظمى، وجهاده في سبيل الله وفتوحه^(٣).

واستمر فيه الشعراء من بعدهم وأكثروا من تدييح المدح النبوي في كل عصر وقطر، وإن تعددت الأغراض وتنوعت المسالك، فشاعرٌ يمدحه حيث يطلب عليه الأجر

١- الدكتور شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، (الجزيرة، العراق، إيران)، ص ٣٣٦، دار المعارف مصر، ط ٢.

٢- المديح، سامي الدهان، ص ٥، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

٣- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (مصر والشام)، د. شوقي ضيف، ص ٧٦٠، ط. دار المعارف بمصر، ط ٢.

والثواب من الله تعالى، وآخر ينظم فيه القريض لبيان مكارمه وإذاعة شأنه، وآخر يُعمل فكره ويمدحه دفاعاً له وذبا عنه، وكما تنوعت الأغراض وتفرقت، فكذلك تعددت الطرق، فبعض الشعراء يمدحه ببيان شمائله الحميدة، وبعضهم يختار جانباً آخر وهو نظم المعجزات التي أيده الله بها، وأظهرها على يديه تأييداً له، وبعضهم يمدحه ويمدح معه أهل بيته الأطهار وأصحابه الأبرار أيضاً، وبعضهم يطيل وبعضهم يقصر، وقد أفرد بعضهم قصائد كاملة في مدح المصطفى - عليه الصلاة والسلام - وبعضهم بدأ قصيدته بالتشبيب أو النسب أو الغزل مجازةً للشعراء العرب القدماء.

وكل هذا نجده في الشعر العربي في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين كما نجده في غير هذا العصر، وفي غير هذه البيئة، فمثلاً هذا الشيخ محمد يوسف البنوري قرض قصيدة طويلة بدأها بأبيات في التشبيب تخلص منها إلى ذكر شمائله الحميدة التي بينها الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - في أحاديث مختلفة، في أسلوب بديع رائع، يقول:

يَا مُدْنِفًا فِي حُبِّهِ وَبَهْمَالِهِ مُتَحَيِّرًا لِكَمَالِهِ إِنْ بَارَا
أَلْقِيْ عَلَيْكَ شَمَائِلًا مِنْ حُسْنِهِ فِي عِقْدٍ دُرٍّ يَحْجُبُ الْأَنْظَارَا

هُوَ أَدْعَجُ، كَحِلِّ الْعُيُونِ، وَأَبْلَجُ أَقْنَى أَرْجُ وَأَهْدَبُ أَشْفَارَا^(١)
هُوَ لَمْ يَكُنْ بِمُطَهِّمْ وَمُكَلِّمْ حَسَنُ الْمُحَيَّا فِي الْأَسَالَةِ دَارَا^(٢)
طَلَّقَ الْجَبِينَ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكَا فَاقَتْ أَسَارِيرُ الْجَمَالِ نَضَارَا^(٣)
فَجَبِينُهُ كَالْبَدْرِ يُشْرِفُ دُجَلَةً قَدْ فَاقَ بَدْرًا وَجْهُهُ إِذْ نَارَا

١ - دعت العين دعجاً: صارت شديدة السواد مع سعتها فصاحبها أدعج. بلع الرجل: صار طلق الوجه، قني الأنف: ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه. زج حاجبه زججاً: رق في طول، الأهدب: الذي طال هذب عينيه وكثرت أشفاره، الأشفار جمع الشفر، وهو أصل منبت شعر الجفن.

٢ - المطهم: من الأضداد: قيل: السمين، وقيل: النحيف الجسم، المكثم: كثير لحم الوجه، المحيّا: الوجه، أسل أسالة: لان واستوى وطال وصار أملس.

٣ - الأسارير: جمع السر: الخط في الجبهة أو الكف، ويقال لمحاسن الوجه أيضاً. نضار: الجوهر الخاص من التبر، أو الخالص من كل شيء.

وَتَشَعَّعَتْ أَنْوَارُهُ بِجَبِينِهِ مُتَهَلَّلٌ سِيَمَاؤُهُ أَنْوَارًا^(١)
مَا شَمْسُ جُوزَاءَ وَمَاذَا بَدْرُهَا بِجَمَالٍ وَجْهِهِ لِلرُّسُولِ أَنْارًا^(٢)
هَلْ بَدْرُ نَثْرَةٍ وَالذُّكَاةُ بِنُورِهَا إِلَّا كَمْزُنٍ قَدْ حَوَى أَفْتَارًا^(٣)
وَتَحَيَّرَتْ شَمْسُ السَّمَاءِ وَتَحَجَّجَتْ بِجَلَالِ وَجْهِهِ الْمُصْطَفَى إِكْبَارًا

وبعد ما انتهى الشاعر من وصف جماله الخلقي يبدأ بذكر مكانته الدينية، ومرتبته السامية التي خصه الله بها بين الأنام، وفضله بها بين سائر الأنبياء والرسل الكرام من عموم رسالته، وكونه رحمة للعالمين جميعا، وبعثه إلى العرب والعجم كافة، يقول:

هُوَ شَمْسٌ فَضْلٌ لِلنُّبُوَّةِ فِي الْوَرَى فَتَهَلَّلَتْ فِي مَوْهِنٍ وَنَمَارَا
شَمْسُ النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ وَالْهُدَى لِلْعَالَمِينَ جَمِيعِهِمْ أَفْطَارَا^(٤)
هُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ وَنِعْمَةٌ عَمَّ الْبِلَادَ ضِيَاؤُهُ وَدِيَارَا
هُوَ ذَلِكَ الْهَادِي الْبَشِيرُ وَمُنْذِرُ عَجَمًا وَعَرَبًا مُدْنَهُمْ وَقَفَارَا
نُورٌ تَأَصَّلُ فِي الْبَسِيطِ وَضَوْؤُهُ يَتَجَاوَزُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ جَهَارَا

ثم يعود إلى ذكر شوائله الكريمة من جديد، والتي لم يذكرها في السابق، فذكر منها ما ورد في صفة مشيه، وقامته، وطيب رائحته، وعرقه، وختم النبوة، يقول:

وَإِذَا مَشَى مُتَقَلِّعًا فَكَأَنَّهَا يَنْحَطُّ فِي صَبَبٍ هُنَاكَ فَسَارَا^(٥)
رُبْعُ الرِّجَالِ بِقَامَةٍ مُزْدَانَةٍ فِي جِيدِ دُمِيَّةٍ رَائِقٍ أَبْصَارَا

١- شعثت الشمس: انتشر ضوءها، وشعشع الضوء: انتشر.

٢- الجوزاء: برج في السماء، تحل فيه الشمس.

٣- النثرة: من منازل القمر، الأفتار جمع قرة: العنبرة.

٤- أفطاراً: جمع قطر: الإقليم، أقطار الدنيا: جهاتها الأربع.

٥- تقلع في مشيه: مشى كأنه ينحدر.

لَا بِالطَّوِيلِ وَلَا الْقَصِيرِ وَإِنْ مَشَى
أَعْطَاهُ سِيَمَاءُ النُّبُوَّةِ خَاتَمًا
فِي حَجْمِ زُرٍّ أَوْ كَبَيْضِ حَمَامَةٍ
طِيبٌ تَضَوُّعٌ مِنْ رَوَائِحِ جِسْمِهِ
عَرَقٌ غَيْرُ الْوَرْدِ يَخْجُلُ دُونَهُ
عَرَفًا شَذِيبًا فَائِقُ أَزْهَارًا^(١)
بَيْنَ الطَّوَالِ فَقَاقَهُمْ إِنْصَارًا
مِنْ فَوْقِ كَتِفٍ تَخْتَفِي أَسْرَارًا
شَعْرَاتُهُ قَدْ أُسْبِلَتْ أَسْتَارًا
فَاقَتْ أَرْبَعِ الْمِسْكِ إِذْ هُوَ فَارًا^(٢)

ثم يتطرق الشاعر إلى بيان خصائصه الحميدة، وسجاياه النبيلة، من جود فائق النظر، وكثرة عبادته ومناجاته للرب - جل وعلا - وإيوائه الأيتام والأرامل، يقول:

قَدْ كَانَ أَجُودَ ذَا سَخَاءٍ مُدْهِشٍ
قَدْ فَاقَ فِي رَمَضَانَ رِيحًا مُرْسَلَةً
وَتَوَرَّمْتُ قَدَمَاهُ مِنْ طُولِ الْقِيَا
مَ مُنَاجِيًا مُتَضَرِّعًا أَسْحَارًا
مَأْوَى الْأَرَامِلِ غَوْثُهُمْ وَمَلَأَهُمْ
تَرْوِي سَحَائِبُهُ الْوَرَى مِدْرَارًا
مَنْ لَا يَخَافُ إِلَهَهُ إِفْتَارًا
بِعَظِيمِ جُودِي فِي الْوَرَى إِكْثَارًا

ثم يذكر الشاعر إسرائه إلى بيت المقدس ومعراجه إلى السماوات السبع، ولقاءه ودنوه من رب العالمين، ومشاهدته لآيات كبيرة من آيات أحسن الخالقين، يقول:

أَسْرَاهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَلِيلَةً
فَتَجَاوَزَ السَّبْعَ الشَّدَادَ مُشَاهِدًا
فَسَمَّا بِهِ مَجْدًا أَثِيلاً بِإِذْخَا
حَارَ الْمَحَاسِنِ وَالْمَفَاخِرِ وَالْعُلَا
وَاللَّيْلُ أُخْرَى لِلْحَبِيبِ مَزَارًا
آيَاتِ رَبِّ فِي السَّمَاءِ كِبَارًا
وَدَنَا بِهِ رَبُّ الْعِبَادِ حَوَارًا^(٣)
بِمَآثِرِ غُرٍّ عَلَتْ أَقْدَارًا^(٤)

١- فار المسك: تضوع وانتشر.

٢- شذا شذوا: تطيب بالمسك.

٣- أثل أثالة: تأصل في الشرف أو في الأرض، فهو أثيل ومؤثل، وبذخ باذخاً: عظم شأنه وارتفع.

٤- القصائد البنورية (ص ٨٢).

وتستمر القصيدة على هذا النمط البديع الرائع.
وللشيخ أنور شاه الكشميري^(١) قصائد رائعة في مدح النبي ﷺ وآله الطاهرين منها
تلك القصيدة الشهيرة التي مطلعها:

بَرْقُ تَأَلَّقَ مَوْهِنًا بِالْوَادِي فَاعْتَادَ قَلْبِي طَائِفُ الْإِنْجَادِ^(٢)

يذكر فيها كثيرا من سجاياه الحميدة، وفضائله الشهيرة، يقول:

أَنَا فِي أَمَانٍ مِنْ دَادِي حَيْرَةٍ وَلِي اهْتِدَاءٌ بِالنَّبِيِّ الْهَادِي^(٣)
شَمْسُ الضُّحَى بَدْرُ الدُّجَى صَدْرُ الْعُلَى عِلْمُ الْهُدَى هُوَ قُدْوَةُ الْقَادِي
مَوْلَى الْوَرَى وَبَشِيرُهُمْ وَشَفِيعُهُمْ وَخَطِيبُهُمْ فِي مَشْهَدِ الْأَشْهَادِ
سَهْلُ الْعَرِيكَهْ أَكْرَمُ الْعَرَبِ الْأُلَى خَيْرُ الْعِبَادِ وَخَيْرَةُ الْعِبَادِ^(٤)

١- هو العلامة: أنور شاه بن معظم شاه الحسيني الكشميري، أحد كبار الفقهاء الحنفية، وعلماء الحديث الأجلاء في الهند. ولد في قرية «ودوان» في كشمير سنة ١٢٩٢ هـ قرأ على والده، وعلى مشايخ آخرين، ثم سافر إلى ديوبند، وقرأ على مولانا محمد إسحاق الأمروهي، والشيخ خليل أحمد الانبيتهوي، والعلامة محمود الحسن الديوبندي، ثم ولي التدريس بالمدرسة الأمنية بدلهي، ثم سافر إلى الحجاز، فحج وزار واستفاد وأفاد.
ولما سافر شيخه العلامة محمود حسن إلى الحجاز... استخلفه في تدريس الحديث وولاه رئاسة التدريس في ديوبند، فانتقلت إليه نهاية تدريس الحديث في الهند، ثم اعتزلها بعد ١٣ سنة لبعض الأسباب، وتوجه إلى «داهيل» فأسس له هناك بعض التجار مدرسة سموها «الجامعة الإسلامية» فعكف فيها على الدرس والإفادة، وانتفعت به هذه البلاد، وأمه طلبة علم الحديث والعلماء من الآفاق.

توفي سنة ١٣٥٢ هـ كان الشيخ نادرة عصره في قوة الحفظ، وسعة الاطلاع على كتب المتقدمين والتضلع من الفقه والأصول والرسوخ في العلوم الدينية والمطّوع والفلسفة.
من مصنفاته: تعليقات على صحيح مسلم، تعليقات على الأشباه والنظائر، تعليقات على فتح القدير لابن الهمام إلى كتاب الحج، (نفحة العنبر من هدي الشيخ الأنور، علماء هند كا شاندار ماضي، محمد ميان ٢١٢/٣-٢٣٠، مجله «البلاغ» تعليمي نمبر ص ٢٨٢-٢٨٣، الأنور، عبد الرحمن كوندو ص ٣٠-١٥٠ ندوة المصنفين، أردو بازار، جامع مسجد، دهلي ١٩٧٥ هـ الإعلام ١١٩٩/٣).

٢- الوهن، والموهن: نحو من نصف الليل، وقيل هو بعد ساعة منه، وقيل: هو حين يدبر الليل، ويقال: لقيته مؤهنا: أي بعد وهن.

٣- دآدئ: قال في لسان العرب: دآدئ: والواحدة: دأداة وفي الصحاح: الدآدئ: ثلاث ليال من آخر الشهر قيل ليالي المحاق، والمحاق آخرها، وقيل: هي هي. (لسان العرب: دأدا).

٤- العريكة: الطبيعة. يقال: لانت عريكته: إذا انكسرت نخوته، وفي صفته - صلى الله عليه وسلم - أصدق الناس لهجة وألينهم عريكة والجمع: عرائك. (لسان العرب مادة: عرك).

أَلْعَاقِبُ الْمَاحِي وَأَكْثَرُ تَابِعًا وَالْقَاسِمُ الْمَبْعُوثُ لِلْإِرْشَادِ
 وَلَرُغْبُهُ سَارِ مَسِيرَةٍ أَشْهَرُ وَلَذِكْرُهُ بَاقٍ عَلَى إِحْمَادِ
 قَدْ جَاءَ وَالْدُّنْيَا عَلَى ظُلُمَاتِهَا وَالْجَهْلُ وَالْبُؤْسَى عَلَى أَعْتَادِ
 فَأَضَاءَ كَالْبَدْرِ الْمُنِيرِ وَوَجْهَهُ نُورٌ مُبِينٌ فِي ظَلَامٍ دَادِي
 فَتَحَتْ بِهِ غُلْفَ الْقُلُوبِ وَبَصُرَتْ عَمِي الْعَيُونَ بِسُنَّةٍ وَسَدَادِ
 قَدْ أَيْدَ التَّقْوَى وَشَيْدَ أَمْرَهَا بِقَوَاعِدِ التَّأْيِيدِ ذَاتِ عِمَادِ
 لَا يَتَّهِدِي لِلْخَيْرِ إِلَّا خَيْرٌ وَبِمَعَزِلٍ عَنْهُ أَخُو الْإِنْكَادِ^(١)
 قِفْ نَبْكَ أَطْلَالًا - لَا وَهْتَ أَرْكَائِهَا - أَخْنَى عَلَيْهَا الدَّهْرُ بِالْمُرْصَادِ^(٢)
 سُبْحَانَ مَنْ صَرَفَ الْأُمُورَ وَمَا أَتَتْ غَيْرٌ عَلَيْهِ عَلَى مَدَى الْآبَادِ
 ثُمَّ الصَّلَاةُ مَعَ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ يِ وَالْهِ مَعَ صَحْبِهِ الْأَمْجَادِ^(٣)

وللشيخ رفيع الدين الدهلوي^(٤) قصيدة بارعة في مدح صاحب المعراج - عليه
 صلوات ربي والسلام - بين فيها تفاصيل ما حدث للنبي ﷺ في حادثة الإسراء

١ - الإنكاد: النَّكَدُ: الشُّومُ واللُّؤْمُ.

٢ - أَخْنَى عَلَيْهَا الدَّهْرُ: أَهْلَكَهَا وَأَتَى عَلَيْهَا (اللسان: خ ن ي).

٣ - نفحة العنبر، ص ١٥٣-١٥٦، القاسم، شوال ١٣٢٩ هـ ص ٣٤-٣٦.

٤ - هو الشيخ: رفيع الدين عبد الوهاب بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي المحدث المتكلم الأصولي، ولد بمدينة دهلي سنة ١١٦٣ هـ ونشأ بها. واشتغل بالعلم على صنوه عبد العزيز وقرأ عليه ولازمه مدة، وأفتى ودرس وله نحو العشرين، وصفه التصانيف، وصار من أكابر العلماء في حياة أخيه المذكور، وقام مقامه في التدريس بعد ما أصيبت عيناه. توفي سنة ١٢٣٣ هـ بدهلي.

من مصنفاته: تكميل الصناعة، ودمغ الباطل، وأسرار المحبة، ورسالة في تفسير آية النور، ورسالة في العروض، ورسالة في التاريخ، ورسالة في آثار القيامة، وغيرها من رسائل كثيرة. وله قصيدة بليغة تدل على علو كعبه في العلوم الفلسفية واقتداره على العربية، عارض بها قصيدة «الروح» لأبي علي بن سينا. (حيات ولي ٣٤٤-٣٤٨، تراجم علماء هند ٦٥-٦٦، تذكره علماء هند ٦٦، يادكار دهلي ١٠٣، الإعلام ٩٧٦/٣ حيات ولي ٣٤٤-٣٤٨).

والمعراج من صحبة جبريل له، وعرض اللبن والخمر عليه واختياره اللبن، وتقدمه على الأنبياء في إمامة الصلاة، وتجاوزه سدره المنتهى بعد ما وقف عندها جبريل - عليه السلام - ولقائه بالله - سبحانه وتعالى - ورؤيته إياه - على ما يرى الشاعر - وإتمام النعمة عليه، وإطلاعه على الأسرار وغير ذلك، يقول:

يَا أَحْمَدُ الْمُخْتَارِ يَا زَيْنَ الْوَرَى	يَا خَاتِمَ الرُّسُلِ مَا أَعْلَاكَ
يَا كَاشِفَ الضُّرِّاءِ مِنْ مُسْتَنْجِدِ	يَا مُنْجِيًّا فِي الْحَشْرِ مَنْ وَالَاكَ
هَلْ كَانَ غَيْرُكَ فِي الْأَنَامِ مِنْ اسْتَوَى	فَوْقَ الْبُرَاقِ وَجَاوَزَ الْأَفْلَاكَ
وَاسْتَمْسَكَ الرُّوحُ الْأَمِينُ رِكَابَهُ	فِي سَيْرِهِ وَاسْتَخْدَمَ الْأَفْلَاكَ
عَرَضْتَ لَكَ الدُّنْيَا وَدَاعُوا مِلَّةَ	نُسِخَتْ بِبَعْثِكَ، طَامِعِينَ رَدَاكَ
فَرَدَدْتَهُمْ فِي خَبِيَّةٍ عَنْ قُصْدِهِمْ	اللَّهُ صَانِكَ عَنْهُمْ وَقَاكَ
وَاخْتَرْتَ مِنْ لَبَنٍ وَخَيْرِ فِطْرَةِ الْ	إِسْلَامِ بِالْهَدْيِ إِلَيْهِ هَدَاكَ
قَعَدْتَ لَكَ الرُّسُلَ الْكَرَامَ تَرْقُبًا	فَعَلَوْتَ مَغْبُوطًا لَهُمْ مَسْرَاكَ
وَأَمَّنْتَهُمْ فِي الْقُدْسِ بَعْدَ تَجَاوُزِ	مِنْهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ إِذْ وَلَاكَ
وَبَكَى الْكَلِيمُ لِمَا رَأَى عَلَيْهِ	وَمُنَافِسُوكَ يَحِقُّ لَهُمْ ذَاكَ
وَتَزَيَّنَتْ حُورُ الْجَنَانِ بِشَاشَةٍ	بِكَ سَيِّدِي شَوْقًا إِلَى لُقْيَاكَ
وَتَبَشَّشَ الْعَرْشُ الْعَظِيمُ مُلَانِيًّا	رَجْلَيْكَ، نَالَ الْفُضْلَ إِذْ آوَاكَ
خَلَفْتَ رُوحَ الْقُدْسِ عِنْدَ السُّدْرَةِ الْ	قُصْوَى يَخَافُ مِنَ الْجَلَالِ هَلَاكَ
أَذْنَاكَ رَبُّكَ فِي مَنَازِلِ قُرْبِهِ	جَلَى لَكَ الْأَكْوَانُ ثُمَّ حَوَاكَ
وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ فَلَمْ تَسَلْ	أَنْ تُؤْثِرَ الْإِنْفَاقَ وَالْإِمْسَاكَ
أَلْقَى إِلَيْكَ كُنُوزَ أَسْرَارِ سَمْتِ	مِنْ حِيْطَةِ الْأَفْهَامِ إِذْ نَاجَاكَ

وَسَأَلَتْ فِينَا الْعَفْوَ مِنْهُ شَفَاعَةً فَأَجَابَ رَبُّكَ: قَدْ وَهَبْتَ مُنَاكَ
فَلَكَ الْمَنَاصِبُ وَالسِّيَادَةُ وَالْوَرَى وَخِلَافَةُ الرَّحْمَنِ يَا بُشْرَاكَ^(١)

ويلحظ أن الشاعر في البيت الثاني وقع في تجاوز إذ وصف النبي ﷺ بكشف الضر مع أن ذلك لا يستطيعه أحد غير الله - سبحانه وتعالى - كما قال - عز وجل - :
﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ....﴾^(٢)

وللشيخ أحمد بن عبد القادر الكوكني قصيدة ممتازة في مدح صاحب الرسالة - عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات - على غرار بردة البوصيري ، ذكر فيها ما أصابه من الجهد والمشقة في حب النبي ﷺ حتى إن ذكر معالم المدينة فقط يكفي لأن يثير حزنه، ويبعث فيه الشجى، تذرف من عينيه الدموع، ويدعو لوائمه إلى الكف عن العزل واللوم لأن ذلك لا يزيد المحب إلا حباءً، والمشوق إلا شوقاً وحنيناً، ويذكر أن حبه قديم، لا يبرح، حتى أن عيونه نفدت دموعها لكثرة البكاء، ثم يتساءل متحيراً عن غاية خلقه متحسراً على كثرة ذنوبه، ويتسلى بتذكر شفاعته النبي ﷺ يوم القيامة للعصاة والمجرمين، يقول:

يَا شَوْقُ بَلِّغْ إِلَى جِيرَانِ ذِي سَلَمٍ سَلَامَ صَبٍّ سَلِيمٍ الْهَمَّ وَالْأَلَمَ
وَاسْتَمْطِرُنْ مِنْ نَدَى أَلْطَافِهِمْ شَبَابًا^(٣) يُطْفِئُ لَظَى لَاعِجٍ فِي الْقَلْبِ مُضْطَرِمًا^(٤)
وَقُلْ لَهُمْ أَرْسَلُوا طَيْفًا فَطَيَّفَهُمْ رُوحُ الْمُحِجِّينَ، يُخَيِّمُ مَيِّتَ النَّسَمِ
مَنْ لِي بِهِ وَسُهَادِي ظَلَّ يَمْنَعُهُ أَوْ بِالْكَرَى وَهُوَ مَدْفُوعٌ بَيْنَهُمْ
لَوْلَاهُمْ مَا كَلَأْتُ اللَّيْلَ مُكْتَبِبًا أَرْعَى النُّجُومَ حَلِيفَ الْوَجْدِ وَالسَّقَمِ
وَلَا جَرَى دَمْعُ عَيْنِي كَالْعَقِيقِ عَلَى ذِكْرِ الْعَقِيقِ وَذِكْرِ الْبَانَ وَالْعَلَمِ

١- رياض الفردوس ص ٢٧، حيات ولي ٣٤٧، الإعلام ٣/ ٩٧٦.

٢- سورة يونس :جزء من الآية ١٠٧.

٣- السَّبْمُ: البرد، (اللسان: ش ب م).

٤- لاعج: اهُوى المحرق، لعج الحب والحزن فواده يلعب لعجا: استحرّ في القلب، ولعجه لعجا: أحرقه. (لسان العرب: شيم، لعج).

لَوْلَا اضْطِرَابُ فُؤَادِي مِنْ مَبَاسِمِهِمْ مَا زَادَهُ خَفَقَانًا بَارِقُ الظُّلَمِ
وَلَا صَبَا الْقَلْبُ أَوْ هَاجَ الْبُكَى وَصَبَا إِنَّ هَبَّ رِيحٍ جَرَتْ مِنْ رَقَمَتِي إِضْمٍ^(١)
يَا لَأَيْمِي وَشَرَابُ الْحُبِّ أَسْكَرَنِي لَوْ ذُقْتُ لَذَّةَ كَأْسِ الْحُبِّ لَمْ تَلِمِ
أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ الْعَدْلَ فِي مُهَجِّ الْعُشَّاقِ يَفْعَلُ فِعْلَ الزَّيْتِ فِي الضَّرَمِ^(٢)
أَعَانَ شَوْقِي جَوَى قَدْ شَبَّ فِي كِبِيدِي وَخَانَنِي فِي الْهَوَى صَبْرِي وَمُعْتَزَمِي
هَوَى سَرَى فِي دَمِي قَدْ مَآ فَلَآ عَجَبُ إِنَّ ضَنْ عَيْنِي بِدَمْعِي وَهُوَ عَيْنُ دَمِي
يَا لَيْتَ شَعْرِي لَمْ الْخَلَّاقُ أَنْشَأَنِي أَلَلْتُ تَحْسُرَ وَالْآلَامَ وَالْوَنَدَمَ؟
هَبْنِي دُنُوبِي قَدْ جَمَّتْ أَلَيْسَ لَهَا مِنْ الرَّسُولِ شَفِيعٌ رَحْمَةُ الْأُمَمِ
مُحَمَّدٌ بِهَجَّةِ الدَّارَيْنِ نُورُهُمَا سِرُّ الْوُجُودِ، وَعَيْنُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ^(٣)

ومما يلحظ على الشاعر أنه اعتمد في مديحه للنبي ﷺ في هذه القصيدة على حديث اتفق العلماء على وضعه، وهو الحديث المشهور بحديث لولاك^(٤).

وقد انتشر هذا المعنى وتردد لدى كثير من مادحي الرسول ﷺ من الشعراء المتأخرين، لكنه لا ينبغي الاعتماد على مثل هذه المعاني المستقاة من الأحاديث غير الثابتة، لما فيها من خطورة عظيمة على الدين، بانتشار الكذب والزيف، واختفاء الصحيح الثابت في خضمه، وقد ورد في ترويح الأحاديث الموضوععة عمداً وعيداً شديداً من الرسول الكريم ﷺ^(٥)، صيانة منه لهذا الدين من كل شائبة.

١ - الرقعة: الروضة وإِضْمٌ: بكسر الهمزة: اسم جبل. (لسان العرب: رق م، أض م).

٢ - الضرم: مصدر ضَرِمَ يَضْرِمُ ضَرَمًا، وَضَرَمَتِ النَّارُ وَتَضَرَمَتْ وَاضْمَرَتْ: اشتعلت والتهبت. (لسان العرب: ض ر م).

٣ - الإعلام ١١٧٣/٣.

٤ - الموضوعات من الأحاديث المرفوعة، ابن الجوزي ١٩/٢، تحقيق: د. نور الدين جيلار، أضواء السلف - الرياض ١٤١٨هـ، تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لأبي الحسن علي بن عراق الكناني ١/٣٢٥، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١هـ.

٥ - أخرج البخاري عن علي رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تكذبوا عليّ، فإنه من كذب عليّ فليجلج النار»، كتاب العلم، باب: إثم من كذب على النبي ﷺ.

وقد كثر مثل هذه التجاوزات والمخالفات في شعر المديح النبوي في الهند وغيره ،
ومن أمثله لدى شعراء الهند ما قاله السيد صديق حسن خان القنوجي في « القصيدة
العنبرية في مدح خير البرية » :

لَا غُرُورَ إِنِ الْفَيْتُ زُورَةً كَهَفْنَا حَقٌّ عَلَى الْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ
يَا مَقْصِدِي يَا أُسْوِيَّ وَمُعَاضِدِي وَذَرِيعَتِي يَا مَرَصِدِي مَوْلَايَ
قَدْ جِئْتُ بِابِكَ خَائِفًا مُتَرَقِّبًا مُتَأَوِّهًا بِتَنْفُسِ الصُّعَدَاءِ
شَفَعْتُ جَاهَكَ ضَارِعًا مُتَذَلِّلًا مَا لِي وَرَأَيْكَ صَارِفُ الضَّرَاءِ
إِزْحَمُ فَقِيرًا جَاءَ بِابِكَ رَاجِيًا أَنْتَ الضَّمِينُ بِحُرْمَةِ الْفُقَرَاءِ
مَا لِي وَرَأَيْكَ مُسْتَعَاثٌ فَارْحَمْنِ يَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ بُكَائِي^(١)

كما كثر التوسل بالنبي ﷺ وغيره في الهند ، ومن أمثلة ذلك ما قاله الشيخ عبد الله بن
عثمان بن جامع الحنبلي :

وَيَجْمَعُنَا بِمَنْ نَهْوَى قَرِيبًا فَإِنَّ الْقَلْبَ أَذَنَ بِانْصِدَاعِ
بِجَاهِ الْمُضْطَفَى وَآلٍ وَصَحْبٍ قَدْ قَفَّوهُمْ بِاتِّبَاعِ^(٢)
ومما يزيد الامر استغراباً واستنكاراً أن هذه الأخطاء والمخالفات صدرت من أناس
هم حملة العلم وحماة العقيدة.

١ - الامير سيد صديق حسن خان حياته وآثاره ، د. محمد اجتباء الندوي ، ص ٨٧.

٢ - نفحة اليمن ص ١٥٣.

المطلب الثاني

مدح الخلفاء والولاة

فطر الناس - قديماً وحديثاً - على حب الخصال الكريمة، والسجيا الحميدة، من الكرم، والوفاء، والمروءة، والنجدة، والشهامة، والعلم، والحلم، والبذل، والجود، والعطاء، والإعجاب بها، والإشادة بذكرها.

ولذا كان الناس يمدحون ويتغنون بذكر من يتمتع بهذه المكارم، ويتحلى بهذه الخلال، كما فطر الإنسان على حب نفسه، والإعجاب بنفسه وعمله، واستحسان ذكر فضائله، وبيان شمائله، فكان الملوك والأمراء ومن على شاكلتهم يغدقون العطايا والهبات على الشعراء والخطباء وأصحاب الفصاحة واللسن؛ ليكسبوا حبهم وتقديرهم، وينالوا مدحهم وثناءهم.

وقد وجد في الهند، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين من الشعراء من أعجبه بعض خلفاء تلك الفترة أو بعض الأمراء، فمدحهم وأنثوا عليهم وأسبغوا عليهم كل خصائل الخير كما وجد من الملوك والأمراء من كانوا يجزلون العطايا والصلوات للشعراء والخطباء فنالوا حظاً كبيراً وقسطاً وفيراً من مدائحهم وثنائهم، بينما أغفل الآخرون، وأخذ ذكرهم.

وأشهر هؤلاء الولاة الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد الثاني^(١) وقد أثنى عليه الشعراء ثناء عظماً، لأنه كان رمزاً لوحدة المسلمين في عصره، وكان له معارك كثيرة مع أعداء الإسلام والمسلمين من النصارى والملحدين الأوروبيين والروس، أبلى فيها الجيش العثماني بلاءً حسناً، وكان هناك محاولات شتى من قبل الأعداء لتشويه صورة هذا الخليفة بين المسلمين؛ ليسهل عليهم تفتيت الوحدة الإسلامية، والقضاء على الخلافة العثمانية، كما أثاروا فتناً عديدة في مختلف أجزاء العالم الإسلامي، فنرى الشعراء يقفون في هذه المعركة بجانب هذا الخليفة، يدافعون عنه، وينشرون فضائله، ويعددون مآثره، ويدعون المسلمين إلى الوقوف معه، وإلى عدم الاغترار بمحاولات الأعداء، فهذا الشيخ محمد يعقوب النانوتوي^(٢) يمدحه بقصيدة طويلة يبدأها بذكر فضائله

١ - هو الشيخ محمد يعقوب بن مملوك علي صديقي، ولد سنة ١٢٤٩ هـ، بدأ طلبه بحفظ القرآن، ثم درس رسائل في الفارسية، ثم شد الرحال إلى دلهي لطلب العلم.

وبعد الفراغ من الطلب بدأ بالتدريس في دلهي ثم في أجير، سافر للحج سنة ١٢٧٧ هـ وبعد العودة عكف على التدريس في دار العلوم بديوبند حتى قضى نحبه سنة ١٣٠٢ هـ. (الإعلام ٣/ ١٣٩٩).

النفسية، ونصرته للإسلام والمسلمين، يقول^(١) :

أَلَوْ غُظَّ يَنْفَعُ لَوْ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمِ
لَوْلَاهُ مَا بَلَغَ الدُّنْيَا لآخرها
وَالسَّيْفُ لِلضَّيْمِ إِعْدَامٌ بِهِيَّتِهِ
بِهَمَّةِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ مُتَصَرٍّ
أَكْرَمَ بِهِ مَلِكًا لِلْمُسْلِمِينَ غَدًا
أَلْحَانُ سُلْطَانُنَا عَبْدُ الْحَمِيدِ غَدًا
لَوْ لَمْ يَكُنْ مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ نُصْرَتُهُ
لَوْلَاهُ لَمْ يَبْقَ لِلْإِسْلَامِ مِنْ شَرَفٍ
خَلِيفَةُ السَّلَفِ الْمَنْصُورِ دَائِمَةً
النَّاسُ مِنْ طِينَةٍ فِي الْأَصْلِ وَاحِدَةٍ
حُرِّيَّةُ النَّفْسِ لِلإِنْسَانِ جَوْهَرَةٌ

فَالسَّيْفُ أَبْلَغُ وَعَظِ عَلَى الْقِمَمِ
وَأَضْ كُؤُلُ وَجُودِ الدَّهْرِ فِي الْعَدَمِ
كَالْبَدْرِ يَجْلُو الدُّجَى بِالنُّورِ فِي الظُّلَمِ
سَيْفٌ لِشُرْبِ دَمِ الْكُفَّارِ كُلِّ ظَمِي
كَهْفِ الْأَنْامِ، مُزِيلِ الْفَقْرِ وَالْعَدَمِ
ذَا الْجُودِ وَالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ
لِلدِّينِ مَا كُنْتُمْ فِي الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ
وَصِرْتُمْ لَأَيِّ لَحْمًا^(٢) عَلَى وَضَمِ
مِنْ آلِ عُثْمَانَ خَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ
وَقَدَرُهُمْ لَعَلَى الْأَقْدَارِ فِي الْهَمَمِ
فَقِيَمَةُ الْمَرْءِ تَعْلُو مِنْهُ فِي الْقِيَمِ

والشيخ فيض الحسن السهارنفوري يوضح فيه مديحه بتعداد مناقب أخرى كان يراه متحلياً بها، فيذكر بأسه وقوته، وجوده وسخاءه، ومكانته بين الملوك، كما يصفه برباطة الجأش، وكرم العرق والنسب، وأن الدنيا قد تزينت به، يقول^(٣) :

حَامِي الدِّمَارِ، حَمِيَّ الْأَنْفِ ذِي أَنْفٍ
شَاكِي السَّلَاحِ، إِلَى الرَّايَاتِ مُبْتَدِرًا
عَنْ آلِ عُثْمَانَ، سَامِي الطَّرَفِ مُبْتَسِمٍ
طَلِقِ الْيَدَيْنِ، طَوِيلِ الْبَاعِ، سَوَاقٍ
صَدَقِ الْمَقَامِ، إِلَى الْغَايَاتِ سَبَّاقٍ
إِلَى الطَّعَانِ، شَدِيدِ الْبَأْسِ، مُشْتَقٍ

ثم يذكر صفات آل عثمان الذين هم عشيرة الخليفة، ويمدحهم، ثم يعود إلى مدح

١- قصائد قاسمي ١٨، الإعلام ٣/ ١٤٠٣.

٢- في المراجع: لحم، ولعل الصواب ما أثبتته.

٣- الإعلام ٣/ ١٣٢٩.

الخليفة من جديد فيقول :

يَعُوْهُم مَّلِكٌ بَرٌّ، نَدِسٌ مَدْرَارُ أُعْطِيَةٍ، مِفْتَاحُ أَرْزَاقٍ^(١)
رَأْسُ السَّلَاطِينِ، عَرْنِينُ الْمُلُوكِ، بِهِ مَجْدٌ أَثِيْلٌ، وَعِزٌّ بَاسِقٌ بَاقٍ^(٢)
لَيْتُ إِذَا الدَّهْرُ فِي خَوْفٍ وَمُضْطَرَبٍ غَيْثُ إِذَا النَّاسُ فِي بُؤْسٍ وَإِطْلَاقٍ
فَكَ الرِّقَابِ وَإِطْلَاقُ الْعَتَاةِ بِهِ يُرَى، فَلَا زَالَ فِي فَكٍّ وَإِطْلَاقٍ
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَرْنِينُ أَنْتَ لَنَا مَوْلى وَأَنْتَ مُفَدًى كُلِّ أَفَاقٍ
لِلَّهِ دُرٌّكَ إِذْ أَنْكَرْتَ مَا نَطَقَتْ بِهِ الْأَعَادِي وَلَمْ تَرْتُقْ بِإِزْلَاقٍ
بَاءً وَرَبْدًا عَلَى غَيْظٍ فَقِيلَ لَهُمْ أَخْزَاكُمُ اللَّهُ فِي مِصْرٍ وَرُسْتَاقٍ^(٣)
كَذَلِكَ يَفْعَلُ مَنْ يَبْغَى الْعُلَى وَلَهُ عِرْقُ كَرِيمٍ يُبَارِي كُلَّ أَغْرَاقٍ
زَانَ الْإِلَهِ بِكَ الدَّنْيَا فَمَا بَرَحْتُ تَرْبُو وَتَهْتَزُّ فِي نُورٍ وَإِشْرَاقٍ
نُشْنِي عَلَيْكَ وَلَا نُحْصِي مَنَاقِبَكُمْ بِذِكْرِ مَا فِيهِ مِنْ سُمٍّْ وَتَرْيَاقٍ
نُحْيِي الْحَيِّبَ بِإِكْرَامٍ يَلِيْقُ بِهِ تُرْدِي الْعُدُوَّ بِإِغْرَاقٍ وَإِخْرَاقٍ
قَلْبٌ قَوِيٌّ، وَرَأْيٌ صَائِبٌ، وَيَدٌ تَهْوِي إِلَى السَّيْفِ فِي مَيْلٍ وَمُشْتَاقٍ

وللشيخ ذي الفقار علي الديوبندي قصائد في مدح السلطان عبد الحميد يضيفي عليه من خلالها صفاتٍ أخرى من خدمته الحرمين واتباعه العدل، وإغاثة العاني والمكروب، وحمايته لحوزة الدين، يقول^(٤):

١- نَدِسٌ وَنَدِسٌ وَنَدِسٌ: فَهْمٌ، فَطَنٌ، الْعَالَمُ بِالْأُمُورِ وَالْأَخْبَارِ (اللسان: ندس).

٢- عَرْنِينُ كُلِّ شَيْءٍ: أَوَّلُهُ، وَجَمْعُهُ عَرَانِينُ، وَعَرَانِينُ النَّاسِ: وَجُوهُهُمْ وَسَادَتُهُمْ (اللسان: ع ر ن).

٣- رُستاق: وَالرَّزْدَاقُ: السَّوَادُ وَالْقَرَى (القاموس المحيط: رزداق).

٤- الإعلام ١٢٢٦/٣.

عَبْدُ الْحَمِيدِ، أَمَانُ الْخَائِفِينَ مُبِي - دُ الظَّالِمِينَ سَدِيدُ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
كَهْفُ الْأَنَامِ مُغِيثُ الْمُسْتَضَامِ لَهُ - إِلَى أَقَاصِي الْمَعَالِي أَقْرَبُ السُّبُلِ
الْعَادِلُ الْبَاذِلُ الْمَرْهُوبُ سَطَوْتُهُ - فِي الْجُودِ كَالْبَحْرِ، بَلْ كَالْعَارِضِ الْمَطْلِ
عَوْتُ الْوَرَى، خَادِمُ الْحَرَمَيْنِ مُعْتَصِمُ الْ - مَكْرُوبِ، عَيْتُ النَّدَى يَهْمِي بِلَا مَطْلِ
شَهْمٌ هُمَامٌ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَسُد - طَانُ السَّلَاطِينِ نَجْلُ السَّادَةِ الْأَوَّلِ
رَأْسُ الْكُفَاةِ، إِمَامٌ لِلْغُرَاةِ وَمَق - دَامُ الْحِمَاةِ لِذَيْنِ أَشْرَفِ الْمَلِكِ
غَشْمَشَمْ، نَدْسٌ، قَرْمٌ، أَخِي ثَقَّةٍ - مَاضِي الْعَزِيمَةِ مِنْ حَرِّ الْعُلَى ثَمَلُ

وللشيخ محمد قاسم النانوتوي^(١) قصيدة طويلة بدأها بالتشبيب، ثم تطرق إلى تعداد فضائل الخليفة، ثم انتقل إلى حثه على مواصلة قتال النصارى، وحماية الحرمين، ويتشوق إلى مشاركة الجيوش العثمانية في هذه الحروب الدامية، لولا تلك العوائق التي حالت بينه وبين الظفر بمناء، كما يثني على جيش العثمانيين، وعلى قائده عبد الكريم ويختتم القصيدة بدعوة الله لهم بالنصر والزيادة في العز والتمكين، يقول فيها^(٢):

سِرُّ الْكَرَامِ الْبَيْضِ، وَابْنُ صَمِيمِهِمْ - وَسُلَالَةُ الْأَشْرَافِ زُبْدَةُ الْكُفْمِ

١- هو الشيخ محمد قاسم بن أسد علي، ولد سنة ١٢٨٤هـ في نانوته، تتلمذ على الشيخ مملوك على النانوتوي، وشاه عبد الغني مجددي الدهلوي، ثم أخذ التصوف عن حاجي إمداد الله التهانوي، له جهود جبارة في الرد على النصارى والهندوس، ناظرهم مراراً وأفحمهم، حتى كان علماء الهندوس والنصارى يهابونه أشد الهيبة، ويعد هو المؤسس لدار العلوم بديوبند، اتهمه الانجليز بالمشاركة في حرب تحرير الهند من الاستعمار الانجليزي سنة ١٨٥٧هـ، من أشهر تلامذه: شيخ الهند محمود الحسن، فخر الحسن الكنكوهي، وأحمد حسن الأمروهوي وغيرهم كثيرون.

له مؤلفات عديدة تتسم بالأصالة منها: آب حیات، حجة الإسلام، الدليل المحكم، تقرير دلبذير وغيرها. توفي سنة ١٢٩٧هـ - ١٨٨٠ م، (سوانح عمري، محمد يعقوب نانوتوي ص ٣-٣٥، تذكرة علماء هند، رحمان علي ٣١٠-٢١١، مطبع نولكشتور لكهنؤ ١٩١٤ م، وفيات المشاهير عبد الأول جونفوري ٥٣ جادو بريس جونفور ١٣٢٢هـ، حداث الخفنية حافظ فقير محمد ٤٩١-٤٩٣، مطبع نولكشتور لكهنؤ ١٣٠٣هـ، الإعلام ٣/ ١٠٦٧-١٠٦٨، سوانح عمري أز مناظر حسن كيلاني، حجة الإسلام إمام محمد قاسم نانوتوي، حیات أفكار خدمات ٩٠-١٧٠، تنظيم أبناء قديم دار العلوم ديوبند، نئي دهلي ٢٠٠٥م).

٢- قصائد قاسمي، ص ١٤.

شَمْسُ الضُّحَى، بَحْرُ النَّدَى، أَسَدُ
 قَدَغَرَّ طَاغُوتُ النَّصَارَى حِلْمُكُمْ
 لَوْ سَا طَمَعَ النَّصَارَى فِيكُمْ
 فَسَيَنْدُمُونَ وَلَا تَحِينَ نَدَامَةٌ
 طَارَتْ إِلَيْهِمْ خَيْلُكُمْ فَعَقُّوهُمْ
 قَدْ أَوْقَدُوا نَارَ الْوَعَى حَتَّى إِذَا
 بَرَدُوا كَمَا قُتِلُوا بِهَا فَاسْتَدْفَأُوا
 جَاءُوا إِلَى النَّيْرَانِ لَمَّا عَايَنُوا
 خُذْهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ
 فَإِلَى مَتَى هَذَا التَّلَطُّفُ وَالْأَسَى

الْوَعَى لَا فَضْلَ إِلَّا وَهُوَ فِي أَفْضَالِكُمْ
 وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ دُونَ نِزَالِكُمْ
 فَأَرَوْا بَسَالَتَكُمْ وَحَدَنَصَالِكُمْ
 إِذْ قَدْ تَبَدَّى نَاجِزُ أَهْوَالِكُمْ
 طَارَتْ كَمَثَلِ الْمَالِ مِنْ أَفْضَالِكُمْ
 حَمِي الْوَطِيسُ وَلَا حَ بَرْقُ نِضَالِكُمْ
 بِالنَّارِ أَمْ هَانَتْ بِجَنْبِ نَكَالِكُمْ
 بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ وَرَاءِ نِضَالِكُمْ
 بَدَأُوا وَقَدْ غَدَرُوا عَلَى إِمَهَالِكُمْ
 وَإِلَى مَتَى إِضْلَاحُهُمْ بِمَقَالِكُمْ؟

وكان لأمرء الهند أيضاً نصيب وافر من هذه المدائح فهذا ملك الدكن تدبج في مدحه القصائد، ويقصده العلماء والأدباء من كل فج عميق، لما رأوا منه من رعاية واهتمام بالعلم والعلماء، ولما أعجبوا من عدله وقسطه، يقول فيه الشيخ سراج أحمد (١)(٢):

إِنَّ الْمَلِيكَ نِظَامَ الْمُلْكِ كَوَكَبَةٌ
 ظِلُّ الْإِلَهِ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيطِ ذَرَى
 وَقَائِمٌ بِصَرِيحِ الْحَقِّ فِي وَسْطِ
 وَدُرَّةِ التَّاجِ لِأَمْلَاكِ قَاطِبَةٍ

سَعْدُ السُّعُودِ لَبِيتَ الْعِزَّ وَالشَّرَفِ
 وَبَاسِطُ الْعَدْلِ، مَا حِي الْجَوْرِ وَالْأَسَفِ
 مِنَ الْجَوَانِبِ فِي عَدْلٍ وَمُتَنَصِّفِ
 فَرِيدَةُ الشَّانِ فَرْدُ الْوُصْفِ فِي الصَّدْفِ

١ - القاسم، رمضان ١٣٣١هـ، ص ٢-٣.

٢ - هو الشيخ سراج أحمد، من خريجي دار العلوم بديوبند وأحد أساتذتها، وكان نائب ناظم جمعية الأنصار (ماهنامه الرشيد ساهيوال، دار العلوم ديوبند نمبر، ص ٢٩٦).

أَحْيَا الْمَعَالِمَ حَقًّا بَعْدَ مَا دَرَسَتْ وَطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ مَيْلٍ وَمِنْ جَنْفٍ
وَمَكَّنَ الْأَمْنَ فَوْقَ الْأَرْضِ مُبْسِطاً وَالشَّرْعَ مِنْهَا مِنْ طَرَفٍ إِلَى طَرَفٍ
وَمَهَّدَ الْعِلْمَ فِي أَيَّامِ دَوْلَتِهِ وَشَنَّفَ السَّمْعَ مِنْ ذِكْرِهِ بِالطَّرَفِ
كَانَ الْمَعَالِمُ قَدْ تُلَّتْ فَعَمَّرَهَا وَصَانَهَا عَنْ عَوَادِي الدَّهْرِ وَالتَّلَفِ
ثم يختم قصيدته بالدعاء له بدوام ملكه وتوفيقه، ويدعو لبلاده بال عمران والازدهار
يقول:

فَدَامَ بِالْمُلْكِ وَالْعِزِّ الْعَزِيزِ كَمَا دَامَتْ رَعِيَّتُهُ فِي رَوْضَةِ الْأَنْفِ
وَقَائِمًا بِحُدُودِ الشَّرْعِ مُجْتَهِدًا بِالْفَضْلِ وَالْعَدْلِ ثُمَّ الْعَطْفِ وَاللُّطْفِ
وَكَانَ فِي ظِلِّهِ الْمُبْسُوطُ عَامِرَةً بِلَادُهُ أَبَدًا فِي الرَّيْفِ مِنْ شَظَفٍ
ونرى الشيخ محمد علي رامفوري^(١) يمدح النواب محمد صديق حسن خان^(٢)،
ويرى أن سماء بهوفال وأرضها سمتا وفخرتا به، وهو الصديق اسما ومسمى، ومن

١- هو السيد محمد علي رامفوري، لم تذكر التراجم شيئاً عن ولادته ونشأته وأسرته، كان علامة في علوم الكتاب والسنة، ومتكناً من المنطق والفلسفة أيضاً، أرسله السيد ولایت علي العظيم آبادي إلى «مدراس» في جنوب الهند لإصلاح الناس ولتذكيرهم، فاستفاد به خلق كثير على اختلاف فئاتهم، منهم أمراء الدولة ومنهم عامة الناس.

رجع إلى مسقط رأسه بعد وقعة «بالاكوت» ثم رجع إلى مدراس ومكث هناك برهة ثم عاد.
توفي سنة ١٢٥٨ هـ. (الإعلام ٣/ ١١٠٠)، تذكرة كاملان رامفور، حافظ أحمد علي شوق ٣٦١-٣٦٥، همدرد بريس دهلې
١٩٢٩ م، سيرت سيد أحمد شهيد، سيد أبو الحسن على الندوي ٤١٠-٤١٤، نامي بريس لكهنؤ ١٩٣٩ م).

٢- هو الأمير سيد صديق حسن خان بن سيد آل حسن خان، ولد في ١٢٤٨ هـ، تيم في صباه، لكن ذلك لم يمنعه من طلب العلم، فدرس على أخيه الأكبر سيد أحمد حسن عرشي، والمفتي صدر الدين خان، والشيخ حسين بن محسن أنصاري، والشيخ عبد الحق بن فضل الله، والشيخ محمد يعقوب الدهلوي. حتى صار أواحد زمانه، وفريد عصره ونسيجه نفسه.
انتقل بين وظائف عديدة، وذاق العسر واليسر حتى تزوج أميرة بهوفال نواب شاهجهان بيغم، فلقب بالأمير سنة ١٢٧٨ هـ. ثم عزل عن الإمارة من قبل الانجليز سنة ١٣٠٢ هـ.

ترك وراءه مكتبة حافلة في اللغات الثلاثة العربية والفارسية والأردية يفوق عدد كتبه على مائتي كتاب، منها: البلغة في أصول اللغة، أبجد العلوم، التاج المكلل، فتح البيان، اتحاف النبلاء، توفي سنة ١٣٠٧ هـ، (اتحاف النبلاء في تراجم الكملاء، نواب صديق حسن خان ص ٢٦٣-٢٧١ مطبع نظامي، كانفور ١٢٨٩ هـ، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، نواب صديق حسن خان ص ٣٨١-٣٨٨ مطبع صديقي بهوفال ١٢٩٩ هـ، آثار الشعراء حافظ سيد ممتاز علي ٣١-٣٣، مطبع شاه جهاني بهوفال ١٣٠٧ هـ).

أتاه فقد نال مراده، ثم يذكر تفردّه بجميع المكارم، وسمو الخلق، وأنه الأولى بالرياسة والسلطان، وأنه خير بمآل الأمور، متبع لشرع الله، مضطلع في العلوم، قد بلغ درجة الاجتهاد، وأنه مكرم مفضل، ويختم القصيدة بالدعاء له بالعزة والصحة، يقول^(١):

سَمَا بِكَ الْفَخْرُ فِي فَالِهَا	وَلِلْأَرْضِ فَخْرٌ بِبُيُوتِهَا
بِصِدْقِ دَعْوِكَ بِصِدْقِهِمْ	أَصَابَ الْبَرِيَّةُ فِي قَالِهَا
وَلَا غَرَوْ نَفْسُ أَتْنُكُمْ أَتَتْ	إِلَى نَيْلِهَا، بَلْ إِلَى نَالِهَا
أَمِيرُ فَدْنُهُ مُلُوكُ الْوَرَى	بِأَعْمَامِهَا وَبِأَحْوَالِهَا
بَلَوْتُ الْأُمُورَ، سَبَرْتُ الْعِبَادَ	خَبَرْتُ الْبِلَادَ بِأَحْوَالِهَا
وَجَدْتُكَ أَوْيْتِ نَفْسًا عَلَتْ	بِأَخْلَاقِهَا وَبِأَعْمَالِهَا
وَجَدْتُكَ صُورَةَ قُدُسٍ حَلَتْ	بِأَفْعَالِهَا وَبِأَقْوَالِهَا
وَجَدْتُ الرِّيَاسَةَ رَافِلَةً	بِقُرْطِ الْمَعَالِي وَخَلْخَالِهَا
وَلَوْلَاكَ فِيهَا لَمَّا بَرَحْتُ	بِزِلْزَالِهَا وَبِإِلْبَالِهَا
إِلَيْكَ الرِّيَاسَةُ قَدْ بَرَزَتْ	فَأَلْقَتْ مَثَاقِيلَ أَثْقَالِهَا
طَلَعَتْ بِهَا فَعَلَتْ أَرْضُهَا	تَحْرِ السَّمَاءِ لِأَمْثَالِهَا
سَقَيْتَ النُّفُوسَ زُلَالَ الرَّشَادِ	نَحَلْتَ الْأُمُورَ بِغُرْبَالِهَا
مِنْ اللَّهِ جِئْتَ عَلَى شِرْعَةٍ	فَأَمْرُكَ يَجْرِي بِمِنْوَالِهَا
حَوَيْتَ الْمَعَارِفَ مُجْتَهِدًا	فَلَمْ يَحْوِهَا نَفْسٌ مَكْسَالِهَا
أَتَتْ مِنْكَ نَفْسِي إِلَى مُكْرِمٍ	بِإِحْسَانِهَا وَبِإِحْجَالِهَا

١ - حظيرة التقديس وذخيرة التأسيس، أبو النصر علي بن عتيق، (ص ٩٠)، مطبعة شاهجهاني، بهوال ١٣٠٧ هـ.

رَجَاؤُكَ زَادَ لَهَا قَدْ أَتَتْ بِلَا مَالِهَا لَا وَلَا حَالِهَا
يَسُوقُ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ غِنًى وَيَهْدِي سُلُوكًا إِلَى بَالِهَا
لَهُ مُهْجَةٌ لَمْ تَكُنْ غَفَلَتْ عَنِ الْبِرِّ يَوْمًا بِأَشْغَالِهَا
وَحَيْدُ الْبَرِيَّةِ يُدْعَى بِهَا بِمَنْعَامِهَا وَبِمَفْضَالِهَا
وَرَبُّ عَزِيزُ أَعَزَّكَ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ وَأَعْمَالِهَا
وَخَصَّكَ دَابًّا بِصَحَّتِهِ وَأَسْقَاكَ صَافِي سَلْسَالِهَا

وكما مدح الشيخ محمد علي والي بهوفال الأمير سيد صديق حسن، مدح واليتها شاه جهان بيكم، زوجة سيد صديق حسن خان أيضاً^(١)، وذكر عدلها، وجودها، وعلو مكانتها بين ملوك عصرها، وأنها بهجة الأرض، ولا يجهل مكانتها إلا متبلد، يقول^(٢):

يَا شَاكِيَا دُنْيَاكَ ظُلْمَةٌ شَانِئَا سَعِيًّا فَضْبُحَكَ حَيْثُ شَاهُ جَهَانِئَا
سَلَكَتِ سَبِيلَ الْعَدْلِ حَتَّى أَصْبَحَتْ وَهِيَ اللَّتِي مَلَكَتْ زِمَامَ زَمَانِئَا
مِنْ كَفِّهَا اخْضَرَّتْ رِيَاضُ سَعَادَةٍ وَتَفَجَّرَتْ أَنْهَارُهَا بَيْنَانِئَا
فَعَوَارِفُ تُنْسِيكَ شُكْرَ سَحَائِبِ وَمَعَارِفُ تُنْسِيكَ ذِكْرَ جِنَانِئَا
يَا سَائِلَا عَنْ شَأْنِهَا مُتَبَلِّدَا مِنْ رِفْعَةِ الْأَفْلَاكِ عَنْصُرُ شَانِئَا
فَالْفَخْرُ دُونَ كِبَانِئَا، وَالْفَجْرُ دُونَ عِيَانِئَا، وَالسَّحَرُ دُونَ بَيَانِئَا

١- هي الأميرة نواب شاهجهان بيكم بنت نواب سكندر بيكم بنت نواب قدسيه بيكم، ولدت ١٢٥٤ هـ ورثت الملك عن أبيها، وعمرها ١٩ سنة فأجلست والدتها على العرش إلى أن ماتت، كان يضرب بها المثل في الذكاء والحفظ والكرم والجود، تزوجت النواب باقي محمد خان، وبعد وفاته تزوجت النواب سيد صديق خان، حصلت له عدة أوسمة من الحكومة البريطانية وعدة أوسمة من الخلافة العثمانية، سعت جاهدة في نشر العلم، وإصلاح الرعية، وتعمير البلاد.

لها كتب مشهورة، منها: ديوان الشعر، تهذيب النسوان.

توفيت سنة ١٣١٩ هـ (الإعلام ٣/ ١٢٤٥-١٢٤٦، أبجد العلوم ٣/ ٣٨٣-٢٨٦).

٢- حظيرة التقديس وذخيرة التائيس، ص ٨٨.

مَوْلَانَا جَلَّتْ جَلَالَةُ قَدْرِهَا قَامَ الْوُجُودُ بِجُودِهَا وَكَيَانِهَا
فَمِنْ الْبَسِيطَةِ بَهْجَةٍ لِبِلَادِهَا وَمِنْ الْبَرِيَّةِ عِزَّةً لِمَعَانِهَا
كَالشَّمْسِ فِي أَفْقِ الرِّيَاسَةِ إِذْ بَدَتْ ظَهَرَ النَّهَارِ، وَزَالَ جُنْحُ ظَلَامِهَا
لَا خَلْقَ يُدْرِكُ شَأُوهَا، أَنَّى وَقَدْ سَبَقَتْ رِجَالُ الْمُلْكِ يَوْمَ رَهَانِهَا

وكان لولاة رامفور^(١) وأمرائها أيادٍ غراء في العناية بالعلم وخدمة العلماء ورعاية الأدباء والشعراء، ومن هنا كثرت فيهم المدائح، فهذا المفتي محمد سعد الله الرامفوري^(٢) يمدح واليها محمد كلب علي خان^(٣) ويرى أنه شرف الملك، وزين البلاد، وعمر المعمورة قسطاً وعدلاً، وعم أرجاءها رخاء وأمناً، وغمر الخلائق بعطاياها ونال جميع المكارم والعلی كسباً أو إرثاً، وأنه من سمو المنزلة ورفعة المكانة بحيث صار تراب بابه كحلا لعيون الملوك في الروم والصين، وصار كل شيء يخدمه، حتى السماء في طاعته، ويصير حد السيف ناعماً في يد خادمه، فضلاً عن يده، كما أن خصمه يشرق ويغص حتى بالماء الزلال ولا شك أن في هذا مبالغة وإطراء في شأن الممدوح، يقول^(٤):

١ - رامفور: مدينة في ولاية اترا برديش، كانت عاصمة ولاية إسلامية إلى ١٩٤٩ م، شهيرة بمكتبتها (مكتبة رضا) الحاوية آلاف المخطوطات العربية والفارسية (المنجد في الإعلام ٣٠٣).

٢ - هو الشيخ المفتي سعد الله بن نظام الدين الحنفي المراد آبادي، ولد سنة ١٢١٩ هـ بمراد آباد، رحل إلى رامفور، ونجيب آباد ودلهي ولكهنؤ والخرمين الشرفين لطلب العلم وتلمذ على علماء كثيرين منهم: عبد الرحمن القهستاني، وشير محمد القندهاري، وحياة محمد لاري، والمفتي صدر الدين وغيرهم. ولى التدريس، ثم نظارة التأليف، ثم الإفتاء في لكهنؤ، ثم تولي الإفتاء والقضاء في رامفور.

من مصنفاته: القول المأنوس في صفات القاموس، القول الفصل في تحقيق همزة الوصل ورسائل في النحو والصرف والعروض والبلاغة، وشروح وحواش على كتب المنطق، توفي سنة ١٢٩٤ هـ.
(تذكره كاملان، رامفور ١٥١-١٥٤، تذكره علماء هند ٧٤-٧٥، الإعلام ٣/ ٩٨٢).

٣ - هو الأمير الفاضل: كلب علي بن يوسف علي بن محمد سعيد الحنفي السني الرامفوري، أحد الأمراء المشهورين. ولد بدلهي سنة ١٢٥١ هـ في بيت الإمارة، وتلمذ على علماء عصره كالعلامة فضل حق الخير آبادي، والمولوي عبد العلي وغيرهما، تولي الإمارة سنة ١٢٨١ هـ.
اجتمع لديه كبار العلماء والفضلاء، بسبب تشجيعه للعلم والعلماء، كما أنشأ مكتبة عظيمة تعدّ من أكبر مكتبات المخطوطات.

له ديوان شعر بالفارسية، وأربعة دواوين بالأردية.

توفي سنة ١٣٠٤ هـ. (الإعلام ٣/ ١٣٣٥).

٤ - حظيرة التقديس وذخيرة التأسيس، ص ٩٥.

قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ أَمْرَ الْمُلْكِ وَالِدَيْنِ
بِحُسْنِ تَذْيِيرِهِ الْعَالِي وَفُطْنَتِهِ
كَانَ الْمَمَالِكُ عَطْلاً لَا بَهَاءَ لَهَا
مِنْ عَدْلِهِ أَلْفَ الْأَشْدِّ الظُّبَاءِ كَمَا
فَلَا يُرَى فِتْنَتُهُ فِي عَهْدِ دَوْلَتِهِ
تُرَابُ سُدَّتِهِ الْعُلْيَا مَدَارِجُهَا
وَهَابُ آلاَفِ آلاَفٍ وَأَزِيدُهَا
لَوْ خَصَّمُهُ شَرِبَ السَّلْسَالِ مِنْ عَطَشٍ
أَوْ مَسَّ حَدَّ سَيْفِ الْهِنْدِ خَادِمُهُ
لَهُ الْمَكَارِمُ وَالْعُلْيَا بِأَجْمَعِهَا
أُولِي الْمَكَارِمِ سَبَاقِينَ غَايَتِهَا
طَابَ الْمَدَائِحُ مِنْ مَدْحِ الْأَمِيرِ كَمَا
كَانَ السَّمَاءُ مُطِيعاً دَائِماً أَبَدًا

ويقول الشيخ سيد محمد^(١) مادحاً الأمير حامد علي خان ذاكراً سؤدده، وكرمه،
وداعياً له بالتأييد والتوفيق، يقول^(٢):

١- هو السيد محمد بن نجم العلماء، ولد سنة ١٣٠٥ هـ في لكهنؤ، وتعلم في مدرسة شارع الشرائع في لكهنؤ حتى قرأ فاتحة
الفراغ ثم اشتغل بالتدريس في المدرسة نفسها.
نظم قصيدة عربية وعمره إحدى عشرة سنة كان متضلعا في الأدب العربي، مطلعاً بأيام العرب في الجاهلية والإسلام،
متمكناً من المنطق والفلسفة، عالماً باللغة الإنجليزية أيضاً، له رسائل عديدة منها: شريعة الإسلام، رسالة في الصرف
والنحو، ورسالة في أصول الفقه، ورسائل أخرى.
توفي سنة ١٣٣٧ هـ وعمره ٣٢ سنة، (تاريخ عباس، مرزا محمد هادي عزيز لكهنؤي، ص ٢٥٦-٢٥٩، مطبع نظامي
لكهنؤ ١٣٤٤ هـ.

٢- ورقة خطوطة في مكتبة رامفور.

قِفْ عِنْدَ ذِي شَمَمٍ قَدْ فَاقَ إِقْبَالَاً وَانْظُرْ بِعَيْنِكَ بَحْرَ التَّبْرِ سَيَّالاً
سَادَ الْوَرَى شَرْفًا، أَجْرَى النَّدى كَرَمًا عَمَّ الْبَرِيَّةَ إِنْعاماً وَإِفْضَالاً
مَنْ يَأْتِ حَضْرَتَهُ رَوْماً لِنَائِلِهِ أَصَابَ مِنْ كَفِّهِ السَّمْحَاءِ آمَالاً
الشَّمْسُ مُنْكَسِفٌ، وَالْبَدْرُ مُنْخَسِفٌ مِنْ نَوْرِ حَدِيدِهِ إِشْرَافاً وَآصَالاً
سَامِي الذُّرَى نِعْمًا، حَامِدٌ عَلَيَّ عَلَمًا وَإِلَى الرِّيَاسَةِ يَحْكِي الْمُزْنَ هَطَالاً
جَفَّ الْمَحَابِرُ فِي تَنْمِيقِ مَدْحَتِهِ فَكَيْفَ أَكْتُبُ تَفْصِيلًا وَإِجْمَالاً
يَارَبِّ أَيْدِهِ فِي أَعْلَامِ دَوْلَتِهِ عِزًّا وَمَجْدًا وَإِقْبَالًَ وَإِجْلَالًَ

وللشيخ ظهور الحق^(١) قصائد في مدح الأمير المذكور، يذكر فيه خضوع المعالي له
وسؤدده، وبسطه الأمن في إمارته، ويدعو له بطيب الدهر، وسعادة العيش، واستمرار
جوده، يقول^(٢):

هَنَاءٌ وَإِقْبَالٌ وَمَجْدٌ مُطَالِغٌ جَمَالٌ وَإِجْلَالٌ وَفَهْمٌ مُطَاوِعٌ
أَتَتْكَ الْمَعَالِي خَاضِعَاتٍ لِأَنْهَا رَأَتْ مِنْكَ نُورًا فِي الْبَرِيَّةِ سَاطِعٌ
فَحَرَّتْ عَلَى الْأَذْقَانِ تَطْلُبُ قُرْبَةً إِلَيْكَ وَتَاهَتْ إِذْ رَأَتْكَ تُطَالِغُ
هَنِيئًا لِأَهْلِ الْعِزِّ أَنَّكَ سُدَّتَهُمْ فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَالْمَعَالِي مَطَالِغُ
ثَقِيلٌ بِظِلِّ الْأَمْنِ يَا أَمَّنْ دَهْرِنَا وَتَرَفُّلٌ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْمَجْدِ وَاسِعُ
تَطِيبُ لَكَ الْإِيَّامُ حَتَّى هَوَاؤُهَا وَتَحْدِيدُكَ الدُّنْيَا وَسَيْفُكَ رَابِعُ

١- هو الشيخ ظهور الحق بن ظهور الحسن بن المفتي غلام حسين بخاري، ولد في رامفور، ودرس بها، درس الفارسية والعربية، وأخذ التصوف عن الشيخ نظام الدين حسن البريلوي، عمل في مصلحة البريد، توفي سنة ١٣١٧ هـ. (تذكره كاملان رامفور، حافظ أحمد عليخان شوق رامفوري، ص ١٨٧-١٨٨، همدرد بريس دهلي ١٩٢٩ م).

٢- القصيدة المدحية، ظهور الحق، مخطوطة في مكتبة رامفور برقم:

وَإِنِّي ظَهُورُ الْحَقِّ لَزِلْتُ دَاعِيَاً وَلَا زَالَ فَيْضٌ مِنْ أَيْدِيكَ هَامِعُ

ولم يقصر شعراء الهند على مدائح ملوكهم أو مديح الخليفة العثماني، بل لما تولى الملك عبد العزيز آل سعود - يرحمه الله - عرش الرياض، ودانت له نجد والحجاز، وقام بأعماله الجليلة في القضاء على مظاهر الشرك والبدعة والتفرقة والتشردم، وسعى لإحياء التوحيد والسنة، ووحد البلاد، وبسط الأمن، تسابق الشعراء إلى مدحه وإلى مدح أبنائه بعده، ذكروا فيه محامده، وأخلاقه من حلم وكرم وحزم وعلم، وما تحلى به من التقوى وسعة الصدر وصواب الرأي، وما قام به من تغيير المنكرات، والقضاء على البدعات يقول الشيخ عصمة الله^(١) في قصيدته التي مطلعها :

إِلَهَ الْعَالَمِينَ لَكَ الشَّيْءُ إِلَيْكَ إِنَابَةٌ وَبِكَ اهْتِدَاءُ

يبدأها بحمد الله وشكره، وذكر النبي المصطفى ﷺ وتعداد مناقبه الكثيرة، وذكر صحابته الأخيار، والتابعين له في كل آن ومكان، ثم يصل إلى الغرض الأصلي من القصيدة فيقول :

أَلَا مِنْهُمْ إِمَامُ الرُّشْدِ عَبْدُ الْ عَزِيزِ الْيَوْمَ لَيْسَ لَهُ كَفَاءُ
عَقَائِدُهُ عَقَائِدُ أَهْلِ حَقٍّ وَلِلْأَعْدَاءِ إِفْكٌ وَأَفْتِرَاءُ
عَلَى نَهْجِ النُّبُوَّةِ وَالرَّشَادِ يَسُوسُ النَّاسَ مَا فِيهِ خَفَاءُ
يَغَيِّرُ كُلَّ يَوْمٍ مُنْكَرَاتٍ وَبِالْمَعْرُوفِ يَأْمُرُ مَنْ أَسَاوُوا
وَمَا مِنْ بَدْعَةٍ إِلَّا تَحَاَهَا وَلِلْبُدْعَاتِ مِنْ يَدِهِ احْتَاءُ
وَمَا مِنْ ظُلْمَةٍ إِلَّا فَنَاهَا فَجَاءَ الْآنَ نُورٌ وَالضِّيَاءُ^(٢)

١- هو الشيخ أبو المرتضى عصمت الله بن محمد إسماعيل رحمانى، ولد في «مئو» سنة ١٣١٩هـ، درس في كلكتة، ودار العلوم بديوبند، ومظاهر العلوم في سهارنفور، ودار الحديث رحمانية في دلهي، واشتغل بالتدريس في مدرسة فيض عام في مئو، ثم اعتزل عنها ودرس الطب واشتغل به إلى أن توفي سنة ١٣٩٧هـ. (هندوباك مين عربي أدب، إقبال أحمد السلفي، ص ١٢٧-١٢٩ تاج أفست بريس إله آباد ١٤٠١هـ-١٩٨٢م).

٢- استخدم الشاعر هنا كلمة «فنى» مكان «أفنى» لاستقامة الوزن.

كَمَى بَلَدًا أَمِينًا عَنْ ظُلُومٍ نَفَى عَنْهُ وَذَاكَ لَهُ الْجَزَاءُ
 يُبْلَغُ دِينَهُ يَوْمًا وَلَيْلًا فَفِيهِ لِقَائِهِ الصَّافِي شَفَاءُ
 لَيْبُ عَالَمٍ وَفَقِيهِ عَصْرٍ بِهِ لِلنَّاسِ فِي الدِّينِ ضِيَاءُ
 لَهُ حَزْمٌ وَسِيَعٌ وَالْدهَاءُ لَهُ عِلْمٌ غَزِيرٌ وَالذِّكَا
 لَهُ خُلُقٌ عَظِيمٌ فِي وَقَارٍ لَهُ جُودٌ عَمِيمٌ وَالسَّخَاءُ
 وَحَيْدُ الْعَصْرِ فِي إِكْرَامِ ضَيْفٍ عَدُوٌّ، وَالصَّديقُ بِهِ سَوَاءُ
 جَوَادٌ مُقْسِطٌ مَلِكٌ كَرِيمٌ كَبِيرٌ لَا يُحِيطُ بِهِ الثَّنَاءُ

ونرى مثله الشيخ سيد إعجاز أحمد السهسواني يمدح الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود ويشيد بحمايته لثغور الدين، وقضائه على البدعة، وينوه بحزمه وخلقه، وشجاعته، وقوة بأسه، يقول (١):

يُبْذِي الْهُوَى جَفْنِي وَلَوْ أَتَجَمَّجَمُ هَذِي دُمُوعِي أَمْ لِسَانِي أَوْ فَمُ
 سَارُوا وَبَعْدَهُمْ نَهَارِي فِي النَّوَى لَيْلٌ بِهِيْمٌ مُدْهِمٌ مُظْلِمُ
 مَا شَافَنِي بِالْبُعْدِ إِلَّا ظَيِّبَةٌ مِنْهَا عَلَى الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ مَيْسَمُ
 لِحْفُونَهَا فَعَلٌ بِأَفْئِدَةٍ كَمَا لِلسَّيْفِ إِذْ سَلَّ الْأَمِيرُ الْأَعْظَمُ
 يَوْمَ الْوَعَى، فَتَصِيرُ أَكْبَادُ الْعِدَى جَفْنَا لَصَارِمِهِ الَّذِي لَا يَكْهَمُ
 مَلِكٌ نَحَا مَنْحَى السَّعَادَةِ نَجْمُهُ وَعَلَا عُلُوءًا لَمْ تَنْلُهُ الْأَنْجَمُ
 حَامِي ثُغُورِ الدِّينِ مَاحِي بَدْعَةٍ وَأَسَاسَ بُيُوتِ الضَّلَالَةِ يَهْدِمُ

١- أخيار أهل حديث، المجلد ٥، العدد ٣٢، ص ١٦، الصادر من دهي بتاريخ ٢٩ ربيع الثاني ١٣٧٥ هـ الموافق ١٥ ديسمبر ١٩٥٥ م.

نُورٌ تَمْتَتُهُ الْكَوَاكِبُ جَمَّةٌ حُلْمٌ حَكَاهُ يَذْبُلُ وَيَلْمَلُمُ
الْحَزْمُ وَالْعَلْيَاءُ وَالْخُلُقُ السَّيِّئُ أَيَّامًا فِي وَجْهِهِ تَتَوَسَّمُ

المطلب الثالث

مدح الشخصيات الإسلامية والعلماء والأساتذة

للعلماء مكانة سامية ومنزلة عالية عند المسلمين؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ومصاييح الدجى، وهداة الأنام، ومعلمو البشرية، يرشدون الناس إلى الطريق السوي، وينيرون لهم دروب الخير ومسالك الهدى، سهروا في سبيل العلم حتى وعوه، وكدّوا في نشره حتى بلغوه. فلا غرو أن يكتب لهم القبول، وتلقى لهم المحبة، يرجع إليهم الناس في أمور دينهم ودنياهم، يبتدون بما عندهم من كتاب الله وسنة رسوله المصطفى، - صلى الله عليه وسلم - يعظمونهم بقلوبهم وفي مكانتهم ويمدحونهم بألسنتهم وأقلامهم. وقد كثر مدح العلماء في الشعر العربي في الهند، ومدحهم الشعراء بما أوتوا من علم وفهم، وما رزقوا من تقوى وصلاح، وما بذلوا في نشر دين الله، والذود عن حماه من جهد وكد، وبما أضأوا العباد الله تعالى من طريق الفلاح والنجاح، يقول الشيخ الطاف حسين حالي^(١) في مدح شاه عبد الغني الدهلوي^(٢) في قصيدته بعد التشييب الذي بدأ به، يقول^(٣):

١- هو الشيخ الفاضل: خواجه أطفاف حسين بن يزد بخش الأنصاري الباني بتي. ولد سنة ١٢٥٣ هـ، ولد في «بلدة باني بت» ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وتلمذ على إبراهيم حسين الأنصاري، والشيخ المحدث عبد الرحمن الأنصاري، والمولوي محب الله. وتلمذ في الشعر على أسد الله خان غالب واختص به، وله مصنفات جليلة منها: «حياة جاويد» في سيرة السيد أحمد خان، و«حياة سعدى» في سيرة الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي، و«يادكار غالب» في سيرة أستاذه غالب، وشكوه هند. ومن أشهر مصنفاته «المد والجزر في الإسلام» المعروف بمسدس حالي، وله مقدمة في الشعر ودويان الشعر بالأردو، وله أبيات راققة رفيقة بالعربية والفارسية، وهو أول من اخترع أسلوبا جديدا في الشعر الأردوي. توفي سنة ١٣٣٣ هـ باني بت.

ينظر: تلامذه غالب، مالك رام ٨٣-٨٨، كوه نور برنتنك بريس، دهلي ١٩٥٧ هـ، الإعلام ٣/ ١١٩٢.

٢- هو الشيخ المحدث: عبد الغني بن أبي سعيد بن الصفي العمري الدهلوي، ولد في ١٢٣٥ هـ بمدينة دهلي، حفظ القرآن، ثم اشتغل بطلب الحديث والفقه، فقرأ على والده وعلى الشيخ إسحاق بن أفضل الدهلوي، وعلى الشيخ مخصوص الله بن رفيع الدين ثم سافر إلى الحرمين وأخذ عن علمائها كالشيخ محمد عابد السندي وأبي زاهد الرومي وغيرهما. ثم رجع إلى الهند، وبعد ثورة ١٨٥٧ م هاجر إلى المدينة المنورة إلى أن توفي فيها سنة ١٢٩٦ هـ.

له ذيل نفيس على «سنن ابن ماجه» سماه «إنجاح الحاجة» (الإعلام ٣/ ١٠٢٤، تاريخ دار العلوم ديوبند ١/ ٩٥).

٣- ضميمه أردو كليات نظم حالي، ص ١٢٥-١٢٨.

لَأُصْبِحَ يَوْمَ الْبَيْنِ كَاللَّيْلِ مُظْلِمًا
 كَمَا أَظْلَمَ الدَّهْلِي بِتَغْرِيبِ كَوْكَبِ
 عَرُوفٍ غَزِيرِ الْعِلْمِ هَادٍ وَمُرْشِدِ
 صَبُورٍ عَلَى الْبُلُوَى، شَكُورٍ عَلَى اللَّهِ
 مَدَارٍ كَمَالٍ، مُقْتَدَى كُلِّ كَامِلٍ
 إِذَا مَا قَضَى عَدْلٌ، صَدُوقٌ إِذَا رَوَى
 وَحِيدُ الْوَرَى، عَبْدُ الْغَنِيِّ الَّذِي لَهُ
 يَقُومُ غَيْبٌ جَالَسَ الشَّيْخَ سَاعَةً
 وَتَرْجِعُ رَجْعًا فَهَقَرَى دُونَ بَابِهِ
 بِدَائِيَّتِهِ أَقْصَى نِهَايَاتِ مُنْتَهَى
 مَهَابَتِهِ فِي نَفْسٍ إِلْفٍ وَوَامِقٍ
 هُوَ السَّابِقُ الْغَايَاتِ مِنْ صَاعِدِي الْعُلَى
 كَرَامَاتُهُمْ مَشْهُورَةٌ فِي مَشَارِقِ
 لَأَوْضَحُ بُرْهَانٍ عَلَى اخْتِصَاصِهِمْ
 صَيَانَتُهُمْ مِنْ كُلِّ طَاغٍ وَعَانِدِ
 وَمَنْ يَصُدُّونَ السَّبِيلَ أَمَامَهُمْ
 فَلَمَّا أَحِيطُوا إِنَّمَا كَانَ حَوْلَهُمْ

كَأَنَّ صَبَاحِي قِطْعَةً مِنْ غِيَاهِبِ
 مُضِيٍّ عَلَى عَرَبٍ، عَنِ الْهِنْدِ عَازِبِ
 جَلِيلِ الْمَسَاعِي، مُسْتَفِيضِ الْمَنَاقِبِ
 نَفُورٍ مِنَ الدُّنْيَا، إِلَى الْحَقِّ رَاغِبِ
 مَحَاطَرِ حَالٍ، مُتَتَهَى كُلِّ طَالِبِ
 مُصِيبٍ إِذَا أَفْتَى، إِذَا قَالَ صَائِبٌ^(١)
 أَوَائِلُ مِرَاقَةٍ لِكَشْفِ الْعَوَاقِبِ
 بِقَلْبٍ ذَكِيٍّ مُطْمَئِنٍّ مُرَاقِبِ
 ضَلَالَةٍ ضَلِيلٍ وَخَيْبَةٍ خَائِبِ
 نِهَايَتُهُ قُصُوصُ عِنَايَاتٍ وَاهِبِ
 إِرَادَتُهُ فِي قَلْبٍ عَادٍ وَجَانِبِ
 إِلَى رَحْلِهِمْ لَا يَنْتَهِي سَيْرُ رَاكِبِ
 مَقَامَاتُهُمْ مَذْكُورَةٌ فِي مَغَارِبِ
 بِمَوْهَبَةِ الرَّحْمَنِ خَيْرِ الْمَوْاهِبِ
 إِذَا غَلَبُوا فِي الْهِنْدِ كُلَّ أَعَالِبِ
 وَكَمْ خَلَفَهُمْ إِذْ هَاجَرُوا مِنْ مُعَاقِبِ
 نَصَالُ الْعَوَالِي أَوْ ذُبَابُ الْقَوَاضِبِ

١ - وقع الشاعر هنا في الإقواء.

وَلَمَّا أَتَى نَصْرُ مِنَ اللَّهِ بَغْتَةً
مَدَحْنَا بِمَا اخْتَصَّ الْوَرَى مِنْ مَرَاتِبِ
سَيَنْفَدُ دُونَ الْإِبْتِدَاءِ بِوَصْفِهِ
أَقَاوِيلُ وَصَافٍ وَأَوْصَافُ كَاتِبِ
وقد اشتملت هذه القصيدة على مبالغات كادعائه في البيت الأخير أن القدرة البيانية
سوف تنتهي قبل الوصول إلى بدايات بيان فضله، وهذا لا ريب مبالغ وإطراء، كما نراها
أيضاً في قوله :

بدايته أقصى نهاياتٍ منتَهٍ نهايته قصوى عناياتٍ واهب
وقول الشاعر: «بدايته أقصى نهاياتٍ منتَهٍ» فيه نظر لأن هناك شخصياتٍ أخرى
نالوا وفازوا من المراتب مالا مَطْمَع فيه لغيرهم، كالنبوة والرسالة وغيرها. كما أن قوله :
«نهاياته قصوى عناياتٍ واهب» فيه نظر أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى لا نهاية لخزائنه، لو
أعطى كل خلق مسألته ما نقص ذلك من ملكه شيئاً.

وللشيخ عبد الجبار بن بدر الدين عمر فوري قصيدة في مدح أستاذه الشيخ المحدث
نذير حسين الدهلوي يمدحه فيها بغزارة علمه، ودقة فهمه وإحيائه للسنة، وقضائه على
البدعة وهدايته للناس إلى طريق الصواب، وأنه لا يوجد له مثيل في عصره، يقول^(١):

إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى رَفِيعِ الشَّانِ نُورِ الْأَنَامِ وَمَفْخَرِ الدُّورَانِ
مِصْبَاحِ إِتْقَانٍ وَضَوْءِ كَرَامَةٍ شَمْسِ الْعُلُومِ وَمَرْكَزِ الْعِرْفَانِ
هَادٍ لِأَرْبَابِ النَّهْيِ طُرُقِ الْهُدَى مُحْيِي كَلَامِ الْحَقِّ بِالْبُرْهَانِ
نَهْرٌ تَبَجَّسَ مِنْ نَيَابِيعِ الْهُدَى يَرْوِي وَيُطْفِئُ غُلَّةَ الْعَطْشَانِ
هُوَ سَيِّدُ دُؤِ عِزَّةٍ وَجَلَالَةٍ وَمُحَدِّثُ وَمُفَسِّرُ الْقُرْآنِ
هُوَ فَاضِلٌ مُتَوَقِّدٌ أَفْكَارُهُ عَلَامَةٌ، فَهَامَةٌ، ذُو الشَّانِ

١- الإعلام ٣/ ١١٩٩-١٢٠٠.

سَكَّيْنُهُ نَحَرَ الضَّلَالَةِ وَالْهَوَىٰ صَمَّصَامُهُ أَفْنَىٰ ذَوِي الطُّغْيَانِ
جَمُّ الْعُلُومِ بِقَضِّهَا وَقَضِيضُهَا فَيْضَانُهُ قَدْ عَمَّ فِي الْبُلْدَانِ
فَاقَ الْأَكْبَابَ فِي التَّبَحُّرِ وَالتَّقَىٰ مَا مِثْلُهُ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ
أَجْرَىٰ عُلُومَ الدِّينِ بَعْدَ عَفَائِهَا وَخَارُ سُومِ الْبِدْعِ وَالْكَفْرَانِ
أَحْيَا طَرِيقَ الْحَقِّ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَوُجُوْدُهُ مِنْ آيَةِ الرَّحْمَنِ

ومما يلاحظ أن قصيدة حالي تبدأ بمقدمة غزلية طويلة، بينما قصيدة عبد الجبار تبدأ بدون تمهيد، وتنصب في الغرض الأصلي مباشرة، وهناك قصيدة للشيخ أنور شاه الكشميري في مدح شيخه رشيد أحمد الكنكوهي يذكر فيها سعة علمه، وتبحره في شتى مجالات العلم، وفقهه وورعه وزهده، وجوده، وهمته، وغيرها من مناقب عديدة، ويختتم بالدعاء له، ونلاحظ أن الشيخ أنور شاه بدأ هذه القصيدة بمقدمة رباعية كعاداته في أغلب قصائده وهي سمة بارزة في أغلب قصائده وقصائد تلاميذه كالشيخ إعزاز علي الديوبندي والشيخ محمد يوسف البنوري يقول الشيخ أنور شاه في هذه القصيدة^(١):

قَفَا يَا صَاحِبِي عَنِ السَّفَارِ بِمَرَأَىٰ مِنْ عَرَارٍ أَوْ بِحَارِ
يَسِيرُ بِشَرِّهَا نَفَحَاتُ أَنْسٍ وَرَبَّاءٍ عِنْدَ مُحِيٍّ مِنْ قِطَارِ
يَفِيضُ لِرُوحِهَا رَشَحَاتُ قُدْسٍ حَيَاةً لِلْبَرَارِيِّ وَالْقَفَارِ
وَقَدْ عَادَتْ صَبَاهَا مِنْ رَبَاهَا بِأَنْفَاسٍ يَطِيبُ بِهَا الصَّحَارِ
فَيَسِيرُ فِي قُلُوبِ الصَّبِّ وَجَدَ بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ لَدَىٰ اغْتِيَارِ
أَطِيبُ لِنَشْرِهِ نَفْسًا وَنَفْسًا فَأَرْوِي مِنْ رَوَايَاتِ الْكِارِ
أَتَابِعُهُمْ وَيُمْلِنِي دُمُوعِي حَدِيثِي مِنْ شَيْخِي لِادِّكَارِ

١- القاسم شوال ١٣٣٠ هـ، ص ٢-٤، الإعلام ٣/ ١١٩٩-١٢٠٠.

أَجَلُّهُمْ وَأَبْجَلُهُمْ مُقَاماً
لَقَدْ فَرَعَ الْوَرَى عَمَلاً وَعِلْماً
إِمَام، قُدْوَةً، عَدْلٌ، أَمِينٌ
فَقِيهٌ، حَافِظٌ، عِلْمٌ، شَهِيرٌ
إِلَيْهِ الْمُنْتَهَى حِفْظاً وَفَقْهاً
فَفِي التَّحْدِيثِ رَحْلَةً كُلِّ رَاوٍ
فَقِيهٌ النَّفْسِ، مُجْتَهِدٌ، مُطَاعٌ
وَأَحْيَا سُنَّةً كَانَتْ أُمُيَّتَتْ
وَأَصْبَحَ فِي الْوَرَى صَدَراً وَبَدَراً
وَأَصْبَحَ مُفَرِداً عَلِماً رَفِيعاً
وَأَيَّةُ رَحْمَةٍ فَضْلاً وَفَيْضاً
وَعُرَّةُ دَهْرِهِ عَلِماً وَدِيناً
يَقُومُ لِشُكْرِهِ أَثَارُهُ فِي
مَتَى مَا جَادَ جُودُ قَامَ شُكْرُ
فُضِّلَ زَمَانِهِ وَرَعَا وَزُهَّداً
كَأَنَّ جَبِينَهُ بَدْرٌ مُبِينٌ
وَهَيْئَتُهُ كَصُبْحِ مُسْتَطِيرٍ
وَدَارَ مَعَ اسْتِقَامَتِهِ مَدَاراً

أَبُو مَسْعُودٍ هُمْ جَبَلُ الْوَقَارِ
مَكَارِمُ سَاعَدَتْ كَرَمَ النَّجَارِ
وَنُورُ مُسْتَبِيرٍ كَالنَّهَارِ
كَصُبْحِ مُسْتَبِيرٍ هَدَى سَارِ
وَأَضْحَى فِي الرِّوَايَةِ كَالْمَدَارِ
وَفِي الْأَخْبَارِ عُمْدَةٌ كُلِّ قَارِي
وَكُوْثُرُ عِلْمِهِ بِالْخَيْرِ جَارِي
وَإِذْ وَضَّحَ النَّهَارُ فَلَا تُمَارِي
مُنِيرًا وَارِيًا حَلَكَ التَّوَارِي
كَرَفَعَ الْمُفْرَدَ الْعِلْمِ الْمَنَارِ
عَبَابًا مُسْتَطَابًا لِلْقَوَارِي
طِرَازَ زَمَانِهِ مِثْلَ النَّضَارِ
مَدَارِسَ أَوْ مَسَاجِدَ كَالدَّرَارِي
لَهُ الْعَزَمَاتُ مِنْ بَادٍ وَقَارِ
وَحَاتِمُ عَصْرِهِ عِنْدَ امْتِيَارِ
تَهْلَلُ نُورُهُ عِنْدَ الزَّوَارِ
أَوِ الْغَيْثِ الْمَغِيثِ لَدَى انْتِظَارِ
أَصِيلُ الْأَصْلِ مُحَمَّرَ الزَّمَارِ

فَرَحْمَةُ رَبِّهِ أَبَدًا عَلَيْهِ وَطَابَ ثَرَاهُ مِنْ رِضْوَانِ بَارِي

وللشيخ محمد كفايت الله مديح في شيخه العلامة محمود الحسن الديوبندي^(١) بدأها بمخاطبة مالطة^(٢) التي كان أسيراً فيها ويشرها بنزول هذا الضيف الكريم وما ترتب عليه من آثار جليلة مثل عمرائها بتقوى الله وذكره تعالى، ولم تكن قبله إلا خالية من ذكر الله - سبحانه وتعالى - خاملة الذكر، ويطلب منها أن تكون له سلاماً، ثم يبدأ بتعداد مناقب الممدوح من زهده وورعه وتقواه، ويرى أنه ليس من الجناة الذين يسجنون لإفسادهم في الأرض، بل إنما استحق هذه المفخرة، لأنه من ورثة الأنبياء، وقد أسر من قبله نبي الله يوسف - عليه السلام - في سجن مصر بغير ذنب منه، ويختتم قصيدته بالدعاء له بالنصر والعزة والكفاية من الله، يقول^(٣) :

أَلَا يَا مَالِطَةَ طُوبَى وَبُشْرَى ثَوَى بِكَ مِنْ مَحَا آثَارِ كُفْرِ
وَلَمْ تَكُ قَبْلَهُ إِلَّا خَرَابًا خُمُولًا غَيْرَ مَعْرُوفٍ بِخَيْرِ
فَلَمَّا حَلَّتْهَا عَادَتُ رِيَاضًا مُنْصَرَّةً مِنَ التَّقْوَى وَذُكْرِ

١- هو الشيخ العلامة المحدث: محمود حسن بن ذو الفقار علي الحنفي الديوبندي، ولد سنة ١٢٦٨ هـ، تتلمذ على مولانا السيد أحمد الدهلوي، ومولانا يعقوب النانوتوي، ومولانا محمد قاسم النانوتوي، ولازمه، وأجازه الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في التصوف.

ولي التدريس في دار العلوم ديوبند سنة ١٢٩٢ هـ وولي فيها رئاسة التدريس سنة ١٣٠٥ هـ. وكان قد وضع خطة لتحرير الهند من الإنجليز، باستعانة الحكومة الأفغانية والخلافة العثمانية، وسافر إلى الحجاز وقابل الولاة العثمانيين قواد الجيوش العثمانية هناك، لكن ألقت الحكومة الإنجليزية القبض عليه وهو في مكة مستعينة باليهما، ونفته إلى «مالطة» مع مجموعة من أصحابه وتلامذته، فمكث هناك أكثر من ثلاث سنين، فلما عاد إلى الهند استقبله الناس استقبالا عظيماً، ولقبوه بشيخ الهند، واشتهر هذا اللقب حتى غلب على اسمه. ولم يستقر في وطنه بعد العودة من منفاه، بل أخذ يجول في أقطار الهند، بحث المسلمين على مقاطعة الاستعمار البريطاني، ووضع حجر أساس الجامعة المليية الإسلامية في علي كره، وما زال في خدمته للمسلمين حتى وافاه الأجل سنة ١٣٣٩ هـ ودفن في ديوبند. (الإعلام ٣/ ١٣٧٩).

٢- اسم جزيرة تلي جزيرة صقلية، وكانت خربة غير أهلة، (الروض المعطار في خير الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميدي، ص ٥٢٠، تحقيق: د. إحسان عباس، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٧٥ م)، وكان الإنجليز قد حولوها سجنًا ومنفى للأسرى السياسيين.

٣- الإعلام ٣/ ١٣٣٤.

مُكَلَّلَةٌ بِأَزْهَارِ الْمَزَايَا وَأَزْهَارُ الْمَزَايَا خَيْرُ زَهْرٍ
أَلَا يَا مَالِطَهُ كُنُونِي سَلَامًا عَلَى مُحَمَّدِنَا الرَّاضِي بِقَدْرِ
إِمَامُ الْخَلْقِ قُدُّوهُمْ جَمِيعًا لَهُ كَرَمٌ إِلَى الْآفَاقِ يَسْرِي
جُنَيْدُ الْعَصْرِ، سِرِّي الزَّمَانِ عُيُوثُ فُيُوضِهِ تَهْمِي وَتَسْرِي
فَرِيدٌ فِي خَلَائِقِهِ الْعِذَابِ وَحِيدٌ فِي الثَّنَى مِنْ غَيْرِ فَخْرِ
أَشَدُّ النَّاسِ أَمْنًا لَهُمْ بَلَاءٌ فَيَا شَمْسَ الْهُدَى يَاطُودَ صَبْرِ
ذَكَرْنَا يُوسُفَ الصَّدِّيقَ لَمَّا أُسْرَتْ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أُسْرٍ
لِحَرِّ الْبَيْنِ فِي صَدْرِ الْكَئِيبِ تَفِيضُ دُمُوعُهُ خُمْرًا كَجَمْرِ
سَيُّزِلُكَ الْعَزِيزُ مَحَلَّ عِزٍّ وَيَنْصُرُكَ النَّصِيرُ أَعَزَّ نَصْرِ
سَيَكْفِيكَ الْإِلَهُ فَإِنَّتَ مَرَّةً كَفَاكَ اللَّهُ قُدَمَاءَ كُلِّ شَرٍّ

وللشيخ أبي الحسن الصديقي^(١) أيضاً مديح في أستاذه الشيخ أنور شاه الكشميري
بدأها بالغزل وذكر فراق الأحبة وما أصابه بسببه من شدة ولوعة، ثم يتخلص بذكر
الممدوح ويذكر علمه وفضله وما له من مكانة عظيمة عند أساتذته وأحابيه وأعدائه،
ويدعوه له بدوام التوفيق، ويختم القصيدة بالاعتذار على التقصير في المدح، فيقول:

مَرَرْتُ عَلَى أَطْلَالٍ لَيْلَى مُبَكِّيًا وَقَلْبِي عَلَى هَجْرَانِهَا يَتَمَلَّمُ
فَقَالُوا- هَذَاكَ اللَّهُ- لَا زِلْتَ جَارِعًا تَعَزَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ
فَإِنْ كُنْتَ مَكْرُوبًا فُجِعْتَ بِفَقْدِهِ فَلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ مَعُولُ
وَإِنَّ حَيَاتِي بِالذِّيارِ وَأَهْلِهَا فَكَيْفَ التَّعَزِّي وَالْأَجَبَّةُ تَرَحَّلُ

١- لم أعثر له على ترجمة.

فَيَا عَيْنُ جُودِي بِالْذَّمِّ سَوَاكِبَا عَلَى فَقْدِ أَحْبَابٍ مَضَوْا وَتَرَحَّلُوا
وَدَعْ ذِكْرَ شَيْبٍ ثُمَّ دَعْ ذِكْرَ صَبْوَةٍ وَيَمِّمْ إِلَى مَنْ بِالْعُلُومِ مُكَلَّلُ
وَمَنْ نَوَّرَ اللَّيْلَ الْبُهِيمَ ضِيَاؤُهُ وَمَا هُوَ إِلَّا "أَنْوَرُ" يَتَهَلَّلُ
أَغْرُ كَضْوِ الشَّمْسِ وَالشَّمْسُ طَالِعُ وَأَبْيَضُ مِفْضَالٍ كَرِيمٍ مُفَضَّلُ
وَمَحْمُودٌ وَمَحْمُودٌ وَشَيْخُ طَرِيقَةٍ وَهَذَا لِمَنْ شَاءَ إِلَهٌ يُفَضَّلُ
شَدِيدٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ غَيْرِ خَشْيَةٍ رَحِيمٌ عَلَى الْأَحْبَابِ طَرًّا مُسَهَّلُ
فَمَوْلَايَ لَا زَالَتْ شُمُوسُ فُيُوضِكُمْ مَتَى كَانَتِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلُ
فَوَاللَّهِ مَا أَذَيْتُ حَقَّكَ نَاشِدًا وَمَافُلْتُ شَيْئًا فِينِكَ، هَلْ أَنْتَ تَقْبَلُ؟

وواضح جداً في هذه القصيدة تأثر صاحبها بالشعراء العرب القدامى، حتى ضمن أشطراً من قصائد الأقدمين.

وكل هؤلاء الممدوحين والمادحين كانوا من المشتغلين بالدراسات الدينية مع زهدهم عن الدنيا، وميلهم إلى التصوف، وهم المعروفون بالإرشاد الديني مع مشاركاتهم المشهودة فيما يجري حولهم من الأحداث السياسية الضخام، ومحاولة قيادة الناس بمنظور ديني خالص.

وهناك نوع من الممدوحين قد تربوا ونشأوا في بيئة سابقة ولكنهم اختاروا جبهة أخرى لخدمة الإسلام والمسلمين، واجتهدوا فأصابوا وأخطأوا واختلف الناس فيهم، وعلى رأس هؤلاء سرسيد أحمد خان^(١) مؤسس جامعة عليكرة الإسلامية في عليكرة،

١ - هو أحمد بن المتقي بن الهادي بن عماد بن برهان الحسيني النقوي الدهلوي، ولد ١٣٣٢ هـ في دلهي، جد في طلب العلم، فأتقن العربية والمنطق والهندسة والطب، كما تعمق في الفقه والأصول والأدب العربي أيضاً. تولى القضاء لفتحبور سيكري، ولقبه بهادر شاه المغولي بـ «جواد الدولة عارف جنك»، أصدر مجلة تهذيب الأخلاق لدعوة المسلمين إلى الاستفادة من العلوم الحديثة، وأنشأ مدرسة العلوم في علي كره لهذا الغرض نفسه، واشتهرت المدرسة فيما بعد بجامعة عليكرة الإسلامية.

وقد مدحه كثيرون كما عارضه كثيرون أيضاً وعلى رأس من مدحه العلامة شبلي نعماني^(١) شريكه وعضده في حركة الإصلاح التعليمي وحركة جامعة عليكرة بدأ قصيدته بذكر تلك الأحوال المؤسفة التي كانت تعيشها الأمة المسلمة في الهند، ثم ذكر محاولات سيد أحمد خان في إصلاح تلك الأحوال، وما أعطي من نصح لأمته، ومنزلته بين الأنام إذ ينتهي نسبه إلى سيد البشر - عليه الصلاة والسلام - .
ويدعوه إلى مواصلة واستمرار مساعيه، غير مبال بالمعارضات والمجازاة بالسوء، يقول:

أَلَمْ جَدُّ يَصْحَبْ عِلْمًا حَيْثُمَا يَصِلُ وَالْعِلْمُ عَنْ قَوْمِنَا لَا زَالَ يَرْتَحِلُ
نَأْلُو مِنْ الدُّلِّ مَا لَا نَأَلُهُ أَحَدٌ إِذْ لَا يَرَى فِيهِمْ عِلْمٌ وَلَا عَمَلٌ
وَلَا تَزَالَ تَرَى يَنْشَتْ شَمْلُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقَدْ ضَاقَتْ بِهِ الْحَيْلُ
لَا يَرْغَبُونَ إِلَى مَا كَانَ يَنْفَعُهُمْ فَجُلٌ صَنَعَتْهُمْ لِلْغَيِّ وَالْخَطَلِ
تَرَاهُمْ الْيَوْمَ فِي كَأْبٍ وَفِي قَلَقٍ فَلَا أَفَادَ فِتْنًا مَابِهِ اشْتَغَلُوا

منحته الحكومة الإنجليزية سنة ١٣٠٦ هـ وسام «نجم الهند».

له «آثار الصناديد» في تاريخ دلهي، وتاريخ بجنور، وصحح «آئين أكبري»، وكتب عليه حواشي مفيدة، والخطبات الأهدية، وغيرها من المصنفات.
توفي سنة ١٣١٥ هـ. (الإعلام ٣/ ١١٧٧).

١- هو الشيخ الفاضل شبلي ابن حبيب الله البندولي، ولد سنة ١٢٧٤ هـ بقرية بندول من أعمال «أعظم كره»، وقرأ على مولانا فاروق بن علي العباسي الجرياقوتي، ثم سافر إلى رامفور وأخذ عن الشيخ إرشاد حسين العمري الرامفوري، ثم ذهب إلى لاهور، وأخذ عن الشيخ فيض الحسن السهارنفوري، وقرأ الحديث على الشيخ أحمد علي بن لطف الله السهارنفوري، ولي التدريس في مدرسة العلوم في عليكرة، وصنف في تلك الفترة سيرة الخليفة العباسي محمد المأمون، وسيرة النعمان في سيرة الإمام أبي حنيفة وكتابه الجزية وحقوق الذميين، وكتبا في تاريخ العلوم الإسلامية وتعليماتهم وكلها لقيت القبول، وحصلت له شهرة عظيمة في بلاد الهند، وسافر إلى بلاد الروم والشام ومصر، وأعطاه السلطان عبد الحميد العثماني النيشان من الطبقة الرابعة، ولما رجع إلى الهند لقبته الدولة الإنجليزية «شمس العلماء» ثم سافر إلى حيدر آباد وتولى نظارة العلوم والفنون لمدة خمس سنين، ثم ترك الخدمة، وتولى نظارة دار العلوم ندوة العلماء في لكةهنؤ مدة ثمانية أعوام، ومن مصنفاته : كتاب في سيرة الفاروق - رضي الله عنه - وله شعر العجم في خمسة مجلدات، وله كتاب في الانتقاد على مقالات جرجي زيدان في التمدن الإسلامي بالعربية، ودبوان الشعر الفارسي، ومن مصنفاته المجلد الأول من السيرة النبوية، وكتب أخرى قيمة .

توفي سنة ١٣٣٢ هـ. ببلدة أعظم كره ه . (الإعلام ٣ / ١٢٤٢ ، وحياة شبلي للسيد سليمان الندوي. ط مطبعة معارف، أعظم جره الهند ١٣٦٢ هـ، وماهنامه «أفكار ملي» دلهي، مسلم شخصيات نمبر، ص ١٢٢-١٢٣، يوليو ٢٠٠٥ م).

لَا يَتَّبِعُونَ وَقَدْ ذَاقُوا وَبَالَهُمْ
وَهَلْ يُجَازِيهِمْ إِلَّا بِمَا اكْتَسَبُوا
فَمَنْ سَعَى الْيَوْمَ فِي إِصْلَاحِ حَالِهِمْ
إِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ
هُوَ الَّذِي فَاقَ فِي الْإِفَاقِ مَنْزِلَةً
مَنْ أَقْبَلَ الدِّينَ وَالْدُّنْيَا عَلَيْهِ مَعًا
نَالَ الْمَكَارِمَ مِنْ آبَائِهِ وَمَشَى
فَجَدَّهُ سَيِّدَ الْأَعْرَابِ وَالْعَجَمِ
وَهَكَذَا صُنِعَ هَذَا السَّيِّدِ الْعَالِمِ
يَا خَيْرَ مَنْ سَيَّطَحُ الْقَوْمِ مِنْ دَمِهِ
أَحْسِنْ إِلَيْهِمْ وَلَوْ جَازُوكَ سَيِّئَةً

مِنْ سُوءٍ صُنِعَ فَقَدْ بَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا
مَنْ كَانَ مِنْ عِنْدِهِ الْأَحْكَامُ تَنْفَصِلُ
فَاللَّهُ جَازِيهِ يَوْمًا يُقْطَعُ الْأَمْلُ
قُلْتُ : الْإِمَامُ الْهُمَامُ السَّيِّدُ الْبَطْلُ
وَنَالَ مَا لَمْ تَنْلُهُ الْأَعْصَرُ الْأَوَّلُ
وَالْآنَ فِي نَجْحٍ مَا قَدَرَامُ مُشْتَغِلُ
فِي الْمَكْرُمَاتِ عَلَى آثَارِ مَا فَعَلُوا
قَدْ قَالَ : "يَا أُمَّتِي" لِمَادَنَا الْأَجَلُ
يَقُولُ : "يَا لَهْفَ قَوْمِي، بِئْسَ مَا عَمِلُوا"
أَحْسِنْ وَلَا تَبْتَئِسْ مِنْ سُوءِ مَا عَمِلُوا
وَلَا تُبَالِ بِمَا قَالُوا وَمَا فَعَلُوا

ويمدحه حكيم عبد المجيد^(١) ويصوب رأيه ويشيد بجزمه، وعزمه، كما ينوه بزملائه
ومن ساعده في حركته التعليمية، يقول^(٢):

أَيَا مَنْ لَيْسَ مِثْلَكَ فِي الرِّجَالِ
وَقَدْ أُوتِيَتْ مَكْرُمَةٌ وَعِزًّا
هَدَيْتَ لَنَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا

لَقَدْ نِلْتَ الْمَرَامَ بِكُلِّ حَالٍ
وَرَأَيْتَ صَائِبًا مِنْ ذِي الْجَلَالِ
إِلَى كَسْبِ الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي

١- هو الحكيم عبد المجيد بن الحكيم محمود خان، ولد سنة ١٢٦٦هـ وأخذ الصناعة الطبية من أبيه حتى برع فيها، وعين طبيب الحاكم الإنجليزي في دلهي.

كان يساند السيد سيد أحمد خان في حركته التعليمية، كما كان يقود حركة نشر الطب اليوناني.
توفي سنة ١٣١٩هـ الموافق ١٩٠١م، (حيات أجهل ١٨-٢٧ قاضي عبد الغفار، مدينة بريس، بنجور، التاريخ غير مذكور).

٢- روداد محمدن ايجو كيشنل كانفرنس إجلاس سوم ١٨٨٨م، ص ١٢٨.

مَوَاعِظُكَ الْبَلِيغَةُ مُعْجَزَاتٍ سَحَرَتِ الْقَوْمَ بِالسَّحْرِ الْحَلَالِ
 لَقَدْ نَبَّهْتَنَا عَنْ نَوْمِ جَهْلٍ وَكُنَّا فِي ظَلَامَاتِ الضَّلَالِ
 حَزَمْتَ الْعَزَمَ لِلْفَوْزِ الْكَبِيرِ وَلَوْ سَبَّكَ سُفْهَاءُ الرِّجَالِ^(١)
 أَتَيْتَ بِرَفْقَةٍ إِخْوَانَ صَدَقِ أُولَى ذَوْقِ سَلِيمٍ وَالْكَامِلِ
 لِنَنْفَعِ حُمَاةَ دِينِ الْحَقِّ جَمْعًا هُمْ السَّاعُونَ بِالْهَمِّ الْأَعْيَالِ
 وَكُلُّ مِنْهُمْ ذِمَّرٌ ذِكْرِي وَفَحْلُ الْعِلْمِ بِالْعَذْبِ الْمَقَالِ
 وَسَيِّدُ قَوْمِنَا فِيهِمْ كَبَدِرٍ يُضِيءُ بِحُسْنِ قَوْلٍ وَالْفِعَالِ

المبحث الثالث

الرثاء

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : رثاء العظماء

المطلب الثاني : رثاء الأقارب

الرثاء أصدق عواطف الإنسان تعبيراً، وأجلها تصويراً، وألصقها بالنبع الخالد، نبع الوجدان الدفاق، وإن الحبيب عندما يفقد حبيبه يسكب من الدموع أغزرها، ومن العبرات أشجاها، ومن الهموم أشدها خطبا، وأفظعها إيلاما، وأعمقها حسرة، كيف لا وهي عشرة حياة طويلة في ظاهرها، قصيرة في جوهرها، والنفس تميل إلى من تألفه وتعشقه... يقول الرسول ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»^(٢). والرثاء أصدق فنون الشعر العربي قاطبة؛ ذلك لأنه يخاطب عزيزا فارق الحياة، أو ملكا

١ - سكن الشاعر «فاء» السفهاء لضرورة الحفاظ على سلامة الوزن.

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، عن عائشة رضي الله عنها (٣٣٣٦).

كان ملء السمع والبصر، أو دارا دارت عليها عوادي الزمن. وقد سئل أحد الأعراب: «لماذا تعدون الرثاء أصدق أشعاركم؟» فقال: «لأننا نقولها وقلوبنا محترقة.»^(١)، فالذي يرثي الفقيد لا يبتغي أجراً كما يفعل أكثر شعراء المدح الذين يقولون لنيل عطاء، ولكن الراثي يعدد مناقب العزيز الذي فارق الحياة وفاء لحب سالف، والتزاماً بشعور كريم^(٢). وإذا نظرنا إلى هذا الغرض في الشعر العربي في الهند، وجدناه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: رثاء العظماء من الملوك والعلماء وغيرهم.

القسم الثاني: رثاء الأقارب والأحبة من الأب والابن والزوجة وغيرهم.

وبناء على هذا انقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: رثاء العظماء.

المطلب الثاني: رثاء الأقارب.

المطلب الأول

رثاء العظماء

رثى شعراء الهند كثيراً من علمائهم ومشائخهم، ولم يتطرقوا إلى رثاء الملوك والأمراء إلا نادراً، ذلك لأن أغلب هؤلاء الشعراء - كما بينا سابقاً - كانوا ينتمون إلى بيئة دينية، ولم تكن لهم علاقات وطيدة مع الحكام والولاة، إلا الذين عرفوا باهتمامهم بأمور الدين، ورعايتهم لمصالح المسلمين، ومن هنا ندر رثاء الملوك والأمراء في شعرهم ما عدا ملوكاً واحداً هو الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود وذلك لمواقفه الجليلة في خدمة الإسلام والمسلمين.

ولما استشهد الملك فيصل آل سعود - يرحمه الله - ووصل النعي الشيخ محمد ناظم الندوي رثاه رثاء حازماً لما كان للفقيد من الأيادي البيضاء والمواقف الثابتة في الدفاع عن الإسلام، وخدمة المسلمين في شتى بقاع المعمورة، وقد بدأ رثاءه بذكر وقع هذه الفجعة حتى عم الحزن والكآبة الكون كله، فالجو مغبر، والنجم كئيب حزين، والليل في حداد،

١ - العقد الفريد ٣/ ٢٢٨ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ١٣٩١هـ، ١٩٧١م.

٢ - الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب، د. محمود حسن أبو ناجي ص ١٠ - ١١، مكتبة دار التراث المدينة المنورة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

والأفق في سواد، والقلوب تكاد تتفطر، والعيون تذرِف الدموع، يقول :

الْجَوُّ مُغْبِرُ الْجَوَانِبِ أَحْمَرُ وَالنَّجْمُ مُكْتَبٌ ضَيْلٌ أَكْدَرُ
وَاللَّيْلُ مَنْشُورٌ ثِيَابِ حَدَادِهِ وَالْأَفُقُ مُسَوِّدُ النَّوَاحِي أَغْبَرُ
نَبَأٌ أَذِيعَ مِنَ الرِّيَاضِ ^(١) لَمْوَجِعْ كَادَتْ لَوْفَعَتِهِ الْقُلُوبُ تَفْطَرُ
بَكَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْعُيُونِ تَفْجَعَا لِلْفَيْصَلِ الْمَرْحُومِ سَاعَةً أَخْبَرُوا

ثم يتحول الشاعر إلى تعداد مناقب الفقيد ومآثره، فذكر جوده، وسيادته، وحسن سياسته، وحبه لدى الشعوب، وقوة رأيه وحصافة عقله، وسداد تدبيره، وعزيمته، ومساعيه في جمع شمل المسلمين، ونجدته للمستغيثين والمتضررين، ونظريته الثاقبة، وذكائه الخارق، وتفطنه لما يكاد حوله من مكائد، وتمكنه من الحيلولة دون وقوعها، يقول:

مَنْ لِلْخُطُوبِ إِذَا الْخُطُوبُ تَفَاقَمَتْ مَنْ لِلْمُصَابِ إِذَا الرِّزِيَّةُ تُفْقِرُ
رَحْبُ الْجَنَابِ إِذَا الْوُفُودُ تَكَاثَرَتْ هَشُّ اللَّقَا، طَلَقُ الْمُحَيَّا، مُبْشِرُ
حَالٍ مُعْضِلَةٍ إِذَا مَا أَعْضَلَتْ وَهَابُ بِلْيُونٍ ^(٢) إِذَا مَا أَعْسَرُوا
شَهَادُ أَنْدِيَّةٍ لِحَلِّ قَضِيَّةٍ كَشَافُ ظُلُمَاتٍ إِذَا لَمْ يَنْصُرُوا
وَمُحَبَّبُ سَادِ الْقُلُوبِ وَلَاؤُهُ وَمُدَبِّرُ سَاسِ الرَّعِيَّةِ أَكْبَرُ
وَمُعْظَمُ عِنْدِ الشُّعُوبِ مُبَجَّلُ أَسَدِي مِنَ الْمَعْرُوفِ مَا لَا يُكْفَرُ
وَلَهُ مِنَ الْأَيْدِي سَحَابٌ هَاطِلُ عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ شُعُوبًا تَشْكُرُ
فَضْلٌ أَصَابَهُمْ كَنُوءٌ هَامِرُ لَا يَجْحَدُ إِلَّا الْكَنُودُ الْإِبْتَرُ ^(٣)

١ - عاصمة المملكة العربية السعودية.

٢ - بليون: في بريطانيا: مليون مليون وفي الولايات المتحدة: ألف مليون، (الدخيل في اللغة العربية الحديثة ولهجاتها، د. ف- عبد الرحيم، ص ٣٨، بيانات النشر غير متوفرة ١٣٩٣هـ-١٩٧٥م).

٣ - الكنود: الكفور بالنعمة (اللسان: كند).

وَلَهُ مِنَ الْعَقْلِ الْحَصِينِ الْأَوْفَرُ وَلَهُ مِنَ الرَّأْيِ النَّصِيبِ الْأَكْبَرُ
 مَاضٍ إِذَا مَا حَلَّ خَطْبٌ فَادِحُ يَأْتِي مِنَ التَّدْبِيرِ مَا هُوَ أَجْدَرُ
 لَا يَسْتَنْبِي بَعْدَ الْعَزِيمَةِ إِذْ دَرَى مَا قَدْ يَكِيدُ لَهُ الْعَدُوُّ الْأَحْمَرُ
 وَسَعَيْتَ لِلْإِسْلَامِ سَعْيِي مُؤَلَّفٍ يَبْغِي وَئَامًا لِلَّذِينَ تَدَابَرُوا
 وَجَمَعْتَ شَمْلَ الْمُسْلِمِينَ بِحِكْمَةٍ عَادَ الْوِدَادُ بِهَا يَسُودُ وَيَظْهَرُ
 وَإِذَا دَعَاكَ أَخُوكَ فِيمَا نَابَهُ لَبَّيْتَ دَعْوَتَهُ حَيْثُ مَا تَنْصُرُ
 وَنَجَحْتَ فِي مَسْعَاكَ نُجَحَ مُظْفَرٍ وَفَلَّتْ حَدَّ دَسِيسَةٍ تَسَاوَرُ
 بَصَرَتْ عُيُونُكَ بِالْمَكَائِدِ كُلِّهَا فَأَظْفَأَتْ نَارَ مَكِيدَةٍ تَسَاوَرُ

ويقول إنه نجح في إحباط جميع المؤامرات التي حيكّت ضده، ماعدا مؤامرة قتله، ويتأسف على القاتل، فيذكر أنه لا يعرف قيمة هذا القتل، ومكانة هذا الشهيد الذي غدر به، ويخاطب تلك الرمية التي أردته قتيلاً مضرراً بالدم، ويرجو له نيل الشهادة عند الله الغفور، يقول:

إِلَّا الَّتِي حِيكَتْ لِقَتْلِكَ غِيْلَةً لَمْ يَدْرِ جَانِبَهَا بِمَنْ هُوَ يَغْدِرُ
 يَارَمِيَّةَ أَضْمَتِكَ تَضْرُجُ بِالْدَّمَا نِلْتَ الشَّهَادَةَ عِنْدَ رَبِّ يَغْفِرُ

وبعد هذا الذكر الشامل لكثير من صفاته ومناقبه يتحول إلى التسلي والتعزي، ويرى أن من له مثل هذه المحامد، ومثل هذه المكارم لا يموت، بل يبقى له حياته لما خلف وراءه من ثناء جميل، وذكر عاطر، ويدعو الله له بالرحمة والمغفرة، ودخول الجنة، ويرجو لمثواه أن يسقيه السحاب، يقول:

إِنْ غَابَ عَنْكَ فَهُوَ حَيٌّ يَبْتَئَا وَالْمَرْءُ طَبَعًا بِالْمَحَامِدِ يُدْكَرُ
 رَدَّ الْحَيَاةَ لَهُ بِجَيْلٍ فَعَالِهِ فَصَحِيفَةٌ طَوِيَتْ وَأُخْرَى تُنْشَرُ

اللَّهُ يَرْحَمُهُ وَيَشْكُرُ سَعْيِيهِ وَيَجْـوُدُ مَضْجَعَهُ سَحَابٌ مَاطِرٌ
تَرْجُو لَهُ غُفْرَانَ رَبِّ غَافِرٍ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ حَيًّا يُخْبِرُ^(١)

وتمتاز هذه الأبيات بحرارة العاطفة وصدقها، كما تمتاز بوضوح اللغة، وسهولة التراكيب، وسلاسة الأسلوب أيضا .
ومن هذا النوع من الرثاء أيضاً ما قاله الشيخ حبيب الرحمن العثماني في رثاء المولوي عبد الباقر الحيدرآبادي^(٢) يقول فيه^(٣):

رُزْءٌ يُجْلِلُ عَنِ السُّلُوفِ طَالَا حَظُّ أَلَمٍ فَزَعَزَعَ الْأَوْصَالَ^(٤)
حَدَثٌ تَقَعَّقَتِ الْقُلُوبُ لَوَقْعِهِ ثَلَّ الْعُرُوشُ فَزَلَزَلُوا زَلْزَالَ^(٥)
فُتَّتْ بِهِ الْأَكْبَادُ وَأَنْصَدَعَ الْحَشَا لَمَّا رَأَوْهُ وَشَاهَدُوا الْأَوْصَالَ
عَبْدُ الْعَزِيزِ لَهُ حَنْيُنٌ دَائِمٌ يُمَسِّي وَيُصْبِحُ سَاهِرًا مَعْوَالَ
وَكَذَاكَ عَبْدُ الْبَاسِطِ الْحَزَنُ الشَّجِيَّ يَبْكِي عُذْوًا هَائِمًا آصَالَ^(٦)

فبدأ القصيدة بذكر عظم الفجيعة التي حلت بهم بوفاة هذا الفقيه حيث إنَّ فقده مصيبةٌ أكبرُ من أن يُتسَلَّى عنها، ونائبة اهتزت منها القلوب، وثلت لها العروش، وزلزل الناس زلزالا، وتقطعت الأكباد وتمزقت القلوب لشدة هوله، ويذكر أن ابنه عبد العزيز وعبد الباسط أصيبا بحزن مقيم، وهم جاثم، ثم انتقل بعد ذكر شدة وقع هذا الحادث إلى تعداد مناقب المرثي وبين من خلاها مكانته العالية حيث شبهه بالطود الراسخ، الثابت المكان، وأنه ملجأ الضعفاء والمساكين من الأرامل والأيتام، وأنه مضياف،

١ - الزهرات، محمد ناظم الندوى، ص ٩-١٠.

٢ - لم أعثر له على ترجمة.

٣ - معين اللبيب ص ٧٠، القاسم جمادى الأولى ١٣٣٦ هـ، ص ١-٢.

٤ - الأوصال: جمع وصل: المفصل أو مجتمع العظام. (المعجم الوسيط، مادة وصل ل).

٥ - تقعقع: تحرك واضطرب. (المعجم الوسيط).

٦ - هائم: متحير. (القاموس: مادة هو م).

ومعين المحتاجين، يقوم بقضاء حوائج الناس في وقت الضنك، ويحمل أثقال الآخرين ليخفف عنهم وطأتها، ومشاركة لهم في آلامهم ومصائبهم، يقول:

أَوْ مَا سَمِعْتَ بِأَنْ طُودَ أَقْدَهُوَى كَهْفُ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ زَالَاً
مَنْ كَانَ يَخْفُضُ لِلضُّيُوفِ جَنَاحَهُ دَابُّ الْمُعِيلِ إِذَا يَرْبُّ عِيَالاً^(١)
يَقْضِي لُبَانَةً مَنْ يُلَوِّذُ بِبَابِهِ إِذْ كَانَ رِفْدُ الْمُتَرَفِّينَ سُعَالَاً
وَيَنْوُو بِالْعَبِّ الثَّقِيلِ لِحَارِهِ وَكَذَا الْكَرِيمُ يُجَمِّلُ الْأَثْقَالَاً

وهكذا يستمر في تعداد مناقبه وتبيان محاسنه، ويختتم قصيدته بأن يدعو الله تعالى له أن يبوئه جنات النعيم، وأن يسقيه بفضلله رحيقاً مختوماً وأن يكسوه حلالاً بهيئةً فضلاً منه وإكراماً، يقول:

بَوَاهُ رَبِّ الْخَلْقِ مِنْ رِضْوَانِهِ وَحَبَاهُ رَوْضَاتِ الْجَنَانِ ظِلَالَاً
وَسَقَاهُ مَخْتُومَ الرَّحِيقِ بِفَضْلِهِ كَأْساً دِهَاقاً طَاهِراً وَحَلَالَاً^(٢)
وَكَسَاهُ مِنْ تَوْبِ الْبَهَاءِ كَرَامَةً حُلَلًا تَكِلُ لَهَا الْعُمُيُونَ تِلَالَاً^(٣)

ويلاحظ أنه ختم رثاءه ببيت يدل شطره الثاني على تاريخ وفاة المراثي^(٤) يقول:

وَإِذَا أَرَدْتَ سِنِي الْوَفَاةِ فَقُلْ لَهُمْ وَاقِي وَأَوْفِي نُضْرَةً وَجَمَالَاً
ونجده يتبع المنهج في نفسه قصيدة له أخرى في رثاء المراثي نفسه بدأها بقوله:

١- المعيل: من أعال: كثر عياله (المصباح المنير: مادة ع و ل)

٢- دهاقا: من دهق الكأس يدهق دهاقا ودهاقا: ملاًها.

٣- أصله تتاللاً.

٤- مما شغف به الشعراء في الهند استخراج مادة التواريخ لأحداث معينة بطريقة حساب الجمل، فلكل حرف عدد معين، وتجمع هذه الأعداد لحروف كلمة معينة أو شطر كامل أو بيت كامل فيوافق العام الذي حصل فيه الحادث. كان الشعراء في الهند يتفاضلون فيه، وكانوا يولونه اهتماماً، أكثر في مراثيهم، حتى جرّهم هذا إلى تكلف ظاهر في كثير من الأحيان، ولم يكن هذا بدعاً لدى شعراء العربية في الهند، بل كان الشعراء قبلهم في العصرين المملوكي والعثماني في جميع الأقطار العربية أيضاً يهتمون به اهتماماً بالغاً، وهم الذين أورثوا الشعراء في الهند هذا التقليد العربي.

مَا بَالُ عَيْنِكَ كَالسَّحَابِ الْمَاطِرِ أَوْ مَا لِقَلْبِكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ^(١)

وأغلب قصائد الرثاء في الشعر العربي في الهند كانت تسبر على هذا المنوال من البدء بالتفجع وإظهار الألم الذي هو الندب ثم يعقبه التأين وهو تعداد مناقب الميت وينتهي القصيد بالتعزي والدعاء للمتوفي بالمغفرة والرضوان، ولقبره بهطول الأمطار ونزول الغيث.

ومن أمثله أيضاً ما قاله الشيخ محمد إبراهيم مسقطي^(٢) في رثاء الشيخ عبد الرحيم راي فوري^(٣) بدأه ببيان عظم المصيبة وشدة وقعها على نفسه حتى يقول إن دموعه لا تنقطع، وزفراته لا تنتهي، مع أنها لا تجدي، ولا تشفي من الحزن والغم، ويذكر أنه صابر جلد يتحمل المصائب، ويحتمل المشاق، ومع ذلك أوهنته المنايا، وأنهت قواه، ويستنكر على أصحابه لومهم إياه على الاستمرار في الأسى، وطلب التجلد، يقول:

أَعْقَدُ الثَّرِيًّا سِلْكُهُ اخْتَلَّ مِنْ عَالٍ تَتَابَعَ نَجْمٌ ثُمَّ نَجْمٌ بِجَنَدَلٍ
تَسَاقَطَ دُرٌّ ثُمَّ دُرٌّ مَجْجَلَلٌ لِسِمِطٍ يَكَايُ الْعَقِيقِ مُسْلَسَلٍ^(٤)
طَوَازِقُ عَطَشَى مَا وَجَدَنَ مَوَارِدًا سَوَى مَاحْمِيْنَا مِنْ مَعَلٍّ وَمَنْهَلٍ
أِنْ سَانَ عَيْنِي كَفَّ بَعْضَ مَدَامِعِي لَئِنْ سَاءَكَ الدُّنْيَا فَلَسْتُ بِأَوَّلٍ
فَلَوْ كَانَ تَذَرَأُفُ الدُّمُوعِ شَفَى أَسَى بَرِئْتُ مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ بِأَعْجَلٍ

١ - معين اللبيب في قصائد الحبيب ٧٠-٧١، مجلة القاسم ربيع الثاني ١٣٣٧ هـ ص ٦.

٢ - لم أشر له على الترجمة، ولا يعرف عنه أكثر من أنه كان من المسقط، وكان يدرس في دار العلوم بديوبند سنة ١٣٣٧ هـ وأنه وافته المنية في شبابه في رجب عام ١٣٣٧ هـ، (القاسم، ربيع الأول ١٣٣٨ هـ، ص ١).

٣ - هو الشيخ عبد الرحيم سهارنفوري، اشتهر برائي فوري لأن أسرته كانت من رائي فور درس في مظاهر العلوم في سهارنفور، ثم سافر إلى رائي فور بلدة عشيرته ومكث هناك، وكان يتردد إلى كلير كثيراً، ثم سافر للحج والتقى بالشيخ إمداد الله المكّي، وبعد العودة بايع الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، كان من المشرفين على مدرسة مظاهر العلوم في سهارنفور، توفي سنة ١٣٣٠ هـ-١٩١٩ م. (حكايت مهر و وفا، سيد نفيس الحسيني، دار العلوم ديوبند نمبر، ماهنامه «الرشيد» لاهور، ص ٧٨٠-٧٨١، سنة ١٣٩٦ هـ-١٩٧٦ م).

٤ - مجمل : من أجله : عظمه (القاموس المحيط : جل).

وَلَكِنَّ حَدَّثَانِ الزَّمَانِ رَمَيْتَنِي وَلَيْسَ لِرَيْبِ الدَّهْرِ مِنْ مَتَحَوَّلٍ
وَأَيُّ وَإِنْ كُنْتُ أَمْرًا مُتَحَمَّلاً عَلَى كَاهِلِي رَضَوِي فَلَمْ أَتَزَلْ
وَلَكِنْ بَرَانِي ثُمَّ أَوْهَى جَلَادَتِي مَنَايَا فَأَلْفَى وَالْعَزَاءُ بِأَغْزَلِ
فَمَا لِأَصِيحَابِي الْأَلَى يَغْذُلُونَنِي يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكَ أَسَى وَتَجْمَلِ

ثم شرع في إظهار محامد شيخه من رحمته الأيتام والأرامل، وحمله الأثقال من المنكوبين، وإرشاده الناس إلى سبيل الهداية، ونشره لكتاب الله، وعدله في القضاء، واهتداء الناس بنوره واقتدائهم بأسوته . ويرى أنه إمام ورع، وأن له مآثر جليلة، ومكارم تذكر، وأنه أكثر ضياء من الشمس، وأجل من البدر، يقول:

فَمَنْ يَحْتَمِي عِنْدَ النَّوَائِبِ أَيَّاماً وَيَرْحَمُ أَيْتَاماً وَيَرْثِي لَأَرْمَلِ
وَمَنْ يَحْمِلُ الْأَثْقَالَ عَنَّا إِذَا اغْتَرَى بِسَاحَتِنَا عَمِيَاءَ رُزْءٍ مُجَلَّلِ
وَمَنْ يُرْشِدِ الْمُسْتَرْشِدِينَ رَشَادَهُ وَيَسْقِيهِمْ مِنْ كَأْسِ أَعْدَبِ سَلْسَلِ
وَمَنْ يَهْتَدِي بِالنُّورِ مِنْهُ وَنَقْتَدِي بِأُسُوتِهِ نَرْجُو سَنَاءَهُ وَنَجْتَلِي
وَمَنْ لِكِتَابِ اللَّهِ يَنْشُرُ طَبِيئَهُ وَيُجَيِّبُ بِهِ الْمَوْتَى وَيَقْضِي بِأَعْدَلِ
لَهُ عُزَّةٌ مِنْ بَاقِيَاتِ صَوَالِحِ بِنَاصِيَةِ الدُّنْيَا تَلُوحُ وَتَعْتَلِي
وَكَانَ إِمَامًا بَارِعًا مُتَوَرِّعًا مَحِيذًا وَذَا مَجْدٍ مَحْيَدٍ مُؤْتَلِ
بِأُسْنَى سِرَاجٍ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ وَأَنْوَرُ مِنْ شَمْسٍ وَبَدْرٍ وَأَجْمَلِ

وكما رأينا الشيخ محمد إبراهيم يذكر أنه فقد مع الفقيد كثيراً من الصفات التي كان يتحلى بها، فكَذَلِكَ نجد الشيخ محمد شفيع^(١) يذكر أن بموت شيخه أنور شاه عم الحزن

١- هو الشيخ محمد شفيع العثماني، ولد في ديوبند سنة ١٣١٤هـ وتعلم في دار العلوم بديوبند، وتولي فيها التدريس والإفتاء إلى أن هاجر إلى باكستان، فشارك في صياغة الدستور الإسلامي، وأقام مدرسة كبيرة تسمى بدار العلوم كراتشي. تفوق فتاواه مائة وخمسين ألف فتوى، وله تفسير باسم معارف القرآن في ثلثي مجلدات ضخام، وكتب أخرى كثيرة بالأردية، توفي سنة ١٣٩٦هـ (مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي في الهند، ص ٢٤٥، أفكار مسلم شخصيات نمبر، ص ٢٢٤).

والأسي حتى شمل الأرض والسماء، والجبال والفلاة، والبر والبحر، وبكاه الدروس والمدارس، والمسجد والمنبر، وأن نعيه نعي جل العلوم، وأن رثاءه ليس رثاء عالم واحد، بل رثاء علماء كثيرين، ورثاء للعلم والحلم، والفضل والورع والزهد، وشتى فروع العلم من الفقه والحديث، ويلقبه ببخاري عصره، وترمذي زمانه، وزهري أوانه، يقول :

نَعَى بِكَ نَاعِ سُحْرَةَ الْفَجْرِ فَانْبَرَى يَضُجُّ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَالْبَدْوُ وَالْقُرَى
وَأَبْكَى الْجِبَالِ الشَّائِخَاتِ نَحِيئُهُ وَوَبَرَأَ وَمَذَرَأَ وَالْفَلَائِمَ أَبْحَرَا
وَأَبْكَى دُرُوسًا وَالْمَدَارِسَ جَمَّةً كَذَلِكَ أَقْصَى مَسْجِدٍ ثُمَّ مِنْبَرَا
نُعِينَا بِجَمَاعِ الْعُلُومِ وَسَيِّمَالِ حَدِيثَ وَقُرْآنًا كَرِيمًا مُفَسَّرَا
فَلَمْ أَذِرْ أَرْضِي عَالِمًا أَمْ عَوَالِمَا وَعِلْمًا وَحِلْمًا ثُمَّ لِلْفَضْلِ بَجْهَرَا
وَفِقْهَهَا وَتَحْدِيثَنَا وَرَأْيَا وَحِكْمَةً وَوَرَعًا وَزُهْدًا فِي السَّمَاءِ مُشَهَرَا
وَوَجْهَهَا طَلِيقًا بِاسْمًا مُتَهَلَّلًا إِذَا زُرْتُ زُرْتُ الْبَدْرَ تَمًّا مُنَوَّرَا
أَحَقًّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ زَائِرَا بَعَيْنِي بَعْدَ الْيَوْمِ شَيْخِي أَنْوَرَا
بُخَارِي عَصْرٍ، تَرْمِذِي زَمَانِهِ وَزُهْرِي وَقْتُ لَا خِلَافَ وَلَا مِرَا
فَلَوْ أَنَّهُ رُزْءٌ مِنَ الدَّهْرِ وَاحِدٌ وَلَكِنَّهُ غَيْمٌ أَحَاطَ فَأَمْطَرَ^(١)

وقد حرص بعض الشعراء على تضمين قصائدهم بعضاً من الحكم المستقاة من التأمل في الحياة والممات، وما لهذا الدهر من صروف وتقلبات، كما يقول في نهاية رثائه للشيخ محمد أحمد بن محمد قاسم النانوتوي^(٢) يقول فيها :

١ - مساهمة دار العلوم بديوبند ص ١٦١ .

٢ - هو الشيخ محمد أحمد بن محمد قاسم بن محمد أسد النانوتوي، تولى إدارة دار العلوم بديوبند، ورئاسة الإفتاء في مملكة حيدر آباد العثمانية من ١٣٤١ - ١٣٤٤ هـ واستقال عن إدارة دار العلوم لمرضه سنة ١٣٤٥ هـ، توفي في نظام آباد حينما كان عائداً من حيدر آباد إلى ديوبند سنة ١٣٤٧ هـ ودفن في ديوبند، خلف وراءه ابنين: محمد طيب، وهو الذي تولى إدارة دار العلوم لمدة ٦٠ سنة، ومحمد طاهر. (تاريخ دار العلوم بديوبند ١/ ٢٧٥).

كَذَلِكَ دُولَاتُ الزَّمَانِ بِأَهْلِهِ
فَبُعْدًا لِإِدَارٍ لَا تَقْرُ لأَهْلِهَا
فَمَنْ يَرْضُهَا يَوْمًا لَأَمْرِ يَسُرُّهُ
وَمَنْ جَرَّبَ الدُّنْيَا وَقَاسَى بَلَاءَهَا
إِذَا شِمْتَ فِي آفَاقٍ مَسْرَاكَ طَالَعَا
وَإِنْ قُصَارَى مَنْزِلِ الْحَيِّ حُفِرَ
رَفَى فِي سَمَاءٍ أَوْ خَاضَ فِي الْبَحْرِ قَعْرَهُ
فَكَمْ نَابِهِ مُتَكَبِّرٍ جَاءَهُ الْقَضَا
فَتَبًّا لِمَنْ عَزَّتْهُ خُضْرَاءُ دَمْنِهَا
يُقَوِّضُ مَا قَدْ كَانَ بِالْأَمْسِ طُنْبًا
وَسُحْقًا لِدَهْرٍ فِي مَوَالِيهِ قُلْبًا
فَسَوْفَ تَرَاهُ فِي عَدِيدٍ مُتَغَضِّبًا
رَأَى جُلَّ مَا فِيهَا مِنَ الْبَرْقِ خُلْبًا
فَكُنْ لِأَقْوَلٍ عَاجِلٍ مُتَرَقِّبًا
سَمًا مَا سَمَا مَالًا وَجَاهًا وَمَنْصِبًا
فَلَيْسَ لَهُ عَمَّا قَضَى اللَّهُ مَهْرَبًا
فَلَمْ يَذَرِ فِي أَيِّ الْبَوَادِي تَصَبُّبًا
وَلَمْ يَعْصِ لِلْعُقْبَى وَلَمْ يَتَأَهَّبًا^(١)

ومثل هذا يضمن المفتي محمد شفيع نهاية قصيدته في رثاء شيخه محمد أنور شاه بعض الحكم والعظات، يحث فيها على التأمل في حقيقة الدنيا، وأنها لا تدوم لأحد، وما يجمعه المرء في حياته يفارقه عند موته، وأن السعيد من تزود بالتقوى، ولو كان حظه من الدنيا قليلا، يقول :

فَمَا عَبْرَتِي إِلَّا لِذِي الْعَيْنِ عِبْرَةٌ
وَمَنْ أَمْعَنَ الدُّنْيَا وَنَصْرَةَ دَمْنِهَا
إِذَا أَذْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةٌ
تَفَكَّرْ تَجِدْ فِي كُلِّ دَارٍ سَكْتَهَا
وَسَوْفَ تَرَى مَا قَدْ جَمَعَتْ مُكَابِدًا
وَأَسْعَدُ خَلْقٍ مَنْ تَدَرَّعَ بِالتَّقَى
وَوَعِظُ وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُعْبَرًا
يَجِدْ نُكْرَهَا عُرْفًا، كَذَا الْعُرْفُ مُنْكَرًا
وَإِنْ أَقْبَلَتْ صَارَتْ هُمُومَكَ أَكْثَرًا
مَقَابِرَ لِلْأَمَالِ، لِلْخَلْقِ مَنْحَرًا
سُتُوبُهَا إِلَّا قَمِيصًا وَمُنْزَرًا
وَإِنْ كَانَ فِي دُنْيَاهُ أَشْعَثُ أَغْبَرًا^(٢)

١- قضاء الأرب من رطب العرب، محمد شفيع الديوبندي، ص ٥، دار الإذاعة ديوبند سنة ١٣٤٨ هـ.

٢- مساهمة دار العلوم بديوبند ص ١٦١.

ونرى مثل هذا عند الشيخ أحمد بن عبد القادر الحبيتيكر لكنه ضمن تلك الحكم في فاتحة رثائه، يقول فيها :

يَا مَاشِيًا فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ ذَامِيلٍ مَا تَحْتَ رِجْلِكَ إِلَّا أَعْظَمُ رَمَمٍ
يَا ظَامِيًا لَيْسَ يَرْوِي ظَمَأَهُ شَبَمٌ لَقَدْ وَرَدَتْ سَرَابًا وَهُوَ مُضْطَرِمٌ
كُنْ حَيْثُ شِئْتَ فَلَا تَنْفَكْ مِنْ حُرْقٍ مَا دَامَ رُوحُكَ فِي الْأَعْضَاءِ تَخْتَدِمُ
لِحَا الْمُتْهِمِينَ ذِي الدُّنْيَا وَطَالِبِهَا فِي بُعْدِهَا نَكَدٌ، فِي قُرْبِهَا تُهْمُ
وَالْعُمُرُ لِحُظَّةٍ عَيْنٍ لَا قَرَارَ لَهَا وَمَا مَضَى مِثْلُ مَا لَمْ يَمُضِ مُنْعَدِمُ
جَنَابُكِيًّا وَرُحْنَا حَاسِرِينَ عَلَى الْهَا مَاتَ يُلْقَى عَلَيْهَا التُّزْبُ وَالرَّجَمُ^(١)

فناه يخاطب القارئ والسامع ويدعوه إلى التأمل في حقيقة الدنيا، إذ الأرض مقبرة لأقوام غابرة، وأن الدنيا كمورد لا يشبع الإنسان منه، مهما أكثر الشرب منها، وأنه لا نجاة للمرء من المتاعب ما دامت الحياة تسري في جسده، والدم يجري في عروقه، ثم يلعن الدنيا ومن يجعلها همه، لأن قربها وبعدها كلاهما يورث المشقة، وعمر الإنسان يمضي بسرعة، وأن الناس يولدون باكين، ويدفنون حاسري الرؤوس، يهال عليهم التراب والأحجار، فالدنيا ومتاعها وزخرفتها لم تفدهم لا عند ميلادهم ولا عند رحيلهم . ثم ينتقل إلى التذكير بالأقوام السابقة، ويتساءل عن صناديد العرب وملوك العجم وباني الأهرامات في مصر ومشيدي الحضارات من سبأ وإرم وحكام الهند الذين كان مقر حكمهم القلعة الحمراء في دلهي، ويذكر أن كلهم فنوا وصار مصيرهم إلى البلى والزوال، ولم ينقذهم من المنية ما شادوا من تلك الحضارات والمباني الفخام، ولم تغنهم عن الموت شيئاً، يقول :

أَيَّنَ الصَّنَادِيدُ مِنْ فُرْسٍ وَمِنْ عَرَبٍ لَمْ يَنْجُ دَارًا، وَلَا صَخْرٌ وَلَا هَرَمٌ^(٢)

١ - الإعلام ٣/ ١١٧٤ .

٢ - دارا ملك الفرس .

أَيْنَ الَّذِي شَيْدَ الْأَهْرَامَ يَحْسَبُهَا تَحْمِيهِ عَنْ مَهْرَمَاتٍ دُونَهَا حَطْمٌ
سَلْ هَلْ تَنْبَأُ عَنْ أَنْبَائِهَا سَبَأٌ أَوْ هَلْ تَحْبَرُ عَنْ أَرَامِهَا إِرْمٌ^(١)
وَلَيْسَالِ الْقُلْعَةِ الْحَمْرَاءِ طَارِقُهَا كَمْ مِنْ دُمُوعٍ جَرَتْ فِيهَا وَطُلَّ دَمٌ

ولم يكتف الشاعر هنا بذكر الأقوام الغابرة الساحقة في الماضي البعيد، من بيئة الشعراء العرب الذين أكثروا ذكر تلك الأقوام فحسب، بل تطرق إلى ذكر القلعة الحمراء وما دار فيها من حوادث الفناء والموت أيضا، وهذا أشد وقعا وأبلغ تأثيرا في نفوس جمهوره الذين يعرفون هذا المعلم وما جرى فيه من تقلبات معرفة أكثر، لقرب زمانه، ولكونهم يشاهدون هذه القلعة في مجيئهم ورواحهم، كما فيه زيادة معرفة للقارئ العربي عن تاريخ المسلمين في الهند .

المطلب الثاني

رثاء الأقارب

لا يوجد في الشعر العربي في الهند إلا نماذج قليلة لرثاء الأقارب، لكنها تمتاز بقوة العاطفة وحرارتها، وصدق الوجدان، وتدفق الشعور، منها على سبيل المثال ما رثى به الشيخ محمد بن حسين الأنصاري^(٢) والده، حينما وافاه نعيه من لكانا^(٣)، يقول :

أَحَقُّ جَرَى مَا يُسِيلُ الْعَبْرَاتِ وَيَذِرِي دِمَاءَ الْعَيْنِ لَا الدَّمْعَاتِ

١- سبأ: اسم رجل جمع عامة قبائل اليمن . إرم : قوم منهم عاد، وقيل مدينة كبيرة (المعجم الوسيط).

٢- هو الشيخ المحدث محمد بن حسين بن محمد الأنصاري الخزرجي السعدي اليمني، ولد ببلدة حديدة سنة ١٢٧٣ هـ قرأ على والده وعمه، ثم قدم بهوفال، ودرس هناك على عمه زين العابدين وعلى المولوي عبد الله البلغرامي نائب قاضي بهوفال، وعلى غيره من العلماء، ثم سافر إلى الحرمين فحج وزار وأجازه الشيخ عبد الله بن إدريس السنوسي الحسيني الفاسي، ثم ولي التدريس ببهوفال، ثم في ندوة العلماء في لكةهنؤ .

من مصنفاته : الطراز الموشى بفوائد الإنشاء، المورد الصافي في العروض والقوافي، وغيرهما .

توفي سنة ١٣٤٤ هـ في بهوفال . (الإعلام ٣ / ١٣٣٩-١٣٤٣) .

٣- عاصمة ولاية «اترابديش» وكانت من قبل عاصمة للأمراء المسلمين .

وَحُقَّ لَهُ شَقُّ الْقُلُوبِ تَأْسُفًا إِذَا شُقَّتِ الْأَنْوَابُ فِي النَّكَبَاتِ
وَهَلْ نَافِعٌ دَمْعٌ يَسِيلُ، وَمُهْجَةٌ تَذُوبُ، وَعَضِي حَسْرَةً لَشَفَاتِي
وَأَقْسِمُ لَوْ كَانَتْ جَمِيعُ جَوَارِحِي عِيُونًا، وَجَادَ الْكُلُّ بِالْعَبْرَاتِ
لَمَّا بَرَدَتْ مِنْ حَرِّ نَارِي جَذْوَةً وَلَوْ غَرِقْتُ فِي دَجَلَةٍ وَفَرَاتِي

بدأ الشاعر رثاءه بداية قوية بذكر أفعال تدل على الحزن والمآتم كالبكاء، وسيلان الدموع بل دماء العيون بكثرة البكاء وشدته، وشق القلوب، وحرقة الكبد، وقرب ذهاب الحياة، وكل هذا للدلالة على ألمه الشديد وحزنه البالغ، علي وفاة والده، حتي إنه يرى أنه لو صار جميع جوارحه عيونًا، وأفاضت الدموع لم يخفف ذلك من حر قلبه شيئًا. ثم ينتقل الشاعر إلى ذكر حاله عندما أتاه النعي، وكيف كان وقعه عليه، وكيف كان تعامله به؟ فيقول :

أَتَى خَبْرٌ أَجْرَى الدَّمُوعَ وَالْهَبَ الدَّ قُلُوبَ عَقِيبِ الْفَجْرِ فِي الضَّحَوَاتِ
فَكَذَّبْتُهُ مِنْ هَوْلِهِ ثُمَّ رَدَّنِي رَسَائِلُ أَعْلَامٍ أَتَتْ وَثَقَاتِ
رَسَائِلُ عَبْدِ اللَّهِ صَنِوِيٍّ وَسَاعِدِي إِذَا حَلَّ خُطْبٌ فِي الزَّمَانِ يُوَاتِي
رَسَائِلُ مِثْلِ الشَّهْدِ لَفْظًا وَفِعْلَهَا بِقَلْبِي فِعْلُ السُّمِّ كَاللَّسَعَاتِ
رُقُومٌ كَأَمْثَالِ الْأَرَاقِمِ سُمُّهَا وَرُبَّ قَتِيلٍ كَانَ بِاللَّفْظَاتِ
أَتَنِّي فِي لُكْهُنَوٍ وَفَاةٍ أَبِي الَّذِي هُوَ الْحَافِظُ الْمُقْدَامُ فِي الْغَمَرَاتِ

ذكر الشاعر أنه لم يُصَدِّقْ نعي والده لما وافاه، إلا أنه اضطر إلى تصديق ذلك النبأ المفزع لما تتابعت عليه الرسائل، وتواترت إليه الأخبار من أصحابه، وأحبابه الثقات على رأسهم أخوه عبد الله، ويرى أن هذه الرسائل وإن كانت فصيحة العبارة، بليغة الأساليب إلا أنها تقع عليه وقع الصاعقة أو أشد، وتعمل في نفسه ما يعملهُ سُمُّ الأفاعي أو لسعة العقارب، ثم يتطرق إلى ذكر محامد والده ومناقبه، فذكر منها علمه وحلمه، واشتغاله ومكانته في تفسير كتاب الله العزيز، والحديث النبوي الشريف، فيرى أنه سيبيكه صحيحا الإمام البخاري والإمام مسلم، وكتب الأئمة الأربعة، ويذكر اجتهاده

في الطاعة، وتعلقه بالمسجد، فيقول :

سَيِّئِي عَلَيْهِ كُلُّ أَبْوَابِ مَسْجِدٍ وَيَلْبَسُ سِرْبَالاً مِنَ الظُّلُمَاتِ
صَحِيحُ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ يَنْكِى، وَمُسْلِمٌ كَذَلِكَ أَبُو دَاوُدَ فِي الْحَسَرَاتِ
كَذَا التِّرْمِذِيُّ ثُمَّ النَّسَائِيُّ وَبَعْدَهُ ابْنُ مِنْ مَاجَةٍ يَنْكِى سَائِلَ الدَّمَعَاتِ
فَقَدْ كَانَ قِنْدِيلَ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّجَى يُنَوِّرُهَا بِالذِّكْرِ وَالصَّلَوَاتِ
وَصُؤلاً لِأَرْحَامٍ، قَطُوعاً لِظَالِمٍ لَطِيفَ السَّجَايَا، طَيِّبَ الْحَرَكَاتِ
ذَكِيّاً يَحُلُّ الْمُشْكِلَاتِ بِفَهْمِهِ وَقُوراً وَقُورَ الصَّخْرِ فِي الْفَلَوَاتِ
ويرى أن ما ذكره صدق وحقيقة ليس فيها مبالغة بل والده كان يتمتع بمناقب أكثر
من هذه :

وَوَاللهِ مَا بَالَعْتُ فِيهَا وَصَفْتُهُ بَلْ مَا بَالَعْتُ الْعُشْرَ مِنْ كَلِمَاتِي

ثم يذكر أن الرثاء عادة قديمة ومشروعة، ولولا أن الشرع أجاز له لم ينطق فمه بكلمة
صبراً ورضاً بقضاء الله، ولكن حسناً- رضي الله عنه- رثى النبي ﷺ ولنا فيه أسوة،
فخير الرثاء ما كان صدقاً، وشره ما اشتمل على زور وكذب، ثم يتوجه إلى الله بالشكوى
لفراق أبيه، يقول :

وَلَوْ لَا الرِّثَاءُ مِنْ سُنَّةِ النَّاسِ لَمْ أَقُلْ نِظَاماً وَلَا حَرَكَتُ فِيهِ لَهَاتِي
وَلَكِنَّ حَسَنَاناً رَأَى سَيِّدَ الْوَرَى عَلَيْهِ سَلَامُ اللهِ مَعَ صَلَوَاتِي
وَحَيْرُ الرِّثَاءِ مَا كَانَ صِدْقاً، وَشَرُّهُ كَلَامٌ أَتَى بِالزُّورِ وَالْكَذِبَاتِ
وَمَا كُلُّ مَنْ يُرْتَى حَقِيقٌ بِوَصْفِهِ وَلَا كُلُّ رَاثٍ صَادِقُ اللَّفْظَاتِ
إِلَى اللهِ أَشْكُو فَقْدَهُ وَفِرَاقَهُ شَتَاتٌ أَتَى مِنْ بَعْدِ طُولِ شَتَاتِ

وَقَدْ كُنْتُ أَشْكُو فَقْدَهُ فِي حَيَاتِهِ وَأَرْجُو لِقَاءَهُ قَبْلَ حِينٍ وَفَاتِي

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا الرَّحِيلُ بِذَاتِهِ إِلَى مَنْزِلٍ كُلِّ عَلَيْهِ سَيَاتِي

ثم يتوجه بالخطاب إلى والده المتوفى ويقول ارتحلت إلى جنة ليس فيها تعب ولا نصب وتركتني وراءك أقاسي الحزن والألم، ثم يرجع ويقول ولكن ليس هناك حزن على فوات شيء بعد فواتك، يقول :

رَحَلْتُ إِلَى جَنَاتٍ عَدْنٍ مُنَعَّمًا وَخَلَّفْتَنِي لِلْحُزْنِ وَالزَّفَرَاتِ

وَبَعْدَكَ لَا آسِي عَلَى فَقْدِ فَاتِي أَبْعَدَكَ شَيْءٌ مُوجِعٌ بِوَفَاتِ

ثم يوجه الخطاب لقبره ويدعو له بنزول وابل الرحمة عليه صباح مساء، ويهتته حيث إنه وارى الخير والبركات والعلی، ويدعو له بالتعطر والرضا، يقول :

فَيَا قَبْرَهُ حَيَّاكَ وَابِلُ رَحْمَةٍ يَزُورُكَ فِي الْأَصَالِ وَالْغَدَوَاتِ

وَجَادَكَ هَطًّا لَا مِنَ الرُّوحِ وَالرِّضَا يُبْلُ ثَرَاهُ طَيِّبَ النَّفَحَاتِ

وَطُوبَى لَكَ إِذْ قَدْ صُنْتَ فِي قَبْرِكَ الْعُلَى وَوَارَيْتَ كُلَّ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَاتِ

فَزَارَكَ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ تَحِيَّةٌ تَصِيرُ بِهَا أَحْجَارُهُ عَطِرَاتِ

ويختتم رثاءه بالصلاة على سيد المرسلين وأسوة المصابين، فيقول :

وَصَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ وَالْآلِ أَسْوَةَ الْـ مُصَابِينَ فِي مَاضِي الزَّمَانِ وَآتِ

مَدَى مَارَنِي الرَّائِي وَقَالَ مُؤَرِّحًا فَلَا زِلْتَ مَغْفُورًا مِنَ الْهَفَوَاتِ^(١)

ويلاحظ أن الشطر الأخير من البيت يدل على تاريخ وفاة والده، وهو سنة ١٣٢٧ هـ. وقد درج الشعراء في الهند - في الشعر الأردني والعربي والفارسي - على تدوين هذه التواريخ في أشعارهم حتى صار هذا أكبر الهم عند بعضهم، وكانوا ينافسون فيه ويرونه مجالا لإظهار قدرتهم وبراعتهم.

١ - مرثية شيخ حسين عرب ص ٦-٩، أبو خليل محمد بن حسين البياني، بيانات النشر غير مذكورة.

ويلاحظ أن الشيخ محمد الأنصاري استطاع أن يحافظ على حرارة عاطفته وجيشانها خلال هذه القصيدة الطويلة، وكيف لا، وهو يرثي والده الذي كان سبباً في وجوده وربّاه وأبلغه إلى ما وصل إليه في العلم والفضل والمنزلة والمكانة!

ورثى الشيخ فيض الحسن السهارنفوري ابنه الصغير لما توفي وهو في السنة الخامسة من عمره، فجزع عليه جزعاً شديداً، وحزن عليه حزناً بالغاً، ومما زاده أسى أن هذا الابن قد وافاه أجله بعد بلوغه السنة الخامسة، بعد أن تعلق به قلب والديه، وبدأ يتمنيان بلوغه مبلغ الشباب، لكن فاجأه الأجل، فازدادا حسرة ولوعة، وصارت حال والده في فراقه كالظبية التي فقدت ولدها، يقول :

رُزْتُ ابْنَ خَمْسٍ كَانَ يَلْعَبُ كَالْفَهْدِ فَمَرَّ بِهِ مَا كَانَ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ^(١)
 كَتَبْتُ عَلَى أَنْ مَاتَ إِذْ صَارَ لَاعِبًا وَلَمْ أَكْتُبْ لَوَمَاتٍ إِذْ كَانَ فِي الْمَهْدِ
 صَبَرْتُ وَلَوْ لَا الصَّبْرُ مَا زِلْتُ بَاكِيًا عَلَيْهِ، وَمَا أَبْقَيْتُ شَيْئًا مِنَ الْجَهْدِ
 عَرَانِي اكْتِتَابٌ وَاضْطِرَابٌ فَإِنِّي كَخَنَسَاءٍ غَابَتْ عَنْ فَرِيرٍ لَهَا قَهْدُ^(٢)
 أَلَمْ بِهِ قَبْلَ الشَّبَابِ حَمَامُهُ فَلَوْ شَبَّ شَيْئًا كَانَ أَقْوَى مِنَ النَّهْدِ^(٣)

ويذكر أنه كلما رأى طفلاً يائه ذرفت عيناه وفاضت دموعه، وهاج بالبكاء، وأنه ابتلى بعده بالأرق والسهر، وسئم الدنيا وملها، وليس ذلك زهداً، بل انشغالا بحزن ابنه الذي أورثه هذا الكمد، يقول :

إِذَا مَا تَرَأَى لِي صَبِيٍّ شَبِيهُهُ هَمَّتْ مُقْلَتِي مِنْ غَيْرِ جَهْدٍ وَلَا كَهْدِ^(٤)
 مَضَى النَّوْمُ مِنِّي مُذْ مَضَى لِسَبِيلِهِ فَمَا رَمَدَتْ عَيْنَايَ إِلَّا مِنْ الشُّهْدِ

١- ديوان الفيض، تحقيق: محمد ظهور أظهر، ص ٦٠، المجمع العربي الباكستاني، لاهور، باكستان، ط ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٢- فريز: ولد البقرة الوحشية. قهد: النقي اللون الأبيض الأكر. (القاموس المحيط : مادة : فر، مادة : ق هـ د).

٣- النهدي : الأسد .

٤- كهد يكهد كهدا وكهدانا : تعب وأعيأ.

سَمِيتُ مِنَ الدُّنْيَا لِمَا نَابَنِي بِهَا وَإِنْ كَانَ هَذَا لَا يَعِدُّ مِنَ الزَّهْدِ^(١)

ويلاحظ أن الشاعر التزم الهاء قبل الدال الذي هو حرف الروى، وأرى أن هذا الالتزام أثر في القصيدة تأثيراً سيئاً حيث لم تطلع القصيدة بتلك القوة من ناحية العاطفة والأسلوب اللذين كانا يتوقعان في رثاء قريب فضلاً أن يكون المرثي ولدا خطفته أيدي المنون في صباه.

ونرى الشيخ ظفر أحمد العثماني^(٢) يرثي شريكة حياته، ورفيقة دربه، فبعد نعيها بدأ بذكر حسن خصالها التي لها أثرها البالغ في شدة تعلقه بها، وكلما كان التعلق أكثر، كان الحزن على الفراق أشد، فذكر أنها بدر البدر، وشمس الشموس، وتتمتع بحسن الخصال وتشغل وقتها بعبادة ذي الجلال، وأنها كانت من الحسن والبهاء بمكان لو تعرضت للمشركين لسجدوا لها انبهاراً بحسنها، ولو خرجت بجملها للمجوس لنسوا معابدهم حتى تحمد نيرانها، يقول^(٣):

أَفْ لِفُرْقَةٍ مُؤْنِسِي وَأَنْيَسِي بَدْرِ الْبُدُورِ وَنَعَمِ شَمْسِ شُمُوسِ
حَسَنَاءُ، بَيْضَاءُ الْفَعَالِ، فَرِيدَةٌ عَيْدَاءُ قَدْ أَزْرَتْ بِكُلِّ نَفْسِ
اللَّهُ زَيَّنَهَا بِحُسْنٍ مَلَاخَةٍ وَعِبَادَةٍ، وَطَهَارَةِ النَّامُوسِ
لَوْ أَنَّهَا لِلْمُشْرِكِينَ تَعَرَّضَتْ سَجَدُوا لِطَلْعَتِهَا بَنُو إِبْلِيسِ

١- ديوان الفيض ص ٦٠.

٢- هو الشيخ ظفر أحمد عثماني بن لطيف أحمد عثماني، ولد ١٣١٠هـ في ديوبند، وتلقى فيها تعليمه الابتدائي، ثم سافر إلى خاله الشيخ أشرف علي التهانوي، وتلمذ عليه، ثم أكمل تعليمه في مظاهر العلوم بـسهارنפור. تولى التدريس في مظاهر العلوم، ثم في رنغون (عاصمة بورما) ثم في جامعة دهاكه، وأخيراً في دار العلوم تندو الله يار في باكستان.

له: إعلاء السنن في عشرين مجلداً، وسيلة الظفر في مدح خير البشر، ونور على نور، مجموعتا قصائد عربية. توفي سنة ١٣٩٦هـ (مقدمة إعلاء السنن قواعد في علوم الحديث، ظفر أحمد التهانوي ص ٨-١٠ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب ط ٣، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٢م). هندوستان مين عربي علوم وفنون كى ممتاز علماء اور ان كى علمي خدمات، د. محمد اويس نكرامي ندوي، ص ١٣٥- ١٣٧ و ٢٤٨، نامي بريس لكهنؤ ١٩٧٩م.

٣- مجلة «معارف» الصادرة من دار المصنفين، أعظم كده، ص ٣٠٦، العدد: ٤، المجلد: ٦٧.

وَلَوْ أَنَّهَا خَرَجَتْ لَهُمْ فِي زِينَةٍ خَدَتْ لَهَا أَنْفَاسُ نَارِ مَجُوسٍ

ثم ينتقل الشاعر إلى الجزء الثاني من القصيدة، وهو ذكر علاقته بها، وما أصابه من شدة الحزن والألم لفراقها، حتى تغيرت حياته وتقلبت، فتبدل بسعده النحس وبفرحه الحزن.

كَانَتْ حَيَاةً لِلنُّفُوسِ وَرَاحَةً لِلْقَلْبِ، قُرَّةَ عَيْنٍ كُلِّ جَلِيسٍ

رَاحُوا بِهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ فَلَمْ أَزَلْ قَلِقَ الْفُؤَادَ بِكُلِّ يَوْمٍ خَمِيسٍ

وَأَفْرَقْتَاهُ لَقَدْ تَقَطَّعَ مُهْجَتِي وَبَقِيتُ فِي نَكْدٍ أَذَلَّ خَسِيسٍ

وَأَحْرَقْتَاهُ فَلَا قَرَارَ بِدُونِهِمَا يَا وَيْحَ قَلْبِي بِالْفِرَاقِ وَطِيسٍ^(١)

وَأَحْرَقَ قَلْبَاهُ فَكَيْفَ يَلْذُنِي عَيْشٌ تَبَدَّلَ سَعْدُهُ بِنُحُوسٍ

ويوجه الخطاب إلى زوجته المتوفاة ويذكر أنها وإن بعدت عن أعينهم ومساكنهم فلم تبعد عنهم حيث صارت القلوب والصدور والرووس كلها مأوى لها، ويطلب إليها عدم الابتعاد حيث يتمنى اللقاء بها قريباً، فلقد سار ركب الأجل، ودوره ليس ببعيد، ويكرر طلبه إليها عدم الابتعاد؛ لأن الله خير خليفة لها، من زوجها الراثي، وفداها كل نفس، يقول :

لَا تَبْعُدِي فَلَأَنْتَ بَيْنَ قُلُوبِنَا وَصُدُورِنَا وَعُيُونِنَا وَرُؤُوسِ

لَا تَبْعُدِي لِأَوْفَيْنِكَ عَاجِلاً فَلَقَدْ حَدَا بِالرَّكْبِ حَادِي الْعِيسِ

لَا تَبْعُدِي فَاللَّهُ خَيْرُ خَلِيفَةٍ مِنِّي عَلَيْكَ، فِدَاكَ كُلُّ نَفُوسٍ

ويختتم القصيدة بالدعاء لها بالتحيات من الله ذي الجلال، وملائكته الأبرار، وأن تتمتع بنوم كنوم العروس، وألا يتعرض لها سوء؛ فقد سبقت لها أعمال صالحة في حياتها، ويدعو لقبرها بالسقيا، ويسلم عليها، ويصلي على النبي وآله الطيبين الطاهرين، يقول :

١- وطيس: التنور (اللسان والقاموس، مادة و ط س).

حَيَّاكَ رَبُّكَ وَالْمَلَائِكَةُ الْكَرَامَ
سَبَقَتْ لَكَ الْحُسْنَى فَآتَتْ بِعَيْدَةٍ
رَوَى إِلَهُ رَبِّكَ كُلَّ عَشِيَةٍ
مِنِّي السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رُوحَ الْحَيَاةِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ
مَا دَامَ بِهِجْرَةُ لَيْلَةِ التَّعْرِيسِ
مُ يَقُولُهُمْ: نَامِي كَنُومِ عَرُوسٍ
عَمَّا يَسُوءُوكَ يَا أَجَلَ أَنْيْسٍ
وَسَقَاكَ مِنْ نَهْرِ الْحَيَاةِ بِكُؤُوسٍ
وَعُمْدَتِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عُبُوسٍ

ورثي الشيخ السيد محمد عرفان الطوكي^(١) ابن عمه فيذكر فجيعة هو وأسرته في فقده، حيث كان من أختيارهم ممن يعز نظيرهم، ثم يذكر ما تحلى به من الفضائل، وما وهبه الله من علو النسب حيث كان ينتهي نسبه إلى النبي ﷺ الذي هو خير من أطلته السماء، وأقلته الغبراء، ويذكر أنه كان طلق الوجه، دائم البشاشة، يقول:

جَلَّ الْمَصَابُ وَعَمَّ خَطْبُ فَادِحٍ
حَزَنَ الْقُلُوبُ وَفَاضَتْ الْعَيْنَانِ
إِنَّا رُزُنَّا خَيْرَ إِخْوَانٍ لَنَا
مِنْ آلِ عُثْمَانَ، وَمِنْ عِرْفَانَ^(٢)

إِنَّا رُزُنَّا مَنْ يَعْزُّ نَظِيرُهُ
فَيْنَا وَمِنْ نُجْبَةِ الْإِخْوَانِ
قَدْ كَانَ مَحْمُودًا وَمَهْدِيًّا وَمِنْ
آلِ النَّبِيِّ خُلَاصَةِ الْإِنْسَانِ
قَدْ كَانَ ذَا خُلُقٍ يُمَارِحُ دَائِمًا
طَلَقَ الْمُحَيَّا، ضَاحِكًا الْأَسْنَانِ

ويذكر صناعته واشتغاله بالطب وتعامله الطيب مع مرضاه، وسعيه في تخفيف مصابهم بشتى الوسائل، ومواساته إياهم، ورفقه بهم، يقول:

١- هو السيد الشريف: محمد عرفان بن يوسف بن يعقوب بن إبراهيم بن عرفان الحسني الحسيني البريلوي ثم الطوكي، ولد ببلدة طوك سنة ١٢٦٥هـ، تتلمذ على علماء بلدته ثم سافر إلى ديوبند وقرأ على مولانا محمود حسن الديوبندي ومولانا يعقوب النانوتوي، ثم سافر إلى بهوفال ودرس على علمائها، ثم سافر إلى دهلي وتتللمذ على المحدث السيد نذير حسن، وإلى سهارنפור ودرس على الشيخ فيض الحسن السهارنفوري. توفي سنة ١٣٣٢هـ. ببلدة طوك. (الإعلام ٣/ ١٣٦٤-١٣٦٦).

٢- يعني به والد السيد الشهيد أحمد بن عرفان البريلوي، ينظر لترجمته: الإعلام ٣/ ٨٩٩-٩٠٢.

قَدْ كَانَ ذَا رَفْقٍ بِنَا وَطَبِيبَنَا عَضُدَ الْعَشِيرَةِ عُمْدَةَ الْجِيرَانِ
فَلْيَبْكِهِ الْمَرْضَى الَّذِينَ إِذَا أَتَوْا ذَهَبُوا بِهِ مَعَهُمْ بِكُلِّ أَوَانٍ
قَدْ كَانَ يُجِدُّ مَنْ يُدَاوِي خِدْمَةً بِيَدَيْهِ وَالرَّجُلَيْنِ ثُمَّ لِسَانِ
وَلَرُبَّمَا أَعْطَى الدَّوَا مِنْ عِنْدِهِ اللَّهُ مُحْتَسِبًا لِيَوْمٍ ثَانٍ ^(١)

ورثى ابن عم له آخر، فذكر كثيرا من شئائله، وعاداته الطيبة، من طلاقة الوجه، وحسن البيان، والجلود والندى، والعطف واللين، والفصاحة والبلاغة، ويرى أنه بموته مات كثير من هذه الخصال الكريمة، والأوصاف النبيلة، يقول :

لَقَدْ مَاتَ إِذْ مَاتَ ابْنُ عَمِّي وَعَمَّتِي مَكَارِمُ أَخْلَاقٍ وَحُسْنُ الشَّمَائِلِ
طَلَقَهُ وَجْهٌ لِلْقَا وَتَبَسُّمٌ وَحُسْنُ بَيَانٍ لِاجْتِمَاعِ الْمَحَافِلِ
وَكَانَ ضَحُوكُ السَّنِّ أَطْيَبَ لَيِّنًا وَلَمْ يَكُ بِالْفُظِّ الْغَلِيظِ وَلَا يَلِينِ
تَرَاهُ جِبَالَ الْحِلْمِ عِنْدَ سُكُوتِهِ وَإِنْ يَتَكَلَّمَ كَانَ سَحْبَانَ وَائِلِ
وَكَانَ رَزِينًا زِينَةَ الْقَوْمِ وَالنَّدَى لَمْ شَهَدُهُ النَّادِي كَرُوضِ الْبَلَابِلِ ^(٢)

ويرجع قلة رثاء الأقارب في الشعر العربي في الهند - مع ما فيه من قوة العاطفة - إلى سبب مهم وهو أن أغلب هؤلاء الشعراء كان لهم مشاركات في الشعر بلغة أخرى أيضا، فلم يكن الشعر العربي هو المتنفس الوحيد مثل ما كان لشعراء العربية في غير هذه البيئة، وكان هؤلاء الشعراء أنفسهم رثاء حارًّا في أقاربهم في غير العربية مما خفف عنهم لوعة الحزن، وحرقة الألم. ولذا لم يؤثر عنهم شعر عربي كثير في رثاء الأقارب.

١- الإعلام ٣ / ١٣٦٦.

٢- المصدر السابق نفسه.

المبحث الرابع

الغزل

«على الرغم من صمت الصحراء العميق، وفراغها الممتد الرهيب، وفيافيها الواسعة المثيرة، وجدها القاسي، وغاراتها المفاجئة الغادرة، على الرغم من كل ذلك، تغنى الشاعر العربي بأنبل العواطف، وأرق المشاعر، وانسابت قيثارته في ليالي الصحراء همسة قلب، وآهة حب، ونظرة ضياء، وتألقت أمسياته بذكريات الهوى والحنين، والوصل واللقاء . فما أكثر ما تأقت أشواق العرب الظائمة إلى اللقاء على مشارف المياه، وتحت ظلال النخيل، وعبر قافلة البين والرحيل، وتدفتت ينابيع حبه، فملأت فراغات الحياة ورتابتها، ومنحت العدم الصامت في رمال الصحراء فكراً وحواراً، وأكسبته نبضاً ووجداناً، فكان من ذلك سفر الحب والغزل الذي شغل في جميع مراحل التاريخ وجدان الشعب العربي وأدبه ولغته، وهام به الشعراء، والنقاد، وعلماء اللغة، والفلاسفة، بل والفقهاء والصوفية»^(١).

ويكثر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة، وحتى في أغراض الشعر الأخرى مديحاً وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسب جذبا للأسماع، ولذلك لا نغلو إذا قلنا إن النسب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساس للشعر العربي، وهو أمر طبيعي؛ لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة، بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة، فيقع فريسة لحبها، وتملأ قلبه وجداً وشوقاً إلى رؤيتها، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيحاءة فيزداد ولعاً بها وغراماً، وقد تتدلل عليه وتتمنّع، وقد تنأى عنه وتهجره، فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد، وعبثاً يتذلل لها ويستعطف ويتضرع، ومع ذلك لا يذوي الأمل في نفسه بلقائها أبداً، فهو دائماً مؤمل في اللقاء بعد الهجران، وعلى الأقل في الرؤية بعد الحرمان^(٢).

وما قاله الدكتور شوقي ضيف في الشعر العربي عموماً، يصدق على الشعر العربي في الهند أيضاً، ومع أن جل شعراء العربية في الهند، بل كلهم - ينتمون إلى بيئة العلم

١ - الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر، د. سعد دعبس، ص ٣، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٩ م.

٢ - تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، الشام، د. شوقي ضيف، ص ١٩٩.

الشرعي والدين والمشيخة والفقه، لكن ذلك لم يمنعهم من ذكر النسيب والغزل؛ لأن الحب عاطفة إنسانية خالدة، والرجال - مهما بلغوا من العلم والزهد والعقل والفطنة - مفتونون بالنساء، كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ الآية^(١) وكما قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»^(٢).

وفي هذا يرى الشيخ ألطاف حسين حالي أن حب النساء الغانيات فتنة كل عاقل، وابتلاء لكل زاهد وناسك، وأنه يهزم المنصور، وينصر الخاذل المهزوم، ويعز المغلوب، ويذل الغالب، وأنهن يأسرن قلوب الرجال بنظرة ولمحة، ولا منجى منهن ولا مغيث، يقول في مطلع قصيدته التي بعث بها إلى المدينة المنورة في مدح الشاه عبد الغني:

هَوَى الْحُورِ بَلَوَى كُلَّ حَيْرٍ وَنَادِبٍ وَفِتْنَةُ قَسَيْسٍ وَزَلَّةُ رَاهِبٍ
وَهَزَمَ لِمَنْصُورٍ وَفَتَحَ لِحَاذِلٍ وَعِزُّ لِمَغْلُوبٍ وَذُلُّ لِنَاجِبٍ
وَمَا مِنْ نِسَاءٍ الْحَيِّ لِلْعِزِّ مَخْلَصٍ بِلَمْحٍ قَدْ اسْتَأَثَرْنَ أَهْلَ التَّجَارِبِ^(٣)

وبعد وصفه للحب وفعله في الرجال، ينتقل إلى ذكر حبيبته، ويصفها بأنها اختطفت قلبه بدلًا ولطف، لا بالشدة والعتاب، وأنها تعمل عمل السحر من غير رقية، وتقتل القلوب بلا ضرب، وفي كل حركة منها من النظر والملح والغمز بلاء وفتنة لورع تائب إلى الله، وأنه تناسى علمه وحكمته في ذكر تلك الحبيبة، وأتعب في البحث عنها مطاياها؛ لأنها شغلت قلبه، وصرفته عن كل ما يحبه ويرغب فيه، ويرى أن عتابها، بل حتى ضربها للرقاب محبوب ومعجب به، فيطلب منها ذلك، ثم يتساءل تسأول الآيس الخائب عن طريق وصوله إلى ليلاه؛ لأنه ضل طريقه إليها في ليلة مضيئة، ويرى أن يوم الفراق مظلم كالليل، وأن صباحه قطعة من الدياجير، يقول:

وَلَيْسَ بِدَاءٍ كَادَ يُشْفَى سَقِيمُهُ صَبَابُهُ قَلْبِي بِالْعَذَارَى الْكَوَاعِبِ

١ - آل عمران: جزء من الآية ١٤.

٢ - أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة، عن أسامة بن زيد (٥٠٩٦).

٣ - عز: عزيز إما أن يكون على المبالغة، وإما أن يكون بمعنى معز، ورجل عزيز: منيع لا يغلب ولا يقهر. (ينظر: لسان العرب، مادة: ع ز ز).

قَدِ اخْتَطَفَتْ لُبِّي وَرَوْعِي مَلِيحَةً
مُعْطَلَّةَ الْأَرَاءِ مِنْ غَيْرِ رُقِيَّةٍ
لَفْنِي نَظْرَةً مِنْهَا وَعَمَزَ وَلَمَحَةً
أَلْيَلَايَ مَا أَغْنَاكَ عَنْ شَأْنِ مُوَلَعٍ
تَنَاسَيْتُ فِي ذِكْرِكَ عَلِمًا وَحِكْمَةً
شَغَلْتُ بِلَحْظٍ قَلْبَنَا عَنْ مَشَاغِلِ
عَتَابِكَ حُلُوًّا فِي الْمَذَاقِ فَعَاتِي
وَدُونِكَ قَلْبَ الْعَاذِلِينَ وَنَظْرَةً
أَحَبَّةً لَا تَشْكُو حَزِينًا قَرَّبًا
وَفِيهَا إِلَى سَلَمَى وَصُولِي فَإِنِّي
بَلُطْفٍ مُدَارٍ لَا بَعْسٍ مُعَاتِبِ
مُقْتَلَّةُ الْأَحْشَاءِ لَا بِالْمَضَارِبِ
بَلَاءٌ لِذِي وَرَعٍ إِلَى اللَّهِ تَائِبِ^(١)
لَهُ أَنْتَ فِي دُنْيَاهُ قُصْوَى الْمَارِبِ
لَا نَضِيتُ أَيَّامًا إِلَيْهَا رَكَائِبِي
صَرَفْتُ بِرَمَزٍ قَصْدَنَا عَنْ رَغَائِبِ
وَضَرَبْتُكَ حَتَّى لِلرَّقَابِ فَضَارِبِي
لَكَ الدِّينُ عِنْدَ الْعَائِقِينَ فَطَالِبِي
تَهَيَّجَ لِلأَصْحَابِ رَنَّةٌ صَاحِبِ
ضَلَلْتُ سَبِيلِي فِي ضِيَاءِ الْكَوَائِبِ^(٢)

رأينا أن الشاعر ذكر الحب وما له من أثر عظيم في قلب الصبّ المستهام، وختم تشبيهه بذكر البين، وأنه أظلم نهاره حتى صار الصبح كأنه قطعة من الظلمات ثم تخلص إلى المديح.

ونرى الشيخ عبد الغفور الدانافوري^(٣) يبدأ قصيدته بذكر التفرق والبين، وينقلنا إلى ذلك الجو الحزين، جو وداع الحبيب لحبيبه، وكيف أنها تعانقا والأسى يذيب قلوبهما، وكيف يُسلي بعضهما البعض، ويدعو بالصبر والسلوان، ثم يذكر حاله بعد فراقه وما أصابه فيه من القلق والهيام، واحترق للقلب، وعينه ذارفة، ونار الهوى مشتعلة، والدمع يروّي، يقول:

١- سكن الشاعر «واو» ورع لضرورة الحفاظ على سلامة الوزن .

٢- ضميمهء أردو، كليات نظم حالي، ألطاف حسين حالي، ص ١٢٥ .

٣- هو الشيخ الفاضل : عبد الغفور الدانافوري، أحد العلماء العاملين بالحديث، قرأ العلم على مولانا فيض الله المثوي، وعلى غيره من العلماء، ثم أسند الحديث عن السيد نذير حسين الدهلوي المحدث، لم أعثر له على تاريخ الميلاد ولا تاريخ الوفاة. (الإعلام ٣/ ١٢٥٨، هندوباك كى عربي ادباء ٨٢-٨٣).

بَانتْ سُلَيْمَى فَلَا شَيْءَ يُسَلِّينَا وَلَوْعَةُ الْبَيْنِ نَاوِيضِينَ
 قَامَتْ تُودِّعُنِي وَالْهَجْرُ يَمْنَعُهَا وَقُمْتُ عَانَقْتُهَا حُزْنٌ يُكِينَا
 تَقُولُ: صَبْرًا جَمِيلًا لَا تَمُتْ أَسْفًا أَعْطَاكَ رَبِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ تَسْكِينَا
 فَيَاهَا تَرَكْتَنِي هَائِمًا قَلْبًا وَوَدَّعْتَنِي وَدَاعًا لَا تُبَالِينَا
 أَلْقَلْبُ مُلْتَهَبٌ وَالْعَيْنُ ذَارِفَةٌ وَشَبَّ نَارُ الْهَوَى وَالِدَّمْعُ يَرُونَا^(١)

لقد استطاع الشاعر إيجاد جو ملائم لموضوع الأبيات بذكر كلمات تدل على التناهي والابتعاد، من البين والهجر، والوداع، وما يتبعه من الحزن والقلق والألم وشدة الأسى، ونراه استخدم أفعال الماضي للدلالة على تسلط اليأس في قلبه حتى أنه يرى أن ما حصل من اللقاء والعناق ثم البين والوداع شيء بعيد غارق في الماضي كما أكثر من استخدام الأفعال المضارعة للدلالة على استمرار حالته الكئيبة الحزينة، ولإبراز صورة ذلك المشهد ماثلة أمام أعيننا .

ومن تصدى لذكر فراقه عن حبيبته أيضاً المفتي صدر الدين خان آزرد^(٢) الذي ذكر اجتماعه مع حبيبه كأنها أغصان شجر واحد، يغنيهما صدح الحمام، ويرويها السحاب، خالين من مصائب الدهر، بعيدين عن أقوال الوشاة، إلا أنه لم يلبث أن تغيرت الحال، ففراقه حبيبه بغير ذنب، وترك في قلبه ألماً وحرقة، ثم دعا له بالعفو لأنه نسى العهد الذي بينهما مع أن الشاعر حافظ لتلك الذمة وموف لها، يقول :

وَكُنَّا كَغُصْنِي بَانَةٍ قَدْ تَأَلَّفَا عَلَى دَوْحَةٍ حَتَّى اسْتَطَالَا وَأَيَّنَعَا

١- الإعلام ٣/ ١٢٨٥.

٢- هو الشيخ الكبير العلامة المفتي : صدر الدين بن لطف الله الكشميري ثم الدهلوي، ولد سنة ١٢٠٤ هـ بدهلي، ودرس على الشيخ فضل إمام الخير آبادي، والشيخ رفيع الدين وعبد العزيز ابني ولي الله الدهلوي، والشيخ إسحق بن أفضل العمري، وتولى الصدارة مدة طويلة بدار الملك دهلي. وكان نادرة دهره في كل علم لاسيما الفنون الأدبية. ومن مصنفاته: منتهى المقال في شرح حديث « لا تشد الرحال »، ومنها « الدر المنضود في حكم امرأة المفقود »، والفتاوى الكثيرة.

توفي سنة ١٢٨٥ هـ بدهلي. (الإعلام ٣/ ٩٩٢، وآثار الصناديد ص ٥٢٩ و ٥٣٠، وأبجد العلوم ٣/ ٢٤٧).

يُعْنِيهِمَا صَدْحُ الْحَمَامِ مُرَجَّعَا وَيَسْقِيهِمَا كَأْسُ السَّحَابِ مُثْرَعَا
 سَلِيمَيْنِ مِنْ خُطْبِ الزَّمَانِ إِذَا سَطَا خَلِيلَيْنِ مِنْ قَوْلِ الْحَسُودِ إِذَا سَعَا
 فَفَارَقْنِي مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ جَنِيئُهُ وَأَلْقَى بِقَلْبِي حُرْقَةً وَتَوَجُّعَا
 عَفَا اللَّهُ عَنْهُ مَا جَنَاهُ فَإِنِّي حَفِظْتُ لَهُ الْعَهْدَ الْقَدِيمَ وَضِيْعَا^(١)

ونراه في مقطوعة أخرى يتطرق إلى اليبين وشدة وقعه، فيرى أنه أشد من نار جهنم حيث لو سلط عليها لذاب لهيبها، وأن أشد نار جهنم أبرد عنده من نار اليبين الذي بين ضلوعه وجوانحه، يقول :

وَلَوْ سُلِّطَتْ نَارُ التَّقْرِقِ وَالْجَوَى عَلَى سَقَرٍ يَوْمًا لَذَابَ هَيْبُهَا
 أَشَدُّ جَحِيمِ النَّارِ أَبْرَدُ مَوْعَا عَلَى كَبْدِي مِنْ نَارِ بَيْنِ أَصْيْهَا^(٢)

ونرى الشيخ السيد أحمد القنوجي يستعيد ذكرياته الجميلة مع حبيبته - على غرار المفتي صدر الدين - ويذكر ذلك اللهو والمتعة التي استمتع بها مع حبيبته، ويتطرق إلى بعض صفاته، ثم يعود إلى حاضره المؤلم، حيث أخلفته حبيبته الوعد، وضنت بالوصال، ولم تراع العهود التي بينهما، مع أن الشاعر ما زال متمسكا بها، يقول :

تَذَكَّرْتُ أَيَّامَ الصَّبَا وَاللَّيَالِيَا بِغَمٍّ أَرَقَّ الشَّوْقُ مِنْكَ الْقَوَافِيَا
 إِذِ الْعَيْشُ أَشْهَى مَا يَكُونُ مِنَ الْمُنَى وَأَطْيَبُ لَذَاتِ تَسْوٍ الْأَعَادِيَا
 إِذِ الرَّبْعُ رُبْعُ الْخَزَرْجِيَّةِ أَهْلٌ بِعَيْنِ كَارَامِ الْفَنِّ الْمَغَانِيَا
 مُحَضَّرَةِ الْأَطْرَافِ، رَوَاقَةِ اللَّمَى رِقَاقِ الثَّنَائِيَا، بَهْكَاتِ غَوَانِيَا

١- آثار الصناديد، سريسيد أحمد خان بهادر، ص ٥٣٠، سنترل بكذبو، اردوبازار، دهلي ١٩٦٥.

٢- فرائد الدهر، كريم الدين باني بتي، ص ٣٩٩ مطبع مطلع العلوم، دهلي ١٩٤٧ م.

وَجَارَتْ بِخُلْفِ الْوَعْدِ بَعْدَ وَفَائِهِ وَضَنْتَ بِمَا يَغْرِي الْوُشَاةَ الْأَسَاعِيَا
كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَبِيبِ وَبَيْنَنَا عُهُودٌ، وَلَمْ تَرَ الْعُهُودَ الْمَوَاضِيَا
فَإِنِّي فَتَى أَرْعَى الْعُهُودَ لِصَاحِبِي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَهْدِ مِنْهُ مُرَاعِيَا^(١)

وممن وصفوا الحبيبة بالجمال الباهر الشاعر سيد ناصر حسين الموسوي^(٢) في قصيدته التي سماها « ذات الأقدار » يذكر فيها من صفاتها الإشرقة والبهاء والمعان، وأنها معطار، حتى لا تعرف الحي مشيها إلا بتضوع عقبها، وأنها طويلة القد، سمراء اللون، حمراء الخلد، سوداء الشعر، غراء الوجه، يقول^(٣):

مَا لِي أَرَى لَيْلَتِي حُفَّتْ بِأَنْوَارِ كَأَنَّهَا بِضِيَاهَا ذَاتُ أَفْهَارِ
خُودٌ حَصَانٌ مُصَانٌ شَخْصَهَا أَبَدًا وَضَوْءُ غُرَّتِهَا تَزِيرِقُ أَبْصَارِ
بَانتَ لَوَامِعُهَا حَتَّى بِهَا انْتَلَقَتْ أَنْجَادُ أَرْضِ حَمَاهَا بَعْدَ أَغْوَارِ
لَا يَعْرِفُ الْحَيُّ مِمَّ شَاهَا وَإِنْ جَهْدُوا إِلَّا بِطَيْبِ شَذَاهَا الْفَائِحِ السَّارِي
سَمَرَاءُ فِي دَعَجٍ، هَيْفَاءُ فِي غَنَجٍ فَرَعَاءُ فِي أَرْجٍ، بَيْضَاءُ مِعْطَارُ^(٤)
لَمْبَاءُ فِي شَنْبٍ، كَالرَّاحِ مِنْ عَنَبٍ تَحْدُو عَلَى طَرَبٍ مِنْ غَيْرِ إِسْكَارِ^(٥)

١- الإعلام ٨٩٨/٣.

٢- هو ناصر حسين بن حامد حسين بن المفتي محمد قلي الحسيني الموسوي اللكهنوي، أحد علماء الشيعة الإمامية وكبرائهم. ولد سنة ١٢٨٤ هـ ببلدة لكهنؤ.

نشأ في مهد العلم، وقرأ نهج البلاغة على والده سبع مرات، وحفظ أكثره، وأخذ الفنون الأدبية عن المفتي عباس بن علي الحسيني التستري، حتى برع فيها، وفاق أقرانه.

له مصنفات كثيرة منها: «ديوان الشعر»، و«ديوان الخطب»، و«نفحات الأزهار في فضائل الأئمة الأطهار» في زهاء ستة عشر مجلدا، وغيرها.

توفي سنة ١٣٦٠ هـ ببلدة لكهنؤ، ودفن في آغره. (الإعلام ٣/١٣٨٧-١٣٨٨).

٣- قصائد بهجة الأدب ٣٢-٣٤.

٤- دعج: الدعج والدعجة: السواد، وقيل شدة السواد، وقيل: الدعج شدة سواد سواد العين، وشدة بياض بياضها، وقيل: شدة سوادها مع سعتها. (ينظر: اللسان، مادة: د ع ج). غنج: الغنج في الجارية تكسر وتدل، (ينظر اللسان، مادة غ ن ج). أرج: نفحة الريح الطيبة، (ينظر اللسان، مادة أ ر ج).

٥- شنب: ماء ورقة يجرى على الثغر، وقيل: رقة وبرد وعذوبة في الأسنان (اللسان، مادة شنب).

فِي خَدَّهَا شَفَقٌ، فِي شَعْرِهَا غَسَقٌ فِي وَجْهِهَا فَلَقٌ يَبْدُو بِأَسْحَارٍ^(١)

ومن وصفوا مفاتن الحبيبة أيضا الشيخ عبد الرحمن الغازيفوري^(٢) فيشبهه حبيبته بالشمس، ويرى أن شمس السماء منها تستمد ضياءها، ويشبهها بالمسك في طيب رائحتها، كما يصف عيونها الواسعة وترائبها المصقولة، يقول^(٣):

شَمْسٌ بِهَا شَمْسُ السَّمَاءِ مُضِيئَةٌ مِسْكٌ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْكَ تَفُوحُ
وَعُيُوثُهُمَا مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مُطْفِلٍ وَلَهَا تَرَائِبٌ كَالصَّبَاحِ تُلُوحُ^(٤)

ومن أولئك الواصفين أيضا الشيخ عبد الغفور الدانافوري الذي تطرق إلى كثير من صفاتها الجسدية، فيشبهها - بنسيم الصبا في لين أعضائها، ويشبهها بالشمس والبرق، ويشبه فرعها بالليل بعد وصفها بالطول إلى القدم، فيقول:

غَيْدَاءٌ فَاتِنَةٌ، هَيْفَاءٌ نَاعِمَةٌ تَحْكِي نَسِيمَ الصَّبَا أَعْضَاءَهَا لِينًا^(٥)
شَمْسٌ إِذَا طَلَعَتْ، بَرْقٌ إِذَا بَرَزَتْ فَتَانَةٌ بِسَهَامِ الْعَيْنِ تَرْمِينًا
كَأَنَّهَا فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ إِذْ خَرَجَتْ بَرْقٌ تَنَوَّرَ مِنْ تِلْقَاءِ بَلْقِينَا^(٦)
خُودٌ عَدَائِرُهَا طَالَتْ إِلَى قَدَمٍ وَالْفَرْعُ يَحْكِي سَوَادًا مِنْ لَيَالِينَا^(٧)

ولعل الشيخ أبا محفوظ الكريم المعصومي أفضل من وصف هذه المحاسن والمفاتن

١ - فلق: الصبح، أو الفجر. (القاموس المحيط؛ مادة: ف ل ق).

٢ - هو الشيخ الفاضل: عبد الرحمن بن جهمهو الغازيفوري، ولد سنة ١٢٨١ هـ، حفظ القرآن من أساتذته: المولوى عبد الأحد اللكهنوي، وخاله عبد الله بن عبد الرحيم الغازيفوري له شرح بسيط ممتع على شرح التهذيب ورسائل بالأردو، وله ديوان شعر بالأردو، وقصائد بالعربية.

توفي سنة ١٣٣٤ هـ (خم خانة جاويد - لاله سري رام / ٦٠٦ مطبع نولكشور، لكهنؤ ١٩٠٨ م، الإعلام ٣ / ١٢٧١).

٣ - وجرة: موضع بين مكة والبصرة، أربعون ميلا، ما فيها منزل، فهي مرّت للوحش. (ينظر: القاموس: مادة: و ج ر).

٤ - الإعلام ٣ / ١٢٧١.

٥ - غيداء: ناعمة، هيفاء: من الهيف: وهو ضمير البطن، ورقة الخاصرة (القاموس: غ ي د، ه ي ف).

٦ - بلقين: بلقين، اسم مكان بمصر (القاموس: ب ل ق ن) ويقال له كذلك بلقين على وزن غرنيق كما في التاج.

٧ - الإعلام ٣ / ١٢٨٥.

وجمعها في مكان واحد، في مطلع قصيدته التي سماها بـ «الهند الجديدة» يقول فيها :

لله دُرٌّ جَمَالِهَا وَجَلالِهَا وَبُرُوقُ طَلْعَتِهَا وَسُحْمَةُ خَالِهَا^(١)
 وَشُرُوقُ مَبْسَمِهَا وَمَاءِ جَمالِهَا وَبَهَاءُ سُحْنَتِهَا وَحُسْنِ دَلالِهَا^(٢)
 أَيْنَ الْمَهَامِنْ طَرْفِهَا، وَالْبَدْرُ مِنْ سَخَنائِهَا، وَالظَّبْيُ مِنْ إِذلالِهَا^(٣)
 مَيْسَاءٍ عَادِلَةٍ الْقَوَامِ كَبانَةٍ خَضِرَاءٍ، إِنَّ السَّرَّوَ شِبْهُ ظِلالِهَا^(٤)
 إِنَّ أَدَبَ رَتْ فاللَّيْلُ مِنْ إِذْبارِهَا أَوْ أَقْبَلَتْ فالشَّمْسُ مِنْ إِقْبالِهَا
 نَظَرْتُ بِمَوْقِعِهَا الْبُدُورَ فَأَقْبَلْتُ تَتَضَاءَلُ الْأَقْمَارُ بَعْدَ كَمالِهَا^(٥)
 رِيًّا الْمَعاصِمِ كالشَّقائِقِ بَضَّةً عِطْرُ الْحَيَاةِ يُفُوحُ مِنْ أَذْيالِهَا
 هِيَ غَاذَةُ الشَّرْقِ الْفَرِيدَةُ تُوجَتْ بَيْنَ اللَّذاتِ بِكِبْرِيَاءِ جَلالِهَا^(٦)

فتراه يفوق أقرانه في الجمع بين أوصاف كثيرة في قصيدة واحدة، كما يمتاز بقوة أسلوبه ودقة تصويره أيضاً، ولم يكتف بتصوير المحاسن الحسية فحسب، بل تطرق إلى بعض الصفات المعنوية أيضاً مثل كبرياء الجلال، وإن كان ذلك بإشارة سريعة خاطفة. وذكرنا من صفاتها المعنوية أيضاً أنها تعد بالوصال ثم تخلف ولا تنفي بوعداها .
 ومن ذكر هذه الصفة الشيخ عبد الصمد علمي^(٧) في مطلع داليته، يقول فيها:

١- السحمة : السواد.

٢- السُّحْنَةُ والسُّحْنَةُ : لين البشرة والنعمة، وقيل : الهيئة واللون والحال.

٣- السحناء : السحنة.

٤- ميساء: من ماس يمس مَيْساً وميساناً: تبختر واختال (اللسان: م ي س).

٥- موقى العين: مؤخرها وقيل مقدمها (اللسان: م ء ق).

٦- حصلت على نسخة منها من الشاعر نفسه.

٧- هو الشيخ عبد الصمد علمي ابن عبد القادر، ولد في ضواحي مدراس سنة ١٣١١هـ، درس في مدرسة الباقيات الصالحات في ويلور، وتلمذ على شمس العلماء عبد الوهاب القادري، ثم عين مدرساً في المدرسة نفسها، وكان له قدرة في الرد على فرقة «آرية سماج الهندوكية». له رسائل عديدة، وشعر بالعربية والفارسية.

توفي سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م، (مجلة الباقيات الصالحات الصادرة سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٧٤م بمناسبة الذكرى المئوية، ص ١٠٦-١١١).

عَلَى مَوَاعِيدِ سَلَمَى كَيْفَ أَعْتَمِدُ؟ أِبَالَسَرَّابِ يَرْتَوِي الظَّمَانُ إِذْ يَجِدُ^(١)

ويقول الشيخ عبدالرحمن بقا الغازيفوري:

لَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّ فُؤَادَهَا إِذْ قِيلَ: "جُودِي بِالْوَصَالِ" شَحِيحُ^(٢)

وفيها يقول الشيخ سيد أبو العلاء نظر أحمد سهسواني^(٣):

طَيْفٌ أَلَمَ إِذَا مَا التَّوْمُ عَشَّائِي وَصَادَ قَلْبِي بِطَرْفٍ مِنْهُ فَتَّانِ

إِنِّي رَشَفْتُ شَرَابًا مِنْ مُقْبَلِهَا فِيهَا الْحَيَاةُ لِصَادِي الْقَلْبِ عَطْشَانِ

لَمْ أُنْسَهُ يَوْمَ أَبْكَانِي وَأَضْحَكَنِي مِنْ وَغْدٍ وَصَلٍ وَمِنْ تَذْكَارِ هَجْرَانِ^(٤)

ومما وصفوه أيضا مما يتعلق بالحبيب ذلك الصبا الذي يهب من ديار المشوق فيحمل للصب عبق ديارها، ويذكره بسالف عهده مع حبيبه ، ويحيي في نفسه تلك الذكريات العذبة، ومن هنا يفرحون بمقدم هذا النسيم ، ويرحبون به ترحابا حارًا، ويرون فيه رسولاً من حبيبهم ، وفي هذا يقول السيد أحمد مع ذكر ما لهذا النسيم من أثر في الأغصان والأشجار والطيور، يقول :

نَسِيمُ الصَّبَا وَافِي سُحَيْرًا مُطَيَّبًا فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا

كَأَنَّكَ أَنْفَاسُ الْمَسِيحِ بِعَيْنِهَا فَأَحْيَيْتَ صَبًّا لَمْ يَنْلُ فَطُ مَطْلَبًا

فَدَيْتُكَ يَا نَعْمَ الصَّبَا، خَيْرَ مَقْدَمٍ فَكُلُّ حَمَامٍ حِينَ أَقْبَلْتَ رُحْبًا

١ - دالية العلمي مع الرائية ص ٢، المطبع الكريمي، مدراس، ١٣٥٣ هـ.

٢ - الإعلام ١٢٧١ / ٣.

٣ - هو الشيخ أبو العلاء نظر أحمد بن سندال محمد شاه، ولد ١٣٠٤ هـ بمدينة سهسوان، ونشأ بها. تتلمذ على: محمد بشير المحدث السهسواني، وشمس العلماء نذير أحمد الدهلوي، ومفتي عبد الله اللاهوري، والشيخ ذي الفقار علي، والشيخ محمد طيب مكي.

له رسائل عديدة منها: عمدة الوسيلة، كشف النقاب، رفع الغمة، السنة الإلهية، شرح قصائد رنات الطرب وغيرها.

توفي سنة ١٣٨٠ هـ، (الإعلام ١٣٩٤ / ٣).

٤ - هندوستان كي عربي شاعري، د. حامد علي خان ، ص ٢٧٦.

تَحَاكِي لَكَ الْأَغْصَانُ بِالْوَجْدِ رَاقِصًا تُضَاهِي لَكَ الْأَطْيَارُ بِالسَّجْعِ مُطَرِّبًا
وَتَنْفُخُ فِي الْأَشْجَارِ رُوحًا تُمِئِّلُهَا فَيَا لَكَ مَا أَزْهَاكَ صُنْعًا وَأَعْجَبَا
أَهْلُ جِئْتَ مِنْ تِلْكَ الرَّبِّي بِرِسَالَةٍ فَإِنَّ الصَّبَا نِعَمَ الرَّسُولِ لِمَنْ صَبَا^(١)
فيرى أن النسيم لم يحيي الصب المحب فقط، بل أنفخ روحا في الأشجار أيضا، فهي تميل وتهتز، وأغصانها ترقص وتطرب، فضلا عن الطيور الحية. ونراه في قصيدة أخرى يُحْمَلُ النسيم رسالة إلى حبيبته، يبت فيها حزنه وشدة شوقه إليها وأنه لم يذق لذة منذ ما فارقت، ويذكر أن الزمان يتغير - كما يزعم أناس - مع أنه لا يرى أي تفاوت في بليّات النوى ، يقول :

أَلَا يَا نَسِيمَ الرُّوضِ بَلِّغْ خَبْرِي إِلَى مَنْ حَيَاتِي عِنْدَهُ أَوْ مَنِيَّتِي
لَقَدْ عَمَّتِ الْبَلْوَى لِي الْيَوْمَ وَالنَّوَى وَمَا طَابَ حَالِي مِنْ عُمُومِ الْبَلِيَّةِ
تَجِدُّ لِي الْأَحْزَانَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَمَا فُزْتُ مِنْهَا حَيْثُ جَدْتُ بِلَذَّةٍ
تَقُولُ رَجَالٌ: لِلزَّمَانِ تَغْيِيرٌ وَمَا فِي بَلِيَّاتِ النَّوَى مِنْ تَفَاوُتٍ^(٢)

ومما وصفوه في هذا الباب أيضا ما يفعله الحب في العاشقين، وما يحتملون من الضنك والمشقة، وما يقاسون من المראה والعذاب، وما يعانون من السهر والأرق، حتى يفيض الأمر ببعضهم إلى الجنون أو الهوس، وبعضهم إلى الانتحار أو الموت، ولا يشفي من هذا إلا وصل الحبيب، وفي هذا يقول الشيخ فضل حق بن فضل إمام الخير آبادي:

إِنْ لَمْ تُصِبْ نَظْرَةً مِنْ أَعْيُنِ نَعْسٍ فَمَنْ نَفَى النَّوْمَ مِنْ عَيْنَيْكَ فِي الْغَلَسِ
مَنْ اسْتَنَامَ إِلَيْهَا سَهْدَتُهُ وَكَمْ مِمَّنْ أُنَامَتُهُ مِنْ يَقْظَانِ مُحَرَّسِ

١ - الإعلام ٨٩٧/٣، ديوان الشاعر المخطوط في مكتبة دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ، برقم ١٤٦٢، وهو غير مرقم الصفحات.

٢ - ديوان الشاعر غير مرقم الصفحات، مخطوطة ١٤٦٢، مكتبة دار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ، الإعلام ٨٩٨/٣.

سَلَبْنَ وَسَتَّهُ فَازْدَدْنَ فِي سِنَةٍ وَغَضَبَهُ فَتَرَا فَا زْدَادَ فِي الْمَوَسِ
بَلْ لَا يَذَرْنَ بِمَنْ يَرْمُقْنَ مِنْ رَمَقٍ وَلَا يَدْعُنْ بِذِي نَفْسٍ سِوَى نَفْسِ
وَلَا شِفَاءَ لَهُ إِلَّا الشِّفَاءُ إِذَا سَقَيْنَهُ عَسَلًا يَشْتَارُ مِنْ لَعَسِ^(١)
قَدْ بَغَضَ الصَّيْدَ مَا يَخْفُونَ مِنْ صَلَفٍ وَحَبَبَ الْغَيْدَ مَا يُبْدِينَ مِنْ شَوَسِ^(٢)
قَدْ حَسَنَ الْحُسْنَ مِنْهَا كُلَّ سَيِّئَةٍ حَتَّى الْجَفَاءِ وَسُوءِ الْخُلُقِ وَالشَّرَسِ^(٣)
وله أيضاً قصيدة أخرى ينهى فيها عن الوقوع في حبائل الهوى، وشرك الحب، وهوى الحسان؛ لأنها مطية الخيبة والخسران، وسبيل الهلاك، وتلك النعم والمفاتن التي يتنعم بها الحبيب تجلب للصب النقم والشدائد؛ لما للحبيبات من قلوب قاسية وإن كانت تتمتع باللين والنعومة في ظاهر الجسد، فيضطر العاشق إلى تحمل العذاب، وتذراف الدموع، يقول:

لَا تَنْصَبِغْ بِهَوَى بِيضِ الْأَمَالِيدِ فَأَحْمَرُ الْمَوْتِ فِي أَجْفَانِنَا السُّودِ
فِي غَمَزِ الْحَاطِظِهَا فَتُكُ الْأُسُودِ وَإِنْ حَاكَيْنَ رَيْمَ الْفَلَا بِالظَّرْفِ وَالْجِيدِ
قَدْ خَابَ مَنْ غَارَلَ الْغَزْلَانِ يَأْمُلُهَا وَبَادَ مَنْ رَامَ أَنْسَ الرَّيْمِ فِي الْبِيدِ
ذَرِ الْمَرَاشِفَ وَاسْتَعِذَابَهُنَّ فَفِي تِلْكَ الْعِذَابِ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودِ
فَلَا يَرُوقَنَّ لِيَنَّ فِي مَعَاطِفِهَا إِنَّ الْقُلُوبَ لَمِنْ أَقْسَى الْجَلَامِيدِ^(٤)
يَبْكِي الْمَشُوقُ بَعْرَاتٍ مُورَدَةٍ مَا فِي مَبَاسِمِهَا مِنْ حُسْنٍ تَوْرِيدِ^(٥)

١ - ديوان الشاعر، مخطوط في مجموعة في مكتبة آزاد، جامعة على كرهرقم، الإعلام ٣/ ١٠٦٤. شار العسل يشور سورا: استخرجه من الوقبة، (القاموس: ش و ر). اللَّعْسُ: أدمة خفيفة تعلو شفة المرأة البيضاء (المحيط في اللغة ١/ ٣٦٦).

٢ - الصَّيْدُ ج أٌصِيدُ: رافع رأسه كبراً. الصَّلَفُ: الغلو في الظرف والزيادة على المقدار مع تكبر. الشَّوَسُ: النظر بمؤخر العين تكبراً أو تغيطاً (القاموس: ص و د، ص ل ف، ش و س).

٣ - الشَّرَسُ: سوء الخلق، شدة الخلاف (القاموس: ش ر س).

٤ - الجلاميد: جمع جلمود وهو الصخر (اللسان: ج ل م د).

٥ - الإعلام ٣/ ١١٧٣.

والشيخ أوحّد الدين البلجرامي^(١) يصف ما عاناه من التعب والعناء في الحب، حتى ذاب جسمه، وباح الدمع بسر الهوى المكتوم، ويطلب من حبيبه الترحم والتعطف وإطلاق أسير محبته، ويطلب منه الكف عن تعذيبه، يقول:

زَادَ الْهُيَامُ مَعَ الْعَنَا وَضَرَامُ قَلْبِي مَا انْطَفَا
وَالْجِسْمُ ذَابَ مِنَ الضَّنَا وَالْدَّمْعُ بَاحَ بِمَا اخْتَفَى
فَالِإِلَى مَتَى هَذَا الْجَفَا ؟ يَا مُتْلِفِي، مَا قَدْ كَفَى
أَطْلِقْ أَسِيرَ مَحَبَّةٍ فَارْحَمْ وَكُنْ مُتَعَطِّفَا
أَنَا فِي هَوَاكَ مُتَمِيمٌ فَاسْمَحْ وَكُنْ لِي مُسْعِفَا^(٢)

ويقول في قصيدة أخرى أنه لم يذق النوم مذ فارقه الحبيب، فبييت يرعى النجوم ويذرف الدموع، وأنه كلما قدم إليه سُرَّ قلبه بمجيئه، وكلما صد عنه يزيده هما ونصباً:

مُذْ بَانَ عَنِّي لَمْ تَدْرِ الْكَرَى مُقْلَتِي أَرَعَى النُّجُومَ، وَعَيْنُ الدَّمْعِ مُنْهَمِرُ
وَإِنِّي إِلَى فَسْرِ الْقَلْبِ حِينَ ذَنَا وَصَدَّ عَنِّي فَزَادَ الْهَمُّ وَالْكَدَرُ^(٣)

ويذكر في قصيدة أخرى أنها أسرت قلبه بحبل المودة، ثم قتلته عمداً، وأن عينها سيف مسلول على عشاقها، ثم يتعجب من كثرة جورها على محبيها، ويرجع سبب ذلك إلى أن طينتها لعلها خمرت بالجور، ويتخلل ذكر هذه الحالة الكئيبة بعض صفاتها أيضاً، يقول:

مَيَّاسَةُ الْقَدِّ مَا مَاسَتْ وَمَا خَطَرَتْ إِلَّا وَقَلْبِي بِحَبْلِ الْوُدِّ قَدْ أَسْرَتْ^(٤)

١- هو الشيخ الفاضل: أوحّد الدين بن علي أحمد العثماني البلكرامي، ولد ونشأ ببلكرام، وسافر للعلم، فقرأ على مولانا حيدر علي بن عناية علي الحسيني الطوكي، وعلى غيره من العلماء، وأخذ عنه القاضي بشير الدين القنوجي والشيخ محمد بشير السهسواني، والشيخ جميل أحمد البلكرامي، وخلق كثير.

وله مصنفات عديدة، منها: روضة الأزهار، ومفتاح اللسان، وتذكرة شعراء العرب، وشرح على ديوان المتنبي، وشرح على مقامات الحريري، ونفائس اللغات في المفردات الهندية بالفارسي، توفي ١٢٥٠ هـ. (الإعلام ٣ / ٩٢٩ - ٩٣٠).

٢- الإعلام ٣ / ٩٣٠.

٣- المرجع السابق نفسه.

٤- مياسة: من ماس يمس ميسا وميساناً وتميسافهواثس وميوس وميأس: التبخر.

نَشْوَانَةٌ مِنْ رَجِيحِ الْحُسْنِ قَدْ سَفَكَتْ دَمِي بِمُقْلَتِهَا عَمْدًا وَمَا حَذَرْتُ
كَأَنَّهَا غُضْنُ بَانٍ صَيَّعَ مِنْ ذَهَبٍ فِي خَدِّهَا رَوْضَةٌ، أَنْوَارُهَا زَهَرَتْ
خَرِيدَةٌ مَا رَنْتَ إِلَّا وَمُقْلَتُهَا حَسَامٌ لَحَظَ عَلَى عُشَاقِهَا شِهْرَتْ
اللَّهُ اللَّهُ كَمْ جَوْرٍ عَلَى دَنْفٍ أَظُنُّ طَيْبَتَهَا بِالْجَوْرِ قَدْ حُمِرَتْ^(١)

ونجد شعراء الهند أيضاً يذكرون العذل والعدال، كما ذكرهما شعراء العربية في غير الهند، فيقول الشيخ عبد الصمد علمي في ذكر حبيبته التي وصف جمالها فرأى أنها تخجل وورقاء، وأعينها أجمل من عيون الأطباء وأوسع، وشبه كلماتها بالآلي في العسل، فصارت تفوق على الآلي من ملح البحار، ولاغرو فريق الحبيب يفوق العسل يذم الريح الذي تعفي معالم دارها، ويمدح السحاب الذي يكشفها، ويتطرق إلى ذكر الطيف، وعدم استطاعته الصبر، يقول :

نَاءَتْ سَعَادٌ فَتَفْسِي الْيَوْمِ فِي جَلَلٍ مِنَ النَّوَائِبِ وَالْآلَامِ وَالْعَلَلِ
نَفَحَاءٌ، قَمَرَاءٌ، جِسْمًا مُخْجَلًا وَرَقًا عَيْنَاءٌ، تُزْرِي بِعَيْنِ الطَّيِّبِ فِي نَجَلِ
تَرَى الْآلِيَّ مِنْ مِلْحِ الْبَحَارِ بَدَتْ إِنَّ الْآلِيَّ فِي فِيْهَا لَفِي الْعَسَلِ
أَذْمُ رِيحًا تَغْطِي رَسْمَ مَنْ هَجَرَتْ وَلَا أَدْمُ سَحَابًا كَاشَفَ الطَّلَلِ
بِالطَّيِّفِ لَا يَقْنَعُ الْعُشَاقُ حِينَ سَرَى وَدُونَهَا حُجُبٌ تُلْقَى عَلَى الْمُقْلِ
وَكَيْفَ يَجْهَدُ أَنْ يَنْسَلَّ مُصْطَبِرًا مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْحُبَّ لَمْ يَزَلِ
مَا لِلْعَوَاذِلِ لَا يَتْرُكُنَ لَوَمَتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لَفِي صُومٍ عَنِ الْعَذْلِ
لِمِثْلِهِ رَثَثَ الْأَعْدَاءُ حِينَ رَأَتْ حُبَّ الْمَشُوقِ وَدَبَّ الشَّائِقُ الْحَجَلِ
مَرَارَةُ الْمَجْرِ أَنْسَتْ لَذَّةً وَهَبَتْ حَلَاوَةَ الْوَصْلِ فِي أَيَّامِهِ الْأَوَّلِ^(٢)

١- دنف: المرض الملازم، ورجل دنف: براه المرض حتى أشرف على الموت، ينظر (اللسان والقاموس: مادة دن ف). الإعلام ٩٣٠ / ٣.

٢- اللامية مع البائية. عبد الصمد علمي، ص ٢، طبع وانم باري، الهند.

وقد اتخذ بعض الشعراء في الغزل منهج الحوار بينه وبين حبيبته الذي امتاز به عمر بن أبي ربيعة.

فمن هؤلاء المفتي السيد محمد عباس الشوستري^(١) يحكي لنا ما جرى بينه وبين حبيبته من الحوار يصور من خلاله تذلل العاشق لحبيبته ومحاولته في سبيل إرضائه، لكي ينال مناه، ويفوز بأمله، ويصور من جانب آخر صمود المعشوق وتذللّه وتمنعه عن حبيبته ومماطلته في وصل حبيبته، وعدم مبالاته بما يكابده من جهد ومشقة في حبه، يقول :

قَالَ لِي : مَا تُرِيدُ ؟ قُلْتُ رِضَاكَ	قَالَ : فَاهْلُكَ أَسَى ، رَضِيتُ بِذَاكَ
قُلْتُ : أَرْجُو الْهَلَكَ لِي قُدَّمَا	قَالَ : هَذَا مُحَالٌ لِحَشَاكَ
قُلْتُ : قَلْبِي لَدَيْكَ مَسْجُونٌ	كُلُّ مَا فِيهِ لَا يَخْفَاكَ
قَالَ : عِنْدِي قُلُوبٌ أَقْوَامٍ	لَسْتُ أَذْرِي حَشَاكَ أَئِنَّ هُنَاكَ ؟
قُلْتُ : فَاطْلُبْ أَشَدَّهَا قَلْقَا	وَاخْتَرْ مَنْ أَضَلَّهَا بِهَوَاكَ
فَإِذَا مَا وَجَدْتَهُ فَاحْكُمْ	كُلُّ مَا تَشْتَهِيهِ جَعَلْتُ فِدَاكَ
قَالَ : هِيَ هَاتِ إِنِّي شُغْلًا	بِاخْتِحَالِي وَطَرَفِي الْفَتَاكَ
قُلْتُ : دَعْ عَنْكَ هَذِهِ الْعُتْبَى	وَإِذْنُ مِنِّي لِكَيِّ أَقْبَلُ فَكَأْ
قَالَ : مَهْلًا فَقُلْتُ يَا أَسْفِي	ضَاعَ قَلْبِي ، وَخَابَ مَنْ يَهْوَاكَ ^(٢)

١ - هو الشيخ الفاضل المفتي عباس بن علي بن جعفر بن أبي طالب بن نور الدين بن نعمة الله الموسوي الشوستري ثم اللكهنوي، ولد سنة ١٢٢٤هـ، وتلمذ على عبد القوي الحنفي ومولانا عبد القدوس الحنفي اللكهنوي، ومولانا قدرة علي الحنفي، ولازم السيد حسين بن دلدار علي المجتهد اللكهنوي، وولي التدريس والافتاء في ديوان الوزارة، ولقب من قبل ملك أوده بتاج العلماء وافتخار الفضلاء، واستفاد منه خلق كثير في الأدب والإنشاء.

من مصنفاته : ديوان رطب العرب، وديوان من وسلوى، وقصائد كثيرة، ومعراج المؤمنين، وبناء الإسلام، والشرية الغراء، ورياض الإنشاء، وغيرها.

توفي سنة ١٣٠٦ هـ في لكهنؤ . (تاريخ عباس، الإعلام ٣ / ١٢٥٦ - ١٢٥٧) .

٢ - ديوان رطب العرب، مفتي محمد عباس الشستري، (ص ١٧١)، مطبع جعفري، لكهنؤ، التاريخ غير مذكور.

وقد وجد من القديم تياران في الغزل : أحدهما غزل عفيف عذري، والآخر: غزل حسي، ولقي كلا التيارين في الهند من يميل إليه ويؤثره على غيره، فمن أمثلة الغزل العفيف ما قاله الشيخ عبد الأول الجونفوري^(١) في معاناته في حب غادة، وما تحمله وعاناه في ذلك ، ولكنه لم يرد من حبيبه ما ينافي الشرع، أو يخرم المروءة، بل كان همه ومناه اللقاء بحبيبه، والظفر برؤيته، والفوز برضاه، وكان لا يحتمل كل هذه المتاعب إلا للوصول إلى هذه البغية، يقول :

جَلَالِيَا أَنِّي هَمْتُ فِيْهَا جَلَالِيَا بَدَالِيَا فِي الْأَسْفَارِ مَا قَدْ بَدَالِيَا
وَحَرَعَبَةٍ بَأَنْتِ شُمُوْعًا لَبِيْقَةً شَغِفْتُ بِهَا وَالشَّوْقُ يَمْشِي أَمَامِيَا
تُحِيْطُ بِِي الْأَشْوَاقُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَيَا لَيْتَهَا تُقْضَى، وَأُعْطَى أَمَانِيَا
وَمَالِي لَا أُلْفِي سِوَاهَا لِحُلَّةٍ وَمَالِي قَدْ أَسْرَفْتُ فِي الْعِشْقِ مَالِيَا
بَذَلْتُ لَهَا قَلْبِي وَأَوْرَثْتُ الْأَسَى كَذَلِكَ تَجْزِي الْعَاشِقِينَ الْمَوَالِيَا
وَلَمْ أَكْثَرْتُ مِنْ عَاذِلَاتٍ وَعَذَلَهَا فَلِيَّ مُصَابٌ بِالْغَرَامِ مُعَانِيَا
وَعَاذِلَةٌ رَامَتْ غَرَامِي سَفَاهَةً فَمَا غِيْضَ مِنْهَا الْعِشْقُ بَلْ شَبَّ ثَانِيَا
فَقُلْتُ لَهَا: مَهْلًا هُنَالِكَ مَخْلَصٌ وَمَا أَنَا بِالْفَحْشَاءِ وَيَحْكُ جَائِيَا^(٢)

فراه يعلن إعلاناً صريحاً أنه لا يبتغي الفحش والمنكر من وراء هذا الحب، وإن كان قلبه مبتلى، ومهجه مشتاقة .

١- هو الشيخ الفاضل : عبد الأول بن كرامة علي بن إمام بخش بن جارا الله الجونفوري .
ولد سنة ١٢٨٤ هـ بجزيرة سنديب، وقرأ على مولانا محمد نعيم بن عبد الحكيم النظامي اللكهنوي، والسيد شير علي البلند شهري، ثم سافر إلى الحجاز وأخذ عن الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرواني المهاجر، والشيخ عبد الله بن السيد حسين المرحوم، ثم لازم الشيخ عبد الحق بن شاه محمد الإله آبادي المهاجر، وله إجازات عن محدثي الحرمين .
قد جاوزت مؤلفاته مائة كتاب ورسالة، منها : الطريف للأديب الطريف، والتلبد للشاعر المجيد، والرديف لتالي الطريف، والبسطى في بيان الصلاة الوسطى، وغيرها .
توفي سنة ١٣٣٩ هـ في كلكتة . (سيرت مولانا عبد الأول الجونفوري، تحيي نور ٢/ ١٣٧-١٣٨، الإعلام ٣ / ١٢٥٧ - ١٢٥٨) .

٢- الدر النضيد. الشيخ عبد الأول الجونفوري ص ٢٩ .

ويرى بعض الباحثين أن التمتع بالألم وتعذيب النفس من المعاني التي دار حولها الغزل العفيف في القديم . وفي ذلك يقول الدكتور صادق جلال العظم :

«ولا تخلو ظاهرة الحب العذري من خصائص «السادوماسوكية» من حيث إنه يميل ميلا شديدا إلى تعذيب النفس والغير (أي الحبيب) بدون مبرر واضح أو غاية محددة ، وإنما لمجرد الاستمتاع والتلذذ بالألم والعذاب، باعتبارهما جزءا لا يتجزأ من عفيف التجربة الغرامية العذرية ، وشدة انفعالاتها»^(١).

ونرى مثالا لهذا عند الشيخ عبد الأول الجونفوري أيضا حيث يذكر ما كان يقاسيه من ألم وتعب في الحب بعد أن قضى جزءا من حياته بعيدا عن هذه المتاعب، يقول:

وَقَدْ عَشْتُ فِي النَّعْمَاءِ عَشْرِينَ حِجَّةً وَفِي الْعِشْقِ خَمْسًا عَشْتُهَا وَثَمَانِيَا
وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَزْدَرِي بِأُولِي الْهَوَى وَلَا الصَّبُّ إِلَّا مَنْ يَذُوقُ الدَّوَاهِيَا
أَسْرَ الْهَوَى جِدًّا وَلَكِنْ تُشِيعُهُ دُمُوعِي، وَلَا أَخْشَى وَإِنْ شَاعَ مَا بِيَا
وَكُنْتُ خَلِيَّ الْبَالِ يَوْمَ بَرَقْتُهَا فَنِلْتُ لَهَا عِشْقًا وَحُبًّا فُؤَادِيَا
فِيَا لَيْتَهَا تَشْفِي سِقَامِي بِطَبِّهَا وَيَا لَيْتَهَا تَرْضَى وَتَرْحُمَ حَالِيَا
عَشِقْتُ وَلَمْ تَعَشِقْ فَلَوْ عَشِقْتُ دَنْتَ وَجَادَتْ بِمَا أَبْغِي تَوْمُ مَكَانِيَا
فَنَاهِيكَ يَا مَوْلَى الْحَبِيبِ بِحُبِّهَا كَفَى بِكَ هَمًّا أَنْ تَرَى الْحَبَّ نَائِيَا

وبعد هذا الشوق الشديد إلى لقاء حبيبه والوصول إليه، نراه حينما يتمكن من اللقاء به قبيل الفجر، يمتنع عما لم يحله الله له، من مقارفة الذنوب والآثام، مما يدل على طهارة ذيله وعفة حبه، يقول :

طَرَقْتُ إِلَيْهَا حِينَ أَغْفَتْ سَحِيرَةً فَهَبْتُ وَهَابْتُ تَشَرَّبْتُ وَرَائِيَا^(٢)
فَلَا قِيَّتُهَا تَحْتَ الظَّلَامِ فَمَا اخْتَوَتْ وَحَاوَزْتُهَا فِي أَنْ أَنَالَ مُرَادِيَا^(٣)

١ - الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر ، نقلا عن : في الحب والحب العذري ص ١٠٤ .

٢ - تشرَّب : من اشرب الرجل للشيء وإلى الشيء : مد عنقه إليه، وقيل : هو إذا ارتفع وعدا .

٣ - احتوت: جمع، أحرز، ألما على الشيء. ٢٢٧ / ١٨ .

فَجِئْنِيْذِ أَغْضَتْ حَيَاءً وَأَطْرَقَتْ وَقَالَتْ : يَمِيْنُ اللهُ أَلْفَيْكَ غَاوِيَا
فَقُلْتُ لَهَا : كَلَّا فَلَا تُخَشِّ رِيْبَةً فَلَسْتُ - وَرُؤُوجِي - بِالْفَوَاحِشِ رَاضِيَا^(١)

وإذا تركنا الغزل العفيف إلى الغزل الحسي الذي فيه نوع من الفحش والمجون نجد فيه ذكر التقييل والعناق وغيرهما ، فمنه ما قاله الشيخ أوحـد الدين البلجرامي مخاطباً حبيته :

يَا قَاتِلِيْ بِلِحَاطِهِ لِحَظِّيْ لِإِبْعِدِكَ مَا عَفَا
جُدْ لِيْ بِحُسْنِكَ قُبْلَةً إِنِّيْ أَرَى فِيْهَا الشُّفَا^(٢)

فيرى الشاعر أن شفاءه في تقبيل فم الحبيب ، ومثل هذا ما قاله الشيخ فضل حق الخير آبادي :

إِنْ لَمْ تُصِبْ نَظْرَةً مِنْ أَعْيُنِ نَعْسٍ فَمَنْ نَفَى النَّوْمَ مِنْ عَيْنَيْكَ فِي الْغَلَسِ
مَنْ اسْتَنَامَ إِلَيْهَا سَهْدَتُهُ وَكَمْ مِمَّنْ أَنَامَتْهُ مِنْ يَقْظَانَ مُحْتَرِسِ
سَلَبْنَ وَسَتَّتْهُ فَازْدَدَنْ فِي سَنَةٍ وَغُصْنُهُ فَتَرًا فَازْدَادَ فِي الْهَوَسِ
بَلْ لَا يَذَرْنَ يَمَنْ يَرْمُقْنَ مِنْ رَمَقٍ وَلَا يَدْعُنَ بِذِي نَفْسٍ سِوَى نَفْسِ
وَلَا شِفَاءَ لَهُ إِلَّا الشُّفَا إِذَا سَقَيْنَهُ عَسَلًا يَشْتَارُ مِنْ لَعَسِ^(٣)

فيرى أن الحب يؤرق الصب، ويسلب من عينه النوم في الغلس الذي يغلب فيه النوم علي الساهر، وأنه يوقع الحلما في الهلاك والردى، ولا يترك في المرء شيئاً، ولا يشفي من هذا المرض إلا شفاه الحبيب .

ومن هذا النوع - الغزل الحسي - ما يقوله الشيخ سيد أحمد حسرت^(٤) في تمتعه مع

١ - الدر النضيد، ص ٢٩ .

٢ - الإعلام ٩٢٩/٣ .

٣ - ديوان الشاعر، مخطوط في مكتبة آزاد، جامعة على كر هـ رقم، الإعلام ١٠٦٤/٣ .

٤ - لم أعثر له على ترجمة .

حبيبه بالعناق والتقبل بعد الإطالة في وصف مفاتها ومحاسنها - وإدارة كؤوس الخمر بينهما إلى طلوع الفجر^(١) :

صَادِنِي شَادِنٌ وَفِي قَلْبِي حُبُّهُ سَاكِنٌ بَغَيْرِ شَرِيكَ
نُقْطَةُ الْخَالِ فَوْقَ مَبْسَمِهِ كَسَوَادِ يَزِينُ عَيْنَ الدِّيكِ
أَرِنِي بَانَّةً كَقَامَتِهِ إِنْ تَكُنْ يَا حَمَامُ فِي وَادِيكَ
يَا لَقَدْ كَأَنَّهُ غُضُنٌ مِنْ نَسِيمِ الصَّبَا لَهُ تَحْرِيكَ
جَاءَ بَعْدَ الْبَعَادِ مُعْتَذِرًا قَالَ : يَا مُسْتَهَامُ، مَا يُرْضِيكَ؟
قُلْتُ : لَقِيَاكَ نُورٌ نَاطِرِي وَعَنَاقٌ وَقُبْلَةٌ فِي فَيْكِ
قَالَ : قُمْ وَاعْتِنِقْ وَخُذْ يَامَنُ كَانَ رِقَالَنَا فَصَارَ مَلِيكَ
قُمْتُ عَانَقْتُهُ أَقْبَلُهُ قَالَ : ذَرْنِي، فَقُلْتُ : لَا وَأَبِيكَ
قَالَ لِي : يَا مُقِلُّ لَا تُكْثِرْ أَوْ مَا كَانَ وَاحِدٌ يَكْفِيكَ

فذكر أنه لم يكتف بقبله واحدة، ولم يصدر عن نهل، بل علّ منه حتى يطفئ لهيب غرامه، ويبرد نار شوقه، ويعوضه عن أيام هجره، ثم ينتقل إلى ذكر مجالس لهوه وأنسه، وما كان يدور فيه من تعاطي الخمر من أيدي الغيد الحسان، إلى أن يصحو ويستفيق الأنام، يقول:

وَابْتَغِي قَهْوَةَ مُشْعَشَعَةٍ نَقَضْتُ عَهْدَ زَاهِدٍ نَسِيكَ^(٢)
قَالَ : اِشْرَبْ فَإِنَّهُ مَاءٌ إِنْ تَكُنْ مَيِّتًا عَسَى يُحْيِيكَ
نَيْرٌ، لَامِعٌ، بِالْأَرِيْبِ جَوْهَرٌ، مَائِعٌ، بِلَا تَشْكِيكَ
قَالَ : إِنَّ الْإِلَهَ غَفَّارٌ وَأَدِرِ الْكَأْسَ مِنْ هَاتِيكَ

١ - ديوان حسرت، ص ١٤، مخطوطة غير مرقمة في مكتبة إمارت شرعية فلواري شريف، بتنه.

٢ - مشعشة: من شعشع الشراب ونحوه: مزجه بقليل من الماء (المعجم الوسيط مادة: شعشع).

أَخَذَ الْكَأْسَ فِي يَدٍ بَيَضَا فَسَقَانِي وَقَالَ لِي: يَهْنِيكَ

بَاتَ يَسْقِي وَيَحْتَسِي حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ثُمَّ صَاحَ الدَّيْكَ

ولا أرى الشاعر صادقا فيما ذكره من الانغماس في الشهوة، والاستمتاع بالغادة، والاشتغال بالخمير؛ لأنه من بيئة الزهد والمشيخة التي لا ترضى بهذا النهج من الحياة، كما أن مكانته في المجتمع لا تسمح له بذلك، وإنما تطرق إلى هذا الموضوع تقليداً لشعراء العرب، وكثيراً ما قلّد شعراء الهند شعراء العرب في شعرهم في الغزل وفي غيره من الموضوعات، ومن الأدلة على ذلك بدوهم قصائدهم بالمقدمات الطللية، وذكر أماكن لا معرفة لهم بها إلا من خلال قراءتهم في شعر العرب، من ذلك قول الشيخ علي نعمت الفلواروي^(١):

أَسْفِي عَلَى طَلَلٍ دَرَسْتُ مَعَالِمُهُ مُذْ هَاجَرْتُ هِنْدَاتُهُ وَقَوَّاطِمُهُ

طَوْرًا أَحْنُ، وَتَارَةً أَبْكِي إِذَا تَبْكِي لَهْنٍ بِذِي الْأَرَائِكِ حَمَائِمُهُ^(٢)

ومنها قول الشاعر إسماعيل بن الوجيه المراد آبادي^(٣) في بداية قصيدته في مدح ملك «أوده»^(٤) نصير الدين الحيدر والتي بدأها بمقدمة غزلية طللية، أورد فيها أسماء كثير

١- هو الشيخ المحدث: علي نعمة بن عناية رسول الجعفري الفلواروي، ولد سنة ١٢٧٢ هـ في بيت العلم والمشيخة، سافر للعلم ودرس على مولانا عبدالله الغازيفوري، والسيد نذير حسين الدهلوي المحدث. فدرّس وأفاد وأخذ عنه خلق كثير من العلماء.

توفي سنة ١٣٣١ هـ (الإعلام ٣ / ١٣١٣، أعيان وطن، سيد محمد شعيب نير، ٢٩٢، ٢٩٣، آزاد بريس بتنه، ١٣٧٢ هـ- ١٩٥٣ م).

٢- الإعلام ٣ / ١٣١٣.

٣- هو الشيخ: إسماعيل بن المفتي وجيه الدين المراد آبادي المشهور باللندني، وقدم لكهنت في صباه، وقرأ العلم على علمائها، وولي فيها العدل والقضاء فاستقل بها زماناً، ثم بعثه نصير الدين الحيدري بالسفارة إلى ملك الجزائر البريطانية فأقام بها زماناً.

من مصنفاته: شرح على مقامات الحريري بالفارسي، وقسط كبير في تصنيف «تاج اللغات» وغيرها. توفي سنة (الإعلام ٣ / ٩١٦ - ٩١٨).

٤- مقاطعة في أواسط شمال الهند، كانت تابعة لسلطنة دهلي، ثم أصبحت مملكة شيعية، وهي الآن في أتر براديش بين نهري الجمنا والغانج. (المنجد في الأعلام ٨٥-٨٨).

من الأماكن التي ذكرها شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في قصائدهم، يقول^(١) :

حَلِيلِيْ عُوْجَا عَنْ شِمَالِ الْعَقْنَقِلِ وَحُطَّارِ حَالِ الْعَيْسِ فِي عَضْدِ عَوَكِلِ
فَنَدْعُو رَبَّاعَا لَا تَجْرُ^(٢) دُعَاءَنَا لِمَا قَدْ عَفَتْ مِنْ سَجْمٍ غَيْمٍ مُّظَلَّلِ
عَفَا اللَّهُ أَهْضَابَا^(٣) سَعَتْ فِي خَرَابِهَا فَبَاتَتْ طُلُولاَ بِأَدِرَاتِ التَّعْطَلِ
أَلَا عُوْجَا فِي الْعُوْجِ رُوْحِيْ فِدَاكُمَا فَمَهْلَا وَرَفَقَا بِالْكَئِيبِ الْمُؤَمَّلِ^(٤)
فَإِنَّكَ رَبَّاعٌ عَطَلْتَ عَنْ أَهْلِهَا قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِيْ حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وغير خاف ما أراد الشاعر من تقليد الأقدمين في ذكر الديار الخالية ومعالمها التي عفتها الأمطار ودعائه صاحبيه إلى الوقوف في تلك الديار، وندائه تلك الخوالي، وذكر الأهضاب وكتبان الرمل، ثم في تضمين بيته الصدر من مطلع معلقة امرئ القيس التي تشير بجلاء إلى تأثر الشاعر بامرئ القيس، ومحاولته في جريه في حله وسعيه للبلوغ إلى شأوه، ونراه في الأبيات القادمة يورد أسماء الأماكن التي أوردتها امرؤ القيس في معلقته، يقول^(٥) :

أَيَا سَائِقَ الْأَطْعَانِ إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا عَلَى مُغْرَمٍ، صَابٍ، عَدِيمِ التَّوَسُّلِ
فَالْتِ^(٦) حَمَاكَ اللَّهُ عَنْ مَسْقَطِ الرَّدَى بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلِ^(٧)
وَلِلَّهِ أَيَّامٌ غَضَارٌ مَضَيْنَ فِي غُضُورٍ وَجْهَدَانٍ وَخَوْمَةٍ جَنْدَلِ^(٨)

١- الإعلام ٩١٧/٣.

٢- هكذا في الأصل ولعل الصواب: لا تجيب . سجم: سال قليلا أو كثيرا (القاموس، مادة: س ج م).

٣- الأهضاب: جمع هضب أي مطر (اللسان: مادة: هـ ض ب).

٤- عوج: جبالان باليمن (القاموس المحيط: مادة: ع و ج).

٥- تاج اللغات ٦/١، الإعلام ٩١٢/٣.

٦- هكذا في الأصل.

٧- الدخول وحومل: موضعان، شرح المعلقات السبع، للزوزني، ص ٣٠، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٣ م.

٨- هكذا في المرجع، ولعل الصواب: دومة جندل، وهو علم لبقعة (القاموس: ج ن د ل).

لَحَى اللَّهُ دَهْرًا بَاتَ فِي النَّجْدِ دَاهِرًا فَكَدَّ عَيْشًا مُحْضَلًا بِالتَّقَلُّ (١)
وَحَرَّبَ دَارًا بَعْدَ دَارٍ بِضَيْمِهِ وَلَمْ يُبْقِ دَارِيًّا بِدَارَةٍ صُلُصِلِ (٢)
أَقُولُ لِـبَرْقٍ لَائِحٍ مِنْ أَبْرِقٍ لَكَ الْخَيْرُ، يَا بَرْقَ الْأُبْرِقِ أَمْهِلِ (٣)
كَيْبِتَ لَقَدْ أَوْرَيْتَ زَنْدِي فَجَاءَةً وَأَلْعَجْتَ نَارًا فِي الْحَشَا الْمُتَقَلَّلِ (٤)

فهذه الدارات، وهذه الأماكن التي ذكرها الشاعر ليس لها عهد - لا في القريب ولا في البعيد - لكنه أتى بها تقليداً لشاعر العربية الكبير، وإظهاراً لمقدرته الفنية في النظم في هذا الغرض على منوال الأقدمين.

المبحث الخامس

الإخوانيات

الإخوانيات غرض من أغراض الشعر العربي، والمقصود بذلك الشعر الذي يتناول ما يدور بين الإخوان والأصحاب، كالتنهاني عند حصول نعمة، أو التعازي عند حلول نقمة، أو نزول فجيعة، أو الشكر عند الإحسان، أو العتاب عند الإساءة، ويدخل في الإخوانيات ذلك الشعر الذي يعبر عن شوق إلى لقاء الإخوان، كما يدخل فيه المكاتبات الشعرية التي تجري بين الإخوان والأصدقاء في أمور تتعلق بالحياة والكون، وقد تناول هذا الغرض كثير من شعراء الهند فمن هؤلاء الشيخ محمد بن الحسين اليماني الذي

١ - مخضل: ناعم. التقتل من قتله يفتله: لواه (القاموس، خ ض ل، ف ت ل).

٢ - دارة صلصل: علم لبقة (القاموس: ص ل).

٣ - الأبرق، تصغير أبرق: علم لموضع (القاموس: ب ر ق).

٤ - المتقلل: فلّه وفلّله: ثلمه فثقل، والقوم: هزمهم (القاموس، ف ل ل).

يهنئ الشيخ عبد الحي الحسني^(١) بولادة مولود له سَمَاه عبد العلي^(٢) يعبر فيه عن فرحه وسروره عند حصول هذه النعمة الجليلة من الله العلي القدير، يقول :

سُرَّ قَلْبِي بِذَلِكَ الْمَوْلُودِ لَصَفِيٍّ، خِلٍّ، وَفِيٍّ، وَدُودِ
فَاضِلٍ، كَامِلٍ، تَقِيٍّ، نَقِيٍّ سَعِيدٍ، عَاقِلٍ، لَبِيبٍ، مَحِيدِ
وبعد وصف مظاهر الفرح الذي أقيم بهذه المناسبة، وجمال اللائي شاركن في هذه المناسبة بالضرب على الدف، وباللحن والإنشاد، ينتقل إلى ذكر بعض صفات صاحبه ثم يصل إلى الغرض الأصلي من القصيد، وهو التهنئة بالمولود، فيقول:

هِيَ بُشْرَى لِسَيِّدِي ذِي نَجَارٍ بَشَّرْتُهُ بِنَجْلِهِ الْمَوْلُودِ
كَوَكَّبَ لَاحٍ فِي سَمَاءِ عِلَاءٍ دُرَّةً رُصِعَتْ بِعَقْدٍ فَرِيدِ
مُسْتَهْلًا أَتَى فَكَانَ هِلَالًا قَدْ رَأَيْنَا كَمَالَهُ يَوْمَ عِيدِ
عَيزٌ بَدَعَ إِذَا سَمَا وَهُوَ طِفْلٌ فَهُوَ مِنْ غُنْصَرِ الْكِرَامِ الصِّيدِ

١- هو الشريف العلامة عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني، ولد ١٢٨٦هـ في راي بريلي، قرأ العربية والعلوم الشرعية على أشهر علماء عصره كالشيخ حسين بن محسن البهائي، والسيد أحمد الديوبندي، والشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي، وغيرهم، وأخذ الطب عن الطبيب الشهير عبد العلي، واشتغل به، ثم اختير ناظراً لندوة العلماء سنة ١٣٣٣هـ ومديراً لدار علومها إلى أن توفي سنة ١٣٤١هـ.

له مصنفات جليلة، من أهمها: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، وهو المطبوع الآن باسم الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ومعارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف، والمطبوع الآن باسم «الثقافة الإسلامية في الهند» و«جنة المشرق ومطلع النور المشرق» والمطبوع الآن باسم «الهند في العهد الإسلامي» بالعربية وكل رعتا، وياد أيام بالأردية، ورسائل وكتب أخرى عديدة.

مقدمة الإعلام (ص ٢٣-٢٨)، سوانح مفكر إسلام حضرت مولانا سيد أبو الحسن علي ندوي، بلال عبد الحي الحسني الندوي ٥٤-٥٨، سيد أحمد شهيد أكاديمي، راي بريلي ١٤٢٢هـ.

٢- هو السيد عبد العلي بن عبد الحي الحسني اللكهنوي، ولد سنة ١٣١١هـ «بهنسوة» ودرس على والده وعلى المولوي شبلي الجيرا جيوري، والمولوي شير علي حيدر الحيدر آبادي، وحسين بن حسن الأنصاري، وسافر إلى ديوبند ولازم السيد أنور شاه الكشميري والعلامة محمود حسن الديوبندي المحدث سنة كاملة. ثم درس الطب في كلية الطب في لكهنؤ، وتولى إدارة دار العلوم لندوة العلماء في لكهنؤ، وهو أخو أبي الحسن الندوي.

من مصنفاته كتاب في جغرافية العالم العربي.

توفي سنة ١٣٨٠هـ في لكهنؤ. (الإعلام ٣/ ١٢٨٠-١٢٨٢، سوانح مفكر إسلام ٧٠-٧٩).

كُلُّ يَوْمٍ غُلَاهُمْ فِي ارْدِيَادٍ لِلْمَعَالِي وَبِحُدُودِهِم فِي الصُّعُودِ

فَهَيِّنَّا لَكَ الْبَشَارَةَ عَبْدًا حَيٍّ بِالْقَادِمِ الْكَرِيمِ الرَّشِيدِ

وبعد هذا الوصف الرائع للمولود الجديد وتشبيهه بالكوكب والدرة المرصعة في العقد الفريد والهلal، وذكر سمو نسبه، وعلو حسبه، وتهنئة صاحبه الشيخ عبد الحي والد ذاك المولود، يختم قصيدته بالدعاء للمولود بطول عمره، وحمايته، وأن ينال الرشد والسؤدد، يقول:

أَبَدَ اللَّهُ عُمُرَهُ وَحَمَاهُ وَحَبَاهُ بِحُلَّةِ التَّأْيِيدِ

لَمْ يَزَلْ سَيِّدًا حَلِيمًا فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ الْحَلِيمِ الرَّشِيدِ

بَذَرْتُ سَيِّدًا لِأَجَلٍ ذَا أَرْخُوهُ بَذَرْتُ بَدَا بِوَقْتِ سُعُودِ^(١)

ونرى الشيخ محمد بن الحسين يهنئ الشيخ عبد الحي بولادة حفيده حسن المثنى ابن عبد العلي أيضا، ولعله لم يصله الخبر إلا متأخرا بعد ما سمي ذلك المولود، ولذا يبدأ قصيدته بمخاطبة المولود باسمه ويدعوه بدوام الترقى في العلى على منوال آبائه، ويذكر سمو نسبه من جهة الأب والأم، وأنه من أولاد آل البيت، ثم يبدي سروره بولادته بذكر الأغاني وطربهن، وصدح الورق بمدحه، ويختم - كما رأينا في القصيدة السابقة - بالدعاء له بالنعمة والسلامة ورغد العيش، يقول:

حَسَنُ الْمُثَنَّى دُمْتَ تَرْقَى فِي الْعُلَى دَرَجَاتٍ قَاهَا وَالِدَاكَ وَجَدَّكَ

وَلَدَتْكَ وَاضِحَةُ الْجَبِينِ وَأَصْلُهَا فَرْعُ السَّمَاءِ بِهِ تَعَالَى قَدْرُكَ

عَبْدُ الْعَلِيِّ أَبُوكَ نَجْلُ السَّيِّدِ الْمُنْطِقِ عَبْدُ الْحَيِّ جَدُّكَ قَدْرُكَ

مِنْ عَصْبَةِ فُرْشِيَّةٍ نَالُوا الْعُلَى بِالْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ يَعْلُو جَدُّكَ

فَافْخَرْ عَلَى هَامِ السَّمَاءِ بِرُتْبَةٍ جَلَّتْ وَفَاقَتْ فِي الْوَرَى أَنْ تُدْرِكَ^(٢)

١- الإعلام ٣/ ١٣٤١-١٣٤٢.

٢- الهامة: الرأس والجمع هام (اللسان: مادة هو م). سهاك: نجم معروف (اللسان: مادة س م ك).

فَلِذَا الْعَوَانِي بِالْأَغَانِي أَطْرَبَتْ وَالْوُرُقُ قَدْ صَدَحَتْ بِعَالِي مَدْحِكَا
فَاسْلَمْ وَدُمُ فِي نِعْمَةٍ وَسَلَامَةٍ وَرَغِيْدٍ عَيْشٍ مَعَ أَبِيكَ وَجَدَّكَ^(١)

ومن الشعراء الذين تناولوا غرض الإخوانيات المفتي كفايت الله يهنئ مدير سجن ملتان^(٢) بالعيد حينما كان سجيناً فيه لمشاركته في حركة استقلال الهند من الاستعمار الإنجليزي، يبدأ الشيخ قصيدته بالخطاب المباشر لمدير السجن ويهنئه ويثني عليه بخلقه الطيب، يقول:

أُهْنِيكَ، يَا مَنْ فَازَ بِالْخَيْرِ وَارْتَوَى بِكَأْسٍ دِهَاقٍ مِنْ مَكَارِمٍ وَاسْتَقَى
أُهْنِيكَ، يَا مَنْ صَادَ أَفْنِدَةَ الْوَرَى بِأَخْلَاقِكَ الزَّهْرَاءِ طَيِّبَةِ الشَّذَى
أُهْنِيكَ، يَا مَنْ فَاقَ بِالْفَضْلِ وَالنَّدَى عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْطَى وَأَنْفَقَ مَا حَوَى
بِعِيدٍ إِذَا وَافَى أَتَى بِمَسْرَةٍ تَدِبُّ إِلَى أَعْمَاقِ أَفْنِدَةِ الْوَرَى
أُهْنِيكُمْ بِالْعِيدِ ، وَالْعِيدُ مُعْجَبٌ لِحُرِّ كَرِيمٍ فَازَ بِالْعَيْشِ وَالْمُنَى

ثم يتمنى له بعودة العيد حاملاً البركات والسعادة والهنا ، وجالبا الخيرات والرشد والهدى، ويتمنى له المسرة بحلول العيد، ثم يتحول إلى ذكر ما يحدثه العيد من الآثار المختلفة في الناس باختلاف أحوالهم، فالمرء إن كان متمتعاً بالحرية وهو في وطنه وبين أهله وعشيرته يجلب له العيد الفرح، وتتم له السعادة بالتزاور والتعانق وتلاقي الأحبة، ولكنه إن كان مبتلى بالأسر، بعيداً عن أهله وأسرته، ويرى وطنه وشعبه يزرح تحت وطأة الاستعمار الغاشم فلا يزيده العيد إلا غمًا وحزناً، يقول:

يَزُورُ الْمُحِبُّونَ الْأَحِبَّةَ بُكْرَةً وَيَلْتَذُّ كُلُّ بِالْعِنَاقِ وَبِاللِّقَا
إِذَا الْعِيدُ يَأْتِي الْمَرْءَ وَالْمَرْءُ مُحْتَظٌّ بِأَهْلٍ وَمَغْنَى أَوْرَثَ اللَّطْفَ وَالْهَنَا

١- الإعلام ٣/ ١٣٤٣.

٢- اسم مدينة في باكستان حالياً.

وَلَكِنَّهُ إِنْ حَلَّ وَالسَّجْنُ مُوَصَّدٌ عَلَى الْمَرْءِ لَمْ يُؤْرِثْ سِوَى الْحُزْنِ وَالشَّجَى

وَكَمْ بَيْنَ حُرٍّ إِذْ يُنَاغِي غَزَالَةً وَبَيْنَ أَسِيرٍ يَصْطَلِي ضَرَمَةَ النَّوَى

وفي هذه الأبيات إشارة إلى ذكر بعض عادات المسلمين في أعيادهم من التزاور والتلاقي والتعانق، ويذكر أنه من قوم تأبى لهم حميتهم، وتأنف لهم شهامتهم الرضا بالذل، والخضوع للظالم الغاصب، فهم لم يسجنوا لجريمة أتوها، أو ذنب اقترفوه، ولكنهم قاموا بالذود عن حماهم، وبالدفاع عن وطنهم، وهو شرف، وإن كانت أعظم جريمة في نظر العدو الغاصب، يقول :

وَلَكِنَّنَا قَوْمٌ نُلَاعِبُ بِالطُّبَا وَنَقْلِي ظَبَاءً إِذْ تَدَاعَتْ إِلَى الْوَنَى

وَنَحْنُ كِرَامٌ نَمْلِكُ الْخَيْرِ فِي النَّدَى وَنَحْنُ لِيُوثٌ نَحْسِمُ الشَّرَّ فِي الْوَعَى

أَبْنَا إِيَاءَ اللَّيْثِ ذُلٌّ تَعْبُدُ فَلَا سُبَّةَ أَخْزَى مِنَ الذَّلِّ لِلْعَدَى

حُسْنًا وَأَوْذِينَا بِغَيْرِ جَرِيْمَةٍ فَمَا ذَنْبُنَا إِلَّا الدَّفَاعُ عَنِ الْحِمَى

وَأِنْ غَاشِمٌ عَدَّ الدَّفَاعَ جَرِيْمَةً فَإِنَّا نَرَى مِنْ هَذَاكَ، سُودَدَ الْفَتَى^(١)

نَرَى الْأَسْرَ لِلْحُرِّ الْوَفِيِّ كَرَامَةً وَإِنْ كَانَ رِجْزًا لِلْمَوَاقِعِ فِي الْخَنَا^(٢)

ويختتم قصيدته بدعاء الله تعالى لنفسه بالصبر والتثبيت في المصائب، ومدير السجن بالبركة وتوفيق الطاعات، وهناء العيد إلى أن تطلع الشمس، يقول :

فَيَارَبِّ تَثْبِيئًا وَصَبْرًا عَلَى الْبَلَاءِ وَيَارَبِّ عَوْنًا وَأَنْتِصَارًا عَلَى الْعِدَى

وَبُورِكَتْ فَضْلَ الدِّينِ^(٣) وَأَزْدَدَتْ رِفْعَةً وَوَفَّقْتَ بِالطَّاعَاتِ وَالْخَيْرِ وَالتَّقَى

١- غاشم : من غشم يغشم غشما : الظلم (اللسان : مادة غ ش م).

٢- الرجز بالكسر والضم : القدر (القاموس : مادة رج ز). الخنا : الفحش ، (اللسان : خ ن و).

٣- مدير سجن ملتان الذي كان مسجوناً فيه الشاعر.

لِيَهْنِكَ عِيدُ الْفِطْرِ هَذَا ، وَبَعْدَهُ تَمَتَّعْتَ بِالْأَعْيَادِ مَا شَرِقَ الذُّكَا^(١)

ويرسل الشيخ ألطاف حسين حالي إلى بعض أصدقائه تهنئة بمناسبة زفافه وكان في «لاهور»^(٢) ولم يستطع المشاركة في حفل الزفاف لكونه في «دهلي»^(٣) ، فيبدأ القصيدة بذكر سروره عند سماعه هذا الخبر السارّ، ويفدي بنفسه هذا الخبر، ويرى أن هذه الفدية أيضاً دون قدره، يقول :

بِنَفْسِي مَا بِهِ جَاءَ الْبَشِيرُ وَمَا أَفْدِي بِهِ شَيْءٌ يَسِيرُ

ثم يذكر مرضه الذي أضغفه إلى حدّ لا يستطيع القيام معه حتى ولوحان يوم البعث والنشور، لكن هذا الخبر أقامه لشدة فرحه، ويذكر غربته وأنه دائم الحزن، ولا تبرحه همومه، ثم يتخيل تصوير ذلك الحفل وما سيكون فيه من روعة وبهجة، وفرح وسرور - حسب ما يظنه هو - يقول :

أَرَى الْأَرْجَاءَ قَدْ مُلِئَتْ بِهَاءٍ وَفِي الْقَمَرَيْنِ فَوْقَ النُّورِ نَوُورُ

فَيَا لِلرَّبْعِ مِنْ رُبْعٍ بِهِجٍ بِهِ صَحْبٌ وَإِخْوَانٌ حُضُورُ

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَ الْعُرْسِ كَانُوا نُجُومًا بَيْنَهَا قَمَرٌ مُنِيرُ

ويذكر شوقه إلى حضور هذا الحفل، ولقاء أولئك الأحباب ، ويتحسر على فوات هذه الفرصة، ويشرع في بيان علاقته بهذا العريس وما له ولأسرته من مكانة في قلبه وبين الخلق، ويذكر بعض صفاته أيضاً، يقول :

أُحِبُّ - وَلَسْتُ أَكْذِبُ - عِرْسَ قَوْمٍ لَهُمْ وَلَعِرْسِهِمْ شَأْنٌ كَبِيرُ

أَبُوهُ، فَجَدُّهُ وَهَلُمَّ جَرًّا سَرِيٌّ أَوْ غَنِيٌّ أَوْ أَمِيرُ

لَهُ فِي ذَاتِهِ كَرَمٌ عَمِيمٌ كَمَا فِي إِسْمِهِ كَرَمٌ شَهِيرُ^(٤)

١ - نفاحة العرب، إعزاز علي، ص ٢٧٢-٢٧٥، كتب خانه إعزازية ديوبند ١٩٨٣ م.

٢ - لاهور: اسم مدينة معروفة في باكستان، وهي عاصمة مقاطعة بنجاب.

٣ - دهلي: عاصمة الهند السياسية.

٤ - في هذا البيت إشارة إلى اسم العريس، وكان اسمه محمد كرم الله خان، وقد عامل الشعر همزة الوصل في «اسمه» معاملة القطع، لضرورة الوزن.

ويختتم تهنته بالدعاء لهما بالسعادة والهناء، ودوام الحب والود، وأن يكون آخره سرورا وفلاحا، مثل ما أوله حبور وصلاح، يقول :

فَقَرَّتْ أَعْيُنُ الزَّوْجَيْنِ قَرًّا إِلَى مَا كَانَ لِلدُّنْيَا قُرُورُ
وَكَانَ مُبَارَكًا لَهُمَا ازْدَوَاجُ بِوُدٍّ لَا يَدْخُلُهُ نَفُورُ
فَبَاطِنُهُ كَظَاهِرِهِ صَلاَحُ وَآخِرُهُ كَأَوَّلِهِ حُبُورُ^(١)

ولما لقب الشيخ شبلى النعماني بـ«شمس العلماء» من قبل الحكومة الإنجليزية اعترافا بمكانته السامية، وقدم صدقه في العلم، وتقديرا بجهوده وخدماته، هنأه صاحبه ورفيقه في درب الإصلاح التعليمي الشيخ أَلطاف حسين حالي وقرض شعرا عبر فيه عن سروره بهذا التقليل ويرى أنه أحق من يلقب بهذا اللقب، ويذكر بأنه شمس علم وهداية وعرفان، فهو دائما طالع يشع النور، ويهدي الأنام، وليس بتلك الشمس التي تطلع في الصباح، وتغرب في المساء، وترك الناس في ظلام، فتعجز أن تضيء لهم في الليل، وبهذا يفضل على تلك، يقول :

يَا وَحِيدًا مِنَ الْكِرَامِ فَرِيدًا وَعَزِيْزًا كَمِثْلِ عِلْقِ نَفْسِ
أَنْتَ أَوْلَى بِأَنْ تُلَقَّبَ شَمْسًا بَلْ بِأَنْ يُجْعَلُوكَ شَمْسَ الشُّمُوسِ
أَنْتَ شَمْسُ الْهُدَى وَلَسْتَ بِشَمْسٍ يَعْتَرِيهَا الْخُنُوسُ بَعْدَ الْخُنُوسِ

وبعد هذا التعبير عن فرحه وسروره، ينتقل إلى ذكر بعض جهوده في خدمة الدين والعلم، ومنها دفاعه عن صاحب الشريعة السمحة، والدين الأغر - عليه أطيبت التحيات وأزكى التسليمات - وردة على افتراءات المستشرقين واعتراضاتهم عليه - صلى الله عليه وسلم - وتبيينه لسيرة صاحبه، وخليفة خليفته أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في كتابه «الفاروق» يقول :

أَنْتَ طَهَّرْتَ ذَيْلَ دِينٍ مُبِينٍ لَوَثَّتْهُ اللَّئَامُ بِالتَّدْلِيسِ

١ - ضميمه أردو كليات نظم حالي، ص ١١٩.

ثُمَّ دَافَعْتَ عَنْ إِمَامٍ تَقِيٍّ كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ خَيْرَ رَئِيسٍ^(١)
وَعَنِ الْحَقِّ قَدْ كَشَفْتَ غِطَاءً بَعْدَ مَا أَغْلَقُوهُ بِالتَّلَاسِيسِ

وبعد ذكر مساعيه في مجال التأليف والكتابة، يتحول إلى ذكر ما تحمله من مشاق الأسفار المضنية في سبيل تأليف موسوعته الشهيرة بـ «سيرة النبي» والتي ركز فيها على دحض افتراءات المستشرقين والرد على شبههم ومساعيه في التدريس في مدرسة العلوم في علي كره^(٢) بعيدا عن كل المناصب والأطاع الدنيوية من الرئاسة والشهرة، ويشير إلى انشغاله بالعلم ومنزلته فيه، فيقول:

سِرْتُ فِي الْأَرْضِ أَنْتَ بَرًّا وَبَحْرًا لِلْمَعَالِي وَلَا لِأَمْرِ خَسِيسٍ
قَلَّدُوكَ التِّرَامَ مَدْرَسٍ قَوْمٍ فِيهِ يُرْجَى لَهُمْ كَمَالُ النَّفُوسِ
فَتَقَلَّدْتَ وَالتَّزَمْتَ لُزُومًا خِدْمَةَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّذَرُّيسِ
قُمْتَ بِالْمَدْرَسِ وَالْمَدْرَاسَةِ فِيهِمْ فَارْعَا عَنْ رِئَاسَةٍ وَرَّئِيسٍ
وَجَعَلْتَ الْكَمَالَ غَايَةً هُمْ وَاتَّخَذْتَ الْكِتَابَ خَيْرَ جَلِيسٍ

ويرى أن له فضلا وحقا على الناس جميعا صغيرهم وكبيرهم ولا بد أن يقرأوا بهذا، ثم يدعو له بالحفظ والأمان والصيانة من كل شر ومكروه، يقول:

فَعَلَى الْقَوْمِ لَا زِمَالَكَ حَقٌّ كُلُّهُمْ مِنْ وَجُوهِهِمْ وَرَّئِيسٍ
صَانِكَ اللَّهُ عَنْ مَكَارِهِ حَتَّى صِرْتَ كَالْقَلْبِ آمِنًا فِي الْخَمِيسِ^(٣)

ومن هذا الغرض أيضا ما قاله الشاعر محمد يوسف البنوري مرحبا بصديقه الفاضل

١ - المعنى به هو الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه.

٢ - علي كره: اسم مدينة على بعد ١٣٠ كيلو متراً غربي دلهي، اشتهرت بالجامعة التي بناها بها السيد سيد أحمد خان.

٣ - ضميمه اردو كليات نظم حالي، ص ١٢٨.

الشيخ محمد إدريس الكاندهلوي^(١) بدأه بذكر الابتهاج والسرور الذي عم البيئة كلها بقدوم هذا الضيف الكريم من نزول الأمطار، واخضرار الأرض كأنها زاهية ناضرة، فزال الجذب وحل محله الخصب، وبدأت الطيور تغني وتغرد، وتسري النسائم، وعم الفرح والسرور الزهور والأنهار، والسهول والجبال، وفي هذا تعبير صادق عن مشاعر البهجة والفرحة التي كان يشعر بها الشاعر بمقدم هذا الصديق، يقول:

أَلَا اسْتَهَلَّتْ غَوَادِي الْمُزْنَ بِالْدَّيْمِ وَأَلْبَسَتْ سُندُسًا لِلْقَاعِ وَالْأَكَمِ
وَأَخْضَرَّتِ الْأَرْضُ فِي زَهْوٍ وَفِي نَضَرٍ وَأَصْبَحَ الْخَصْبُ فِي وَشْيٍ مِنَ الرَّقْمِ
وَالْجَدْبُ يَشْكُرُ جُودَ السُّحْبِ هَاطِلَةً إِذْ ظَلَّ رَوْضًا مَرِيْعًا رَائِقَ السِّيمِ
وَالْوُزُقُ تَهْتَفُ، وَالْأَرْوَاحُ نَافِحَةٌ تَشْدُو الْحَمَائِمُ، وَالْكُغْتَانُ بِالنِّغَمِ^(٢)
وَنَسَمْتُ نَفَحَاتِ الرِّيحِ مِنْ طَرَبٍ يُحْيِي نَسَائِمَهَا الْأَمْوَاتَ بِالنِّسَمِ
وَالزَّهْرُ يَنْسُمُ وَالْأَنْهَارُ جَارِيَةٌ عَمَّ الْحُبُورُ لِمَنْ فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ
وَزُدُّ، وَأَسْ، وَقَيْضُومٌ، وَعَبْهَرَةٌ أَصْبَحْنَ مِنْ فَرَحٍ فِي حُسْنِ مُبْتَسَمِ
لَا غَرَوْ حَلَّ بِنَا صَيْفٌ فَشَرَفْنَا شُقَّ الظَّلَامُ بِنُورِ دَارِي الظُّلَمِ

وبعد هذا التعبير الصادق عن عاطفة الشاعر القوية يتجه بالخطاب إلى الضيف فيرحب به ويذكر مناقبه ومكارمه، فيذكر منها علمه الغزير، وورعه الشديد، وزهده عن الدنيا، وخشيته من الله تبارك وتعالى، كما يصفه بالبراعة والبيان، ويشير إلى خدمته

١- هو الشيخ محمد إدريس، ولد في بلدة كاندهله سنة ١٣١٨ هـ، بعد الانتهاء من حفظ القرآن والمبادئ الدراسية التحق بمظاهر العلوم في سهارنفور، ثم بدار العلوم بديوبند، وكان كثير الاهتمام بالحدِيث الشريف، ومن أخص تلامذه الشيخ أنور شاه الكشميري.

تولّى التدريس في دلهي وحيدر آباد وديوبند، ثم هاجر إلى باكستان وعيّن شيخ الجامعة العباسية بمدينة بهاولفور، وشيخ الحديث في الجامعة الأشرفية في لاهور.

له مصنفات عديدة في الحديث والعقيدة، منها:

وله شعر حسن في العربية .

توفي في لاهور سنة ١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤ م (تذكره مولانا محمد إدريس الكاندهلوي، محمد ميان الصديقي، لاهور ١٣٩٦ هـ).

٢- الْكُغْتَانُ - بالكسر - جمع الْكُغَيْتِ وهو البلبل (القاموس المحيط: كعت).

للحديث النبوي الشريف، فيقول :

أَكْرَمَ بِضَيْفٍ كَرِيمٍ زَانَهُ شَيْمٌ
حَبْرٌ خَيْرٌ بِمَغْزَى الْعِلْمِ مُطْلِعٌ
عَلَامَةٌ، نَدُسٌ، سِيَمَاؤُهُ وَرَعٌ
زُهْدٌ وَتَقْوَى وَخَوْفُ اللَّهِ سِيَمَتُهُ
يَفُوقُ قُسًّا إِذَا تَبَدُّو فَصَاحَتُهُ
يَفُوقُ بَحْرًا إِذَا تَبَدُّو تَلَاطُمُهُ
سَيْحٌ، لَيْبٌ، أَدِيبُ الْقَوْمِ، شَاعِرُهُمْ
وَمَنْ مَآثِرِهِ شَرَحَ الْحَدِيثَ لَنَا
عَلَّقَ صَيْحٌ لَهُ مِنْ شَرَحِ مَشْكَاةٍ
قُدُومُهُ السَّعْدُ قَدْ قَرَّ الْعَيْوُنُ بِهِ

بِاللَّهِ مُعْتَزِمٌ، بِالْحَقِّ مُحْتَزِمٌ
شَيْخٌ، تَقِيٌّ، نَقِيٌّ، صَادِقُ الْكَلِمِ
حَازَ الْفَضَائِلَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمٍ
وَالْوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيَمَا مِنَ السَّلَامِ
بِكَشْفِ أَسْرَارِ تَنْزِيلٍ فَلَا تَهِمُ
فِي بَحْرِ عِلْمٍ مُحِيطٍ رَاسِخِ الْقَدَمِ
يَنْظُمُ الدَّرَجَاتِ فِي سِلْكٍ مِنَ الْكَلِمِ
شَرَحًا يَسْقُ سُدُولَ الْجَهْلِ وَالسَّقَمِ
دُرٌّ يَتِيمٌ ثَمِينٌ الْقَدْرِ وَالْقِيمِ
سُرَّ الْقُلُوبُ بِهِ مِنْ وَرْدِهِ الشَّبَمِ

ثم يختم قصيدته معبراً عن فرحه عند قدومه، وداعياً له بدوام التوفيق في نشر العلم بدون ضعف أو انقطاع، راجياً له المنزلة العليا، والمكانة السنية بين الأقسام والأعيان، يقول:

أَهْلًا وَسَهْلًا وَتَرْحَابًا بِهِ فَرَحًا
يَا رَبِّ وَفَّقْ لَهُ مُرَحَّى لَهُ طَوْلًا
وَارْزُدْهُ فِي أَعْيُنِ الْأَعْيَانِ مَنْزِلَةً
أَهْدِي إِلَيْكَ نَحِيَّاتٍ مُبَارَكَةً

إِذْ نَالْنَا بِقُدُومِ خَيْرِ مُغْتَنَمٍ
لِنَشْرِ عِلْمِكَ لَا يَفْتَرُ وَلَا يَئِمْ
وَارْزُقْهُ مَنْقَبَةً قَعَسَاءَ فِي الْأُمَمِ
مِنْ خَيْرِ مَقْدَمِهِ فِي حُسْنِ مُحْتَمٍ^(١)

ونرى الشيخ محمد حليم صديقي^(١) يرحب بالشيخ سيد سليمان الندوي عند مقدمه دار العلوم ندوة العلماء ويشبه قدومه بنزول الغيث بعد القنوط، أو سريان الروح في الجسد، ثم يذكر بعض مناقبه ومحاسنه، يقول:

بُشِّرَى لَكُمْ يَامَعْشَرَ الْخُلَاةِ بِقُدُومِ سَيِّدِنَا أَبِي سَلَمَانَ
كُنُزُورِ غَيْثٍ بَعْدَ طُولِ قُنُوطِهَا أَوْ نَفْخَةِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَبْدَانِ
أَعْنِي بِهِ جَبَلَ الثَّقَى، عِلْمَ الْهُدَى بَحْرَ الْعُلُومِ، خَزِينَةَ الْعِرْفَانِ
وَالسَّيِّدَ الْعَلَامَ، فَخْرَ زَمَانِهِ كُنُزَ الْمَعَارِفِ، مَنَبَعَ الْإِحْسَانِ
أَهْلًا وَسَهْلًا بِالَّذِي يَشْتَاقُهُ كُلُّ امْرِئٍ كَالْمَاءِ لِلظَّمْآنِ^(٢)

ومن هذا الغرض أيضا ما كتبه مولانا عبد المنعم الجاتكامي^(٣) تقریظا على الكتاب «الطريف للأديب الطريف» للشيخ عبد الأول الجونفوري يبيد فيه إعجابه بذلك الكتاب، ويصف ما احتواه من نوادر وبصائر، يقول:

هَلُمُّوا إِلَيْنَا بِمَنْ يَبْصُرُ وَمَنْ يَبْلُغُ الْقَعْرِ إِذْ يَعْبُرُ
فَقَدْ أَخْرَجَ الْبَحْرَ فِي جَرِيهِ طَرِيفًا ظَرِيفًا لَكُمْ فَاَنْظُرُوا
يَعْبُ فَيَأْتِي إِلَيْنَا بِمَا تَرُوقُ بِهِ الْعَيْنُ وَالْمَنْظَرُ

١- هو الشيخ محمد حليم عطا صديقي بن شاه مهدي عطا، وأسرته كانت تسكن في «سلون» في بهار، تتلمذ على سيد أبي الحسن الدهلوي تلميذ الشيخ نذير حسين محدث الدهلوي، وكان يحب الإمامين ابن تيمية وابن القيم حباً شديداً، كان كثير الاشتغال بالمطالعة، والقراءة في كتبها، متضلعا في الحديث والرجال والأدب العربي، تولى التدريس في دار العلوم ندوة العلماء.

له: الكتاب الكريم في استخراج الدرر من القرآن العظيم، ونسمة السحر، ديوان شعر بالعربية.
توفي سنة ١٣٧٥ هـ في سلون، (براني جراح سيد أبو الحسن ندوي ١/ ٢٥٩-٢٧٥) مكتبة فردوس، لكهنؤ ١٩٩٨ م.

٢- مجلة معارف، العدد ٧٧، ص ٣٣.

٣- هو الشيخ الفاضل: عبد المنعم الجاتكامي أحد العلماء المبرزين في الفنون الأدبية، قرأ العلم على أساتذة المدرسة العالية بكلكتة، وولي التدريس في مدرسة دهاكة، ثم جاتكام، ثم جعل ناظور المدرسة الحسينية بدهاكة. وكان فاضلا كبيرا، بارعا في النحو واللغة، والمعاني والبيان، والعروض والشعر، له تصويب البيان في شرح الديوان، وهو شرح ديوان المتنبي، وله ديوان الشعر العربي، وبعض رسائل في الأخلاق بالفارسية. توفي سنة ١٣٣٣ هـ. (الإعلام ٣/ ١٣٠٤-١٣٠٥).

فَأَلْقَى إِلَيْنَا عَلَى زُخْرِهِ عَجَائِبَ قَدْ فُتِنَ مَنْ يَحْضُرُ
سَجِلٌ تَرَى فِي مَطَاوِيهِ بَدَائِعَ لَوْ نَلْتَهَا تَذْخُرُ
لَا يَ يَبْزُقْنَ يَفْضَحْنَ مِنْ سَنَاهَا الدَّرَارِي إِذْ تُنْشَرُ
نَوَادِرَ مِنْ كُلِّ مُسْتَطْرِفٍ لَكُمْ يَا أُولِي الْفَضْلِ فَاسْتَبْشِرُوا
بَصَائِرَ مِنْ كُلِّ مُسْتَبْشِرٍ لِمَنْ يَقْدُرُ الْقَوْلُ أَوْ يَشْعُرُ

ثم يخاطب مؤلف الكتاب ويذكر أنه دائماً يبهرهم بأعماله، ويدهشهم بأقواله، وأن عمله دائماً يلقي القبول، ويفيد الناس، ويقر عيونهم، ثم يختم تقريره بالدعاء له، يقول :

فِيَا نَاطِمَ الدَّرِّ (١) اللَّهُ دَرُّكَ مَتَى جِئْتَنَا جِئْتَنَا بُهْرُ
فَتُدْهِشُ يَوْمًا بِمَا قُلْتَهُ وَيَوْمًا تُدِيرُ بِمَا تُسْكِرُ
تُفِيدُ الْفُهُومَ، تُقَرُّ الْعُيُونَ وَتَقْرِي الْفُؤَادَ بِمَا تَسْطُرُ
حَمَى اللَّهِ رَبِّي حِمَاكَ وَلَا لَقِيتَ مَدَى الدَّهْرِ مَا تَضْجُرُ (٢)

وكثر بين شعراء العربية في الهند المراسلات الشعرية، يذكر فيها أحدهم شوقهم إلى لقاء الآخر، أو يشكر صنيعاً له إلى الكاتب، أو يضمونها بعض مدح من يكتب إليه، ومن هذا ما كتبه السيد صفدر حسين (٣) إلى السيد محمد مهدي أديب (٤) بدأه بالسلام عليه سلاماً شبهه بالطيب والدر وحلية الذهب، يقول :

١ - إشارة إلى تأليف آخر له يسمى ب «الدر النضيد».

٢ - الطريف للأديب الظريف، للشيخ عبد الأول الجونفوري ص ١٥٠-١٥١. بيانات النشر غير موجودة.

٣ - هو الحكيم السيد صفدر حسين، ولد في لكهنؤ، وتلمذ على مولانا فيض الله، ومير حيدر علي، واشتغل بالطلب. توفي سنة ١٣٢٧ هـ، تذكره بي بها، سيد مجتبي حسين نوكانوي، (ص ١٩٥-١٩٦ جيد برقي بريس، دهلي ١٣٣١ هـ).

٤ - هو الشيخ : محمد مهدي بن نوروز علي الحسيني الشيعي المصطفى آبادي، ولد سنة ودخل لكهنؤ في صباه، فقرأ على السيد حامد حسين الكنتوري، وأخذ الأدب عن المفتي عباس ابن علي التستري، وكان عباس يفتخر به يقول : إنه أصدق خل في بطانتي، وأوثق سهم في كنانتي.

له : الكواكب الدرية مجموع في الإنشاء والشعر .

توفي سنة ١٣١٧ هـ، (تاريخ عباس ٢ / ٢٩٤-٢٩٥، الإعلام ٣ / ١٣٧٣-١٣٧٥).

سَلَامٌ عَرَفُهُ عَرَفُ الْبَهَارِ سَلَامٌ نَشَرُهُ مِثْلُ الْقَتَارِ
 سَلَامٌ كَالْقَلَائِدِ مِنْ لَالٍ سَلَامٌ كَالدَّمَالِجِ مِنْ نَضَارِ^(١)
 عَلَى طَوْدِ الْفَضَائِلِ وَالْمَزَايَا حَلِيفِ الْعِزِّ، رَأْسِ ذَوِي الْفَخَارِ
 حَسِيبٍ، مَا جِدٍ، جَلَدٍ، كَمِيٍّ نَجِيبٍ، نَابِهٍ، أَزْكَى النَّجَارِ
 ثم يذكر شوقه إليه، وحينه إلى لقائه، ويصف حاله في بعده عنه، ويطلب منه الوصل
 واللقاء، ثم يختتم قصيدته بالدعاء له برغد العيش، والحفظ من كل شر ومكروه وسوء،
 يقول:

تَضَاعَفَ مِنْ فِرَاقِكَ وَجَدٌ قَلْبِي فَهَمْتُ بِتَيْهِ كَرْبٍ وَانْتِظَارِ
 أَلَا قَلْبِي يَكَادُ يَذُوبُ غَمًّا وَعَيْنِي مِثْلُ عَيْنٍ فِي انْهِمَارِ
 كُرُوبِي لَا تَزَالُ تَزِيدُ شَوْقًا وَمِنْ طَوْلِ النَّوَى، فَنِي اصْطِبَارِي
 إِلَى كَمْ تَهْجُرُ الْمُضْنَى فَإِنِّي أَكَادُ أَمُوتُ فِي أَلَمِ انْتِظَارِ
 أَتَبْنِي أَنْ تَفُوهَ "بَلَنْ تَرَانِي" لِمُشْتَقِ التَّوَاصِلِ وَازْدِيَارِ
 فَجَدٌ بِالْوَصْلِ بَعْدَ الْفُضْلِ يَا مَنْ سَلَبْتَ الْقَلْبَ لَذَاتِ الْقَرَارِ
 أَلَا لَا زِلْتَ فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ وَعَاشَ عِدَاكَ فِي ضَنْكِ وَعَارِ
 وَقَاكَ اللَّهُ رَبُّكَ كُلَّ سُوءٍ وَصَانَكَ شَرَّ أَرْبَابِ الشَّنَارِ^(٢)
 ونجد الحكيم^(٣) حيدر حسين اللكهنوي^(٤) أيضا يكتب إلى السيد مهدي المصطفی

١- الدُّمُحُ والدُّمْلُوحُ المِعْصَدُ، وهو كل ما يحيط بالعَصْد من حُلٍّ وغيرها، (المعجم الوسيط).

٢- الكواكب الدرية، سيد محمد مهدي أدیب، ص ٢٧، ٢٨، مطبع بستان مرتضوي، لکهنؤ ١٣٠٧ هـ.

٣- الحكيم في شبه القارة الهندية يطلق على من يشتغل بالطب على الطريقة اليونانية.

٤- هو الشيخ حيدر حسين اللكهنوي، ولد في لکهنؤ، قرأ العلم على المفتي عباس علي التستري وعلى غيره من العلماء، ثم لازم الحكيم مظفر حسين اللكهنوي، وأخذ عنه الصناعة الطبية، ثم ولي بدار الشفاء السلطاني بمدينة لکهنؤ. (الإعلام ١٢٢٠/٣) لم أعثر له على تاريخي الوفاة والميلاد.

آبادي رسالة منظومة يضمناها سلامه، وشوقه إلى لقاءه؛ لأنه ملك قلبه، وأضرَم فيه نار
الفراق؛ لبعده عنه، يقول :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي سَلامَ وَدَادٍ خِذْنَا، صَدِيقًا سَاكِنًا بِفُؤَادِي
مَلِكَ الْفُؤَادِ وَدَادُهُ، وَفِرَاقُهُ أَوْرَى ضِرَامَ الْوَجْدِ فِي الْأَكْبَادِ
أَرْجُو إِلَهِي أَنْ يُيسِّرَ وَضْلَهُ فَلَقَاهُ أَشْهَى مَقْصَدِي وَوَدَادِ^(١)

ويكتب السيد حيدر علي الرضوي^(٢) إلى أستاذه المفتي عباس التستري اللكهنوي
رسالة يشكو فيها حالته الحزينة في غربته، فهو يقلب جنباته، ويذرف دموعه القانية،
وتكاد لوعة الفراق تحرق قلبه، إلا أن جريان عينه أطفا تلك النار التي كان يجدها في
صدره، يقول :

أَسِرْتُ بِسَجْنِ الْبُعْدِ فِي دَارِ غُرْبَةٍ بِهِ رَقٌّ لِي إِنْسَانُ عَيْنِي بَاكِيًا
أَقْلَبُ جَنْبِي فِي الْمَضَاجِعِ كُرْبَةً بِدَمْعٍ سَكِيبٍ أَحْمَرِ اللَّوْنِ قَانِيًا
أَحْسُ بِصَدْرِي نَارَ وَجْدٍ تَأَجَّجَتْ نَوَائِرُهَا قَدْ كَادَ تَحْرِقُ بِأَلِيَا
وَلَكِنَّ جَزْيَ الْعَيْنِ كَالْعَيْنِ فِي النَّوَى لَا طَفَى ضِرَامًا أَوْقَدَتْ بِفُؤَادِيَا^(٣)

وكان للشيخ أحمد بن محمد اليميني^(٤) مكاتبات شعرية كثيرة إلى معاصريه

١- الإعلام ٣/ ١٢٢٠.

٢- هو السيد حيدر علي الرضوي، درس على والده وعلى المولوي تراب علي، والمولوي أحمد علي المحمدآبادي، والمفتي
محمد عباس التستري، وكان من أخص تلامذته . عينه النواب لطف علي خان البتنوي على الجمعة والجماعة عنده، فمكث
هناك سنين، ودرّس في المدرسة الإيمانية بلكهنؤ متطوعاً .
له من المصنفات : الحواشي على الصدر بالعربية، وحاشية على شرح السلم، وشرح زبدة الأصول، وحاشية على شرح
اللمعة ، وديوان شعر بالعربية .

توفي سنة ١٣٠٢ هـ في لكهنؤ (الإعلام ٣/ ١٢٢٠-١٢٢١).

٣- الإعلام ٣/ ١٢٢١.

٤- هو الشيخ أحمد بن محمد بن علي إبراهيم الشرواني، ولد سنة ١٢٠٠ هـ ببلدة حديدة في اليمن، درس الفقه الشيعي على
والده، وأخذ العلم على يدي الشيخ محسن بن عيسى النجفي، وبهاء الدين العاملي، والشيخ علي بن يحيى العفيف البهائي
والسيد زين العابدين ابن العلوي المدني، ثم قدم بلاد الهند وقرأ المنطق وأصول الحديث على مولانا حيدر علي الطوكي
ببلدة كلكتة.

وأصدقائه، منها ما كان يجري بينه وبين الشيخ الفقيه العالم عبدالله بن عثمان بن جامع الحنبلي^(١) من المكاتبات ، فكتب إليه الشيخ عبد الله الحنبلي هذه الأبيات يشكو بها إعراض اليميني عنه، فهذا الصدود زاده ألما على ما فيه من ألم الغربة، ويتمنى لقاء قريباً، وقد بدأ الرسالة بخطاب الشيخ اليميني وذكر بعض صفاته، يقول :

وَيَا بَحْرَ الْعُلُومِ بِلَا دِفَاعِ	أَنْسَانَ الْوُجُودِ بِلَا نِزَاعِ
وَعَيْثَا لِلْعَفَاةِ بِلَا انْقِطَاعِ	وَكَهْفَ الْمُلتَحِينَ إِذَا أُضِئُوا
أَرَى الْهَمَّ الْمُبْرَحَ ذَا اتِّسَاعِ	شَكُوتُ إِلَيْكَ مَا أَلْفِي وَإِنِّي
نُمو النَّارِ بِالْجَزَلِ الْيَرَاعِ	جَوَى يَزْدَادُ فِي قَلْبِي وَيَنْمُو
وَفَقْدَانَ الْأَنْبَسِ بِذِي الْبَقَاعِ	أَبْعَدًا وَاغْتِرَابًا وَاشْتِيَاقًا
لِنَفْسٍ حُرَّةٍ ذَاتِ امْتِنَاعِ	فَلَا - وَأَيُّكَ - مَا هَذَا بِعَيْشٍ
يَلُمُّ الشَّعْثَ إِنَّا كَالْفَقَاعِ ^(٢)	عَسَى الْمَوْلَى الْمُهِمِّنُ ذُو الْعَطَايَا
فَإِنَّ الْقَلْبَ آذَنَ بِانْصِدَاعِ	وَيَجْمَعُنَا بِمَنْ نَهْوَى قَرِيبًا
وَصَحْبٍ قَدْ قَفَّوهُمْ بِاتِّبَاعِ ^{(٣)(٤)}	بِجَاهِ الْمُضْطَفَى وَآلٍ

فأجابه الشيخ أحمد اليميني برسالة منظومة ذكر فيها وصول رسالته إليه وأنها أثرت في قلبه أثراً شديداً، وأنه لم يقصد الإعراض بعد الودِّ، والفرقة بعد الحبِّ، وإنما حلت به من الشواغل ما شغلته عن مواصلة عهده، ومتابعة أخباره، يقول :

من مصنفاته : نفحة اليمن، والعجب العجائب، وحديقة الأفراح، ومنهج البيان، والشافي في العروض والقوافي، والجوهر الوقادي في شرح «بانت سعاد» وغيرها . لم أعثر له على تاريخ الوفاة، (الإعلام ٣/ ٩٠٣).

١ - لم أعثر له على ترجمة.

٢ - الفقع والفقع : الأبيض الرخو من الكمأة وهو أردؤها . ويجمعان على «فقعة» (اللسان والقاموس ، مادة : ف ق ع). ولعل الشاعر أراد هذا المعنى وغير في الكلمة بسبب الوزن . والله أعلم .

٣ - نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، للشيخ أحمد بن محمد اليميني الشرواني، ص ١٥٣، المطبع المجتبائي بدهلي سنة ١٣٤٥ هـ مع الحاشية.

٤ - ينظر التعليق على هذا البيت وما فيه من مخالفة عقدية في ص ١٣٤.

أَيَّامَنْ قَدْ حَوَى كَرَمَ الطَّبَّاعِ وَمَنْ هُوَ لِلطَّائِفِ خَيْرُ وَاِعِ
وَكُنْزُ جَوَاهِرِ الْأَدَابِ حَقًّا وَجَامِعُهَا الْمُفِيدُ بِلَا نِزَاعِ
أَتَانِي مِنْكَ مَرْقُومٌ عَزِيزٌ بَدِيعُ النَّظْمِ يَقْصُرُ عَنْهُ بَاعِي
تُذَكِّرُنِي بِهِ مَا مِنْهُ أَصْحَى فُوَادِي فِي اشْتِعَالِ وَالتَّيَاعِ
أَتَحَسُّ يَا بَنَ ذِي النُّورَيْنِ أَنِّي هَمَمْتُ بِفُرْقَةٍ بَعْدَ اجْتِمَاعِ
فَلَا وَعَظِيمِ جَاهِكَ لَمْ يَكُنْ لِي مَرَامٌ فِي نَوَى أَوْ فِي انْقِطَاعِ
وَلَكِنِّي ابْتَلَيْتُ بِمُعْضَلَاتٍ غَدَا فِي حَلِّهَا يَجْرِي يَرَاعِي
وَمِنْهَا كُنْتُ مُضْطَرِبًّا لِأَنِّي رَأَيْتُ بِهَا الْفُؤَادَ عَلَى ارْتِيَاعِ

ثم يذكر ما آل إليه أمره ، ووصلت إليه حاله حيث قد يسر الله - سبحانه وتعالى - له تلك الصعاب :

فَذَلَّلْ لِي الْمُهَيِّمُنْ كُلَّ صَعْبٍ بِهَا ، وَاللَّهُ رَاحِمٌ كُلِّ دَاعٍ
ثم يقدم إلى صاحبه الاعتذار عن طول غيابه عنه، بسبب هذه المعضلات، وإلا فهو قائم على وده وباق على حبه، وأن مثله لا يمل منه، فهو أنيسه في غربته، ويدعوه إلى حسن الظن به، ويختم الرسالة بالدعاء له بالسلامة، والعز، والرفعة، يقول :

وَلَوْلَاهَا أَجَلُ بَنِي الْمَعَالِي وَأَحْمَدَهُمْ لَمَا كَانَ انْدِفَاعِي
وَمِثْلُكَ لَا يَمَلُّ وَأَنْتَ مُغْنِي الْ لَيْبِ وَمُؤْنِسِي فِي ذِي الْبَقَاعِ
فَظَنَّ بِذِي الْوِدَادِ الْمَحْضِ خَيْرًا وَدُمُ وَأَسْلَمَ بِعِزٍّ وَارْتِفَاعِ^(١)

وكان الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي ممن لهم رسائل منظومة، وكان يجري بينه وبين الشيخ أحمد بن محمد اليميني مكاتبات، ومنها ما كتبه إليه الشيخ عبد العزيز راداً

على رسالته، قوله :

يَا مَنْ لَعَلَّ لَهُ سَيْرًا يُبْلَغُهُ دَارَ الْإِمَارَةِ بَلَّغْ حِينَ تَأْتِيهَا
مِنِّي السَّلَامَ الَّذِي مَازَالَ مُنْبَعَثًا مِنَ الْمَشُوقِ إِلَى نَفْسٍ يُؤَالِيهَا
خَيْرٌ لَهُ هِمَّةٌ عَلَيْهِ جَمَعَتْ كُلَّ الْفَضَائِلِ دَانِيَهَا وَقَاصِيَهَا
فَلَا يُعَادِرُ فِينَا غَيْرٌ مُكْتَسَبٍ وَلَا فَضَائِلَ إِلَّا وَهُوَ حَاصِيهَا
لَا زَالَ يَرْفُلُ فِي ثَوْبِ الْعُلَامِرِ حَا مُنْحَازَةً عِنْدَهُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا
مُكَمَّلًا دِينَهُ فِي ذَاكَ سَابِغَةً عَقْبَاهُ مُسْتَوْفِيَا مِنْهَا مَعَالِيهَا^(١)

والرسالة منقسمة إلى ثلاثة أفكار، فالبيتان الأولان مشتملان على الشوق والسلام، وفي البيت الثالث والرابع ذكرٌ لبعض محامد الشيخ أحمد اليميني من همته العالية التي تجمع كلَّ المعالي، فلا يترك فضيلة من الفضائل إلا وهو يحويها، والبيتان الأخيران في الدعاء له ولأولاده بعده بدوام النعم الدنيوية، وحصول المنازل الدنيوية والأخروية. وكان الشيخ محمد طيب المكي^(٢) يبعث برسائل منظومة إلى الشيخ محمد بن الحسين اليماني فكان مما أرسله إليه هذه القصيدة التي بدأها بالغزل اللطيف، يقول مطلعها :

مَا سَ الْجَبِينُ وَالْأَجْزَعَةُ الْحَدَقُ أَبْهَى مِنَ الْوَرْدِ، لَوْلَا لَوْلُو الْعَرَقِ
يقول فيها بعد ذكر اللهو والاستمتاع بالغداة الحسنة :

وَبِتْ أَشْكُرُ صُنْعَ الدَّهْرِ مُنْبَسِطًا كَمَا فَرَحْتُ بِمَكْتُوبٍ مِنَ الرَّشَقِ

١ - عجب العجائب فيما يفيد الكتاب، لأحمد بن محمد اليميني الشرواني، مطبع المحمدي . بومباي ١٢٧٥ هـ ص ٨١ .

٢ - هو الشيخ الفاضل : محمد طيب بن محمد صالح الكاتب المكي ثم الهندي الرامفوري . وقرأ العلم على والده وعلى غيره من العلماء، وقدم الهند في شبابه ودرس على مولانا إرشاد حسين العمري الرامفوري مدة، ثم لازم العلامة عبد الحق بن فضل حق الخير آبادي، ثم أخذ الحديث عن المحدث حسين بن محسن الأنصاري الرامفوري . ثم ولي التدريس في المدرسة العالية برامفور فدرس وأفادها مدة عمره . من مصنفاته : رياض الأدب، وكتاب الانتقاد على العلامة محمد محمود الشنقيطي التركيزي في ردّه على عاكش اليميني شارح «لامية العرب» للشنفرى ، وكتاب «القبسة في الفنون الخمسة» و«المعاني والبيان والبدیع والعروض والقوافي»، وكتاب «الحسن والأحسن» وكتاب «ما جرى من الفضول» وغيرها . توفي سنة ١٣٣٤ هـ بمدينة رامفور. (الإعلام ٣ / ١٣٦٢ - ١٣٦٤).

كَتَبْتَ يَا شَمْسُ بَلَّ وَالشَّمْسُ دُونَكُمْ وَإِنْ وَضَعْتُكَ فَوْقَ الرَّأْسِ مِنْ شَفَقِ
أَمَنْتُ أَنَّكَ قُطْبُ الشَّعْرِ، بَلَّ قَمَرٌ لِكُلِّ عِلْمٍ، وَنَحْيِي الْفَضْلَ مِنْ رَمَقِ
فَكَمْ بَعَثْتَ بِأَبْيَاتٍ وَمُعْجَزَةٍ وَجَيْشٍ فَهَمِّي لَكُمْ مُنْقَادُ الْخُلُقِ
أَنَا الْمُؤَمِّدُ لَأَنَّ الْإِسْمَ إِسْمُكُمْ فَالْفَضْلُ مِنْكُمْ وَمِنْ عَلَيْكُمْ سَبْقُ^(١)
وَمَا أَتَيْتُ بِهَذَا الشَّعْرِ مُتَدَحِّحًا بَلَّ جِئْتُ مُتَثَلِّلاً بِالطَّوْعِ مُتَسَقًّا^(٢)
فَكَيْفَ أَمْدَحُ مَنْ جَلَّتْ مَدَائِحُهُ عَنِ الْبَدِيعِ وَعَنْ شِعْرِي وَعَنْ لَبْقِي^(٣)

فالشيخ محمد طيب يعبر عن سروره بمجيء الرسالة من الشيخ محمد بن الحسين، كما يصف منزلة صاحبه، وينعته بأنه قمر كل العلوم، ومحبي جميع الفضائل، وأنه مقرر له بالفضل منذ خلقه، وأن مناقبه تفوق المدح والثناء.

وأجابه الشيخ محمد بن الحسين اليماني بقصيدة تماثل قصيدة الشيخ محمد طيب المكي لا في الغرض والأفكار والمعاني فحسب، بل في الوزن والقافية أيضا، بدأها أيضا بالغزل، يقول:

فَيَرْوِزُ الْحُسْنَ أَمْ ذَا فَيَلْقُ الْفَلَقِ أَمْ بَدُرٌ تَمَّ يُحَاكِي طَلْعَةَ الْأُفُقِ^(٤)
أَمْ تِلْكَ شَمْسٌ بَدَتْ فِي النَّاسِ ظَاهِرَةً فَأَشْرَقَتْ بِبَهَائِهَا ظُلُمَةَ الْأُفُقِ
أَتِلْكَ غَانِيَةً أَمْسَتْ مُدَاعِبَةً فَقَدْ جَلَّتْ بِسَنَاهَا حَنْدُسُ الْغَسَقِ^(٥)

القصيدة تبدأ بتساؤلات تدل على وقوف الشاعر حيران أمام هذا الجمال الباهر، المذهل للعقول، المدهش للأفكار، حيث لا يستطيع الشاعر الوصول إلى معرفة كنه هذا

١- البيت فيه إقواء، حيث إن الروي مرفوع في هذا البيت، مجرور في باقي القصيدة.

٢- البيت فيه إصراف، حيث إن الروي منصوب في هذا البيت، مجرور في باقي القصيدة.

٣- الإعلام ٣ / ١٣٦٣.

٤- الفيروزج: ضرب من الأصباغ وهو كذلك حجر كريم كما في محيط المحيط (ص ٧٠٨)، فيلق: الكتبية العظيمة، (اللسان: مادة ف ر زج، ف ل ق).

٥- حندس: الظلمة، ج: حنادس (القاموس: ح ن س).

الجمال، وهل هو بدر التمام، أم شمس النهار، أم جمال إنسان ؟
ثم يطيل في وصف هذا الجمال المعجز، وكيف قد تمكن من الاستمتاع به، وبينما هو
في هذه الحالة البهيجة إذ توافيه رسالة حبه وخليله فيزداد فرحا على فرح، يقول:

فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ وَالْكُؤُوسُ مَرُصُوصَةٌ كَالْعُقْدِ فِي الْعُنُقِ
جَاءَتْ كَشْمَسِ الضُّحَى فِي الظُّهْرِ قَائِلَةٌ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِي عَنِ الْفَلَقِ
فَقُلْتُ حَيَّا هَلَّا بِالْوَصْلِ يَا أَمَلِي رُوحِي الْفِدَاءُ لِمَنْ وَافَتْ عَلَى فَشَقٍ^(١)
وَقُلْتُ مِنْ فَرْحِي طَوْرًا بِمَقْدَمِهَا وَتَارَةً كُؤُونَهَا جَاءَتْ عَلَى وَفَقِ
أَهْذِهِ الدُّرُّ أَمْ عَقْدُ الْجَمَانِ أَمْ التَّبُّ رُ الْمُنَظَّمُ يَحْلِي الدُّرَّ فِي النَّسَقِ^(٢)
أَمْ الْبَلَابِلُ فِي الْبَانَاتِ سَاجِعَةٌ تَشْدُو فَهَيَّجَتْ الْوَرْقَاعَ عَلَى الْوَرَقِ

فَالْوُرُقُ تَسْجَعُ وَالْأَغْصَانُ رَاقِصَةٌ وَالْبَدْرُ يَنْقُطُ بِالْإِبْرِيزِ وَالْوَرَقِ^(٣)
فِي رَوْضَةٍ رَقِصَتْ بَانَائِهَا طَرَبًا وَاسْتَمَرَّاتُ فَرْحًا بِالْوَابِلِ الْغَدِقِ^(٤)
وَأَفْصَحَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ قَائِلَةٌ مِنْ عِنْدِ بَدْرِ الدُّجَى وَالنَّجْمِ فِي الْأُفُقِ

وكأن الشاعر يرسم لوحة ليضع بين نواظرنا ذلك المنظر البهّي، حيث تميل الأغصان
وتطرب، وتغرد البلابل، وتسجع الحمام، فتهيج الشوق، وتزيد النشوة، وهذا يدلّ
دلالة واضحة على اغتباطه بمقدم هذه الرسالة من خليله المشتاق إليه، ثم ينتقل إلى
تعداد فضائله، وذكر محاسنه من غزارة علمه، وسمو خلقه، وعلو نسبه، فهو يفوق
الخلق في هذه الفضائل الجمّة، يقول :

١- الفشق: النشاط . (القاموس : ف ش ق).

٢- هكذا في الأصل: ولعل الصواب يحكي.

٣- ينقط: نقط(ض)نقطا: غلا وتحرك (اللسان والقاموس: مادة ن ق ط)

الإبريز: الذهب الإبريز: أي الخالص . (القاموس : مادة ب ر ز).

٤- هكذا في المرجع، ولعل الصواب ما أثبتته.

أَعْنِي بِهِ الْعَالَمَ النَّحْرِيَّ حُجَّتَنَا
مَنْ فَاقَ جُلَّ الْوَرَى فِي عِلْمِهِ وَزَكَ
هُوَ ابْنُ صَالِحٍ مَنْ طَابَتْ عَنَاصِرُهُ
كَتَبْتُ يَا بَدْرُ، بَلْ وَالْبَدْرُ دُونَكُمْ
يَا بَدْرُ دَيْنِ الْهُدَى رَفَقًا عَلَى دَنَفٍ
أَهْذِهِ مُعْجَزَاتٌ قَدْ بَعَثَتْ بِهَا
أَبْقَاكَ رَبِّي فِي عِزٍّ وَفِي دَعَاةٍ
مُحَمَّدًا طَيِّبَ الْأَخْلَاقِ وَالْخُلُقِ
أَضَلًّا وَطَابَ فُرُوعًا طَيِّبَ الْعَرَقِ
بِالْفَضْلِ وَالْعِلْمِ وَالْآدَابِ وَاللِّبَقِ^(١)
وَإِنْ رَفَعْتُكَ فَوْقَ الرَّأْسِ مِنْ شَفَقِ
أَمْسَى طَرِيحِ الْهُوَى مَا فِيهِ مِنْ رَمَقِ
لِلَّهِ دَرْكٌ، مَا أَعْلَاكَ مِنْ لَبِقِ
تُخَوِّضُ بَحْرًا مِنَ الْآدَابِ فِي دَفَقِ^(٢)

وللشيخ الطاف حسين حالي رسالة منظومة إلى أصدقائه وأصحابه في دهلي، كتبها لما كان مقيما في لاهور بسبب عمله، ذكر فيها شوقه وحنينه إلى دهلي ومجالسها ومن فيها من أصحابه، ويعبر عن حالته الكئيبة في البعد والغربة، يقول:

هَلْ مَنْ يُبْلَغُ عَنْ مَحْصُورٍ لَاهُورٍ
إِلَى دِيَارِ بِهَا سَلَمَى وَأَهْلِيهَا
هَلْ فِينَكُمْ مَنْ يُوَاسِي حَائِرًا أَسْفَا
بِمَا مَضَى مِنْ دَوَامِ الْقُرْبِ وَالزَّوْرِ
فَنَرَى أَنَّهُ يَعْبُرُ عَنْ إِقَامَتِهِ فِي لَاهُورٍ بِأَنَّهُ مُحَاصَرٌ فِيهِ وَلَا يَمْلِكُ الْإِرْتِحَالُ عَنْهُ، وَلَوْ مَلَكَه
لَمَا صَبَرَ فِيهَا، وَيَعْبُرُ عَنْ دَهْلِي كَأَنَّهَا دِيَارَ الْحَبِيبَةِ، وَهَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ بَلِيغَةٌ عَلَى شَوْقِهِ إِلَى دَهْلِي،
وَعَدَمِ رِضَاهُ بِالْعِيشِ فِي لَاهُورٍ، ثُمَّ يَقُولُ:

وَلَمْ يَزَلْ حَدَّثَانِ الدَّهْرُ يُرْعِجُنِي
لَكِنِّي رَاسِخٌ فِي حُبِّكُمْ قَدَمِي
يَوْمًا بَنَجْدٍ وَيَوْمًا كُنْتُ فِي غَوْرِ
فَلَنْ أَحْوَلَ عَنْهُ طَوْرًا إِلَى طَوْرِ

١- اللبِق: الحاذق بما عمل (القاموس: مادة ل ب ق).

٢- الإعلام ٣/ ١٣٦٣-١٣٦٤.

إِنِّي أَحِبُّ وَأَهْوَى أَنْ أَلَا قِيَكُمُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَحْوَكُم مَسْعَايَ أَوْ سِيرِي

فيري أن الدهر يقلبه من حال إلى حال، ولا يقره على حال واحدة، ومع ذلك فحبه لا يحول ولا يزول مهما تقلبت به الأحوال، بل لا يزال يشاق إليهم، ويتمنى لقاءهم، ثم يعبر عما أصابه في لاهور من الضني والتعب لكنه راض بقضاء الله تعالى؛ لأن قضاء الله - تعالى - هو الأنفع لعبده، ويرجو منه - سبحانه وتعالى - الفرج واليسر عاجلاً أو آجلاً، يقول:

إِنِّي أَرَانِي وَقَدْ أَنْضِيتُ مِنْ نَصَبٍ بِحَيْثُ لَمْ أَبْقَ أَنْ أُمْتَازَ عَنْ غَيْرِي

وَإِذْ رَأَيْتُ قَضَاءَ اللَّهِ مُحْتَكِمًا رَأَيْتُ نَفْعِي طُويَ فِيمَا يَرَى ضَرِي

أَرْجُو مِنَ اللَّهِ بَعْدَ الْعُسْرِ مَيْسَرَةً إِمَّا عَلَى مُهْلَةٍ وَإِمَّا عَلَى فَوْرٍ^(١)

ولما مرض الشيخ السيد محمد عرفان الطوكي وأقعده مرضه في بيته ولم يزره بعض أحبابه الذي كان يأنس إليه ويستأنس به، شق ذلك عليه، فكتب إليه معاتباً إياه على عدم زيارته وعيادته في مرضه، مع ما بينها من صلة ودّ، وعلاقة حب، ظناً منه أنه قد شفي وبرئ من مرضه، مع أن الأمر كان على خلاف ذلك، يقول:

مَا لِي أَرَاكَ نَسِيتَنِي وَتَرَكْتَنِي مِنْ بَعْدِ حُبِّ خِلْتُهُ مُسْتَحْكَمًا

وَعِيَادَةٍ مُسْنُونَةٍ وَزِيَارَةٍ مِنْكُمْ أَخِي تَلَطُّفًا وَتَرْحَمًا

أَظَنَنْتَ أَنِّي قَدْ بَرْتُ فَصَدَّكُمْ فَزَعَمْتَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ أَنْ يُزْعَمًا

يَوْمَافِيَتْ تَوَجُّعًا وَتَأَلَّمًا^(٢) يَأْصَاحُ إِنْ أَشْتَدَّ دَائِي بَعْدَكُمْ

وَقَعَدْتُ ضَعْفًا بَعْدَهُ وَنَقَاهَةً وَقَعَدْتُ ضَعْفًا بَعْدَهُ وَنَقَاهَةً

مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ أَتَيْتَ فَرَزْتَنِي وَجَلَسْتَ عِنْدِي سَاعَةً أَتَكَلَّمًا^(٣)

١ - ضميمه أردوكليات نظم حالي، ص ١٢٨.

٢ - البيت مكسور، وهو هكذا في الإعلام ٣ / ١٣٦٥.

٣ - الإعلام ٣ / ١٣٦٥.

وكتب الشيخ السيد محمد عرفان الطوكي إلى الشيخ محمد بن الحسين البياني يعزيه في وفاة ابنه، ويسليه بأنه سيكون له فرطاً عند الله - تعالى -، ويتمنى له دخول الجنان، ويدعو الشيخ الأنصاري إلى حمد الله والرضا بقضائه، وعدم التضجر بما حصل، ويذكره بأن ابنه لم يفارقه إلا بأمر من الله - سبحانه وتعالى - وأنه ليس أول من سلك هذا المسلك، وعليه أن ينظر في هذه الجوانب ويتأسى ويتسلّى، يقول :

إِنَّ الْعَزِيزَ أَعَزَّهُ الرَّحْمَنُ فَمَقَامُهُ فِيمَا نَظَنُّ جَنَانُ
فَرَطًا لَكُمْ عِنْدَ إِلَهِ الْبَارِي أَحْمَدُ بْنُ حُسَيْنٍ الْأَنْصَارِي
حَمْدًا وَشُكْرًا فِي قَضَاءِ اللَّهِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ لِقَلْبٍ لَاهٍ

إِنْ كَانَ فَارَقَكُمْ لِأَمْرٍ مُنْزَلٍ فَهُوَ السَّيْلُ وَلَيْسَ فِيهِ بِأَوَّلٍ^(١)

ويلاحظ في هذه الأبيات عدم تقييد الشيخ محمد عرفان بقافية موحدة، وهذا ما لم يألّفه شعراء الهند عادة.

ويلاحظ أيضاً أن شعراء الهند قد اهتموا بموضوعات التهاني أكثر من موضوعات التعازي أو العتاب أو الاعتذار.

كما يلاحظ أيضاً أنّ أغلب القصائد في هذا الغرض كانت ذات موضوع واحد غالباً، ولو خرج البعض في التهاني إلى الغزل فما ذاك إلا للدلالة على الطرب والفرح والسرور، وأن أغلب هذه القصائد متوسطة الطول، كما يتضح أثر الثقافة الإسلامية بجلاء في ختم أغلب القصائد بالدعاء.

المبحث السادس

المناسبات

وفيه مطلبان:

المطلب الأول : المناسبات السياسية.

المطلب الثاني : المناسبات الثقافية والاجتماعية.

المطلب الأول

المناسبات السياسية

كانت للهند علاقات تجارية وطيدة مع الجزيرة العربية من قبل الإسلام^(١)، ولما أشرقت شمس الإسلام، وأضاءت بنورها الأكوان، تنورت الهند وبقاعها أيضا بنور الإسلام وضيائه، وبدأت صفحة جديدة من العلاقات، ألا وهي العلاقات الدينية، كما أن العلاقات التجارية السابقة أيضاً بقيت، بل قويت وزادت قوة، وبقيت العلاقات الدينية والتجارية مستمرة في كل عصر، ولما تحررت الهند من الاستعمار الإنجليزي سنة ١٩٤٧م تحت قيادة غاندي^(٢) ونهرو^(٣)

١- ينظر للاستزادة في هذا الموضوع : العلاقات بين الهند والعرب» لسيد سليمان الندوي (بالأردية) هندو عرب كى تعلقات ، دار المعارف أعظم كره، الهند.

٢- هو موهن داس بن كرم تشند غاندي، ولد في بور بندر في ولاية غجرات سنة ١٨٦٩م، درس الحقوق في لندن ١٨٨٨- ١٨٩١م، عمل مستشاراً قانونياً في جنوب إفريقيا ١٨٩٣- ١٩١٤م، عاد إلى الهند ١٩١٤م وتزعم الحركة الوطنية داعياً إلى تحرير الهند من الأجانب بالطرق السلمية والمقاومة السلبية لا عن طريق العنف، اشترك بالمفاوضات التي أدت إلى استقلال الهند سنة ١٩٤٧م، قتله هندوسي متعصب سنة ١٩٤٨م. (تلاش حق، مهاثما كاندهي، ترقى اردو بورد، وزارت فروغ انساني وسائل، دهلي، ١٩٧٣م، المنجد في الإعلام ٥٠٢).

٣- هو جواهر لال بن موتي لال نهرو، ولد في إله آباد سنة ١٨٨٩م، درس الحقوق في جامعة كيمبرج في إنجلترا، وشارك مع غاندي في الحركة الوطنية، للاستقلال، وقضى تسع سنوات في السجون البريطانية مفاضلاً من أجل الاستقلال، عين أول رئيس للوزراء في الهند المستقلة سنة ١٩٤٧م، وبقي في الرئاسة إلى أن مات سنة ١٩٦٤م. له مؤلفات نالت شهرة عالمية، أهمها: لمحات من تاريخ العالم. (المنجد في الإعلام ٧١٤).

وأبي الكلام آزاد^(١)، حاولوا إيجاد علاقات سياسية قوية أيضاً بين الهند ودول الخليج العربي، وكان للمملكة العربية السعودية دور كبير من هذا الاهتمام، ومما يدل على قوة هذه العلاقات بين البلدين زيارة كثير من ملوك المملكة العربية السعودية للهند، مثل جلالة الملك سعود، وجلالة الملك فيصل، وجلالة الملك خالد، أبناء الملك عبد العزيز آل سعود - يرحمهم الله - ولم يغفل الشعر العربي في الهند عن تسجيل هذه الأحداث المهمة، والمناسبات الضخمة، والعلاقات الأخوية، وخاصة الشعراء المسلمين الذين كانوا مطلعين على مساعيهم المشكورة في حماية الدين، ونصرة إخوانهم المسلمين، واعتناقهم العقيدة الصافية المستقاة من منهلها الصافي العذب المعين، وتطبيقهم لشعر الله الحكيم. فلما زار الملك سعود بن عبد العزيز - يرحمه الله - الهند عام ١٣٧٥ هـ، قام الشعراء بنظم ما جادت به قرائحهم في التغني بهذه المناسبة السارة، والإشادة بشمائل هذا الضيف الكريم، ومن أولئك الشعراء إعجاز أحمد السهسواني^(٢) الذي بدأ قصيدته بأبيات غزلية، وبعد ذكر الشاعر لما يقاسيه في الحب، وفي هجر الحبيبة، ووصف ما تفعله جفونها في قلوب العاشقين، بعد هذا الذكر الخلاب يتحول إلى بيان فضائل الملك سعود وذكر محاسنه فيقول :

١- هو الشيخ محي الدين أحمد بن خير الدين، الملقب بـ «أبي الكلام آزاد»، ولد بمكة سنة ١٨٨٨م وتثقف في القاهرة وكلكتة، أسس جريدتي «الهلل» و«البلاغ» فأوجد بقطة سياسية بين المسلمين، ساهم في السياسية مساهمة فعالة وقضى عشر سنين في السجون، تولى رئاسة عدة أحزاب سياسية آخرها حزب المؤتمر الهندي الوطني من ١٩٤٠م-١٩٤٦م، عين أول وزير للتعليم في الهند المستقلة، وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١٩٥٨م، كان خطيباً بارعاً، وأديباً من طراز نفسه، ألف ٥١ كتاباً ومجموعات من الخطب والرسائل، أشهرها «ترجمان القرآن» وهو تفسير الكتاب العزيز، وتذكره و غبار خاطر، ومسئله خلافت، وإنسانيت موت كى دروازی بر، وهماري آزادي. (مقدمه هماري آزادي، أبو الكلام آزاد صفحة غير مرقمة، اورينت لونك مين، دهلي ١٩٩١م، أبو الكلام آزاد، د. عبد المنعم النمر، لجنة التعريف بالإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جمهورية مصر العربية ١٩٧٣م، المنجد في الأعلام ٣).

٢- هو الشيخ الفاضل : إعجاز أحمد بن عبد الباري بن سراج أحمد الحسيني النقوي السهسواني، ولد سنة ١٢٩٣ هـ درس على الحكيم محمود عالم بن إلهي بخش السهسواني، والعلامة محمد بشير السهسواني، والقاضي عبد الحق الكابلي، والشيخ المحدث حسين بن محسن الأنصاري الباني، ولي رئاسة تدريس العربية والفارسية في مدرسة ببدايون، ثم عين نائب العميد في كلية فيض آباد .

من مصنفاته: تسليية الفؤاد بترجمة بانت سعاد، توقيع الفريد في تذكارات أدباء الهند، رشحات الكرم في شرح فصوص الحكم، الدراري المضيئة، نقد وانتقاد، وشعر العرب، ودويان الشعر بالعربية والفارسية والأردية توفي سنة ١٣٨٢ هـ. (الإعلام ١١٨٩-١١٩٠، تراجم علماء حديث هند ٢٥٩/١-٢٦٠).

مَلِكُ نَحَا مَنْحَى السَّعَادَةِ نَجْمُهُ وَعَلَا عَلَوًّا لَمْ تَنْلُهُ الْأَنْجُمُ
 حَامِي ثُغُورِ الدِّينِ، مَا حِي بِدَعَةٍ وَأَسَاسَ بُيُوتِ الضَّلَالَةِ يَهْدِمُ
 نُورٌ تَمْتَتُهُ الْكَوَاكِبُ جَمَّةً حُلْمٌ حَكَاهُ يَذْبُلُ وَيَلْمَلَمُ
 الْحَزْمُ وَالْعُلَيَاءُ وَالْخُلُقُ السَّنِي آيَاتُهَا فِي وَجْهِهِ تَتَوَسَّمُ

فيرى أنه سعيد، عالي المكانة، حامٍ لدين الله، قاصم للبدعات والضلالات، وأنه تحلى بالنور والجمال، والحلم والحزم، وجميع المكارم والفضائل، ثم يتوجه بالخطاب إلى هذا الضيف، ويذكر ما لزيارته من أثر عظيم في مضيفه، وفي بلدهم، يقول :

أَهْلًا وَسَهْلًا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي يُثْنِي عَلَيْكَ مَلِيكُنَا وَيَكْرُمُ
 هَذَا مَسِيرُكَ رَحْمَةً لِبِلَادِنَا وَمَسَرَّةً لِقُلُوبِنَا وَتَنَعُّمُ
 اللَّهُ دُرُّكَ يَا سُعُودَ بَكَ انْجَلَتْ ظُلُمَاتُ جَهْلٍ نَارُهَا تَنْضَرَّمُ

ثم يختم قصيدته بالدعاء له بهناء العيش، ودوام السعادة، يقول :

لَا زِلْتَ بِالْعَيْشِ الرَّغِيدِ مُهَنَّأً مَا دَامَ طَيْرٌ بِالْحِمَى تَتَرَنَّمُ
 وكان الشيخ عصمت الله المثنوي أيضا من أولئك الشعراء الذين قرضوا قصائد في الترحاب بالملك سعود - رحمه الله - بدأها بذكر أنه بدر تجلى للهند، فنورها بأنواره، حتى زال عنها ظلام الليل، وأنه قرأ أعين للناس، يقول :

أَلَا لِلْهِنْدِ بَدْرٌ قَدْ تَجَلَّى وَنَوْرُهُ بِأَنْوَارٍ وَجَلَّى
 وَنُورَاتِ الْبِلَادِ وَقَدْ أَضَاءَتْ وَحِنْدِسُ لَيْلِهَا عَنْهَا تَوَلَّى
 بِطَاعَتِهِ عِيُونُ النَّاسِ قَرَّتْ وَقَدْ لَمَعَتْ بِنُورٍ قَدْ تَلَا

ثم يذكر أن رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو وحكومته قاموا بدعوته إلى هذه الزيارة، لتوثيق روابط الأخوة والصداقة فلبى دعوتهم، وأن الحكومة أقامت لهذا الضيف العظيم حفلا ومأدبة في عاصمتها دهلي، ثم ينتقل إلى ذكر مفاخره ومناقبه،

فيقول :

تَوَحَّدَ بِالْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِيِ فَمَا أَحَدٌ لَهُ فِي الْفَضْلِ مِثْلًا
أَعَزُّ مِنَ الْكَرِيمِ بِمَكْرُمَاتٍ وَمِنْ أَقْرَانِهِ كَانَ الْأَجَلًا
أَلَا أَسْلَافُكُمْ كَانُوا خِيَارًا وَأَيْضًا يَا مُعَاذِي أَنْتَ أَعْلَى
وَحُزْتَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ طُرًّا وَفُقْتَ عَلَى خِيَارِ النَّاسِ فَضْلًا
أَيَا مَلِكِ الْحِجَازِ وَرَنْتَ مَجْدًا وَفَضْلًا عَنْ أَبِيكَ وَبِهِ الْمُحَلَّى
تَسْوُسُ النَّاسَ فِي حَرَمٍ وَحِلٍّ وَفُقْتَ عَلَى مُلُوكِ الْأَرْضِ عَدْلًا^(١)

فذكر أنه وحيد في جميع الفضائل والمعالى، وأن أسلافه كانوا على هذا المنوال، فورث منهم هذه الفضائل والمحاسن، فليس ذلك بعجيب منه، كما ذكر عدله وقسطه وسياسته في الحل وفي الحرم حتى فاق جميع ملوك الأرض.

ولما زار جلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود - يرحمهم الله - باكستان عام ١٩٧٦م قام الشيخ محمد ناظم الندوي^(٢) بنظم قصيدة ترحيبية، يقول فيها :

وَالْجَوُّ مُلْتَمِعٌ بِأَبْهَى مَنْظَرٍ وَالشَّمْسُ مُرْسِلَةٌ شُعَاعًا مُذْهَبًا^(٣)
وَالطَّيْرُ تَشْدُو فِي الْخَمَائِلِ بَاكِرًا فَرَحَانَةً سَكَرَانَةً لِتُرْحَبَا
أَلَدَارُ دَارُكَ وَالْقُلُوبُ مَنَازِلُ فَانْزِلْ بِهَا أَنَّى أَرَدْتَ مُحَبَّبَا
حُزْتَ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ مَوَدَّةً فَاصْرِفْ بِهَا حَيْثُ تَشَاءُ مُقَرَّبَا^(٤)

١ - أخبار أهل الحديث، المجلد الخامس، العدد الثاني عشر، ص ١٥، الصادرة من دهلي .

٢ - هو الشيخ محمد ناظم الندوي، ولد في بهار سنة ١٣٣٤هـ درس في دار العلوم ندوة العلماء في لکھنؤ، وتولى فيها التدريس والعمادة، ثم تولى رئاسة الجامعة العباسية ببهاولفور، ثم قام بالتدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة زمناً، وعين نائب رئيس مجمع البحوث الإسلامية بكراتشي. له كتب ومقالات كثيرة، لم أعثر له على تاريخ الوفاة. (كلمة الناشر في مقدمة ديوانه الزهرات، الصفحة غير مرقمة).

٣ - ملتمع. التمتع: أضاء (القاموس المحيط: ل م ع).

٤ - الزهرات، ص ١١.

عبر الشاعر عن الفرح الذي عمّ الناس بقدم هذا الملك الميمون، بل عمّ الكون كله، فالمنظر بهيج بهي، والشمس تختار اليوم من أشعتها فترسل منها أشعة مذهبة، والطيور تصدح بالغناء وتعبر عن فرحها وسرورها وترحب بهذا الضيف الكريم، ثم يتوجّه إلى الملك ويخبره بأنه ليس غريبا بل الدار داره، ومنزلة قلوب الناس، وأي مكان أو أي قلب ينزله يجد له فيه محبة وشوقا، حتى إنه حاز قلوب جميع الناس، فكلها طائعة له في اختياره ورفضه، وأمره ونهيه.

وكان للهند علاقات واسعة مع دول العالم قديما وحديثا، وكان يزورها ملوك وساسة من كل دول العالم، فلما زارها الأمير حبيب الله خان ملك افغانستان نظم المولوي نذير أحمد الدهلوي قصيدة في الترحاب به بدأها بقوله :

جَمَعْتَ فِيكَ التَّقَى وَالْمُلْكَ وَالْأَدَبَا وَاللَّهُ إِنَّا نَرَى فِي شَأْنِكَ الْعَجَبَا
ذَكَرْنَا الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ قَدُمٌ عَلَى الْهُدَى وَاتَّبَعْنَا مِنْهَا جَهْمٌ رَعْدَا^(١)

ثم يذكر مدى ما وصل إليه العلم من الازدهار والانتشار في دول أوربا، وتفوقهم على المسلمين بسببه، بينما المسلمون ساهون عن العلم، لاهون بما في أيديهم، بعيدون عن الجد والاجتهاد، مما جعلهم في مؤخرة الأقاليم، وكان لقي بالأمير يوم الجمعة فأنشده عند أول لقائه قوله:

عَيْدٌ وَعَيْدٌ وَعَيْدٌ صِرْنَ مُجْتَمِعَةً وَجَهْ الْحَبِيبِ وَيَوْمُ الْعِيدِ وَالْجُمُعَةِ^(٢)

ففرح الأمير بحسن اختياره، وحضور بديته. ونظم الشيخ أصغر علي روجي^(٣) قصيدة في الترحيب بالسفير العثماني عام ١٨٩٧م

١- الإعلام ٣/ ١٣٩٠.

٢- الإعلام ٣/ ١٣٩٠.

٣- هو الشيخ أصغر علي الروحي ابن شمس الدين القاضي، ولد في كتهالة (قرية في باكستان بين لاهور وإسلام آباد) سنة ١٣١٧هـ بدأ دراسة الفارسية والعربية على والده، لكن والده توفي وعمره ٨ سنوات، ثم ارتحل إلى لاهور لطلب العلم حتى حصل على شهادة الماجستير من جامعة بنجاب، وقد درس على الشيخ فيض الحسن السهارنفوري، والمفتي عبد الله الطوكي، والشيخ نذير حسين الدهلوي، اشتغل بالتدريس في الكلية الشرفية بلاهور، ثم بكلية لاهور الإسلامية وفي مدارس أخرى.

له شعر بالفارسية والعربية، توفي سنة ١٣٧٣هـ-١٩٥٣م، (مقدمة ديوانه ص ٣٢-٣٨، المجمع العربي بباكستان، بدون

عبر فيها عن فرحه وسروره بمقدم هذا السفير، وبين فيها ما للخلافة الإسلامية من مكانة عظيمة في قلبه وقلوب مسلمي الهند عامة، ويدعو للخليفة بالنصر والغلبة على أعدائه، يقول :

نَسِيمُ الصَّبَا فَاحَتْ مُطَيَّبَةَ النَّشْرِ كَأَنَّكَ كَالْمِسْكِ الْفَتِيَّتِ أَوْ الْعِطْرِ
سَلَامٌ عَلَى مَلِكِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى مِنْ الرَّبِّ مَا قَامَ الْأَجْبَاءُ بِالنَّصْرِ
خَلِيفَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِرَحْمَةٍ لِكَيْ يَغْلِبَ الْكُفَّارَ بِالْجَبْرِ وَالْقَهْرِ
فَهَا نَحْنُ نَدْعُو دَعْوَةَ مُسْتَجَابَةٍ أَتَاهُ الْهُدَى حَتَّى الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ^(١)

ولم يقتصر شعر المناسبات على الترحيب بالملوك والوفود، بل شارك الأمة في سرورها وأفراحها، وآلامها وأحزانها، فلما أنشئت رابطة العالم الإسلامي ابتهج الشعراء ونظموا فيها قصائد، منها قول الشيخ أحمد بن كنج أحمد الكدفتوري^(٢) يعبر فيه عن سروره بقيام هذه المؤسسة العظيمة لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، ويرى أن الكون كله قد استنار بضياءها، ووصلت أنوارها إلى جميع أقطار العالم، يقول :

وَاهَا لِرَابِطَةٍ بِمَكَّةَ وَاهَا فَبِعَالَمِ الْإِسْلَامِ عَمَّ ضِيَاهَا
قَدْ أَشْرَقَتْ كَالْكَوْكَبِ الدَّرِّيِّ فِي أُمِّ الْقُرَى فِيهَا أَضَاءُ نَرَاهَا
شَعَتْ أَشَعَّتْهَا إِلَى كُلِّ الدُّنَا فِيهَا اسْتَنَارَتْ أَرْضُهَا وَسَمَاهَا^(٣)

ولما سقطت فلسطين والقدس الشريف، أولى القبلتين، ومسرى سيد الثقلين بأيدي العدوان الغاشم، وسيطر الصهاينة على الأرض المباركة، جنح له المسلمون شرقاً وغرباً،

تاريخ)، تحقيق: الدكتور رانا ذوالفقار علي.

١- ديوان أصغر علي روعي، ص ٧١.

٢- هو الشيخ أحمد بن كنج أحمد، ولد في كدفتور في كيرالا سنة ١٣٣٥هـ ١٩٢٦م، درس في مدارس وازكات وفلكل واشتغل بالتدريس في مدرسة المبارك العالية بتلشيري إلى ١٩٨١م، له قصائد في المدح والثناء وغيرهما، ومقالات منشورة في المجلات. (الشعر العربي في كيرالا ص ٢٩٦).

٣- ديوان الشاعر المخطوط، نقلا عن «الشعر العربي في كيرالا، مبدؤه، وتطوره» للدكتور ويران محيي الدين الفاروقي . مكتبة عربيت، كاليكوت . ص ٣٠٠.

وشالاً وجنوباً، وعظمت عليهم المصيبة ، واشتد بهم الكرب وعمّ الحزن بلاد الهند ومن فيها من المسلمين، وقد عبر الشاعر علي بن فريد الكشنوري^(١) عن ألمه البالغ، وحزنه العميق لهذا الحادث الضخم الذي هزّ كيان الأمة برأسها، يقول :

فَأَبْكَ الدُّمُوعَ عَلَى الصَّحَايَا وَاعْتَبِرْ مِمَّا أَلَمَ لَنَا مِنَ الْخُسْرَانِ
دَارَتْ رَحَى إِعْدَامِ أُمَّةٍ أَحْمَدٍ فِي كُلِّ أَقْطَارٍ مِنَ الْبُلْدَانِ

ثم يسائل نفسه ويتمنى عودة القدس إلى الأمة الإسلامية، ولا يهمله أن يعود القدس الشريف فحسب، بل يتمنى عود عزتها القعساء، وماضيها المجيد، ويظهر رجاءه وتفاؤله بعزة دين الله الحنيف على سائر الأديان؛ لأن الله يظهر دينه ولو كره الكافرون، يقول :

هَلْ يُسْتَرَدُّ الْقُدْسُ مِنْ أَيْدِي الْعَدَى فَتَعُودَ عِزَّةُ قَوْمِنَا بِأَمَانٍ
وَتَكُونُ أُولَى الْقِبْلَتَيْنِ غَنِيْمَةً لَجَمَاعَةِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ
كَأَنَّ سَنَاقِلَهُمْ بِعِزَّةٍ دِينَنَا فَاللَّهُ يُظْهِرُهُ عَلَى الْأَدْيَانِ^(٢)

ولما اعتدى الصهاينة على المسجد الأقصى وأشعلوا فيه الحريق عام ١٩٦٢م هزّ ذلك مشاعر المسلمين، وبكوا لذلك بكاء حاراً، وعلت له صرخاتهم وتتابعت صياحاتهم، وفي هذا يقول الشيخ عبد الرحمن الكريادي^(٣) مخاطباً المسجد الأقصى وداعياً إياه إلى الصبر بعض الوقت ؛ فإن نصر الله آت، ولن يخذله علام الغيوب، يقول:

صَبْرًا أَيَا مَسْجِدِ الْأَقْصَى هُنَيَاتٍ لَا يَخْذِلُنَاكَ عَلامُ الْخَفِيَّاتِ
ثم يعبر عن حال المسجد الأقصى وكأنه كائن حيّ أصابه الأسى والحزن لهذا الحريق،

١- هو الشيخ علي بن فريد، ولد في قرية كشنور في كيرالا سنة ١٩١٠م، درس في كلية دار العلوم بوازاكات، ثم اشتغل بالتدريس في عدة مدارس آخرها في المدرسة العالية الحكومية بشافكات، وتقاعد عنها، له كتاب منظوم باسم «خلاصة الأبصار في سيرة المختار» توفي سنة ١٩٨٧م (الشعر العربي في كيرالا ص ٢١٧).

٢- الشعر العربي في كيرالا، ص ٢٢٢.

٣- هو الشيخ عبد الرحمن الكريادي، ولد بقرية كيراد القريبة من مدينة ماهي سنة ١٩١٦م، تتلمذ على أبيه، وتعلم في مدارس فرنغثور ووازاكات وغيرها، عمل مدرساً في عدة مدارس والكليات. (الشعر العربي في كيرالا ص ٢٨٠).

ولهذه المهانة ، ثم يذكر أن من أشعلوا فيه الحريق هم الخيثون، وقد تعودوا الإتيان بأعمال خبيثة سوداء نكراء ، ويذكر أن ذلك الحريق وإن أطفئ من المسجد، فقد سرى إلى أعماق قلوب الأمة الإسلامية، وستبقى ناره مشتعلة، لا تحمد جذوتها، ولا ينطفئ لهيبها، يقول:

لَكِنَّكَ الْآنَ فِي حُزْنٍ وَفِي أَلَمٍ لِمَا أَصَابَكَ مِنْ أَقْصَى الْمُصِيبَاتِ
قَدْ حَرَقَتْكَ يَدُ سَوْدَاءٍ ظَالِمَةٍ رَدَّتْ نَوَاصِيكَ الْفُضْلَى حُرَيْقَاتِ
إِلَى جَمِيعِ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ سَرَتْ فَمَزَقَتْ فَهِيَ نِيرَانُ الْمُلِحَّاتِ
نَارٌ وَإِنْ أُطْفِئَتْ مِنْهُ بِسَعْيِهِمْ لَكِنْ لَا كُبَادِهِمْ تَبْقَى لِحَقَبَاتِ
تَبَّتْ يَدَا صَاحِبِ النَّارِ الشَّقِيَّ وَهَلْ يَأْتِي الْخَيْثُونُ إِلَّا بِالْخَيْثَاتِ^(١)

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من عاطفة حزن شديد، وإن كانت المقدرة اللغوية للشاعر لا تسعفه في إظهار مشاعره إظهاراً قويا.

وهذه الحوادث الضخمة الأثر، والمناسبات العظيمة الشأن لم تمنع الشعر العربي في الهند من تناول حوادث أخرى، كانت تحصل في الهند شرقاً أو غرباً، وشمالاً أو جنوباً، وتصويرها، فمن ذلك ما قاله الشيخ أنوار الحق المئوي^(٢) بمناسبة حضور الشيخ أبي الكلام أحمد بن خير الدين المعروف بـ «آزاد» الحفل السنوي لحزب المؤتمر^(٣) عام ١٩٥٢م في كلكتا^(٤) وكان الشيخ آزاد آنذاك وزير التعليم في الحكومة الهندية، بدأها بحمد الله - سبحانه وتعالى - وذكر أن كل شيء في الكون من الطيور والزهور والملائكة الكرام، والخور العين، وعتاق النوق، وغزلان القفار، كلها تسبح بحمده، وذكر رأفة الله

١ - الشعر العربي في كيرالا، ص ٢٨١.

٢ - هو الشيخ أنوار الحق، ولد في مئو سنة ١٣٠٨هـ ودرس على والده وعمه ثم التحق بدار العلوم بديوبند وتتلמד على الشيخ أنور شاه الكشميري، اشتغل بالتدريس في المدرسة العزيزية في بهار شريف، له بعض القصائد غير المطبوعة. توفي سنة ١٣٥٤هـ، هندوستان كي عربي شاعري، د. حامد عليخان، ص ٢٦٨ - ٢٧٠.

٣ - سبق الحديث عنها في الحالة السياسية.

٤ - إحدى المدن الكبرى الثلاثة في الهند، تقع في شرق الهند على شاطئ نهر «هوقلي» وكانت أوّل عاصمة الإنجليز في الهند، وهي الآن عاصمة ولاية البنغال الغربية في الهند.

- عز وجل -، وكرمه ورحمته بخلقه وأنه يعطي من يشاء بلا حساب، ثم يقول :

حَبَا طَاوُوسَ وَإِدْ حُسْنَ لَوْنٍ وَعِلْمَ الرَّقْصِ قُصُّ بِالْغَرَامِ
وَحَنَاءَ حَبَا لَوْنًا عَجِيًّا يَزِينُ خَرَائِدًا ذَاتَ اللَّثَامِ
وَأَعْطَى يُوسُفَ حُسْنًا بَدِيعًا كَسَمْسٍ صَارَ فِي كَشْفِ الظَّلَامِ
وَأَعْطَى حَاتِمًا مَالًا وَجُودًا وَعَلَّمَ خَالِدًا ضَرْبَ الْحُسَامِ

وجعل هذه المنن الإلهية التي خص بها خلائق دون آخرين، مقدمة لتلك الميزات والخصائص التي وهبها الله الشيخ أبا الكلام آزاد من فصاحة البيان، وبلاغة الكلام، وامتلاك نواصي البراعة، وسبقه في باب الخطابة، يقول :

وَقَدْ أَعْطَى إِمَامَ الْهِنْدِ حُسْنَ الْـ خِطَابَةِ بِاتِّسَاقٍ وَانْتِظَامِ
فَصَارَ إِمَامَ أَحْرَارٍ كِرَامِ وَسَمَاءُ الْكِرَامِ أَبَا الْكَلَامِ
حَلِيفَ جَوَاهِرٍ^(١) فِي حَرْبِ عِتْقِ أَمِيرَ جِيُوشِ أَبْرَارٍ فَخَامِ

ثم انتقل إلى ذكر ما كان له من مكانة عظيمة وقدم راسخة في العلم أهلته ليصير أول وزير للتعليم في الهند المستقلة، فيقول :

وَكَانَ بِمَحْفَلِ التَّعْلِيمِ شَمْعًا فَأَجْلَسَ فِيهِ فِي أَعْلَى الْمَقَامِ
فَرَأَى الْعِلْمَ يَقْصِدُهُ جَمِيعًا زَحَامٌ فِي زَحَامٍ فِي زَحَامِ

وبعد ذكر منزلته في الهند بين الساسة والرعية تحول إلى ما تمتع به من منزلة عظيمة في أقطار المعمورة وأرجائها من مصر والشام والعراق وإيران ومكة المكرمة والمدينة المنورة، فله مكانة عالية وكعب عالٍ بسبب غزارة علمه في كل مكان في العالم، أينما حلّ وحيثما نزل، يقول:

١ - يعني به جواهر لال نهرو أول رئيس الوزراء للهند المستقلة.

بَعِيدُ الصَّيْتِ فِي شَرْقٍ وَغَرْبٍ وَيَزْدَادُ اشْتِهَارًا كُلَّ عَامٍ
جَرَائِدُ مِصْرَ تَمْدَحُهُ جَمِيلاً بِالْفَاطِ كَأَسْجَاحِ الْحَمَامِ
تَلْقَاهُ الْأَكَابِرُ بِاخْتِرَامٍ بِإِيرَانٍ وَبَغْدَادٍ وَشَامِ
بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ فِي حِجَازٍ يُلْقَى بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ

ثم يختم القصيدة بالترحيب به والدعاء له، يقول :

كَمَا قُلْنَا لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا بِإِحْرَامٍ وَحُبٍّ وَاعْتِنَامِ
الْأَرْضُ مِيتَةٌ مِثْلُ الْغَمَامِ غَمَامِ الْوَيْلِ جَاءَ أُولَى الْأَوَامِ
يُمَتِّعُنَا إِلَهُ بِجُودٍ نَهْرٍ يَمُدُّ بِصُوبِ مِذْرَارِ الْغَمَامِ^(١)

ومن تلك الحوادث والمناسبات أيضا التي صورها الشعر العربي إقالة الحكومة الهندية المركزية لحكومة ولاية كيرالا الشيوعية عام ١٩٥٩م، وكان المسلمون فرحين بهذه الإقالة ؛ لأنهم قد ضاقوا ذرعا بسبب ما انتشر في تلك الفترة من الظلم والفساد، وقد نظم فيها الشاعر أبوبكر بن كنج محمد المدوفتوري^(٢) قصيدة سماها «الوزارة الحمراء» يقول فيها مخاطبا وزراء الحكومة المعزولة :

مُوتُوا بِغَيْظِ أَيْهَا الْوُزَرَاءُ بَانَتْ وَلَايَةٌ كَإِيْرَالَا الْعَذْرَاءُ
صَارَتْ مُطْلَقَةً ثَلَاثًا حِينَمَا زَادَتْ عَلَيْهَا صَبْغَةٌ حَمْرَاءُ

يشبه الشاعر الولاية بغادة حسناء زفها أولياؤها إلى من ظنوا فيه الكفاءة لكن تبين أنه ليس كفؤا فطلقت هذه الفتاة الشابة طلاقا مغلظا في أوج شبابها، ثم يتحول الشاعر إلى بيان حزن هذه الغادة، وندامتها، وضيقها وألمها بسبب جور الوزراء

١- هندوستان كي عربي شاعري ، ص ٢٦٨-٢٧٠.

٢- هو الشيخ أبوبكر بن كنج محمد، ولد بمدوفتور في كيرالا سنة ١٩١٨م، التحق بالكتاتيب ثم بمدرسة روضة العلوم بمنجيري، واشتغل فيها بالتدريس أيضا، وتولي عاداتها حتى تقاعد عنها سنة ١٩٧٨م، كان يمارس نظم الشعر من أوائل عمره، توفي سنة ١٩٩٦م. (الشعر العربي في كيرالا، ص ٢٦٣).

ودستورهم الجائر، يقول :

صَاعَتْ مَحَاسِنُهَا وَقَلَّ جَمَالُهَا بَوْرَارَةٌ دُسْتُورُهَا الشَّخْنَاءُ
عَادَتْ تَعْضُ عَلَى الْيَدَيْنِ نَدَامَةً تُجْرِي الدُّمُوعَ كَأَنَّمَا خَنَسَاءُ
صَافَتْ بِهَا ذَرْعًا وَطَالَ أُنْيُنُهَا حَتَّى تَجْمَعَ حَوْلَهَا الرُّؤَسَاءُ
يَا وَيْحَ لِلْوُزَرَاءِ أَنَّ زَمَانَهُمْ وَلَّى، وَمَا لِلظَّالِمِينَ بَقَاءُ

ويذكر الشاعر حادثة مؤسفة حصلت في أثناء محاولة الإطاحة بهذه الحكومة البغيضة، حيث ماتت امرأة حبلى - من بين من مات - برصاصات الشرطة، لما حاولوا منع الشعب مزاوله حقه في إظهار عدم رضاه بالحكومة، يقول:

الْقَاتِلِي الْحُبْلَى بَغَيْرِ جَرِيْمَةٍ وَجَنَيْنَهَا، أَكْفَانُهَا الْأَحْشَاءُ^(١)
ذَاكَ الْجَنَيْنُ أَطْلَّ قَبْلَ وَلَادَةٍ نَظَرًا إِلَى مَا يَصْنَعُ الْوُزَرَاءُ
فَاخْتَارَ عَيْشًا فِي حَشَا أُمِّ لَه فِي الْقَبْرِ حَتَّى تُحْشِرُ الْأَحْيَاءُ^(٢)

المطلب الثاني

المناسبات الثقافية والاجتماعية

رأينا في المبحث السابق أن الشعر العربي في الهند قد سجل أحداث العصر السياسية تسجيلًا دقيقًا، ونرى أن المناسبات الثقافية والاجتماعية لم تكن أقل حظًا من المناسبات السياسية، فقد صورها أيضا الشعر العربي، وسجل دقائقها وتفصيلها، ومن هذه المناسبات المهمة زيارة شيخ الأزهر الأسبق الدكتور محمد محمد الفحام لباكستان، يقول فيها الشيخ محمد يوسف البنوري معبرا عن فرحه وسروره بمقدم هذا الضيف الكريم العظيم الشأن، يقول :

تَبَسَّمَ بَرْقٌ فِي دُجَى اللَّيْلِ أَشْحَمَا فَأَضْرَى عَمِيدَ الْقَلْبِ نَارًا وَأَضْرَمَا

١- هكذا في الأصل : والصواب : أكفانها.

٢- مجلة المنار ، كاليكوت العدد ٩-١٠، ص ٨٨ نقلا عن الشعر العربي في كيرالا ، ص ٢٦٤.

وبعد تعبيره عن فرحه وسروره ينتقل إلى ذكر بعض مناقب هذا الضيف النازل، يقول:

وَشَرَّفَنَا شَيْخُ إِمَامٍ لِأَزْهَرِ يُدَاوِي بَعْلَمٍ هَائِمًا وَمُتَيِّمًا
أَسْرَتْهُ فِيهَا النَّجَابَةُ أَبْرَقَتْ كَبَرَقَ تَرَى وَسَطَ السَّمَاءِ تَبَسُّمًا
إِمَامٌ كَبِيرٌ فِي الْمَعَالِي بَعْضَرِهِ وَشَيْخٌ شُيُوخٍ مَا أَنْارَ وَأَنْجَمًا
وَذُو عِزَّةٍ قَعَسَاءَ وَالْهَمَّةِ الَّتِي تَرَى دُونَهَا بَدْرًا وَشَمْسًا وَأَنْجَمًا
فَأَكْرَمَ بِكُمْ يَا ضَيْفُ فِي خَيْرٍ مَقْدَمٍ وَنَظَّهَرُ حُبًّا فِي الْفُؤَادِ مُكْتَمًا

وبعد هذا البيان لهمة ذلك الشيخ الإمام وعزته، وعلو نسبه، وغرارة علمه، وبعد إظهار ما يكنّ له في صدره من مكانة عظيمة ومحبة صادقة انتقل إلى ذكر ذلك الصرح الشامخ، وما له من أياذ بيضاء في خدمة الإسلام ونشر العلم، وذكر مجلسه الأعلى، ومدينة النصر للبعوث الإسلامية، كما يذكر دوره في البحث والتأليف، ثم يقدم له تحيته، فيقول:

فِيَا شَيْخَ مَوْلَايَ الْإِمَامَ مُحَمَّدُ عَلَيْكَ تَحِيَّاتُ الْإِلَهِ مُعَظَّمًا
تَحِيَّاتُ شَوْقٍ وَاحْتِرَامٍ وَدَعْوَةٍ أَقْدَمُهَا مِنْ جَنْدَرِ قَلْبٍ تَكَلَّمًا
وَمِنْ نَفَثَاتِ الصَّدْرِ مَا قَدْ بَشَّتُهُ وَمِنْ خَاطِرَاتِ الْقَلْبِ مَا قَدْ تَكْتَمًا
تَهَلَّلَ قَلْبِي إِذْ تَأَلَّقَ بَرَقُكُمْ وَمِنْ شِيْمَةِ الْفَرْحَانِ أَنْ يَتَبَسَّمًا

ثم يختم القصيدة بحمد الله والثناء عليه عز وجل فيقول:

وَأَخِرُ دَعْوَانَا تَحِيَّاتُ رَبِّنَا ثَنَاءٌ جَمِيلًا كَانَ أَبْقَى وَأَدْوَمًا^(١)

وللشاعر قصيدة أخرى بمناسبة زيارة الشيخ عبد الحليم محمود الذي كان شيخا أيضا للأزهري، وقصيدة ثالثة عند زيارة السيد عمر بهاء الأميري لمدرسته في كراتشي، وقصائد أخرى في الترحيب بضيوف آخرين لا تختلف عن القصيدة السابقة كثيرا لا

١ - القصائد البنورية، ص ٢٧٥-٢٧٧.

في المعاني والأفكار، ولا في نهج القصيدة، ولا في الألفاظ أو الأسلوب، بل نجد عنده أحياناً، تكرار بعض الأبيات في أكثر من قصيدة، مما يدل على ضعف العاطفة وعدم صدقها في بعضها.

ومن الأحداث العظيمة الشأن، البعيدة الأثر، في هذا العصر، ما رآه بعض الغير من أبناء هذه الأمة الإسلامية من الجهل السائد عن الإسلام في أوساط العامة، ومحاولة الحكومة الإنجليزية المستعمرة القضاء على الدين الإسلامي، وتخفيف منابعه، والقضاء على رجاله، فقام الشيخ محمد قاسم النانوتوي بمساعدة بعض أصحابه بإنشاء مدرسة في ديوبند^(١) للحفاظ على العلوم الإسلامية من الضياع ونشرها بين الناس، وإعداد جيل لتحمل هذه الرسالة الخالدة، وكان لمدرسته قبول عجيب في الناس فعنوا بها أياً عناية، ومن مظاهر تلك العناية الفائقة أنه لما شيد فيها بناء خاص لتدريس الحديث النبوي الشريف فرح به المسلمون فرحاً عظيماً، ونظم الشعراء بهذه المناسبة قصائد بالعربية وغيرها أيضاً، ومما نظم في العربية ما قاله الشيخ عبد الرحمن السيوهاري :

دَارُ الْحَدِيثِ حَمَى الْإِلَهِ حَمَاهَا وَرَعَى خَمَائِلَ رَوْضِهَا وَسَقَاهَا
دَارُ لَأَزْهَارِ الْحَدِيثِ حَدِيقَةٌ فَتَعَطَّرَ الْكُؤُنَانُ مِنْ رِيَّاهَا
بَسَمَتْ هُنَاكَ زُهُورُ هَدْيِ الْمُصْطَفَى اللَّهُ عَرَفَ شَمِيمَهَا وَشَذَاهَا
حَكَمَ الرِّسَالَةَ نَوْرُهَا وَثِمَارُهَا كَلِمُ النَّبَوَّةِ قَطْفُهَا وَجَنَاهَا
نَفَحَاتُ طَيِّبَةٍ فِي نَسَائِمِ رَوْضِهَا وَمِنْ الْحَجَازِ نَسِيمُهَا وَصَبَاهَا

شبه الشاعر هذه الدار بروضة معطرة ودعا لها بالريّ والسقاية، وذكر أن الكونين تعطرا بعبقها وعبيرها، ثم تطرق إلى جمال ما فيها وما يتعلق بها من شميمها وشذاهـا وأزهارها، وعنادلها، وغزلانها، ونفحاتها ونسيمها وأن مصدرها مدينة نبيّ هذه الأمة، المدينة المنورة - على ساكنها أفضل الصلوات وأزكى التحيات - وكأن الشاعر أخذ هذا التشبيه من قول المصطفى ﷺ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض

١ - مدينة صغيرة في شرقي دلهي على بعد مائتي كيلومتر تقريباً، اشتهرت بمدرسة إسلامية كبيرة فيها تسمى بـ «دار العلوم».

الجنة؟ قال حَلَقَ الذَّكَرُ»^(١) ثم ترك عنان خياله في تفصيل وتوصيف هذه الروضة الفيحاء.

ثم يدعو صاحبه إلى الوقوف فيها والاستماع إلى الحديث الشريف الذي رواه صادق هذه الأمة من أمثالهم كابرًا عن كابر، يقول :

يَا سَائِرًا قِفْ سَاعَةً فِي سَوْحِهَا وَامْكُثْ مَلِيًّا فِي ظِلَالِ رَبَّاهَا
وَاسْمَعْ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ رِوَايَةً إِنَّ الصَّدُوقَ عَنِ الصَّدُوقِ رَوَاهَا

وبعد هذا التشبيه الجميل، وهذه الدعوة العظيمة يتحول إلى وصف هذه الدار وما لها من مكانة في قلبه وقلوب مسلمي الهند؛ لما لها من نسبة إلى الحديث الشريف، ويا لله من تلك النسبة العظيمة، يقول :

تَتَّصَعَدُ الْكَلِمَاتُ مِنْهَا فَوْقَهَا تَنْزِلُ الْبَرَكَاتُ مِنْ أَعْلَاهَا
دَارٌ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ تَحْمُفُهَا يَزْهُو عَلَى سَمَكِ السَّمَاءِ ثَرَاهَا
دَارٌ لَهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ مَنْزِلٌ ذِكْرُ الْحَبِيبِ يُحِلُّ فِي مَغْنَاهَا

ويذكر أنها لم تنل هذه المحبة، وتلك المكانة لنفسها، بل لأجل من تنسب إليه، يقول:

وَهَوَى الدِّيَارِ لِأَهْلِهَا مِنْ مَذْهَبِي مَنْ كَانَ يَهْوَى ذِكْرَهُ يَهْوَاهَا
وَبِحُبِّ حُبِّ حُبِّهِ إِيْمَانُنَا لِنُجِبْهَا وَنُحِبَّ مَنْ وَالَاهَا

ويرى أن زيارتها تفر العين، وتسكن القلوب، وأنها دار مبنية على التقوى، فهي أحق بالإشادة، يقول :

دَارٌ زِيَارَتُهَا لِعَيْنِي قُرَّةٌ دَارٌ سَكِينَتُهَا خَاطِرِي ذِكْرَاهَا
دَارٌ أَحَقُّ بِأَنْ يُشَادَ بِنَاوُهُ^(٢) دَارٌ مُؤَسَّسَةٌ عَلَى تَقْوَاهَا

١- الحديث، أخرجه الإمام أحمد، ٣/ ١٥٠.

٢- هكذا في الأصل، والصواب: بناؤها.

ويذكر أنها ليست أول مفخرة تظفر بها قرية ديوبند، بل لها سابقة في الفضل، فهي موطن الفضائل منذ بدايتها، وأنها بنفسها مفخرة للهند، يقول:

نَالَتْ مَفَاخِرَ دِيُوبَنْدٍ بِيَدِهَا فَهِيَ افْتَحَارُ الْهِنْدِ بَيْنَ قُرَاهَا
مَا سُمِّيَتْ فِي الْهِنْدِ دَارٌ بِاسْمِهَا مَضَتْ الدُّهُورُ وَمَا أَتَى ثَرَوَاهَا

ويرى أن تلك الدار بناها بناتها بحب وشوق شديدين، حتى إن قلوبهم صارت لبناتها، وأخذت مهجهم مكان ملاطها، يقول:

فَتَرَى قُلُوبَ بَنَاتِهَا لِبَنَاتِهَا مَهْجُ الْقُلُوبِ مِلَاطُهَا لِبَنَاتِهَا
طُوبَى لَهَا وَلِمَنْ أَرَادَ بِنَاءَهَا بُشْرَى لِبَنَاتِهَا وَيَا بُشْرَاهَا^(١)

وقد اتسعت حركة إنشاء المدارس الإسلامية لإحياء علوم الدين والشريعة فعمت أقطار الهند كلها، ولكن الأيام لا تثبت على حال، فكل يوم فيه تجديد وتغيير، فمع مرور الزمن شعر العلماء بحاجة إلى الإصلاح في المناهج الدراسية المقرر تدريسها في تلك المدارس؛ لإعداد من يستطيع القيام بتحديات ذلك العصر الذي تغير كثيراً عن سابقه، وبرزت فيه تحديات وقضايا جديدة، فقام الشيخ محمد علي المونكيري^(٢) بتأسيس « ندوة العلماء » لإصلاح نظام الدرس، ورفع النزاع من الفرق الإسلامية، والذب عن الإسلام^(٣)، ووجدت الحركة قبولاً من العلماء والعوام، كما وجدت من

١ - مجلة القاسم عدد شعبان ١٣٣١ هـ ص ٣١-٣٣.

٢ - هو الشيخ العالم: محمد علي بن عبد العلي الكانفوري، ولد بكانفور سنة ١٢٦٢ هـ، اشتهر بالمونكيري لقضائه أخريات حياته في « مونكير »، درس على المفتي عنايت أحمد الكاكوروي، والسيد حسين شاه الكشميري، والمفتي لطف الله الكوثلي، والشيخ أحمد علي السهارنفوري المحدث.

أسس ندوة العلماء سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف لإحياء المدارس العربية وإصلاح نظام الدرس فيها، ورفع النزاع من الفرق الإسلامية والذب عن الإسلام، فبارك الله في مساعيه، وأسس أعضاء الندوة مدرسة عظيمة بمدينة كهنوسنة ١٣١٧ هـ وهي التي اشتهرت بدار العلوم ندوة العلماء.

وله مساع حثيثة وجهود مباركة في إصلاح الناس، والرد على النصرانية والقاديانية، له مؤلفات كثيرة، من أحسنها: «بيغام محمدي» في الرد على المسيحية، و«فيصله آسماني» في الرد على القاديانية، و«إرشاد رحمانى» في سيرة شيخه فضل الرحمن الكنج مرادآبادي.

توفي سنة ١٣٤٦ هـ، (الإعلام ٣/ ١٣٦٨-١٣٧٠)، أفكار مسلم شخصيات نمبر (ص ١٩٥).

٣ - الإعلام ٣/ ١٣٦٨-١٣٧٠، هندوستاني مسلمان، أبو الحسن ندوي (ص ١٢٢-١٢٥).

يعارضها ويحاول الكيد لها، وقد قام الشعر العربي بدور نشر هذه الدعوة، وبيان مقاصدها، والدعوة إليها، كما قام بالدفاع عنها، والرد على معارضيتها، وقد قيل فيها شعر كثير، منه ما قاله الشيخ عبد الوهاب بن إحسان البهاري^(١) في مدح أعضاء هذه الحركة، والرد على معارضيتها، مع بيان الحاجة إليها، يقول:

طَلَعَتْ شُمُوسُ الْعِلْمِ فِي الزَّوْرَاءِ فَأَفَادَتْ اللَّمَعَانَ فِي الظَّلْمَاءِ
وَبَدَتْ نُجُومُ الشَّرْعِ فِي الْخَضْرَاءِ وَأَصْأَتِ الْغُبْرَاءَ بِالْأَضْوَاءِ
وَحَتَّ رُسُومُ الْكُفْرِ بَعْدَ شَيْوَعِهَا وَفَشَّتْ فُتُونُ الْمِلَّةِ الْبَيْضَاءِ

وبعد هذه المقدمة التي بين فيها طلوع شمس العلم، وإنارتها الأرض والسماء بضياءها ومحوها رسوم الكفر، ونشرها الدين الحنيف ينتقل الشاعر إلى بيان مزية العلم، وفضله، وما لأصحابه من درجة رفيعة بسببه، يقول:

لَوْلَا الْعُلُومُ لَكَانَ أَحْقَرَ ضَيْغِمٍ أَوَّلَى مِنَ الْإِنْسَانِ فِي الْعَلِيَاءِ
وَبِهِ اضْمَحَلَّ الْكُفْرُ بَعْدَ سَطْوَعِهِ وَتَبَدَّلَ الشَّفَهَاءُ بِالْعُقَلَاءِ
وَبِهِ الشَّفَاءُ مِنَ النَّفَاقِ وَسُوِّهِ وَيَزُولُ دَاءُ الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءِ
وَلَهُ فَضَائِلٌ لَا تُعَدُّ وَتُنْتَهِي وَمَنَاقِبٌ جَلَّتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ

وذكر الشيخ حالة زمنه المؤسفة من انتشار الجهل بين العوام، وكثرة الخلاف والنزاع بين العلماء، حتى انشغلوا عن هداية الناس، وأصبحوا سبب شقاء الأمة ومصدراً للإيجاد الشحناء والبغضاء بينهم بتكفير بعضهم بعضاً، وصار الناس في ضلال وعمي، يقول:

فَمَضَى الزَّمَانُ زَمَانُ عِلْمٍ نَافِعٍ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الْجَهْلِ وَالْفَحْشَاءِ

١ - هو الشيخ عبد الوهاب بن إحسان علي السريندي. ولد ونشأ بقرية «سرينده» من أعمال «بهار»، اشتغل بالعلم على أساتذة بلده مدة ثم دخل «لكهنو» وقرأ على العلامة عبد الحي بن عبد الحليم الأنصاري اللكهنوي، ثم تصدر للتدريس، فدرس مدة مديدة ببلدة كانفور، ثم بحيدرآباد الدكن، ثم ولي بالمدرسة العالية في كلكتة. له مصنفات منها: شرح على هداية الحكمة، تعقب فيها على العلامة عبد الحق الخيرآبادي والصحيفة المملوكة. توفي سنة ١٣٣٥هـ. (الإعلام ١٣٠٦/٣).

فَقَدَ الدِّيَانَةَ وَالْأَمَانَةَ وَالْهُدَى مُلِئَتْ نَفُوسُ النَّاسِ بِالْأَهْوَاءِ
رُفِعَ الْوِدَادُ مِنَ الْقُلُوبِ فَقَدْ قَسَتْ وَخَلَّتْ عَنِ الْإِصْلَاحِ فِي الْأَهْوَاءِ^(١)
فَشَبَّ الْعَدَاوَةُ وَالشَّقَاوَةُ غَايَةً وَتَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ كَالْجُهَلَاءِ
فُتِيَاهُمْ التَّكْفِيرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ضَلُّوا، أَضَلُّوا النَّاسَ بِالْإِفْتَاءِ
لَمْ يَبْقَ فِي الْعُلَمَاءِ إِلَّا نَادِرًا مَنْ كَانَ فِيهِ عِلْمَةٌ الصُّلَحَاءِ
كَثُرَ النِّفَاقُ عَلَى النِّفَاقِ فَهَالَهُ مَنْ دَافِعٍ بِمَحَبَّةٍ وَوَفَاءِ

ثم يذكر الشيخ بأن الله تعالى من على هذه الأمة بوجود هذه الحركة « ندوة العلماء » التي حملت على عاتقها أثقال الإصلاح والنهضة، فعم فضلها، وشاع نفعها، وأضاء نورها البسيط، ففضائلها لا تحصى، ومنافعها أعظم من أن تذكر، يقول:

فَاللَّهُ أَنْعَمَ فِي الْوَرَى بِوُجُودِهَا هِيَ أَعْظَمُ الْأَلَاءِ وَالنِّعَمَاءِ
وَلَهَا عُمُومٌ إِفَاضَةٍ وَإِفَادَةٍ أَعْطَى رَبُّ الْخَلْقِ بِالْإِعْطَاءِ^(٢)
نُورٌ بَدَا مِنْ فَضْلِ رَبٍّ لَمْ يَزَلْ مَنْ ذَا الَّذِي يُفْنِيهِ بِالْإِطْفَاءِ
فَلَهَا فَضَائِلٌ لَا يُحِيطُ بِذِكْرِهَا مَنْ وَاصِفٍ يُطْرِيه بِالْإِطْرَاءِ
ظَهَرَتْ مَنَافِعُهَا كَشَمْسٍ ظَهِيرَةٍ فَاقَتْ عَلَى الْأَنْوَارِ فِي الْأَضْوَاءِ^(٣)

والعيد من تلك المناسبات الاجتماعية التي عبر عنها شعر المناسبات، ولكن الشاعر أباحفظ هنا لم يحتفل بالعيد، ولم يتطرق إلى ذكر السرور؛ لأنه منغص الحياة، مكدر العيش، محزون البال؛ لما أصاب أمته من نكبة، وما يُجرى فيها عدوها من قتل وتشريد وتدمير، فيرى أن العيد للشهداء الذين قضوا نحبتهم في سبيل الدفاع عن دينهم، فهؤلاء

١ - الأواء: الشدة وضيق المعيشة (النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، ص ٤ / ٢٢١، تحقيق: محمود محمد الطناجي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ).

٢ - البيت مكسور، وهو هكذا في المصدر.

٣ - تقرير الاحتفال الثالث لندوة العلماء سنة ١٣١٣ هـ ص ٢٠-٢٢.

الأحرار أصحاب الهمم العالية هم المستحقون للطرب والسرور يوم العيد، أما الخليون فلا حق لهم في فرح العيد وسعاداته، يقول:

قَالُوا: أَتَى الْعِيدُ بِالتَّبَشِيرِ وَالطَّرِبِ وَقُلْتُ: بَلْ زَادَ فِي الْأَحْزَانِ وَالْكَرْبِ
مَسَرَّةَ الْعِيدِ مِنْ غَيْرِ الْعُلَى نَصَبٍ فَخُنْ فِي فَرَحٍ، بَلْ نَحْنُ فِي نَصَبٍ
الْعِيدُ حَقًّا لِأَحْرَارِ دَوِي هِمِّ فِي الْحَرْبِ لَا فِي صُرُوحِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ
الْعِيدُ لِلشَّهْدَاءِ الْغُرِّ قَدْ نَحَرُوا فِي «الْقُدْسِ» أَنْفُسُهُمْ لِلْفَوْزِ بِالْأَرْبِ^(١)

ولم يكتف الشاعر العربي في الهند بذكر أعياد إسلامية فقط، بل تطرق الشعراء إلى ذكر أعياد غير إسلامية أيضاً، وذلك استجابة لوعي البيئة التي كانوا يعيشون فيها، ولا غرو في تأثرهم بها، ومن ذلك ما قاله الشاعر السيد ناصر حسين اللكهنوي في النيروز، يقول:

حَانَ الرَّبِيعُ بَعْدَ وَعَتَادٍ وَأَتَى بِعِيدٍ أَعْظَمَ الْأَعْيَادِ
ولم يقتصر الشاعر - مع إسلامه - على تسمية النيروز عيداً بل سماه أعظم الأعياد، وفيه تأثر واضح بالثقافة الفارسية، كما فيه أثر واضح لعقيدة الشيعة الذين يرجعون إلى الفرس في كثير من عاداتهم وتقاليدهم، ويتخذونها منهجاً لهم، ثم يصور الشاعر ذلك اليوم، فيقول^(٢):

يَوْمٌ بِهِ أَضْحَى الرِّيَاضُ كَأَنَّهَا حُلِّلَ مُقَوِّفَةٌ مِنَ الْأَبْرَادِ^(٣)
قَدْ عَطَّرَتْ مَيْدًا لِبَاسَ خَرِيدَةٍ أَدْنَى مَلَابِسِهَا صَبِغُ الْجَادِي^(٤)
قَدْ أَطْرَبَتْ بُورُودَهَا وَرُهُورَهَا وَبِكُلِّ غُصْنٍ لِلصَّبَا مِيَادٍ

١- الأبيات للشاعر أبي محفوظ الكريم المعصومي، حصلت على نسخة منها من الشاعر نفسه.

٢- الإعلام ٣/ ١٣٨٨.

٣- الأبراد: ج بُرد: ثوب مخطط، مُقَوِّف: رقيق (القاموس: ب رد، ف و ف).

٤- الجادي: الزعفران (القاموس: ج و د).

قَدْ صَابَهَا الْوَسْمِيُّ ثُمَّ وَلِيَهَا مِنْ بَعْدَمَا سُقِيَتْ بِصَوْبٍ عَهَادٍ^(١)
قَدْ وَافَقَ الْأَنْهَارَ مَطَرٌ وَإِنَّهَا تَجْرِي كَصَبِّ مُسْتَهَامٍ صَادٍ
فَحَمَائِمُ الْبُسْتَانِ فِيهِ هَوَاتِفٌ وَسَوَاجِعُ الْكِعْتَانِ فِيهِ شَوَادٍ^(٢)
لَا غَرَوْ لَوْ طَرَبْتَ وَغَنَّتْ أَنَّهُ يَوْمٌ أَتَى بِالْحَظِّ وَالْإِسْعَادِ

صور الشاعر ما في ذلك اليوم من طرب ونشاط، وجمال في الجو والمنظر، فالمطر نازل، والأنهار جارية، والأغصان مائلة، والأفنان في طرب، والرياض كأنها مخوفة ببرد، والأزهار متفتحة، والأنوار متكثرة، والبلابل ساجدة أنواع الألحان...، فالجو كله في الطرب والسعادة، ثم يذكر الشاعر مكانة ذلك اليوم عند الناس، فيقول:

يَوْمٌ مُنِيرٌ بَيْنَ أَيَّامِ الْوَرَى مُتَوَقِّدٌ كَالْكُوكَبِ الْوَقَّادِ
يَوْمٌ لَهُ شَرَفٌ عَلَيَّ شَامِخٌ يَسْمُو عَنْ الْغَايَاتِ وَالْأَبْعَادِ
يَوْمٌ أَقَرَّ بِفَضْلِهِ أَهْلُ النَّهَى مِنْ مُشْرِكٍ أَوْ مُسْلِمٍ مُنْقَادِ

ومن الصعب موافقة الشاعر في البيت الأخير حيث يرى أن أصحاب العقول من جميع الأديان (الإسلام وغيره) اعترفوا ليوم النيروز بالفضل، مع أن المسلم العاقل المطيع لربه لا يمكن أن يقر لهذا اليوم بالفضل أو يسميه عيداً؛ لما فيه من مشابهة بالكفار المجوس في أعيادهم وشعائهم الدينية.

ولم ينس الشعر العربي في الهند أن يسجل الأحداث المؤلمة والمناسبات الحزينة، التي حصلت في هذه الفترة، من ذلك تلك الأحداث الدامية والاضطرابات الطائفية التي بدأت في شتى أنحاء الهند قبل استقلال الهند عن الاستعمار الإنجليزي بسنوات واستمرت إلى يومنا هذا، وكان أقربها مجزرة غجرات^(٣)، فما قيل فيها ما قاله الشاعر الشيخ أبو محفوظ الكريم المعصومي في اضطرابات «بهار شريف»^(٤)، عبّر فيه عن ألمه

١ - صوب: الانصباب، عهاد: مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله (القاموس).

٢ - الْكِعْتَانِ الْبَلَابِلُ، واحدها الْكِعْتِ (القاموس).

٣ - اسم ولاية في غرب الهند.

٤ - اسم منطقة في ولاية بهار في شمال الهند.

البالغ، وحزنه الشديد تجاه تلك الأحداث السوداء السيئة الظالمة، يقول:

هَلَا تُرِيْقُ دُمُوعَ الْحُزَنِ أَجْفَانُ هَلَا تَحِرُّ مِنَ الْعَلْيَاءِ شُهَبَانُ
هَلَا تَذُوبُ سُودَاءُ الْحَشَا فَلَقًا وَزُلْزَلَتْ مِنْ حِمَى الْإِسْلَامِ أَرْكَانُ

وصور الشاعر حالة المسلمين وما هم فيه من جور وتعطيل للقوى، وما أصيبوا من خور وضعف في الهمم، ونسيانهم ما كان لآبائهم من عز شامخ، وملك عريض، يقول:

مَاتَ الْقُلُوبُ وَقَدْ مَاتَتْ عَزَائِمُهَا فَلَحْذُهَا الْجِسْمُ وَالْأَهْوَاءُ أَكْفَانُ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسُودُوا قَبْلَ مِنْ زَمَنِ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ

كما دعا الشاعر المسلمين إلى الاستيقاق من سباتهم العميق، ووبخهم على نومهم الطويل، ويحذرهم وينذرهم، يقول:

اللَّهُ أَكْبَرُ، قُومُوا أَجْمَعُونَ مَعَا أَمَّا لَكُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ آذَانُ
أَمَّا لَكُمْ مِنْ قُلُوبٍ تَفْقَهُونَ بِهَا أَمْ أَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ عُمَيَّانُ
صَبَّ الزَّمَانُ عَلَيْنَا سَوَاطِلَهُ نُذْرًا إِنَّ الزَّمَانَ نَذِيرٌ وَهُوَ عُرْيَانُ^(١)

ولا يخفى تأثر الشاعر بقصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس التي مطلعها يقول:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ فَلَا يُغَرِّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ^(٢)



١- هذه القصيدة حصلت عليها من الشاعر نفسه.

٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ٢٨٧/٤.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية للشعر العربي في الهند

وفيه مبحثان:

- المبحث الأول : خصائص الشكل.
- المبحث الثاني : خصائص المضمون.

المبحث الأول

خصائص الشكل

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول : الألفاظ والتراكيب.
- المطلب الثاني : الصورة الفنية.
- المطلب الثالث : موسيقى الشعر.
- المطلب الرابع : بناء القصيدة.

المطلب الأول

الألفاظ والتراكيب

من أهم ما امتاز به الشعر عن النثر قدرته على التأثير في نفوس المتلقين، وإثارة مشاعرهم، وتحريك وجدانهم، يقول ابن رشيق القيرواني: «إنما الشعر ما أطرب، وهز النفوس، وحرك الطباع»^(١) ولا شك في أن الأسلوب الرفيع، وعرض الفكرة في صياغة رائعة كل هذا له دور هام في إيجاد هذا التأثير. ولذا قالوا: «إنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير»^(٢).

ولما كانت الألفاظ هي الركيزة الأولى في النص الأدبي، منها يتكون الكلام وتتركب الجمل، ومنها يحدث التصوير الفني والتنظيم الصوتي، وهي هامة في ذاتها، وفي تركيبها مع غيرها وهي بمثابة اللبنة التي يبني بها الشعراء أعمالهم الجليلة، ومآثرهم الخالدة، فقد عُني بها الشعراء والبلغاء، وبالغوا في اختيار كلماتٍ تساعدهم على الوصول إلى هدفهم والبلوغ إلى مراميهم من حيث إيجاد التأثير للقول، وإضفاء الجمال على الكلام، ولهم ملكة خاصة بها يستطيعون أن يتخيروا من ألفاظ اللغة ما يرونه أقدر من غيره على إثارة المشاعر^(٣).

كما وقف النقاد طويلاً عند هذه الألفاظ والمفردات، يدرسونها، ويبينون مواطن الحسن فيها، وقد اشترطوا فيها صفاتٍ عديدةً، من أهمها: السهولة والألفة، والدقة، والإيجاء، والرقعة، والجزالة.

واتسمت الألفاظ في الشعر العربي في الهند- في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين- بكثير من هذه المميزات، منها:

(١) الألفة والسهولة:

هذه أولى الصفات وأهمها التي طالب النقاد بتوافرها في الألفاظ، وذلك لأن «المألوف محبوب، وغيره مكروه»^(٤). والألفاظ السهلة المألوفة تميل إليها القلوب، وتنجذب إليها المسامع، وتنفذ من خلالها إلى النفوس.

١- العمدة ١/ ١٢٨.

٢- كتاب الحيوان، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون ٣/ ١٣٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م، وكتاب «دلائل الإعجاز»، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، ص ٢٥٦، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٣- في النقد الأدبي، د. عبد العزيز عتيق، ص ١٦٨ «بتصرف»، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢م.

٤- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي بن محمد الجرجاني، ص ٤، تحقيق: د. عبد القادر حسين، دار نهضة مصر القاهرة.

والمقصود بالألفة كون الكلمة واضحة المعنى، تلج إلى فهم القارئ سريعاً، وتُشعر المتلقي أن بينهما ألفة لقدم عهده بها، وسابق معرفته لها. ولا تكون وحشية غريبة، «لا يظهر معناها إلا بالبحث والتنقيب عنها في كتب المعاجم»^(١) والمقصود بالسهولة أن يكون اللفظ «سمحاً، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة»^(٢).

كانت هذه السمة هي الغالبة في الشعر العربي في الهند، ويمكن أن نمثل لذلك بقول الشيخ عبد الرشيد الكشميري^(٣):

حَيَّا إِلَـهَ مَرَابِعِ الْجِيرَانِ	كُنَّا بِهَا نَلْهُو مَعَ الْغَزْلَانِ
وَنَقِيلُ عِنْدَ أَبَاطِحِ حَصَائِثُهَا	أَزْرَتْ بِدُرٍّ فِي نُحُورِ عَوَانِ
وَسَقَى رِياضاً عَابِقَاتٍ أَتَحَفَّتْ	عُرْفَ الْجَنَانِ بِمُهْجَةِ الْوَلْهَانِ
وَأَطَالَ عُمَرَ حَدَائِقِي سَجَعَتْ لَهَا	وُرُقُ الْهُدَى بِرَقَائِقِ الْأَلْحَانِ
وَأَدَامَ ظِلَّ الْأَيْكِ أَيْكِ دَلَائِلِ	فِيهَا ظَفَرْتُ بِمَقْصِدِ الْإِثْقَانِ
وَرَعَى الْمُهَيِّمُ عُصْبَةً مِنْ سُنَّةٍ	سَكَنُوا مَنَازِلَ مُقْلَتِي وَجَنَانِي ^(٤)

وبالتأمل نجد أن هذه الأبيات كلها تشتمل على كلمات سهلة المخارج، واضحة المعاني، تسرع إلى الفهم بدون حاجز ولا عائق، وبدون تأخير أو استبطاء.

ولا غرو فإن الشاعر يتكلم عن تلك المحجة البيضاء التي توضح معالم الهدى، وتنير دروب الحق، وتبين السبيل القويم، والتي كان عليها رسول الأمة ﷺ وصحابته

١- الإيضاح في علم البلاغة، الخطيب القزويني، تعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، ص ٧٣ بتصرف، دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢- نقد الشعر، قدامة بن جعفر ص ٢٨.

٣- هو الشيخ: عبد الرشيد بن محمد شاه الشوباني الكشميري. ولد بكشمير، تولى الإفتاء في بهوفال. ثم أمر بجلائه فذهب إلى هوشنك آباد.

من تصانيفه: «القطر الصيب في مدح الإمام أبي الطيب»، و«نزل من اتقى في أخبار المنتقى» توفي سنة ١٢٩٨هـ. (الإعلام ١٠١١/٣)

٤- الإعلام ١٠١١/٣.

والتابعون لهم بإحسان في كل زمان ومكان، وفي كل عصر وقطر.
ومثله يقول السيد إعجاز أحمد السهسواني^(١):

يَهْوَى الْفَتَى لَذَّةَ الدُّنْيَا وَيَأْمُلُهَا وَلَا نَصِيبَ لَهُ مِنْهَا سِوَى الْأَلَمِ
تَبَاً لِلدَّارِ فَنَاءٍ لَا بَقَاءَ لَهَا وَلَا مَصِيرَ لِأَهْلِهَا سِوَى الْعَدَمِ
فَهَبْ مِنْ رَقْدَةِ الْغَفَلَاتِ، نَلْ فُرْصاً فَلَيْسَ يَنْفَعُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ نَدَمٍ^(٢)

يبين الشاعر في هذه المقطوعة حقيقة الدنيا، ومآل الناس فيها وهو العدم، ويدعو إلى الاستعداد للآخرة، إذ لا تنفع الندامة بعد فوات الأوان.

واستخدم في هذه المقطوعة كلمات كلها سهلة مألوفة واضحة، قريبة المعاني، لا يكدر الذهن في الوصول إليها، ولا يحتاج القارئ إلى مراجعة كتب اللغة والمعاجم لفهمها.
(٢) الدقة والإيجاز:

الترادف والتقارب في المعنى بين الكلمات المختلفة، وكثرة المفردات من ميزات اللغة العربية،^(٣) وهذا التقارب والترادف، وتلك السعة والكثرة قد يوقعان الشاعر في الخلل، إن لم يوفق في اختيار الكلمة المناسبة للمعنى المقصود أدائه و«التمييز بين الألفاظ شديد»^(٤) والشاعر مطالب باختيار كلمة دقيقة «تكون نصاً في المعنى المراد»^(٥) «لا تزيد عليه، ولا تقصر عنه»^(٦) «بل تحيط به، وتجلى عنه»^(٧).

ولا يتأتى هذا إلا بالقدرة التامة على اللغة، ووضوح الفكرة تماماً في ذهن الشاعر.

١- هو الشيخ إعجاز أحمد بن عبد الباري بن سراج أحمد الحسيني النقوي، ولد عام ١٢٩٤ هـ. درس على الشيخ محمد بشير السهسواني، والمحدث حسين بن محسن الأنصاري البمني، وعلى غيرهما. عمل رئيس قسم اللغتين العربية والفارسية في مدرسة بيداغوجيون، ثم عين نائب العميد في كلية فيض آباد. له: «تسليّة الفؤاد بترجمة بانث سعاد»، و«توقيع الفريد في تذكّار أدباء الهند»، و«ارشحات الكرم في شرح نصوص الحكم للفارابي»، و«ديوان شعر بالفارسية، وغيرها».

٢- الإعلام ٣/ ١١٩٠.

٣- ينظر للاستزادة في الموضوع: فقه اللغة العربية وخصائصها، د. إميل بديع يعقوب، ص ١٧٣ - ١٧٧، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٢ م.

٤- أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد أحمد بدوي، ص ٤٥٢. دار نهضة مصر القاهرة.

٥- في النقد الأدبي عند العرب، د. محمود درويش ص ١٨٤.

٦- كتاب «الصناعتين»، لأبي هلال العسكري ص ١٩.

٧- المرجع السابق ص ٣١.

كما أن الشاعر مطالب بانتقاء لفظ موح وهو الذي «يثير في النفس معاني كثيرة تحيط به غير مدلوله اللغوي»^(١). وهذه الإثارة تتأتى للفظ «تارةً بجرسه الذي يلقى في الأذن، وتارةً بظله الذي يلقى في الخيال، وتارةً بالجرس والظل جميعاً»^(٢). وقد تمكن شعراء الهند من توفير هذه الميزة في كثير من ألفاظهم ومفرداتهم، ومن ذلك قول الشيخ السيد سليمان الندوي في وصف الشمس عند مغيبها:

كَأَنَّهَا الشَّفَقُ الْمُمْتَدُّ فِي الْأَفْقِ خَمَرٌ مُعْتَقَةٌ شُجَّتْ لِمُعْتَبِقٍ^(٣)
 خَمَرٌ يُعْتَقُّهَا أَعْلَى هِمَالِيَةٍ شُجَّتْ بِهَمَاءِ غَمَامٍ هَامِرٍ غَدِقٍ^(٤)
 كَفُّ الطَّيِّعَةِ تَسْقِي النَّاسَ أَكْؤُسَهَا وَيُلِّ لِمَنْ هَذِهِ الصَّهْبَاءُ لَمْ يَذُقِ^(٥)

قد وفق الشاعر في اختياره - من بين الكلمات الكثيرة التي تدل على الخمر - كلمة الصهباء، ذات الجرس الجميل، والنغمة الموسيقية، بحرف الصاد المهموسة ذات الصغير، ثم المد في الآخر، والتي تنقل ذهن القارئ إلى عالم الطرب والسكر والنشوة الذي يعيشه الشارب بعد تمكن الخمر منه.

كما استطاع أن ينقل إلينا - من خلال هذه الكلمة - ذلك الأثر الذي وجدته في نفسه حين مشاهدته هذا المنظر البهيح، الذي سيطر على نفسه، وأذهله عن كل ما حوله. ومثال آخر نراه عند الشيخ السيد حامد حسين الفيض آبادي^(٦) في مقدمته الغزلية التي افتتح بها مديحه لسيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، يقول:

١ - اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، منصور عبد الرحمن، ص ١١٣، دار العلم للطباعة، القاهرة ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٢ - النقد الأدبي، أصوله ومناهجه ، سيد قطب، ص ٤٠، دار الشروق، القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣ - شج الشراب: مزجه، اعتبق: شرب الغبوق، وهو ما يشرب بالعشي. (القاموس المحيط: مادة ش ج، ومادة غ ب ق).

٤ - همالية: علم جبل حاجز بين الهند والصين، يعد أعلى سلسلة جبلية في العالم. غَدَقَ: الماء الكثير. (القاموس المحيط. مادة غ د ق) و(المصباح المنير مادة غ د ق)، ومنه قوله تعالى: «لأسقيناهم ماء غدقاً» سورة الجن: ١٦. الصهباء: الخمر، أو المعصورة من غب أبيض، اسم لها كالعلم. (القاموس مادة ص ه ب).

٥ - الإعلام ٣/ ١٢٣٨.

٦ - هو: حامد حسين بن الحسين الحسيني الشيعي الفيض آبادي، ولد سنة ١٢٨٧هـ، تتلمذ على السيد حامد حسين الكتتوري، وابنه السيد ناصر حسين بن حامد حسين، وبرع في الأدب والتاريخ والسيرة، لم أعثر له على تاريخ الوفاة. (الإعلام ٣/ ١٢٠٧).

أَلْحَاطُهَا قُضْبٌ، وَالْفَرْقُ مُتَضِحٌ تَبَقَّى دُهُورًا بِحَالِ النَّزْعِ قَتْلَاهَا^(١)

فقد أراد الشاعر باستخدامه كلمة «النزع» تصوير تلك المتاعب التي يعانيتها عشاق هذه المحبوبة في حبها، ويرأها تقابل تلك الآلام التي يتحملها الإنسان الذي حضرته المنية، وعنده جنوح وشوق إلى البقاء في الدنيا، والملائكة تفلع روحه بقوة وجذب. وقد أخبرنا النبي ﷺ «أن للموت لسكرات»^(٢) وكان يقول: « اللهم أعني على سكرات الموت »^(٣) مع أن مدة الاحتضار إن طالت ساعات لا تزيد عادة على أيام، فكيف إذا استمرت دهوراً طويلة؟

فهؤلاء المحبون يتعبون هذه الآلام الطويلة ويبقون معدّين، معلقين بين الحياة والموت، لا تخرج أرواحهم فيستريحوا، ولا يعافون فيستأنفوا الحياة. كما أن كلمة «قُضْبٌ» تدل - بجرس حروفها الشديدة، وهي القاف والضاد والباء، وحركتها القويّة الضمة، وتوالي هذه الحركة في حروف الكلمة الثلاثة كلها - على شدة القطع وقوته، وسرعة مضاء هذه الألفاظ في الفتك والتقتيل.

(٣) التراكيب:

الألفاظ بمثابة اللبنة الأولى في النص الأدبي، لكنها « لم توضع لعنرف معانيها في نفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض »^(٤) ويتركب بعضها إلى أخرى. وقد وضع النقاد عدة مقاييس للتراكيب الجيدة، من أهمها: أن تكون حسنة التأليف، واضحة الدلالة، دقيقة، موحية، وأن تكون ألفاظها ملائمة للمعاني، وألا تسير على نمط واحد، بل تتنوع بين الخبر والإنشاء، والتوكيد وعدمه على حسب المقام.

١- قُضْبٌ: جمع قضيب وقاضب بمعنى القطاع من السيوف. (السان والصحاح مادة ق ض ب) النَّزْعُ: نزع المريض نزعاً: أشرف على الموت، وهو في النزع، أي في قلع الحياة. (القاموس والمصباح المنير: مادة (ن ز ع) ينظر الإعلام ٣/ ١٢٠٧.

٢- أخرجه الترمذي، كتاب الجنائز، باب إن للموت لسكرات، وابن ماجة، كتاب الجنائز، باب إن للموت لسكرات، وأحمد ٦/ ٦٤، ٧٠، ٧٧، ١٥١.

٣- أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت.

٤- دلائل الإعجاز للجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر ص ٥٣٩.

وقد توافر في الشعر العربي في الهند كثير من هذه المقاييس، منها:

(١) وضوح التراكيب وحسن تأليفها:

والوضوح شرط في التراكيب كما هو شرط في الألفاظ؛ وذلك لأن المقصود من الكلام هو الإفصاح والبيان، فإن لم تكن التراكيب واضحة المعنى، سهلة التناول، حسنة التأليف، لم تف بغرض المتكلم.

ولا تكون التراكيب واضحة سهلة إلا إذا اختار المتكلم كلمات فصيحة، ثم ركب بعضها إلى بعض مراعيًا قواعد النحو، بعيداً عن الوقوع في التعقيد، فلا يفرق بين ما حقه الجمع، ولا يصل ما حقه الفصل، ولا يتصرف بالتقديم والتأخير تصرفاً يعيق فهم المعنى، أو يتعذر معه الوصول إليه. ولا بد من التفرقة بين الغموض الناشئ عن سوء التأليف، أو التعقيد، وبين كون المعنى طريفاً عميقاً لا يصل إليه القارئ إلا بعد طول النظر ومعاودة الفكر؛ إذ الأول عيب في الكلام وقبح في المتكلم، والثاني يمتاز به الكلام ويحسب لقائله.

ومن أمثلة وضوح التراكيب وحسن التأليف ما قاله الشيخ محمد فاروق الجرياقوتي^(١):

هَنِيئًا لِلَّذِي جَابَ الْمَوَامِي	وَرَامَ رُقِيَّ أَسْبَابِ الْكَمَالِ
عَلَى ظَهْرِ الْخُيُولِ يُقِيمُ يَوْمًا	وَأَيَّامًا عَلَى قَتَدِ الْجَمَالِ
وَكَمْ بِخَرٍ يَسِيحُ بِغَيْرِ زَادٍ	وَكَمْ أَرْضٍ يَجُوبُ بِلاَ انْتَعَالِ
تَحَامِي زَهْرَةَ الدُّنْيَا نُفُورًا	وَأَنْكَرَ جَمْعَ مَالٍ وَالْمَوَالِي
وَدَامَ مُعَاقِرًا كَرَبَ الرِّزَايَا	وَعَاشَ مُوَاطِبًا سَهْرَ اللَّيَالِي ^(٢)

نرى الشاعر قد وفق في انتقاء كلمات تستوفي شروط الفصاحة من حيث خلوها من

١- هو الشيخ الفاضل محمد فاروق بن علي أكبر العباسي الجرياقوتي، ولد بجرياقوت، قرأ على أخيه عناية رسول، وعلى الشيخ أبي الحسن المنطقي، والشيخ رحمة الله بن نور الله اللكهنوي، والمفتي يوسف بن محمد أصغر اللكهنوي. درّس في مدارس كثيرة، منها دار العلوم ندوة العلماء بلكهنوء. له رسائل عديدة في بعض الفنون. توفي سنة ١٣٢٧هـ. (الإعلام ٣/ ١٣٧١).

٢- الإعلام ٣/ ١٣٧١.

تنافر الحروف، والغرابية، ومخالفة القياس، كما نجح في تأليفها على نمط سهل، وإبرازها في صورة واضحة مشرقة، تصغي إليها الأذان، وتصبو إليها القلوب. ومثال آخر لهذا ما كتبه الشيخ حيدر حسين اللكهنوي^(١) إلى السيد مهدي المصطفی آبادي، يقول:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي سَلَامٍ وَدَادٍ خَذْنًا، صَدِيقًا، سَاكِناً بِفُؤَادِي
مَلَكَ الْفُؤَادَ وَدَادُهُ، وَفِرَاقُهُ أَوْرَى ضِرَامَ الْوَجْدِ فِي الْأَكْبَادِ
أَرْجُو إِلَهِي أَنْ يُيسِّرَ وَضْلَهُ فَلِقَاءَهُ أَشْهَى مَقْصِدِي وَوَدَادِي^(٢)

فهذه المقطوعة التي بعث بها الشاعر لوحات قلبه المتوجع إلى صاحبه الذي اشتاق إلى لقائه، تضمنت ألفاظاً سهلةً ميسرةً، مركبة بطريقة سهلة متناولة، لا يشوبها غموض ولا تعقيد.

(٢) الملاءمة بين الألفاظ والمعاني:

طالب النقاد الشاعر أن يوافق بين الألفاظ والمعاني، وينوع في اختيار الألفاظ والتراكيب حسب تنوع الأغراض، ولا يجري كلامه كله على نمط واحد، بل «يأتي مرة بالجزل، وأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشتد إذا أراد»^(٣) ورأوا أن لكل غرض أسلوباً لا يصلح في غيره، وكلمات لا تناسب ما عداها. يقول القاضي الجرجاني: «أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مدحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتب كلاً مرتبته وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت»^(٤). وليس المقصود بالجزل ما كان غريباً وحشياً متقعراً، وإنما ما كان «متيناً على عذوبته

١- هو الحكيم حيدر حسين اللكهنوي، ولد ونشأ بلكهنو، برز في الأدب والطب، ودرس على المفتي عباس بن علي التستري وغيره من العلماء، ثم لازم الحكيم مظفر حسين اللكهنوي، وأخذ عنه الطب، وعمل بدار الشفاء السلطاني بمدينة لكهنوء، لم أعثر له على تاريخ الوفاة. (الإعلام ٣/ ١٢٢٠).

٢- الإعلام ٣/ ١٢٢٠.

٣- الصناعتين ص ٣٤.

٤- الوساطة ص ٢٤.

في الفم، ولذاذته في السمع»^(١) ويناسب مواقع القوة والشدة كوصف المعارك والحروب وذكر البطولة والفروسية.

وليس المقصود من الرقيق أن يكون ضعيفا، ركيكا، رديئا، وإنما هو اللطيف، الرقيق الحاشية، الناعم الملمس»^(٢). ونجد أن كثيرا من الشعر العربي قد توافر فيه هذا الشرط، فمثال الجزل ما قاله الشيخ حميد الدين الفراهي في قصيدته المسماة بـ « في ذكر الملحمة الكبرى »، يقول فيها:

لَقَدْ حَلَّ بِالرُّومِ شَرٌّ شَمِرَ	فَنَارُ الْخُرُوبِ بِهِمْ تَسْعِرُ
فَهُمْ حَصَبٌ كَالْهَشِيمِ الْيَبِ	سِ يَصْلُونَهَا زُمَرًا زُمَرُ
رَحَى الْحَرْبِ تَطْحَنُهُمُ وَالْدَّمَاءُ	تُدِيرُ الرَّحَى مِثْلَ جَرِي النَّهْرِ
فَكَمْ أَلْفَ أَلْفٍ وَكَمْ مِثْلَهَا	قَتِيلٌ وَكَمْ مِثْلَهَا قَدْ أُسِرَ
وَكَمْ أَلْفَ أَلْفٍ وَكَمْ مِثْلَهَا	عَلَى مَوْرِدِ مَالِهِ مِنْ صَدْرَ
وَكَمْ بَلَدٍ عَامِرٍ قَدْ خَوَى	وَكَمْ هُدًى مِنْ أَطْمٍ مُشْمَخِرَ
فَيَا بُؤْسَ حَرْبٍ لِرُوعَاتِهَا	تَرَى كُلَّ مَمْلَكَةٍ تَقْشَعِرُ
جَتَّتْهَا أُورُبَّا وَلَكِنَّهَا	إِلَى مُتَهَى الشَّرْقِ تَرْمِي الشَّرَرَ ^(٣)

ومثال آخر لهذا ما قاله الشيخ ذو الفقار علي الديوبندي في مدح السلطان عبد الحميد العثماني ووصف حرب نشبت بين الدولة العثمانية والروس، يقول فيها:

لِلَّهِ جَيْشُكَ أَبْطَالُ النَّزَالِ وَمَنْ فِي	الْكَرِّ كَاللَّيْثِ، فِي التَّمَكُّينِ كَالْجَبَلِ
أَبْنَاءُ حَرْبٍ، قِتَالُ الْعُلْجِ بُغْيَتُهُمْ	آسَادُ حَرْبٍ لَهُمْ غَابٌ مِنَ الْأُسُلِ

١- المثل السائر ١/ ١٨٥.

٢- المرجع السابق ١/ ١٨٥-١٨٦.

٣- ديوان الفراهي ص ٢٨.

الْحَائِضُونَ غَمَارَ الْمَوْتِ مِنْ طَرَبٍ وَالْقَاهِرُونَ عَلَى الْأَقْيَالِ وَالْبُسُلِ
قَضَوْا حُقُوقَ الْمَعَالِي بِالسَّلَاحِ وَالْ يَبِضِ الْقَوَاضِي وَالْعَتَالَةِ الذُّبْلِ^(١)

وقد وفق الشاعران في التعبير عن تلك الحروب ومجرياتها، فقد أتوا بكلمات وتراكيب قوية فخمة، تملأ الأسماع بجرسها القوي، وتنقلنا إلى ميدان المعركة، وساحة القتال. وأرى الشيخ ذا الفقار علياً أكثر توفيقاً وأشد إصابةً حيث يخيّل إلى السامع أن ألفاظه وتراكيبه « كأنها رجال قد ركبوا خيولهم، والتأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد »^(٥). وإذا تركنا الألفاظ والتراكيب الجزلة إلى الألفاظ والتراكيب الرقيقة نرى من أمثله مقطوعة الشيخ المفتي محمد صدر الدين آزرده في مقطوعته الغزلية التي يصور بها أيام أنسه وهواه، ويذكر عهد صباه، ويقول:

وَكُنَّا كَغُصْنِي بَانَةٍ قَدْ تَأَلَّفَا عَلَى دَوْحَةٍ حَتَّى اسْتَطَالَا وَأَيَّنَعَا
يُعْنِيهِمَا صَدْحُ الْحَمَامِ مُرَجَّعَا وَيَسْقِيهِمَا كَأْسُ السَّحَابِ مُثْرَعَا
سَلِيمَيْنِ مِنْ خَطْبِ الزَّمَانِ إِذَا سَطَا خَلِيَيْنِ مِنْ قَوْلِ الْحُسُودِ إِذَا سَعَا
فَفَارَقْنِي مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ جَنِيْتُهُ وَأَلْقَى بِقَلْبِي حُرْقَةً وَتَوَجَّعَا
عَفَا اللَّهُ عَنْهُ مَا جَنَاهُ فَإِنَّنِي حَفِظْتُ لَهُ الْعَهْدَ الْقَدِيمَ وَضِيْعَا^(٣)

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما قاله الشيخ حيدر علي الرضوي في ذكر شوقه إلى لقاء شيخه وأستاذه المفتي محمد عباس التستري، يقول:

أُسْرْتُ بِسَجْنِ الْبُعْدِ فِي دَارِ غُرْبَةٍ بِهِ رَقٌّ لِي إِنْسَانٌ عَيْنِي بَاكِيا
أَقْلَبُ جَنِيًّا فِي الْمَضَاجِعِ كُرْبَةً بِدَمْعِ سَكِيبِ أَحْمَرِ اللَّوْنِ قَانِيَا

٤ - السلاهب ج سلهب: وهو الطويل من الخيل والناس (لسان العرب س ل ه ب). العتلة: العصا الضخمة من حديد لها رأس مفلطح (لسان العرب ع ت ل).

٥ - المثل السائر ١/ ١٩٥.

٦ - آثار الصناديد، سرسيد أحمد خان بهادر، ص ٥٣٠، سنترل بكديو، اردوبازار، دهلي ١٩٦٥.

أَحْسُ بِصَدْرِي نَارَ وَجْدٍ تَأَجَّجَتْ نَوَائِرُهَا قَدْ كَادَ^(١) تَحْرِقُ بِأَلْيَا
وَلَكِنَّ جَزْيَ الْعَيْنِ كَالْعَيْنِ فِي النَّوَى لَأَطْفَى ضَرَامًا أُوقِدَتْ بِفُؤَادِيَا^(٢)

وقد وفق الشاعران في استخدامهما الألفاظ والتراكيب الرقيقة التي تكاد تذوب من رقتها، فإن ذلك يلائم الغرض الذي نظما فيه، فالشيخ صدر الدين يتحدث عن ذكرياته السعيدة مع حبيبته ولهوه معه وأنسه به، ثم ما تحول إليه حالها من حصول البعد والفراق، فأحرق البين قلب الشاعر، وأضرَم فيه ناراً .

ويلاحظ أن المفتي ذكّر حبيبته بصيغة التذكير على عادة شعراء الأردية، ويظهر في هذا تأثره بتقاليد الشعر الأردني، وكان من كبار شعراء الأردية في عصره .

أما الشيخ حيدر علي الرضوي فبيّن لشيخه وأستاذه حاله في فراقه، ويصور لوعة قلبه، وشوقه إلى رؤيته، والفوز بلقائه، فأتى بكلمات تميل القلب، وتهزّ المشاعر والوجدان.

١- هكذا في المراجع: والصواب: قد كادت.

٢- الكواكب الدرية - سيد محمد مهدي أديب ص ٦٠ مطبع بستان مرتضوي لکهنو ١٣٠٢، الإعلام ٣/ ١٢٢١.

الخصائص المشتركة بين الألفاظ والتراكيب

(١) كثرة الألفاظ والتراكيب الإسلامية:

سبق أن ذكر^(١) أن اللغة العربية في الهند لم تكن لغة رسمية ولا لغة دراسة عامة، أو لغة محادثة أو مخاطبة بين الشعب، وإنما كان بغية المسلمين من العناية بها هو التعمق في أحكام الشرع، والتفقه في الدين. وكان أغلب شعراء العربية في الهند ينتمون إلى بيئة العلم الشرعي من عقيدة وفقه وحديث وتفسير.

واللغة الشعرية لدى أي شاعر تظل إلى حدٍّ ما خاضعة لعوامل عدة منها ذلك التراث العلمي الذي تتقف فيه وتربى عليه، ومن ثم كثرت الألفاظ والتراكيب الإسلامية لدى هؤلاء الشعراء بحكم ثقافتهم الدينية، ونمثل لذلك بأبيات للشيخ يعقوب بخش راغب البدايوني^(٢) في مدح زين العابدين^(٣) يقول فيها:

سَلَامُ اللَّهِ حِينَئِذَا نَمَّ حِينًا	عَلَى السَّجَّادِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ
نَقِيبِ الْقَانِتِينَ الْخَاشِعِينَ	عَرِيفِ السَّاجِدِينَ الْمُخْبِتِينَ
بِلَا رَيْبٍ إِمَامِ الْمُؤَقِنِينَ	بِلَا خَضَمٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
تَذُلُّ لَهُ الْجَبَابِرَةُ وَلَكِنْ	يَذُلُّ تَوَاضَعًا لِلْخَائِفِينَ
أَلَيْسَتْ دَارُهُ فِي الْحَجِّ كَانَتْ	مَحَلَّ الطَّائِفِينَ الْعَاكِفِينَ
وَلَيْلٍ مِنْ تَهْجِدِهِ نَهَارٌ	وَيُشْرِقُ وَجْهُهُ نُورًا مُبِينًا ^(٤)

١ - ينظر: مبحث « حالة اللغة العربية وآدابها » في التمهيد.

٢ - هو الشيخ يعقوب بخش راغب قادري بدايوني ولد ونشأ وأخذ العلم هناك، ورث عن آباءه مكتبة حافلة بالنوادير فاشتغل بالمطالعة، وحقق بعض الرسائل في الفلك باسم «الأنجم الطوالع» وترجم كتاب «القانون» للبيروني. عين أستاذا في كلية الدراسات الشرعية في جامعة علي كره. له: القصائد الهاشمية، والكوكبية في المناقب العلوية. توفي سنة ١٣٦٧هـ (ينظر: مجلة معارف، العدد ٦١، ص ٣٩٣ - ٣٩٤).

٣ - هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي العلوي المدني، ولد سنة ٣٨هـ. حدث عن أبيه وعن جده مرسلًا، والزهرري، وهشام بن عروة، وأبو الزناد، وأبو سلمة، وطاوس، وغيرهم. توفي سنة ٨٤هـ (سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق مامون الصاغري ٤/ ٣٨٦، مؤسسة الرسائل بيروت ١٤٠٢هـ).

٤ - قصائد الهاشميات، يعقوب بخش راغب قادري بدايوني ص ١٦-١٧.

يلاحظ أنه لا يكاد يخلو بيت من هذه الأبيات من كلمة إسلامية أو من تركيب إسلامي، بل جميع هذه الأبيات تتألف فيها هذه الكلمات والتركيب كالدرارى المضيفة والكواكب المشرقة.

وقد كثرت في الشعر العربي في الهند بعض المفردات الإسلامية، مثل لفظ الجلالة، والرسول، والنبي، والتقوى، والإسلام، والكفر، وغير ذلك، ومن أمثلة ذلك قول الشيخ ذي الفقار علي الديوبندي في مدح الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد وآبائه، يقول^(١):

جَزَاكُمْ رَبُّكُمْ خَيْرَ الْجَزَاءِ عَنِ الْ	إِسْلَامٍ إِذْ قَدْ نَصَرْتُمْ سَيِّدَ الرُّسُلِ
أَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِالنَّصْرِ الْمُبِينِ لَكُمْ	عَنِ الْإِعَانَةِ بِالْأَنْصَارِ وَالْخَوَلِ
وَلَوْ دَعَوْتُمْ أُولِي التَّقْوَى لَخِدَمْتَكُمْ	لَبَّاكُمْ الْكُلُّ مِنْ حَافٍ وَمُتَّعِلٍ
مِنْ كُلِّ مُضْطَهِدٍ، اللَّهُ مُنْتَقِمٌ	لَيْثِ الْوَعَى، غَيْرَ وَهَابٍ وَلَا وَكِلٍ ^(٢)
سُئِلُوا سُيُوفَكُمْ، وَاللَّهُ نَاصِرُكُمْ	عَلَى الطُّغَاةِ مِنَ الْأَوْغَادِ وَالسَّفَلِ
حَتَّامِ حُلُمُكُمْ يُغَرِّبُهُمْ، وَإِلَى	مَتَى سُيُوفُكُمْ فِي الْجَفْنِ وَالْحُلَلِ
تَبَّاءَ لِقَوْمٍ بَغَوْا كُفْرًا بِنِعْمَتِكُمْ	فَأَهْلِكُوا لَوَبَالِ الْمَكْرِ وَالِدَّغْلِ ^(٣)
«فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ»	بَيْنَ الْبَلَاغِ وَالْغَابَاتِ وَالطَّلَلِ ^(٤)

لم يكتب الشاعر هنا بإيراد بعض المفردات أو التركيب الإسلامية فحسب، بل اقتبس - في بيته الأخير - جزءاً من الآية الكريمة في سورة الأحقاف (٥) وجعله شطراً كاملاً للبيت.

(٢) كثرة ألفاظ الطبيعة:

لا شك أن للطبيعة سيطرة على النفوس، وكلما كان الإنسان أرفه حساً كان أشد

١ - قصائد قاسمي ص ١٦. الإعلام ٣/ ١٢٢٦.

٢ - وَكَلٌّ: رَجُلٌ وَكَلَّ وَوَكَّلَهُ وَتَكَلَّلَ وَمَوَاطِلُ: عَجَزَ (القاموس المحيط مادة: و ك ل).

٣ - الدَّغْلُ: دَخَلَ فِي الْأَمْرِ مَفْسِداً جِ ادْغَالَ وَدِغَالَ. (القاموس المحيط مادة: د غ ل).

٤ - الآية ٢٥.

تأثراً بالطبيعة، و«لو أن أديباً استطاع أن يحيا بنجوة من المورثات الاجتماعية والسياسية لجاء أدبه صورةً مطابقةً لبيئته الطبيعية»^(١).

و«للطبيعة أثرها الواضح في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، غنى لها الشعراء وتغنوا بها، ووقفوا أمام مختلف مجاليها، ووهبوا لها أحاسيسهم مستجلين جماها، متأملين روائعها، في السماء والماء، وفي المراعي الخضر والجنان الزهر، وفي الصحراء القاحلة، والمزارع الناضرة، ووصفوا حر الصيف، وزمهير الشتاء، واستقبلوا الربيع الضاحك، وتأثروا بالخریف العاصف إلى غير ذلك مما نبضت به قلوبهم وتحركت له مشاعرهم فصاغوه شعراً جميلاً يصور دخائل نفوسهم ويرسم معالمهم»^(٢).

وقد وجد الشعراء في الهند طبيعةً فاتنةً، حيث المروج الخضراء، والحقول الممتدة، والجبال المكسوة بالغابات الكثيفة، والسهول التي تجرى فيها الأنهار الفسيحة، وتهطل الأمطار الغزيرة، فتنشأ بحيرات ممتدة، وتتغنى الأطياف فتطرب ألحانها، وتتفتح الأزهار، فتفتن ألوانها وأشكالها.

وكثر في شعرهم ورود تلك الكلمات والتراكيب التي تدل على هذه الطبيعة الخلابة الساحرة، ومدى تأثرهم بها، ومن كثر لديه هذه الكلمات والأساليب الشاعر ناصر حسين اللكهنوي، يقول^(٣):

حَانَ الرَّيْبُ بِعِدَّةٍ وَعَتَادِ	وَأَتَى بِعِيدِ أَغْظَمِ الْأَعْيَادِ
يَوْمٌ بِهِ أَضْحَى الرَّيَاضُ كَأَنَّهَا	حُلِّلَ مُفَوِّفَةٌ مِنَ الْأَبْرَادِ ^(٤)
قَدْ عَطَّرَتْ مِنْدًا لِبَاسَ خَرِيدَةٍ	أَذْنَى مَلَابِسَهَا صَبِغُ الْجَادِي ^(٥)
قَدْ أَطْرَبَتْ بُوْرُودَهَا وَزُهُورَهَا	وَبِكُلِّ غُضْنٍ لِلصَّبَا مَيَّادِ

١- أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، ص ١٥، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة، سنة ١٩٥٨ م.

٢- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، د. سعد إسماعيل شلبي، ص ٦٨، دار نهضة مصر بالقاهرة، ١٩٧٨ م.

٣- الإعلام ١٣٨٨/٣.

٤- الأبراد: ج بُرد: ثوب مخطط، مُفَوِّف: رقيق (القاموس: ب ر د، ف و ف).

٥- الجادي: الزعفران (القاموس: ج و د).

قَدْ صَابَهَا الْوَسْمِيُّ ثُمَّ وَلِيَهَا مِنْ بَعْدَمَا سُقِيَتْ بِصُوبٍ عَهَادٍ^(١)
 قَدْ وَافَقَ الْأَنْهَارَ مَطَرٌ وَإِنَّهَا تَجْرِي كَصَبِّ مُسْتَهَامٍ صَادٍ
 فَحَمَائِمُ الْبُسْتَانِ فِيهِ هَوَاتِفٌ وَسَوَاجِعُ الْكِعْتَانِ فِيهِ شَوَادٍ
 لَا غُرُو لَوْ طَرَبَتْ وَغَنَّتْ أَنَّهُ يَوْمٌ أَتَى بِالْحَطِّ وَالْإِسْعَادِ

(٣) التكرار:

عُني النقاد بتكرار الألفاظ والعبارات في العمل الأدبي، فيعدونه عيباً ويطالبون اجتنابه إذا « كان يورث الملل لدي السامع أو القارئ »^(٢) ويستحسنونه إذا ما ارتبط بالمعنى العام، واستغل في مكانه المناسب^(٣) كأن يكون انعكاساً لحالة شعورية ما في نفس الشاعر، هذه الحالة تلح على الشاعر إلحاحاً فلا يجد مناصاً من التعبير عنها إلا بالتكرار، ويكمن مستوى الإبداع في التكرار في الإيحاء الدلالي لتوالي هذه الألفاظ وتلك العبارات^(٤).

وقد وجد التكرار في الشعر العربي في الهند لأغراضٍ مختلفة، وبأنماطٍ متعددة، فمن أنواع التكرار:

(أ) تكرير حرف:

منها قول الشاعر ناصر حسين اللكهنوي المارّ ذكره، فقد كرّر الشاعر فيه كلمة «قد» أربع مرات:

حَانَ الرَّبِيعُ بَعْدَهُ وَعَتَادٍ وَأَتَى بِعَيْنٍ أَعْظَمِ الْأَعْيَادِ
 قَدْ وَافَقَ الْأَنْهَارَ مَطَرٌ وَإِنَّهَا تَجْرِي كَصَبِّ مُسْتَهَامٍ صَادٍ

١- صوب: الانصباب، عهداد: مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله (القاموس).

٢- في ميزان النقد الأدبي، د. طه مصطفى أبو كريشة، ص ٢٥، القاهرة ١٣٩٦ هـ.

٣- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة ص ٢٦٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٩ م - «بتصرف».

٤- المرجع السابق ص ٢٢٩ - «بتصرف».

(ب) تكرر اسم:

ومثاله قول الشيخ حبيب الرحمن العثماني:

إِلَهِي رَجَائِي فَوْقَ ذَنْبِي وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَفْوَ يُنْجِي الْمُرَوَّعَا
وَعَفْوُكَ حَيَّاءٌ، وَعَفْوُكَ شَامِلٌ وَعَفْوُكَ حِصْنٌ كَانَ أَرْسَى وَأَمْنَعَا
وَعَفْوُكَ شَمْسٌ لَا يَقُومُ لَهَا الدُّجَى وَذَنْبِي ظِلَامٌ يَنْجِلِي مُتَقَشَّعَا^(١)

(ج) تكرر جملة كاملة:

ومثاله قول الشيخ المفتي محمد كفايت الله في تهنئة العيد:

يَعُودُ لَكُمْ عَوْدًا مَحِيدًا مُبَارَكًا عَلَيْكُمْ وَفِيكُمْ جَالِبًا لَكُمْ الْمَنَا
يَعُودُ إِلَيْكُمْ مِثْلُ حَبِّ يَزُورُكُمْ فَيَأْتِي بِمَا يَأْتِي الْحَبِيبُ إِذَا أَتَى
يَعُودُ إِلَى مَا تَشْتَهِيهِ وَتَرْضَى مِنَ الْعُمَرِ بِالْخَيْرَاتِ وَالرُّشْدِ وَالْهُدَى^(٢)

(د) تكرير نصف الشطر:

ومثاله أيضاً ما قاله المفتي محمد كفايت الله في القصيدة السابقة:

أَهْنِيكَ يَا مَنْ فَازَ بِالْخَيْرِ وَارْتَوَى بِكَأْسِ دِهَاقٍ مِنْ مَكَارِمَ وَاسْتَقَى
أَهْنِيكَ يَا مَنْ صَادَ أَفْنَدَةَ الْوَرَى بِأَخْلَاقِكَ الزَّهْرَاءِ طَيِّبَةِ الشَّدَى
أَهْنِيكَ يَا مَنْ فَاقَ بِالْفَضْلِ وَالنَّدَى عَلَى كُلِّ مَنْ أُعْطِيَ وَأَنْفَقَ مَا حَوَى^(٣)

وقد وظف الشعراء في الهند هذا الأسلوب لأغراض متعددة، ومن أهمها:

(١) التضرع:

وهذا كثير في شعر الزهد والابتهاال، ومثال ذلك ما قاله الشيخ القاضي طلال محمد البيشاوري:

١ - معين اللبيب في قصائد الحبيب ص ٢.

٢ - نفحة العرب ص ٢٧٢.

٣ - المرجع السابق نفسه.

يَا رَبِّ، يَا سَيِّدِي، يَا مُتَّهَى أَمَلِي مَا لِي سِوَاكَ لِكُشْفِ الضَّرِّ وَالضَّرِّ
يَا رَبَّنَا اَرْحَمْ عَلَيَّ فَقْرِي وَمَسْكَتِي هَبْ لِي ذُنُوبِي وَبَاعِدْنِي عَنِ السَّقَرِ
يَا رَبِّ أَكْرِمْ عَلَيَّ عَبْدٍ سَهَا وَأَسَى فِي الذَّنْبِ مُنْغَمِسٍ، فِي الْإِثْمِ مُنْغَمِرٍ^(١)

فقد كرر الشاعر هنا كلمة «يا رب» مرتين، و«يا ربنا» مرة، وخاطب الله بأوصاف أخرى مرتين متضرعاً إليه راجياً منه العفو والغفران.

(٢) الترجي والاستعطاف:

ومثاله ما قال الشيخ حبيب الرحمن العثماني في أبياته الثلاثة السابقة التي أولها:

إِلَهِي رَجَائِي فَوْقَ ذَنْبِي وَإِنِّنِي لِأَعْلَمُ أَنَّ الْعَفْوَ يُنْجِي الْمُرُوعَا^(٢)

ففي هذه الأبيات كرّر الشاعر كلمة «عفو» خمس مرات، في الأول معروفاً بال، وفي الثاني والثالث مضافة إلى ضمير الخطاب العائد إلى كلمة «إلهي»، يسأل الله تعالى ذلك بإلحاح، ويظهر رجاءه القوي، وأمله البالغ في نيّله مراده، لأنه تعالى عفو يحب العفو.

(٣) التفجع والتحسر:

ومثال ذلك ما قاله الشيخ ظفر أحمد التهانوي في رثاء زوجته:

وَأَفْرَقْتَاهُ لَقَدْ تَقَطَّعَ مُهْجَتِي وَبَقَيْتُ فِي نَكْدٍ أَذَلَّ خَسِيسٍ
وَأَفْرَقْتَاهُ فَلَا قَرَارَ بِدُونِهَا يَا وَيْحَ قَلْبٍ بِالْفِرَاقِ وَطِيسٍ
وَأَحْرَقَلْبَاهُ فَكَيْفَ يَلْدِي عَيْشٌ تَبَدَّلَ سَعْدُهُ بِنُحُوسٍ^(٣)

وقد كرر الشاعر أسلوب الندبة أربع مرات للدلالة على عمق حزنه، وشدة جزعه على فراق زوجته، وكيف لا يشتد جزعه وهي شريكته في الحياة، ورفيقته في العسر واليسر، والسراء والضراء. والتكرار في هذا الباب كثير وحسن، يقول ابن رشيق:

١- الإعلام ٣/ ١٢٥٣.

٢- سبق ذكر هذه الأبيات في أنواع التكرار.

٣- مجلة «المعارف» الصادرة من دار المصنفين أعظم كره، الهند، المجلد ٦٧، العدد ٤، ص ٣٠٦.

«وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجعية وشدة القرحة التي يجدها المتفجع، وهو كثير، حيث التمس من الشعر وجيد»^(١).

(٤) التقريع والتوبيخ:

ومثال ذلك ما قاله الشيخ عبد الحق حقي الأعظمي البغدادي^(٢):

بِالْأَمْسِ هُمْ دَوْلَةٌ يُرَوَى لَهَا خَبَرٌ وَالْيَوْمَ هُمْ خَبَرٌ يُرَوَى لِيَذِي الْعَجَبِ
بِالْأَمْسِ هُمْ سَادَةُ التَّارِيخِ إِنْ ذُكِرُوا وَالْيَوْمَ هُمْ جُزْءُ تَارِيخٍ مِنَ النَّسَبِ
بِالْأَمْسِ هُمْ سَادَةُ صَيْدٍ عَطَارِفَةٍ وَالْيَوْمَ هُمْ أَعْبُدُ الْحُضَّارِ وَالْغَيْبِ
بِالْأَمْسِ هُمْ سَاسَةُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا وَالْيَوْمَ هُمْ سَوْقَةٌ بِالرَّحْلِ وَالْقَتَبِ
بِالْأَمْسِ أَوْطَانُهُمْ بِالْعِزِّ عَامِرَةٌ وَالْيَوْمَ أَوْطَانُهُمْ كَالْمُقْفَرِ الْخَرِبِ
بِالْأَمْسِ تَمْتَلِكُ الْأَقْطَارُ أُمَّتُهُمْ وَالْيَوْمَ أُمَّتُهُمْ مَمْلُوكَةُ الرَّقَبِ
كَمْ بَيْنَ أَمْسٍ وَبَيْنَ الْيَوْمِ مِنْ عِبَرٍ وَمِنْ تَجَارِبٍ لِلْسَّاهِي وَمِنْ دَرَبِ

لقد وازن الشاعر في هذه الأبيات بين ماضي الأمة الإسلامية الزاهر، وبين واقعها المرير، فعدّد مآثرها المجيدة ومناقبها، ثم قابلها بما تعيشه الأمة من إدبار وذل في الحاضر وبدأ كل بيت من الأبيات السابقة بكلمة «بالأمس» كما بدأ الشطر الثاني منها بكلمة «واليوم».

وكرر ذلك سبع مرات لشدة توبيخهم، ولما يظن الشاعر من استحكام الغفلة على قلوبهم، فلا يستفيقون من سباتهم العميق إلا بالزجر والتنكيل. ومن الأمثلة أيضاً قول الشاعر نفسه:

١ - العمدة لابن رشيق (٧٠٣/٢)، تحقيق: د. النبوي عبد الواحد الشعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط أولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢ - أعجب العجب من أحوال العرب ص ٢٥ - ٢٦، هو السيد عبد الحق حقي بن السيد عبد الله الأعظمي، ولد بالأعظمية سنة ١٢٩٠هـ ودرس في جامع الإمام أبي حنيفة، ثم على الشيخ نعمان خير الدين الألويسي. اتصل بعلماء الهند وزارهم في الهند، وسافر إلى مصر ودرس في الأزهر، عين أستاذاً في عليكره ١٩٠٨م، حج سنة ١٣٤٣هـ ونزل في ضيافة الشريف حسين بن علي ملك الحجاز، وتوفي بمكة ودفن فيها سنة ١٣٤٣هـ. (تاريخ الأعظمية مدينة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان: ١٥-١٤٠هـ، الخطاط وليد الأعظمي ص ٥٥٧ دار البشائر الإسلامية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).

كَفَى مَنَاماً وَتَفَرِيطاً، كَفَى وَكَفَى عَيْباً سِوَاكُمْ بِهِ فِي النَّاسِ لَمْ يُعَبِّ
كَفَى افْتِرَاقاً، كَفَى جَهْلًا، كَفَى عَنَّا كَفَى شَتَاتًا كَفَى، يَا أُمَّةَ الْعَرَبِ^(١)

ففي هذين البيتين كرّر الشاعر كلمة «كفى» ثماني مرات؛ لتأكيد المنع من هذه العادات القبيحة، التي تؤدّي بالأمم إلى الهاوية والهلاك. ويزجرهم على استمرارهم في التلبس بها وعدم اجتنابهم عنها.

(٥) استنهاض الهمم:

ومثاله أيضاً ما قاله الشاعر نفسه^(٢):

هُبُّوا بَنِي الْمَاجِدِينَ الْيَوْمَ وَانْتَبَهُوا مِنْ نَوْمِكُمْ إِنَّكُمْ لِلْجِدِّ وَالتَّعَبِ
هُبُّوا إِلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ وَاعْتَصِمُوا بِصِدْقِهَا إِنَّكُمْ لِلصَّدِّقِ لَا الْكَذِبِ
هُبُّوا لِنُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ تَنْتَصِرُوا بِالَّذِينَ فِي كُلِّ مَأْمُولٍ وَمُرتَقَبِ
هُبُّوا إِلَى الدَّوْدِ عَنْ أَعْرَاضِ أُمَمِكُمْ وَعَنْ حَقِيقَتِكُمْ وَالنَّسْلِ وَالْعَصَبِ
هُبُّوا جَمِيعاً إِلَى إِصْلَاحِ أَمْرِكُمْ وَأَقْدِمُوا أَقْدِمُوا فَالْمَوْتُ فِي الْهَرَبِ
هُبُّوا إِلَى الْجِدِّ جِدِّ الْأُسْدِ وَاثْبَتَهُ فَالْعُمُرُ لِلْجِدِّ لَا لِلْهُوِّ وَالطَّرَبِ
هُبُّوا إِلَى الْعَمَلِ الْمُرْضِيِّ لِرَبِّكُمْ إِنَّ الرِّضَى لَدَوَاءُ الْمَقْتِ وَالْغَضَبِ

وقد كرر الشاعر كلمة «هبوا» سبع مرات مبدئاً بها الأبيات السبعة، ووجه إليهم النصح بضمير الخطاب ملتفتاً به عن ضمير الغائب، داعياً لهم إلى الشعور بمسؤولياتهم، والقيام بواجباتهم، لعل هذه الدعوة تبعث في نفوسهم الحياة، وتنفع فيهم روح القوة والنشاط فينهضوا في سبيل الرقي والتقدم.

١ - أعجب العجب من أحوال العرب ص ٣١.

٢ - المرجع السابق نفسه.

(٦) التذكر والاتعاظ:

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الشيخ إعزاز علي الديوبندي^(١):

هُوَ الْمَوْتُ لَا يُبْقِي لَجَلْدٍ جَلَادَةً يُخْصُّ الْقَوَائِي ثُمَّ يُودِي الْقَوَادِمَا
هُوَ الْمَوْتُ مُرٌّ طَعْمُهُ وَمَذَاقُهُ يُخَيِّبُ آمَالاً وَيُرْدِي الدَّعَائِمَا
هُوَ الْمَوْتُ لَا يَرِثُنِي لِبَاكِ وَلَا شَجٍّ وَلَا لِأَنْزِلِ الشُّكْلِ يَرْحَمُ وَاجِماً^(٢)
هُوَ الْمَوْتُ مَا نَجَى الشَّجَاعَةُ خَالِداً حَنِيفاً وَلَا نَجَى السَّخَاوَةُ حَائِماً
هُوَ الْمَوْتُ لَمْ يَتْرُكْ لِيُونَا حَوَارِدَ بَغَابٍ وَلَمْ يَتْرُكْ نُسُوراً قَشَاعِماً^(٣)
هُوَ الْمَوْتُ إِلَّا أَنَّهُ خَيْرٌ وَاعِظٌ يُرَوِّعُ مِنْهُوْماً وَيُوقِظُ نَائِماً

بدأ الشاعر الأبيات الستة كلها بقوله «هو الموت» ثم عدّد أصنافاً مختلفة من الناس، وبين أنّ الموت مدرّكهم جميعاً، لا ينجو منه أحدٌ، وكرّر هذه الجملة ست مرات، لترسيخ فكرته في ذهن المتلقي حتى لا يغفل عن هذه الحقيقة في أي لحظة، بل عليه أن يجعل الموت نصب عينيه، ويتزود لما بعده.

(٧) الاحتفال والابتهاج:

ومن أمثلة ذلك ما قاله مجتهد الشيعة السيد ناصر حسين اللكهنوي في ذكر النيروز، يقول^(٤):

يَوْمٌ بِهِ أَصْحَى الرِّبَاضُ كَأَنَّهَا حُلِّلَ مُفُوفُهُ مِنَ الْأَبْرَادِ
فَحَمَائِمُ الْبُسْتَانِ فِيهِ هَوَاتِفٌ وَسَوَاجِعُ الْكَعْتَانِ فِيهِ شَوَادِ
لَا غَرْوَ لَوْ طَرِبَتْ وَغَنَّتْ أَنَّهُ يَوْمٌ أَتَى بِالْحَظِّ وَالْإِسْعَادِ

١- القاسم، ص ٦، عدد شهر صفر ١٣٣٧ هـ، معين اللبيب ٦٧-٦٨.

٢- وجم يجم وُجماً وُجوماً: سكت على غيظ (القاموس المحيط مادة و ج م).

٣- حوارد: جمع حارد، الحرد: الغضب، ومنه قل: أسد حارد وليوت حوارد (لسان العرب مادة: ح ر د).

٤- الإعلام ٣/ ١٣٨٨.

يَوْمٌ مُنِيرٌ بَيْنَ أَيَّامِ الْوَرَى مُتَوَقِّدٌ كَالْكَوْكَبِ الْوَقَّادِ
يَوْمٌ لَهُ شَرَفٌ عَلَيَّ شَامِخٌ يَسْمُو عَنْ الْغَايَاتِ وَالْأَبْعَادِ
يَوْمٌ أَقَرَّ بِفَضْلِهِ أَهْلُ النَّهَى مِنْ مُشْرِكٍ أَوْ مُسْلِمٍ مُنْقَادِ

أعاد الشاعر في هذه الأبيات الستة كلمة «اليوم» ثماني مرات، خمس مرات بالتصريح، وثلاث مرات بإعادة الضمير إليه؛ مؤكداً تلك البهجة وذلك السرور الذي ملك مشاعره وأحاسيسه فيه.

ويلاحظ أن الشاعر في البيت الأخير عده يوماً يعترف بفضلله جميع أهل العقل من مسلم وكافر، مع أن الإسلام لا يرى في «النيروز» أي فضل أو شرف، وبالتالي ليس له أي مزية عند المسلمين المتمسكين بدينهم. فقد أخطأ الشاعر هنا خطأ واضحاً، ولعل ما أوقعه في هذا الخطأ البين أنه شيعي وتأثر بعيد الفرس مع تأثره بهم في معتقدتهم الشيعي. المآخذ على الألفاظ والتراكيب

لم يسلم الشعر العربي في الهند - مع هذه الميزات والخصائص - من مآخذ وهنات، ولا غرو في ذلك؛ لأن النقص من طبيعة البشر، ولأن مثل هذه المآخذ وجدت عند الشعراء الفحول الكبار أيضاً في عصور وبيئات تعد من أقوى العصور وأرقى البيئات التي ازدهر فيها الشعر العربي كالعصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي وغير ذلك، فما بالنا بشعراء لم يكونوا عرباً، ولم يعيشوا في بيئة عربية، بل إن أكثرهم قد ولد ونشأ وعاش في بيئة تعد أجنبية للغة العربية وآدابها.

ويمكن تلخيص هذه المآخذ فيما يأتي:

(١) استخدام الغريب:

اشترط النقاد في فصاحة الكلمة أن تكون واضحة المعنى، جليّة، خالية من الغرابة والحوشية^(١) لأن مقصود الكلام هو الإفصاح والبيان، والغرابة تحول دون ذلك الهدف، فمن هنا عابوا استخدام الكلمة الغريبة، وقد ورد في الشعر العربي في الهند بعض الكلمات

١ - الإيضاح، للخطيب القزويني، تعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي ص ٧٣.

الغريبة، منها قول الشيخ حميد الدين الفراهي^(١):

وَمِنْ قَبْلُ كَانَتْ مُمَزَّقَةً فَقَدْ جَمَعَ الْيَوْمَ شِمْطَاطَهَا

ومن ذلك أيضاً قول الشيخ عبد المنعم الجاتكامي^(٢):

جَرَى دَمْعِي الْمُهْرَاقُ شَجْوَاً بِمَنْزِلِ رَأَيْنَا بِهِ دَاراً تَرَاءَتْ كَعَوَكَلِ^(٣)

وَرَوْضاً بِهَوَجِ الرِّيحِ صَارَتْ غُصُونُهُ أَبَادِي نَذْبٍ فَوْقَ رَأْسٍ لِعَيْطَلِ^(٤)

ذَكَرْتُ بِهَا سَلَمَى أَوْمَلُ وَصَلَهَا وَكَيْفَ الرَّجَا يَا قَلْبُ لِي فِي عَقَنْقَلِ^(٥)

فكلمات: عوكل، وعيطل، وعقنقل، من بيئة صحراوية بدوية، موعلة في الحوشية والغرابية، لا تعرف معانيها بدون رجوع إلى المعاجم.

ومن ذلك أيضاً ما قاله الشيخ وحيد الدين عالي^(٦):

وَتَحْتِي نَاقَةً كَوْمَاءً بَكْرٌ شَمَرْدَلَةٌ عَذَافِرَةٌ رَدَاحٌ^(٧)

فَكَمْ قَفِرَ قَطَعْتُ بِهَا وَكَانَتْ تَحِبُّ وَلَا يُوَانِيهَا رُزَاحٌ^(٨)

فكلمات: شمردلة، وعذافرة، ورداح، ورزاح من صفات النوق لا يعرفها إلا أصحاب الإبل.

١ - ديوان الفراهي ص ٢٧. وشمطاط مفرد، جمعه: شطاطيط بمعنى الفرقة من الناس، وقوم شطاطيط: متفرقة. (ينظر: تاج العروس مادة: ش م ط).

٢ - تصويب البيان في شرح الديوان ص ٤ طبعة سنة ١٣٠٠ هـ، الإعلام ٣/ ١٣٠٤.

٣ - عوكل: ظهر الكتيب، وقيل: هو العظيم من الرمل (اللسان والتاج).

٤ - عيطل: يقال هضبة عيطل: طويلة، والعيطل: الناقة الطويلة في حسن منظر وسمن، والعيطل من النساء كهيدر: طويلة. (اللسان والتاج).

٥ - عقنقل: الوادي العظيم المتسع ج عقاقل وعقاقيل، (اللسان والتاج).

٦ - الجواهر الزاهرة. وحيد الدين ص ٧٠ طبع حيدرآباد.

٧ - شمردلة: الصبي الجلد، وقالوا: جمل شمردل، وناقاة شمردلة لقوة سيرها (المعجم الوسيط) عذافرة: الناقة الشديدة الأمانة الوثيقة الظهيرة، وهي الأمون (ينظر: تاج العروس) ناقاة رداح: ضخمة الألية تجمع على رُدْح. (لسان العرب).

٨ - رَزَحٌ، يَرْزَحُ، رَزَاحاً وَرُزُوحاً، رَزْحاً: سقط من الإعياء هزالاً (ينظر: لسان العرب).

(٢) مخالفة القياس اللغوي:

إن لكل لغة قواعدها التي لا يجوز مخالفتها لتبقى اللغة مفهومة، ويحصل التفاهم بين أفراد المجتمع، ولكن لا يخلو مجتمع من الناطقين بلغة ما من وجود أخطاء في تلك اللغة فيتصدى لها العلماء المختصون لمنع انتشار هذه الأخطاء للحفاظ على اللغة من الضياع. وقد ظهرت بعض الأخطاء من هذا القبيل عند بعض الشعراء، منها قول الشيخ السيد سليمان الندوي:

ثُرِيدُونَ جَوَّبَ السَّيِّدَ لَيْلًا بِمَنْهَجٍ خَفِيَ الصَّوَى مُغْطَوِطَشٍ وَحَرْدٍ^(١)

فكلمة: «مغطوطش» اسم مفعول من اغطوطش بمعنى صار مظلماً من قولهم: فلاة غطشى أي مظلمة. وقد استعمل العرب - كما ذكر صاحب اللسان والتاج وغيرهما - من هذا الفعل باب المجرد، وباب تفاعل، وتفعّل، في حين أن هذا الشاعر قد استخدم باب «افعلعل»، وكان ينبغي له ألا يقيس من عنده، بل يقتصر على ما جاء عن العرب، يقول أبو الهلال العسكري: «ومن الألفاظ ما يستعمل رباعيه وخماسيه دون ثلاثيه ومنها ما هو خلاف ذلك، فينبغي أن لا تعدل عن جهة الاستعمال فيها، ولا يغرّك أن الأصول مستعملة؛ فالخروج عن الطريقة المشهورة والمنهج المسلك رديء على كل حال»^(٢) ومن ذلك أيضاً ما قاله الشيخ عبد الرحمن السيوهاروي:

هَلْ تُدْرِكِينَ عَلِيًّا شَفَّهُ وَصَبَّ وَلَا طَيِّبَ لِهَذَا الدَّاءِ إِلَّا^(٣)

فأتى الشاعر بالضمير المتصل بعد «إلا» مع أنه من مواضع الضمير المنفصل؛ حيث يقول ابن مالك - رحمه الله - :

وَذُو اتِّصَالٍ مِنْهُ مَا لَا يُبَيِّنُ وَلَا يَلِيَّ "إِلَّا" اخْتِيَارًا أَبَدًا
كَالْيَاءِ وَالْكَافِ مِنْ "ابْنِي أَكْرَمَكَ" وَالْيَاءِ وَالْهَاءِ مِنْ "سَلِيهِ مَا مَلَكَ"^(٤)

١ - مجلة «البيان» الصادرة من دار العلوم ندوة العلماء لكهنؤ ، ص ٣٦، جمادى الآخرة ١٣٢٦ هـ.

٢ - الصناعتين ، ص ١٦٧ ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان بدون تاريخ.

٣ - مجلة «القاسم» ، ص ٢ ذو القعدة ١٣٣١ هـ.

٤ - ضياء السالك إلى ألفية ابن مالك ، محمد عبد العزيز النجار، ٩٩/١ مصر ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

ولكن الشاعر لجأ إلى هذا؛ للضرورة الشعرية، كما هو وارد في كلام العرب مع مخالفته للقياس.

(٣) كثرة حروف الصلات:

من مقاييس جمال الكلمة اعتدال حروفها وعدم كثرتها^(١)؛ ولذا عيب الجمع بين حروف الجر في مكان واحد، لأن ذلك يؤدي إلى الثقل في الأداء^(٢) والغموض في الفهم. وقد ورد ذلك عند الشيخ فيض الحسن السهارنفوري في قصيدته التي مدح بها السلطان عبد الحميد العثماني، يقول^(٣):

نَدْعُو لَكُمْ وَلَمَنْ فِيكُمْ لَكُمْ وَلَمَنْ يُثْنِي عَلَيْكُمْ وَلَا يُثْنِي بِإِمْلَاقٍ

فقد جمع الشاعر هنا بين خمسة من حروف الجر، وهذا يؤدي إلى الثقل، وإلى غموض المعنى وتعقيده.

(٤) التكرار المعيب:

عد النقاد «تكرار الكلمة الواحدة في كلام قصير»^(٤) من العيوب، وخاصة إذا أدى إلى ضعف في المعنى، أو تنافر في الكلام، وقد وجد هذا في بعض الشعر العربي في الهند، من ذلك ما قاله الشيخ محمد بن حسين الأنصاري في قصيدته التي بعث بها إلى الشيخ عبد الحي الحسيني^(٥):

إِلَى قَمَرِ الدُّنْيَا، إِلَى غَايَةِ الْمُنَى إِلَى عِنْدَمَنْ لَا عِنْدَهُ بَعْضُ مَا عِنْدِي

كرّر الشاعر في هذا البيت كلمة «عند» ثلاث مرات.

وأشد منه قول الشيخ عبد المنعم الجاتكامي في قصيدته النبوية^(٦):

١- أصول النقد الأدبي، د. طه مصطفى أبوكريشة، ص ٢٧٠.

٢- المثل السائر ١/ ٣٠٧-٣٠٨ ط دار نهضة مصر.

٣- ديوان الفيض ٩٥، قصائد قاسمي ١٨، الإعلام ٣/ ١٣٣٠.

٤- الصناعتين ١٧٠.

٥- الإعلام ٣/ ١٣٤٢.

٦- المرجع السابق ٣/ ١٣٣٧.

أَوْ مَلَّ مِنْكَ الْعَظْفَ عَوَاطِفٍ وَإِنْ كُنْتُ عَمَّا يَجْلِبُ الْعَظْفَ قَاصِيَا

أتى الشاعر هنا بكلمة «عطف» أربع مرات، منها ثلاث في الشطر الأول مما جعل هذا الشطر ثقيلاً على اللسان، ونايياً على السمع والذوق.
ومثال أشد منه قول الشيخ محمد بن أحمد الطوكي^(١):

سُلِبْتُ لِذِيْدِ الْعَيْشِ، لَا عَيْشَ بَعْدَكُمْ أَعَيْشُ وَعَيْشِي عَيْشُ حَيْرَانَ أَكْمَدِ

كرر الشاعر هنا كلمة «عيش» خمس مرات، منها ثلاث متتالية في الشطر الثاني، وقد أدى هذا إلى ثقل شديد.

المطلب الثاني

الصورة الفنية

الصورة الفنية هي «لغة الأديب التلقائية»^(٢) وهي «في الشعر أهم ركن فيه»^(٣) وتعدّ وسيلة الشاعر في «نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرائه وسامعيه»^(٤) ولذا فهي من المجالات الهامة في الحكم على إبداع الشاعر.

واتفقت كلمة النقاد - قديماً وحديثاً - على أهمية التصوير في الصناعة الشعرية، فإذا كان الجاحظ يصرّح بأن «الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير»^(٥) فإن المذاهب النقدية الأوروبية الحديثة ترى أن الصورة هي «العنصر الجوهرى للشعر»^(٦). ومع أن «شعرنا العربي القديم حافل بالصور الشعرية البارة التي استخدمها الشعراء

١ - المرجع السابق نفسه.

٢ - الصورة والبناء الشعري، د. محمد حسن عبد الله، ص ٤٣.

٣ - شعر المهذلين في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. أحمد كمال زكي، ص ٢٨٥، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

٤ - أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، ص ٢٤٢.

٥ - الحيوان للجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ٣/ ١٣٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط ٣، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م.

٦ - النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال ص ٣٣٩، دار العودة، بيروت ١٩٨٧ م.

في تجسيد أحاسيسهم ومشاعرهم والتعبير عن رؤيتهم الخاصة للوجود^(١) إلا أن كلمة الصورة لم تستخدم في تراثنا القديم كمصطلح أدبي ونقدي، بل هو كما يرى الدكتور جابر عصفور «مصطلح حديث صيغ تحت وطأة التأثير بمصطلحات النقد الغربي والاجتهاد في ترجمتها»^(٢) ومن ثم فإنه «من المصطلحات النقدية الوافدة»^(٣) على نقادنا المحدثين.

وتعددت تعاريف مصطلح الصورة لدى النقاد تبعاً لاختلاف مذاهبهم وتنوع اتجاهاتهم^(٤)، إلا أنها تستعمل -عادة- للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي، وتطلق أحياناً مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات^(٥).

ويقاس نجاح الأديب في بنائه لصوره بمدى قدرته على نقل أفكاره وعواطفه إلى قرائه ومستمعيه بأمانة ودقة^(٦) وبمدى تأثير هذه الصور في نفوس متذوقيها^(٧). ولا يشترط اشتغال البيت على المجاز حتى يقال: إن به صورة «فيه» إذ «قد يخلو البيت من المجاز أصلاً، فتكون عبارته حقيقية الاستعمال، ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب»^(٨).

وقد قُسمت الصورة تقسيمات عدّة باعتبارات مختلفة^(٩) ومن هذه التقسيمات تقسيم الصورة إلى جزئية وكلّية^(١٠)، وتطلق الصور الجزئية على الصور البيانية، المتمثلة في التشبيه

١- المستدرك في شعر بني عامر ١/ ٢٧١.

٢- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، ص ٧، دار التنوير، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣ م.
٣- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، د. عبد الرحمن نصرت، ص ١٢، مكتبة الأقصى عمان الأردن، ط ١٩٨٢ م.

٤- للاستزادة في تعاريف «الصورة» ينظر «الصورة الفنية في المفضليات»، رسالة دكتوراه، د. زيد ابن غانم الجهني، ص ١٧.

٥- الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، ص ٣، مكتبة مصر، ١٩٥٨ م «بتصرف».

٦- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، ٢٤٩-٢٥٠ «بتصرف».

٧- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، د. محمد خلف الله أحمد، ص ١٢٤، دار العلوم، الرياض، ط ٣، ١٤٠٤ هـ «بتصرف».

٨- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د. علي البطل، ص ٢٥، دار الأندلس، ط ١، ١٩٨٠ م وينظر النقد الأدبي الحديث، د. غنيمي هلال ص ٤٣٢.

٩- ينظر: الصورة الفنية في المفضليات أنماطها وموضوعاتها ومصادرها وقيمتها الفنية، زيد بن محمد غانم الجهني، رسالة دكتوراه تحت إشراف: عبد الباسط بدر، قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٦-١٤١٧ هـ، ص ١٩-٢٣.

١٠- النقد الأدبي الحديث ص ٤١٦، النقد التطبيقي والموازنات، ١٤٢-١٤٣.

والاستعارة والكناية ونحوها»^(١).

أما الصورة الكلية فهي تتركب من صور صغيرة، وتقوم بعرض القضايا والأحداث والأحاسيس والمشاعر التي يشعر بها الأديب تجاه تلك القضايا والأحداث^(٢). ولم يخل الشعر العربي في الهند - مع غلبة الأسلوب التقريري فيه على الأسلوب التصويري - من صور رائعة، ومنها قول الشيخ محمد ناظم الندوي في قصيدته المسماة «نفحة من نفحات الحج» التي قالها بعد أداء شعيرة الحج، يقول في ختامها^(٣):

كَأَنَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ هَوَتْ إِلَى الْبَيْتِ طَيْرٌ أَمَّتِ الْمَاءَ حَوْمَانَا

والشاعر في هذا البيت يصور شدة شوق المؤمنين تجاه الكعبة المشرفة، ويشبّهه بشوق الطير إلى الماء حالة شدة العطش وقد اتجهت أسرابها فكما أنها لا تصبر دون الوصول إلى الماء، فكذلك المؤمنون تراودهم دائماً هذه الأمنية لزيارة بيت الله المعظم، وتهفو قلوبهم إلى هذا البيت العتيق.

والصورة توحى بأثر هذا البيت في حياة المؤمنين الإيمانية فكما أن الله سبحانه وتعالى جعل الماء سبباً للحياة، فكذلك الكعبة المشرفة وزيارتها تعطي المؤمن شحنات إيمانية قوية، وتوقظه من غفلته، وتسبغ عليه حلة جديدة كأنه ولد في لحظته، كما قال النبي ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(٤).

ومن أمثلة التشبيه أيضاً ما قاله الشيخ عبد الحميد الفراهي في الحرب العالمية^(٥):

رَحَى الْحَرْبُ تَطْحَنُهُمُ وَالْدَّمَاءُ تُدِيرُ الرَّحَى مِثْلَ جَرِي النَّهْرِ

يصور الشاعر في هذا البيت بعض تلك الأحوال الفظيعة التي سببت لها الحرب العالمية العظمى في منتصف القرن العشرين الميلادي، حيث قتل فيها عشرات الملايين

١ - شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثالث ، د.سفير القشامي ، ص ٢٤٨ ، رسالة دكتوراه في قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤١٧-١٤١٨ هـ.

٢ - المصدر السابق ص ٢٥٥.

٣ - الزهرات - محمد ناظم الندوي ص ٧.

٤ - أخرجه البخاري، كتاب المحصر، باب قول الله تعالى: «فلا رفت» عن أبي هريرة (١٨١٩).

٥ - ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي ، ص ٢٨.

من البشر^(١) فيذكر الشاعر أن الأقوام الغربية تفنيهم هذه الحرب الضروس، وشبهها بالرحى التي تطحن كل ما بداخلها، ويلحظ أن تشبيه الحرب بالرحى قديم في الشعر العربي كما جاء عند زهير في معلقته إذ يقول^(٢):

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ
مَتَى تَبْعُثُوهَا تَبْعُثُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضُرُّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضُرَمِ
فَتَعْرِكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحُ كِشَافاً ثُمَّ تُنْتَجِ فَتُسَيِّمِ

كما يصور الشاعر كثرة الدماء المهرقة في هذه الحرب، فكأنها - لكثرتها - صارت تجري جريان النهر، فكأن الحرب ناعور ولكنه لا يدير هذا الناعور الماء كما هو المعتاد، بل الدماء حلت محل الماء فصارت تدير هذه الرحى.

وفي البيت إيجاء باشمئزاز الشاعر وكراهيته لهذه المناظر؛ لأن منظر الدم المهرق تنقبض منه النفوس، ويعافه الطبع السليم.

ولما صور الشعراء هذه المشاهد لم يصوروها جامدة ساكنة، بل أدخلوا فيها الحركة مما زاد هذه الصور حيوية ونشاطاً، فالرحى تطحن، والدماء تدير، والنهر جار، والقلوب تهوي، والطير تتجه نحو الماء، ونجد مثل هذا عند الشيخ عبد الحق حقي الأعظمي أيضاً حينما يصور ما قام به المسلمون من إصلاح الأرض، وتطهيرها من الشرك والظلم بعد مبعث الرسول الكريم ﷺ، يقول فيها^(٣):

يَا أُمَّةَ رَبِّهِمُ النَّاسِ أَرْسَلَهَا مِنْ بَعْضِ رَحْمَتِهِ تُنْجِي مِنَ الْكُرْبِ
وَبَثَّهَا فِي بَحْرِ الْأَرْضِ طَاهِرَةً تُطَهِّرُ الْخَلْقَ بِالطَّاعَاتِ وَالْقُرْبِ

١- الحرب العالمية الثانية عرض مصور أعدّه وحققه على أوثق المصادر، رمضان لاوند ص ٥٨٤، دار العلم للملايين، بيروت ط ٩، ١٩٨٢ م.

٢- شرح شعر زهير بن أبي سلمى، ص ٢٧، صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط ١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، وشعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلام الشتمري، ص ١٩، وفيه: «وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم» تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٣- أعجب العجب من أحوال العرب ص ١٥.

أَعَدَّهَا لِصَلَاحِ الْكَوْنِ فَأَنْدَفَعَتْ كَالسَّيْلِ مُنَحْدَرًا يُجْرِي إِلَى صَبَبٍ

فشبه الشاعر انطلاق المسلمين في مسيرتهم الدعوية بالسيل وكان الشاعر دقيقاً وموفقاً في اختياره لهذا التشبيه. إذ السيل يوحى بمعان كثيرة، منها مثلاً: أن السيل يعطي معنى القوة والدفع لكل من يقف في سبيله، ومنها أن السيل لا يمكن مقاومته ولا الوقوف في طريقه خاصة إذا كان متجهاً إلى مكان منخفض، فكذلك الأمة حينما خرجت تحمل مشاعل النور، وتدعو الخلق إلى خالقهم مستمدة قوتها من الله تبارك وتعالى فلم يستطع أحد الصمود أمامها.

ومن تلك المعاني التي توحىها كلمة «السيل» أيضاً «الشمول والعموم» فالسيل يشمل الوادي كله ولا يختص بمكان دون غيره، فكذلك هذه الأمة كانت ولا تزال دعوتها للناس كافة، ولم تفرق بين جنس وجنس، أو بين وطن وآخر. ونلاحظ أن التشبيه كان أكثر استخداماً لدى الشعراء في الهند، وتأتي بعده الاستعارة، ومن أمثلتها قول السيد محمد باقر الكهنوي في الفخر بنفسه^(١):

يُجَادِبُنِي الْعُلَيَاءَ قَوْمٌ سَفَاهَةٌ وَهَيْهَاتَ أَئِنَّ النَّجْمُ مِنْ كَفِّ رَامِقٍ

في هذا البيت صور الشاعر حالته مع حساده وأعدائه كفريقين كل منهما يمسك الحبل بطرف، ويحاول أن يشده إليه دون الفريق الآخر. فكذلك حساد الشاعر وأعداؤه لا يستطيعون رؤية الشاعر وقد نال العلى وظفر بالنجاح، فيحاولون زعزعته عن مكانه السامي علهم ينالون منه.

وحاول بعض الشعراء استخدام هذا اللون البياني في استخراج المعاني بصورة تجسدية يتم فيها «تحويل المعنويات من مجالها التجريدي إلى مجال آخر حسي، ثم بث الحياة فيها أحياناً وجعلها كائنات حية تنبض وتتحرك»^(٢).

كما نرى ذلك جلياً عند الشيخ محمد جان البحري آبادي^(٣) في قصيدته التي مدح بها

١- الإعلام ٣/ ١٣٥٢.

٢- عن بناء القصيدة العربية الحديثة ص ٧٨.

٣- الإعلام ٣/ ١٣٥٢.

الشيخ أحمد السرهندي، يقول فيها^(١):

الرُّشْدُ ظِلٌّ بِسَعْيِهِ مُتَهَلِّلًا مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ كَانَ مُنْطَمِسَ الْأَثَرِ
وَالشَّرْكَ وَالْإِلْحَادُ قَدْ مُحْيَا بِهِ وَالْغَيُّ أَذْبَرَ، وَالضَّلَالُ نَأَى وَفَرَّ

فالرشد يتهلل، والغى يُدبر، والضلال يهرب ويفر فاستطاع الشاعر -بواسطة الاستعارة- أن يصور هذه المعنويات بصورة أحياء تتحرك، وتتجاوب مع أفعال الممدوح حيث الرشد يتهلل مسروراً لما قام الممدوح بتأييده ونصره، كما فر الغي والضلال بسبب مساعيه المشكورة، ومن أمثلته أيضاً قول السيد محمد مهدي^(٢):

ظَعْنُوا عَنِ الصَّبِّ الْمَشُوقِ وَمَعَهُمْ سَحَبُوا الْحَشَا بِأَعِنَّةِ الْأَشْوَاقِ

فالشاعر هنا يصور القلب في صورة أسير مكبل بالقيود، إلا أن هذه القيود لم تكن من الحديد وإنما كانت من شوقه وحبه لحبيته وأهلها الطاعنين.

واستخدم بعض الشعراء في الهند في صورهم الأسلوب الكنائي، والمقصود بالكناية هو: «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»^(٣) ومن أمثلة الصور المشتملة على الكناية قول الشيخ عبد الحميد الصادق بوري^(٤):

فَوَا أَسْفَا وَنَحْنُ بَنُو كِرَامٍ تُوَوِّرَتْ فِيهِمْ عِلْمٌ وَجُودُ
ذُؤُوالْأَعْلَامِ وَالْأَقْلَامِ طُرًّا يَزِيئُهُمُ الْمَكَارِمُ وَالْجُنُودُ

فقول الشاعر: ذووالأعلام «كناية عن الملك والسيادة والرياسة، وكذا قوله ذووالأقلام» كناية عن العلم والمعرفة، ولكن الشاعر عدل عن الأسلوب المباشر الصريح إلى الأسلوب الكنائي، لأن «الصفة إذا لم تأت مصرحاً بذكرها، مكشوفاً عن وجهها، ولكن مدلولاً عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها»^(٥).

١- المرجع السابق نفسه.

٢- المرجع السابق ٣/ ١٣٧٤.

٣- الإيضاح، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي ص ٤٥٦.

٤- الإعلام ٣/ ١٢٦٦.

٥- دلائل الإعجاز للرجزاني، ت: محمود محمد شاكر ص ٣٠٦.

والأسلوب الكنائي في قول الشاعر «ذوو الأعلام» يبرز في ذهن القارئ صورة الجيوش والعساكر والأعلام والرايات، كأنها ماثلة أمام أعينه فينظر إليها بأم عينيه. ومن أمثلة الكناية أيضاً قول السيد محمد مهدي في رثاء شيخه المفتي محمد عباس (١٠٨):

بِذَا الْيَوْمِ قَدْ صَارُوا رَهَيْنَ مَقَابِرٍ وَبِالْأَمْسِ قَدْ كَانُوا رُؤُوسَ الْمَجَامِعِ
فقوله «رهين مقابر» و«رؤوس المجامع» كناية عن «الموت» و«الحياة»، لكن الشاعر أثر الكناية على الصراحة لما فيها من تشخيص وتصوير يزيد الأسلوب جمالاً والمعنى عمقاً. ولما فيه إيجاء إلى معان كثيرة، مثل حالة الضعف والعجز التي حال إليها الحال، بعد العز والقوة والرئاسة التي كان عليها في حياته كما فيه تأدب مع الشيخ والأستاذ، مع بيان مكانته في حياته. وعمق الشاعر الصورة بهذه المقابلة بين الحالتين: حالتهم حين كانوا أحياء، والحالة التي صاروا إليها بعد انتقلهم إلى دار الآخرة، كما أضاف إلى التصوير عنصر الزمن. «بالأمس» و«بذا اليوم».

ومن استخدم هذا الأسلوب أيضاً محمد باقر اللكهنوي، يقول في إحدى قصائده مفتخراً بنفسه^(١):

وَمَا وَجَدَ الْأَقْوَامُ ذَيْلِي مُدْنَسًا لَدُنْ رَمَقُونِي بِالْعُيُونِ الرَّوَاقِ^(٢)
فقوله: «وما وجد الأقوام ذيلي مدنساً» كناية عن العفة والطهارة، ولا شك أن أسلوب الشاعر الكنائي هنا يصور المعنى، ويقدمه في معرض بهيج. وإذا انتقلنا إلى الصورة الكلية نجد عدة صور كلية قد أجاد الشعراء في حبكها ونسجها، وأتقنوا من خلالها تصوير ما جاشت به صدورهم من عواطف، وما نضج في أذهانهم من رؤى وأفكار، ومن تلكم الصور الكلية ما قاله القاضي السيد حسين بن محمد الكاليكوتي في المصائب التي تصيب الإنسان في الحياة الدنيا، يقول^(٣):

١- الإعلام ٣/ ١٣٥٢.

٢- رَمَقَهُ يَرْمُقُهُ رَمَقًا وَرَامَقَهُ: نظر إليه يتعهده ويرقبه (اللسان: ر م ق).

٣- الشعر العربي في كبر الالاص ١٩٦.

بَنَى اللَّهُ لِلْأَجْبَابِ بَيْتًا سَمَاوُهُ هُمُومٌ وَأَحْزَانٌ، وَحِيطَانُهُ الضُّرُّ
وَحَضْبَاوُهُ كَرْبٌ وَهَمٌّ، وَسَقْفُهُ سَقَامٌ وَالْأَمُّ يَضِيقُ بِهَا الصَّدْرُ
وَأَدْخَلَهُمْ فِيهِ وَأَغْلَقَ بَابَهُ وَقَالَ لَهُمْ: مِفْتَاحُ بَيْتِكُمُ الصَّبْرُ

فالشاعر في هذه الأبيات يصور عجز الإنسان الذي تناله المصائب وتصيبه الآفات من فوقه ومن تحته، وعن أيانه وعن شمائله، وأنه لا حول له بها ولا قوة، وشبه هذه الدنيا بدار كلها شرور وآلام، ولا مخرج من هذه الدار إلا الصبر على ما قدر الله عز وجل للإنسان.

ومن الصور الكلية التي نجدها لدى شعراء العربية في الهند أيضاً ما قاله الشيخ محمد ناظم الندوي مصورا حالة الحزن والغم الذي عمّ العالم الإسلامي بوفاة الملك فيصل ابن عبد العزيز آل سعود -يرحمه الله- يقول في رثائه^(١):

الْجَوُّ مُغْبِرٌ الْجَوَانِبِ أَحْمَرُ وَالنَّجْمُ مُكْتَتِبٌ ضَيْلٌ أَكْدَرُ
وَاللَّيْلُ مَشْهُورٌ ثِيَابِ حَدَادِهِ وَالْأَفْقُ مُسَوَّدُ النَّوَاحِي أَغْبَرُ
نَبَأٌ أُذِيعَ مِنَ الرِّيَاضِ لَمْ وَجِعْ كَادَتْ لِقَوَعَتِهِ الْقُلُوبُ تَفْطَرُ^(٢)
بَكَتِ الْقُلُوبُ مَعَ الْعُيُونِ تَفْجَعاً لِلْفَيْصَلِ الْمَرْحُومِ سَاعَةً أَخْبَرُوا

فهذا الحزن عمّ العالم كله، ولم ينج منه حتى الأشياء الجامدة التي لا حس فيها، فشدّة هذا الهول أثرت في تلك الجمادات أيضاً، فالجو زال صفاؤه وعلاه الغبار والاحمرار، والنجم أصابه الاكتئاب والحزن، فصار ضئيلاً وراح صفاؤه ونقاؤه، والليل قد نشر ثياب الحداد، والأفق صار أسود أغبر، والقلوب تفتطرت حسرة وأسى، والعيون تفجرت دمعاً ودماءً، فالعالم كلّ في مأتم لهذا الفقيد النبيل، والشهيد العظيم.

وإن كان الشاعران -في المثالين السابقين- قد اعتمدا على الصور اللغوية، وآثراها

١ - الزهرات: محمد ناظم الندوي ص ٩.

٢ - أدخل الشاعر اللام على الخبر، والمبتدأ غير مؤكد بأن لاستقامة الوزن.

على الصور البيانية، فهناك العديد من الصور الكلية المجازية المشتملة على التشبيه والاستعارة وغيرهما، كمثّل قول الشيخ سيد سليمان الندوي في وصف الشمس عند الغروب، يقول واصفاً هذا المشهد الرائع الجميل^(١):

كَأَنَّمَا الشَّفَقُ الْمُمْتَدُّ فِي الْأَفُقِ خَمْرٌ مُعْتَقَةٌ شُجَّتْ لِمُعْتَبِقٍ^(٢)
 خَمْرٌ يَعْتَقُهَا أَعْلَى هِمَالِيَةٍ شُجَّتْ بِمَاءِ غَمَامٍ هَامِرٍ غَا^(٣)
 كَفُّ الطَّبِيعَةِ تَسْقِي النَّاسَ أَكْوَاسَهَا وَيَلُّ لِمَنْ هَذِهِ الصَّهْبَاءُ لَمْ يَدُقْ
 تَحْسُو الْقُلُوبُ حُمَيَّاهَا إِذَا نَظَرَتْ إِلَى السَّمَاءِ بِأَقْدَاحٍ مِنَ الْحَدَقِ^(٤)
 وَالطَّيْرُ تَشْرَبُهَا حِينَ نَرُوحُ إِلَى أَوْكَارِهَا صَافِرَاتِ السَّجْعِ فِي حَلَقِ^(٥)
 وَالرَّيْحُ سَائِرَةٌ فِي رَوْضَةٍ أَنْفٍ تُهْدِي السُّرُورَ إِلَى حَوْبَاءِ مُتَشَقِّ^(٦)
 دَنْ مِنْ الْقَهْوَةِ الصَّهْبَاءِ فِي الْأَفُقِ وَالْكَأْسُ تَطْفُو بِهِ لَا الشَّمْسُ فِي الشَّفَقِ^(٧)

صوّر الشاعر في هذه الأبيات مشهد غروب الشمس وما يتبع ذلك من الشفق الأحمر، وحاول إبراز أثره في قلوب من يملك تذوق هذا المشهد الرائع، فشبّه الشفق الأحمر المنتشر في الأفق بالخمّر التي تخلط بالماء لشاربها في المساء، وهذه الخمر تقوم الطبيعة بدور ساقيتها للناس، فيقدمها إليهم فتشرّبها القلوب كما تحسوها الطير لدى عودتها إلى أوكارها في المساء، فتظهر عليها آثارها من السكر والنشاط مما يجعلها ترفع أصواتها بالصفير، وحتى الهواء قد أثر فيه هذا المنظر الجميل، فبدأ يسرّ الناس وتهديهم

١ - مجلة «البيان» ص ٣٠، الإعلام ٣/ ١٢٣٨.

٢ - شجّت من: شجّ الشراب، مزجه، (القاموس: ش ج ج).

٣ - همرة همرة ويهمره: صبّه، غدقُ: الماء الكثير (القاموس).

٤ - حسا الطائر الماء: تناوله بمنقاره، والرجل الحساء ونحوه، تناوله جرعة بعد جرعة (المعجم الوسيط) الحُمَيَّا: من الكأس: سورتها وشدّتها، أو إسكارها أو أخذها بالرأس (القاموس).

٥ - هكذا في المصدرين، ولعل الصواب: حين بدون تنوين.

٦ - حوباء: النفس ج حوباوات، انتشق الماء وغيره: جذب منه بالنفس في أنفه (المعجم الوسيط والقاموس المحيط).

٧ - طفا يطفو: علا (اللسان: ط ف و).

المسرة، وبعد تصوير مشهد الشفق وأثره، صوّر الشاعر منظر الشمس في هذا الشفق، ويشبه هذا المنظر بمظهر دنّ من الخمر تعلوه الكأس.

وقد استخدم الشاعر لتصوير هذا المشهد البهيج الطريف عناصر عدّة من اللون، والصوت، والوقت، وأضفى على المنظر حركة فالخمر تخلط وتمتزج، والطير تحسو، وتروح، وتصفّر، والريح تسير وتهدي، كما شخص بعض المحسوسات كالهواء باستخدام أسلوب الاستعارة.

وكانت الصور الجزئية هي خير معين للشاعر في صياغة هذه الصور الكلية التي تركبت من تلكم الصور الجزئية للشفق، والطير، والريح، والشمس في الشفق، والطبيعة.

مصادر الصورة:

استمد الشعراء في الهند مادة صورهم من عدة مصادر: كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ومصطلحات العلوم الشرعية، والتراث الشعري العربي، والتاريخ، والأساطير، والطبيعة، ونأخذ كلاً من هذه المصادر بشيء من التفصيل:

أ- القرآن الكريم والحديث الشريف والعلوم الشرعية:

كان للقرآن الكريم والحديث الشريف والعلوم الشرعية المتفرعة منها كالفقه والتفسير وغيرهما أكبر منزلة لدى المسلمين في الهند وغيرها، إذ كانت هذه العلوم هي المصادر والمنابع التي يستقي منها المسلمون شرائعهم وأحكامهم في جميع شؤون الحياة، وبالتالي كان لها المركز الأول في أنظمتهم التعليمية، فكانت حياة المسلمين بفرعها العلمية والعملية قائمة على هذه الأسس، وكانت أنشطتهم كلها تدور حولها، ومن ثم لا غرابة إذ نرى الشعراء في الهند يستمدون منها مادّة صورهم في شعرهم، ويمكن أن يمثل لذلك بأمثلة كثيرة، منها قول الشيخ عبد الأول الجونفوري في تذكّر الموت والاستعداد لما بعده، يقول^(١):

وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْمَوْتِ لِلنَّاسِ مِنْهُلًا وَيَأْنِي وَلَوْ كَانُوا بِقَصْرِ مَشِيدٍ

فهذه الصورة مأخوذة من قوله تعالى:

﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾^(٢).

١- الإعلام ٣/ ١٢٥٨.

٢- سورة النساء: ٧٨.

ومنها قول الشيخ النوراني في أبي سلمى جمال الدين الذي أراد مغادرة مدرسة جامعة دار السلام بعمر آباد في جنوب الهند بولاية تامل نادو، يقول^(١):

بِجَمَالِ الدِّينِ يَخْرُجُ عَنْ قَرِيبٍ وَيَتْرُكُ دَارَنَا دَارَ السَّلَامِ
فَتُصْبِحُ عِنْدَنَا حُوتَ ابْنِ مَتَّى تَمُجُّ الدَّرَّ بَعْدَ الْإِلْتِقَامِ

فقد أخذ الشاعر هذه الصورة من قوله تعالى في صورة الصفات ﴿وَإِنْ يُؤْخَذِ لِيَنْ
الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ
وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلِثَبِّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَبَدَنَتْهُ
بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥)﴾^(٢).

ومنها قول الشيخ فيض الحسن السهارن فوري في ذكر صباه^(٣):

كَانَ لِي إِذْ بَدَا الصَّبَاحُ صَبُوحُ ذَاتُ طَيْبٍ عَلَى الشَّالِ تَطُوحُ
لَكِنِّي الْيَوْمَ تُبْتُ عَنْهَا نَصُوحًا فَهِيَ عِنْدِي إِذَا دَمٌ مَسْفُوحُ

فشبه الشاعر الخمر في الحرمة والاشمئزاز منها وكراهية النفس لها بالدم المسفوح الذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا...﴾ الآية^(٤).

كما استمد الشاعر صورة أخرى من الحديث النبوي الشريف، وتلك في رثاء الحكيم محمود حسن، يقول فيها^(٥):

لَوْ كَانَ لِي قُدْرَةٌ قَبَّلْتُ جَبْهَتَهُ تَقْيِيلَ مَوْلَايَ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ

فالشرط الثاني مأخوذ من حديث عائشة أن النبي ﷺ قَبَّلَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ وَهُوَ

١ - الشعر العربي في كبرالا ص ٢٣٣.

٢ - سورة الصفات: الآيات ١٣٩-١٤٥.

٣ - ديوان الفيض ص ٥٢.

٤ - الأنعام: الآية ١٤٥.

٥ - ديوان الفيض ص ١١٥.

ميت وهو يبيكي^(١).

وقد استمد الشيخ أنور شاه الكشميري صوراً من مصطلحات علماء الحديث النبوي الشريف وأسماء مؤلفاتهم، في رثائه لشيخه وأستاذه رشيد أحمد الكنكوهي، يقول^(٢):

فَقِيَّةٌ حَافِظٌ عِلْمٌ شَهِيرٌ كَصُبْحِ مُسْتَبْرِ هَدْيٍ سَارِ
إِلَيْهِ الْمُنتَهَى حِفْظًا وَفِقْهًا وَأَضْحَى فِي الرِّوَايَةِ كَالْمَدَارِ
فَقِيَ التَّحْدِيثَ رِحْلَةً كُلِّ رَاوٍ وَفِي الْأَخْبَارِ عُمْدَةً كُلِّ قَارِي

فالكلمات «إليه المنتهى»^(٣) و«المدار»^(٤) و«رحلة»^(٥) من مصطلحات علماء الحديث، كما أن الكلمتين «هدى سار»^(٦) و«عمدة قاري»^(٧) من مؤلفات هذا الفن العظيم.

التراث العربي الشعري:

كان الشعراء في الهند يتتقنون على دواوين الشعر العربي القديم، فارتسمت في أذهانهم أساليبه ومعانيه، كما جاء في شعرهم كثير من صوره، ومن تلك الصور ما نراه لدى الشيخ فيض الحسن في قصيدة مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول فيها مخاطباً نفسه ومعاتباً إياها على تقصيرها ويقول^(٨):

خُدِعْتَ بِأَعْمَالٍ تَرَاهَا صَحِيحَةً فَمَا أَنْتَ إِلَّا كَالْعَجُولِ عَلَى الْبَوِّ

فهذه الصورة مأخوذة من قول الفرزدق^(٩):

١ - أخرجه الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في تقبيل الميت (٩٨٩).

٢ - ديوان الفيض ص ١١٥.

٣ - كقولهم: إليه المنتهى في الثبوت، إليه المنتهى في الوضع، وهو أرفع مراتب التعديل أو الجرح. (معجم مصطلحات الحديث ولطائف الأسانيد، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، ص ٥٦).

٤ - المدار: يقصد منه ملتقى الأسانيد، فيقال: مدار هذا الإسناد على فلان، من إفادات د. الأعظمي الشفهية.

٥ - معجم مصطلحات الحديث، للأعظمي، ص ١٥٣، أضواء السلف، المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ.

٦ - الهدى الساري مقدمة فتح الباري، لابن حجر العسقلاني.

٧ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني.

٨ - ديوان الفيض ١١٩.

٩ - ديوان الفرزدق ٣٧٨/٢، تقديم وشرح: مجيد طراد، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

تَحْنُ بِرُزُورَاءِ الْمَدِينَةِ نَاقَتِي حَنِينَ عَجُولٍ تَبْتَغِي الْبَوَّ رَائِمِ

ومن الصور التي أخذت مادتها من التراث الشعري العربي التشبيهات التي اشتملت على الخنساء^(١) والمهابة^(٢) والجمل^(٣) والدلو^(٤).
ومنها تضمين بعض الشعراء أشطراً من الشعراء القدامى، كقول الشيخ محمد شفيع في رثاء الشيخ محمد أحمد^(٥):

وَكَاَنَا «كَدَمَانِي جَذِيمَةً حَقْبَةً» فَصَارَا كَأَنْ فِيهَا مَضَى مَا تَصَاحَبَا

فالشاعر -هنا- أخذ الصورة مع كثير من الألفاظ من قول الشاعر متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك بن نويرة^(٦).

كما استخدم بعض الشعراء أسماء أماكن أو أعلام شعراء أو قبائل من الجزيرة العربية كما نرى عند الشيخ محمد مهدي المصطفى آبادي إذ يقول^(٧):

وَبِدَارِ آنَسَةٍ وَقَفْتُ وَإِنِّي أَبْكِي عَلَى الْأُطْلَالِ كَابِنِ حِدَامِ

وقول الشيخ فيض الحسن^(٨):

إِذَا لَا يُغِيثُ صَرِيخُ الْقَوْمِ صَارِخُهُمْ إِذَا اسْتَعَانَ تَيْمًا أَوْ دَعَا طِيًّا

ومثل قوله أيضاً^(٩):

١- ديوان الفيض ٦٠.

٢- ديوان الفيض ٨٧.

٣- السابق ١١٩.

٤- السابق ٨٥.

٥- قضاء الأرب من رطب العرب ص ٥.

٦- المفضليات ص ٢٦٧، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت، ط ٦.

٧- الإعلام ٣/ ١٣٧٤.

٨- ديوان الفيض ص ٣١.

٩- ديوان الفيض ص ١٢١.

لَوْ أَنَّ مَصَائِبِي حَلَّتْ بِرِضْوَى تَخِرُّ عَلَى الثَّرَى وَبِهَا تُسَوَّى

فالشاعر استخدم كلمة «رضوى» وهو من الجبال الشهيرة بالكبر والارتفاع في الجزيرة العربية^(١) للدلالة على القوة والشدة والصلابة.
كما ذكر الشيخ أحمد اليميني الشرواني ربي نجد في قوله^(٢):

رَعَى اللَّهُ أَيَّامًا تَقَضَّتْ بِقُرْبِهَا وَلَيَلَاتٍ أَفْرَاحٍ مَضَتْ فِي رُبَى نَجْدِ
ويذكر وادي النعمان في قوله^(٣):

ذِكْرُ الْحِمَى وَمَرَابِيعِ الْأَخْدَانِ أَجْرَى دُمُوعَ مُكَابِدِ الْأَحْزَانِ
وَعَدَابِهِ قَلِيقًا شَحِيطَ الدَّارِ لَا يَنْفَكُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى الْأَوْطَانِ
طَوْرًا يَبِينُ وَتَارَةً يَكْبِي عَلَى زَمَنِ الصَّبَا الْمَاضِي عَلَى نَعْمَانِ

فالشعراء لم يتطرقوا إلى ذكر هؤلاء الأعلام والقبائل، أو تلك الأماكن بسبب معاشتهم لهم أو قضاء لهُوهم في تلك الأماكن؛ لأنهم لا عهد لهم بها إلا عن طريق الشعر العربي القديم.

التاريخ والأساطير:

خاص شعراء هنود في أعماق التاريخ ليستخرجوا منها تحفا يشكلون بها صورهم الشعرية، ليكسبوا بها عمقا زمنيًا، ودلالة ثقافية، ومن أولئك الشعراء أحمد بن عبد القادر الكوكبي، يقول في قصيدة رثاء شيخه^(٤):

أَيْنَ الصَّنَادِيدُ مِنْ فُرْسٍ وَمِنْ عَرَبٍ لَمْ يَنْجُ دَارًا وَلَا صَخْرٌ وَلَا هَرَمٌ
أَيْنَ الَّذِي شَيَّدَ الْأَهْرَامَ يَحْسِبُهَا تَحْمِيَهُ عَنْ مَهْرُمَاتٍ دُونَهَا حَطَمٌ

١- معجم البلدان، ياقوت الحموي، ٣/ ٥١، دار صادر بيروت، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

٢- نفحة اليمن ص ١٥٥.

٣- السابق ١٥١.

٤- الإعلام ٣/ ١١٧٤.

سَلْ هَلْ تُنَبِّئُ عَنْ أَنْبَاءِهَا سَبَأٌ أَوْ هَلْ تُخْبِرُ عَنْ أَرَامِهَا إِرَمٌ

ولم يكتف الشاعر في الاستدلال على هذه الحقيقة التي لامراء فيها بتاريخ الفرس والعرب بل استشهد بتاريخ ملوك الهند أيضاً، فقال:

وَلَيْسَالِ الْقَلْعَةِ الْحَمَاءِ طَارِقُهَا كَمْ مِنْ دُمُوعٍ جَرَتْ فِيهَا وَطْلَ دَمٌ

فالشاعر استدل على حتمية الموت للجميع بموت أولئك الأعظم الدين صنعوا التاريخ، وعاشوا أحداثاً جساماً، ومع ذلك لم يغنهم شيء عن الموت، كما شبه الشيخ أنور شاه مرثيته بفضيل وحاتم الطائي فقال^(١):

فُضِيلُ زَمَانِهِ وَرَعَاءٌ وَزُهْدًا وَحَاتِمُ عَصْرِهِ عِنْدَ امْتِيَارِ

وكان السيد حامد حسين أبعد غوراً من هؤلاء الشعراء فوصل إلى زمان يوسف ليأتي من هناك بمادة لصوره، فقال^(٢):

تَشَبَّهَتْ بِزُلَيْخَا مِضْرَ سَطَوْتِهَا تَدُومُ فِي السَّجْنِ وَالْأَقْيَادِ أَسْرَاهَا

فشبه حبيبته في السطوة بامرأة العزيز الذي كان قد اشترى يوسف عليه السلام، وسمى الشاعر امرأة العزيز بزليخا، بناء على ما اشتهر لدى العامة أنها كانت تسمى هذا الاسم.

بل كان الشيخ فيض الحسن أعمق غوراً من جميع هؤلاء الشعراء؛ إذ وصل إلى عهد عاد فقال^(٣):

لَقَدْ نُعِيتَ لِي فِتْيَةٌ مِنْ أَحِبَّةٍ عَلَيَّ كِرَامٍ كُنْتُ فِيهِمْ مُمَتَّعًا

دَهَاهُمْ فَأَفْنَاهُمْ وَمَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مُصَابٌ إِلَى لُقْمَانَ عَادٍ وَتُبَعًا^(٤)

١- السابق ٣/ ١٢٠٦.

٢- الإعلام ٣/ ١٢٠٦.

٣- ديوان الفيض ص ٨٥.

٤- تبع ج تبابعة، ملوك اليمن، وقيل: هو ملك في الزمان الأول (اللسان: تبع).

ولم يكتف الشيخ فيض الحسن بذكر أفراد للدلالة على أن الموت نهاية كل حيٍّ، وأن الفناء مصير كل ذي حياة، بل اتجه إلى قبائل غارقة في التاريخ، اتجه إليها بأسرها؛ ليدلّل بها على هذه الحقيقة، فقال^(١):

هَلْكَ السَّابِقُونَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ تُغْنِ طَسْمٌ وَلَمْ تُغْنِ جَدِيسٌ
أَفْقَرَتْ مِنْهُمْ بِلاَدٌ تَرَاهَا لَيْسَ فِيهَا مَجَالِسٌ وَجُلُوسٌ

ونلاحظ أن أغلب هذه الإشارات إلى الشخصيات التاريخية جاءت في غرض الرثاء في معرض الحديث عن حتمية الموت وشموله، وأنه ليس لأحد مناص منه.

الطبيعة:

كانت الطبيعة إحدى العناصر المهمة التي شكل بها الشعراء في الهند صورهم، ومن الشعراء الذين نجدهم يستخدمون هذا العنصر في صورهم السيد حامد حسين الفيض آبادي يقول في وصف حبيته^(٢):

سُوْدُ الْفُرُوعِ كَأَنَّ اللَّيْلَ خَمَّرَهَا بِيَضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ الشَّمْسَ غَدَاَهَا
خُدُودُهَا كَبَلْخَشٍ فِي مَعَادِنِهِ فِي الْإِحْمَرِارِ فَمَنْ رَبَّاهُ رَبَّاهَا
شَفَاهُهَا كَيَوَاقِيْتٍ يُشْعِشِعُهَا عِنْدَ التَّبَسُّمِ ضَوْءٌ مِنْ ثَنَائِهَا
فَلَيْلَةُ الْقَدْرِ تَحْكِي عَنْ غَدَائِرِهَا وَمَطْلَعُ الْفَجْرِ يَبْدُو عَنْ مُحْيَاهَا
مِثْلُ الْقَوَارِيرِ لِلصَّهْبَاءِ أَعْيُنُهَا لَا يَسْتَفِيْقُ وَلَا يَصْحُو سَكَارَاهَا
أَلْحَظْهَا قُضْبٌ وَالْفَرْقُ مُتَضَحٌّ تَبَقَى دُهُورًا بِحَالِ النَّزْعِ قَتْلَاهَا

فشبه الشاعر كل عضو من حبيته بما يقابله من الطبيعة، فالفروع والغدائر ليل، والوجه والمحيا صبح وشمس، والحدود بلخش، والشفاه يواقيت، والأعين قوارير الصهبا، والألحاظ سيوف.

١- ديوان الفيض ص ٨٥.

٢- الإعلام ٣/ ١٢٠٦.

ولم يقتصر استعارة الطبيعة لتصوير جمال الحبيبة فقط بل استعارها الشيخ محمد ناظم الندوي بوصف أجمل بناء في العالم وهو روضة التاج التي بناها الملك المغولي شاهجهان تذكراً لحبه لشريكة حياته، ولتكون مقبرة تجمعها بعد الوفاة، كما كان يجمعها البلاط الملكي في الحياة، وقد تأنق في بنائه، وأبدع فيه إبداعاً على عادة الملوك المسلمين في شبه القارة الهندية في بناء مقابرهم قبل الوفاة، ومبالغتهم في التأنق في هذا البناء يقول فيها الشيخ محمد ناظم الندوي^(١):

هُوَ بِسْمَةٍ تَعْلُو عَلَى نَغْرِ الزَّمَانِ	لِلَّهِ دَرْ مَا بَنَاهُ شَاهِجَهَانُ
أَوْ دُرَّةٌ تَلْمَعُ فِي جِيدِ الْحَسَانِ	أَوْ زَهْرَةٌ بَيَضَاءُ تَزْهُو فِي الْجَنَانِ
مُتَأَنِّتٍ فِي صُنْعِهِ وَمُقَصِّلٍ	أَوْ دُمِيَّةٌ مِنْ مَرْمَرٍ لِمُمَثِّلٍ
بِرَاعَةٍ فِي نَحْتِهِ أَوْ يَبْسُمُ	صُنْعٌ يَكَادُ فَنَّهُ يَتَكَلَّمُ
فِي خَاتَمِ الْأَرْضِ يَرُوقُ وَيَلْمَعُ	وَكَأَنَّهُ فَصٌّ جَيِّلٌ أَرْوَعُ
يَحَارُ مَنْ يَرْنُو إِلَيْهِ حَيْرَةً	هُوَ مَاسَةٌ حَجَرًا وَزَهْرٌ رَوْعَةً
مُتَوَسِّمًا حَيْرَانٌ يَلْمُسُ جَنْبَهُ	وَيَرُوقُ مَنْظَرُهُ وَيَجْلِبُ لُبَّهُ
أَكْبَرَتُهُ وَقُلْتُ: أَجْمَلُ دُرَّةٍ	وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ أَوَّلَ نَظَرَةٍ
أَوْ فِضَّةٍ بَيَضَاءٍ قَامَ قَوَائِمُهُ	وَتَقُولُ: صِنْعٌ مِنَ الضِّيَاءِ رُخَامُهُ
وَتَبَرَّعَتْ لَهُ بِبَعْضِ جَلَالِهَا	كَأَنَّ مَنْ فِيهِ ^(٢) كَسَتْهُ بِجَمَالِهَا
وَبِحُسْنِهَا وَوَلَائِهَا وَبِفَضْلِهَا	حَسَنَاءُ لَا زَنَاحَ الْحَبِيبُ بِعَقْلِهَا
وَبِخُلُقِهَا وَبِرَأْيِهَا وَبِنَبْلِهَا	رَوْعَاءُ قَدْ هَامَ الْمَلِكُ بِفَضْلِهَا
بَذَكَائِهَا وَوَفَائِهَا وَبِجَمَالِهَا	عَرَاءُ قَدْ مَلَكَتْ فُؤَادَ حَلِيلِهَا

١ - الزهرات ص ٣٥.

٢ - يقصد به الملكة ممتاز محل المدفونة في تلك الروضة.

ولا شكّ في أن الشاعر برع وأبدع في وصف هذه المقبرة، كما حاول بانيتها التأنق والإجادة في بنائها، ويرى الشاعر أن جمالها ليس مستمداً من عناصر الطبيعة الجامدة الصامتة فقط، بل اكتسبت الروضة ذلك الجمال الباهر، والحسن الكامل من تلك الملكة المدفونة فيها، والتي وصفها بالأبيات الثلاثة الأخيرة.

ولم تكن الطبيعة الصامتة فقط مصدر التصوير لدى الشعراء في الهند بل اتخذوا من الطبيعة الحية المتحركة أيضاً مادة لصورهم كما رأينا في تشبيهاتهم بالجمال، والخنساء، والمهابة، والشخصيات القديمة.

وبعد هذا العرض لأهم أنواع الصورة ومصادرها لدى شعراء العربية في الهند يمكننا تلخيص ما يأتي:

١- الأسلوب التقريري هو الغالب في الشعر العربي في الهند على الأسلوب التصويري، ومع ذلك نجد لدى الشعراء اهتماماً بالصورة.

٢- تنوعت الصورة في الشعر العربي في الهند بين صورة جزئية وكلية، وبين صورة لغوية حقيقية، وصورة بيانية مجازية.

٣- أكثر الشعراء في الصور البيانية من أسلوب التشبيه، ثم الاستعارة، ثم الكناية ثم المجاز، وذلك لأهمية دور التشبيه والاستعارة في التصوير.

٤- حاول الشعراء في الهند تجسيد المعنويات، وتشخيص الجماد وإضفاء الحياة عليه.

٥- حاول بعض الشعراء الإتيان بصور موحية إلى جانب الصور التقريرية.

٦- حاول الشعراء إضفاء الحركة على صورهم، فحينما صوروا الطبيعة المتحركة لم يصوروها جامدة ساكنة، بل صوروها متحركة كما هي.

٧- استمد الشعراء مادة صورهم من مصادر متنوعة، كالقرآن الكريم والحديث الشريف والعلوم الشرعية، والتراث الشعري العربي، والتاريخ والقصص والأساطير، والطبيعة الحية والصامتة.

وهذا يدل دلالة واضحة على معرفة الشعراء في الهند بقيمة هذا العنصر الهام في الشعر، ومحاولتهم إتقان هذا الجانب في شعرهم؛ ليكسوه جمالا ويعطوه قيمة فنية.

المطلب الثالث

موسيقا الشعر

تعد الموسيقى أبرز صفات الشعر، وإحدى مقوماته الفنية، ويقصد بها ما في الشعر «من جرس الألفاظ، وانسجام في توالي المقاطع، وتردد بعضها بعد قدر معيّن منها»^(١). والموسيقى تؤثر في الوجدان وتحرك المشاعر، وتهب للكلام قدراً من التجلة والاحترام، وتجعله مصقولاً مهذباً تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه. وقد كان القدماء من علماء العربية لا يرون في الشعر ما يميّزه عن النثر إلا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي؛ لأن الشاعر قد يستغني عن الخيال في بعض أجزاء قصيدته، ولكنه لا يستغني عن الموسيقى، فالإيقاع الموسيقي إذن هو جوهر الشعر، وأي خلل في هذا الإيقاع يتبيّن الحس، وتدرّكه الأذن.

وتنقسم الموسيقى إلى قسمين: ظاهرة خارجية، وخفية داخلية. فالقوالب العروضية التي يصبّ فيها الشاعر تجربته الشعرية فيما يعرف بالوزن والقافية تلك هي الموسيقى الظاهرة الخارجية، ووراءها موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته، وما يشيع فيها من تلاؤم في الحروف والحركات، وكأنّ للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام، وبهذه الموسيقى الخفية، يتفاضل الشعراء^(٢).

ونريد الآن أن نقف على كل من هذين القسمين لدي شعراء العربية في الهند، لنفصّل القول في هذين الأمرين.

أولاً: الموسيقى الخارجية

سبق أن ذكر أن الموسيقى الخارجية تشتمل على عنصرين هامين (الوزن والقافية)، ونشرع الآن في دراسة كل منهما.

(أ) الوزن

للوزن أثر في التصوير الشعري؛ لأنه هو ضابط الإيقاع الذي يحكم التوقيت الزمني للمتعددات الموسيقية، والوزن من الكلام الذي يشتمل عليه بمنزلة القالب من المادّة

١- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس ص ١٣، دار القلم بيروت لبنان، ط ٤، ١٩٧٢ م.

٢- فصول في الشعر والنقد، د. شوقي ضيف ص ٥٢ دار المعارف، القاهرة ط ٢، ١٩٧٧ م.

التي تنصبّ فيه^(١) فهو عنصر جوهري في الصوت الموسيقي «يتيح للأذن أن تتوازن مع الاهتزازات الخارجية كتوازن الآلات بعضها مع بعض قبل البدء بالعزف، ويتيح لنا التنبؤ بالأصوات والتهيؤ لها، فهو عنصر معلوم في إحساسات سمعية مجهولة»^(٢). والوزن - كان ولا يزال - يحتل مكانة مرموقة، فقديماً قال أبو العلاء المعري معرفاً الشعر بأهم عناصره وهو الوزن: «الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحس»^(٣) وترى نازك الملائكة أن «الوزن في يد الشاعر قمقم سحري يرش منه الألوان والصور على الأبيات المنغومة»^(٤).

ولم يغفل الشعراء في الهند عن الاهتمام بهذا العنصر الهام من عناصر الموسيقى، وبعد استقصاء عدد كبير من القصائد الموجودة لديّ يمكنني تلخيص ما توصلت إليه في هذا الصدد على النحو التالي:

١- نظم الشعراء في الهند على أحد عشر بحراً من بحور الشعر العربي، إضافة إلى مجزوء الكامل والوافر أيضاً.

٢- يمكننا تقسيم البحور الشعرية - حسب ورودها في الشعر العربي في الهند إلى الأقسام الأربعة الآتية:

أ- بحور شائعة الاستخدام، وهي أربعة بحور: الطويل، والبسيط، والكامل، والوافر، فعدد كبير جداً من قصائد الشعر العربي في الهند جاءت على هذه الأوزان الأربعة.

ب- بحور متوسطة الشيوخ: وهي بحرا الخفيف والرمل.

ج- بحور قليلة الشيوخ: وهي خمسة أبحر: السريع، والهزج، والرجز، والمتقارب، والمتدارك.

د- بحور مهجورة، وهي الأبحر الخمسة الباقية وهي: المديد، والمنسرح، والمجتث، والمضارع، والمقتضب.

وبهذا أرى أننا نتقارب جداً من تلك النتيجة التي وصل إليها الدكتور إبراهيم أنيس بعد استقصائه لعدة دواوين ومجاميع للشعر العربي القديم والحديث، حيث يقول: «تلك

١- بين شاعرين مجددين: إيليا أبو ماضي وعلى محمود طه المهندس، د. عبد المجيد عابدين، ص ١٢٧، مطبعة خيبر، القاهرة، ١٩٦٣م (بتصرف).

٢- الصورة في شعر بشار بن برد، د. عبد الفتاح صالح نافع، ص ٢٩١، دار الفكر للنشر والتوزيع عمان، ١٩٨١م.

٣- أبو العلاء الناقد الأدبي، للدكتور. السعيد السيد عبادة، ص ١٣٥، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٤- الصورة والبناء الشعري، د. محمد حسن عبد الله، ص ١١، دار المعارف مصر، ط ١، ١٩٨١م.

(أي الطويل، والبسيط، والكامل، والوافر، والخفيف) هي البحور الخمسة التي ظلت في كل العصور موفورة الحظّ يطرقها كل الشعراء، ويكثرون النظم منها، وتألفها آذان الناس في بيئة اللغة العربية.

أما المتقارب والرمل والسريع فتلك بحور تذبذبت بين القلة والكثرة، يألّفها شاعر ويكاد يهملها آخر^(١).

فالشعر العربي في الهند كان يدور - في جانب الوزن - في الفلك نفسه الذي كان يدور فيه الشعر العربي في بيئات عربية أخرى ولا نكاد نجد فيه خلافاً ملموساً.

٣- يلحظ مما ذكر أن الشعراء في الهند كانوا يميلون إلى البحور التامة والأوزان الكثيرة المقاطع، ويؤثرونها على البحور القصيرة والمجزوءات، وذلك لأنهم كانوا ينظمون في موضوعات تتسم بالجدية وتتطلب طول النفس في الإنشاد كالمديح والثناء والدعوة إلى الجهاد، والحث على الاستعداد لما بعد الموت، والسعي إلى نشر الفضائل وإخماد الرذائل ولم يكن الشعر العربي في الهند يستخدم في الغناء واللهو اللذين يقتضيان أوزاناً خفيفة، قليلة المقاطع كالمجث والمترار وغيرهما.

٤- لم ينظم شعراء العربية في الهند على أوزان المولدين كالموالي^(٢). والكان وكان^(٣) والدوبيت^(٤) ولم نجد لديهم نظم الموشحات^(٥) والأزجال^(٦) التي شاعت بين الأندلسيين.

١- موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ص ٢١٠.

٢- موسيقى الشعر ٢١١.

الموالي: فن من فنون الشعر، وضع للغناء، قيل: إن أول من تكلم بهذا النوع بعض أتباع البرامكة بعد نكبتهم، فكانوا ينحون عليهم، ويكثر من قولهم «يا موالى» فصار يُعرف بهذا الاسم، وتركيب الموالى على الغالب من بيتين، تحتم أشطرهما الأربعة بروي واحد. (ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، سيد أحمد الهاشمي ١٥٢-١٥٣).

٣- الكان وكان: نظم واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثاني، ولا تكون قافيته إلا مردوفة، وأجزاء المعهودة، هي:

مستفعِلن، فاعلاتن، مستفعِلن، مستفعِلن، فاعلاتن، مستفعِلن، فعِلان.
وأول من اخترعه البغداديون. (ميزان الذهب ١٥٤).

٤- الدوبيت: لفظ «دوبيت» مركبة من كلمتين: معنى الأولى منها «دو» اثنان، وثانيتها «بيت» هي بمعناها العربي، فلا يقال منه إلا بيتان بيتان في أي معنى يريده الناظم، ولا يجوز فيه اللحن مطلقاً، وله أنواع، وهو وزن منقول من الفارسية إلى اللغة العربية. (ميزان الذهب ١٤٤-١٤٥).

٥- الموشح: اخترعه الأندلسيون، وكانوا ينظمونه في البدء «أسباطاً وأغصاناً» ويسمونهم «أقفالا وخرجات» ويتركب القفل من أربعة أشطر، والغصن من ثلاثة أو خمسة أو سبعة، وقد يجزئون البيت إلى أجزاء يلتزمون فيها القافية جميعاً، وليس له وزن معلوم أو محدد، أو قيد معروف. (العروض الواضح، د. ممدوح حقي، ص ١٥٥-١٥٦).

٦- الزجل: ليس له وزن معين، وإنما قائده في الغناء الإيقاع فقط، وهو إلى العامة الصريحة أقرب منه إلى اللغة الفصيحة، وليس لقوافي أشطره قاعدة معينة، بل يتبع في ذلك ذوق الزجال وإحساسه الموسيقي والتصويري. (العروض الواضح ص ١٧٢).

٥- لم نجد في الشعر العربي في الهند أي تجديد في باب الأوزان كما لم نجد لديهم - في هذا الجانب - أيّ تأثير بالبيئة التي كانوا يعيشون فيها، بل جاء جميع شعرهم على الأوزان العربية التقليدية الخليلية.

٦- ونلاحظ أن الشعر العربي في الهند لا يساند تلك البحوث والدراسات التي تحاول جاهدة الربط بين الأوزان والموضوعات بعينها، إذ كان أغلب القصائد في الشعر العربي في الهند - على نسق الشعر الجاهلي والإسلامي - متعددة الموضوعات، متنوعة الأغراض، ومع ذلك لم يضرها اتحاد الوزن بعينه، وهذا يؤكد لدينا ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف في هذه القضية حيث يقول: «إنَّ حقائق شعرنا تنقض ذلك نقضاً تاماً، إذ القصيدة تشتمل على موضوعات عدة، ولم يحاول الشعراء أن يخصصوا الموضوعات بأوزان لها، لا تنظم إلا فيها، فكل موضوع ينظم في أوزان مختلفة، وكل وزن نظمت فيه موضوعات مختلفة»^(١).

٧- ولم يكن الشعر العربي في الهند بمنجاة من بعض الأخطاء في جانب الوزن كانكسار الوزن بسبب زيادة أو نقص، مما يؤدي إلى خلل واضح في الموسيقى، وقد وجدت أمثلة عديدة من هذا النوع، منها على سبيل المثال، ما قاله الشيخ إسحاق بن إبراهيم القنوجي في مدح النواب صديق حسن خان القنوجي^(٢):

بُشْرَى فِقْرَدَوْسُ النَّشَاطِ قَدْ ازْهَرَ وَاهْتَزَّ عُنُقُودُ الْمُنَى فَتَنَوْرًا
وَالْأَرْضُ كَالْأَطْلَالِ مُحْصَبَةٌ خَضِرَةٌ فَإِذَا تَشَمَّسَ عَادَ يَوْمًا مُقْمَرًا

فالقصيدة من الكامل، ولكن زاد الشاعر في عروض البيت الثاني سبباً ثقيلاً مما أدى إلى انكسار الوزن واختلال النغمة الموسيقية.

والشيخ محمد الفلكي الجمالي المليباري حذف سبباً ثقيلاً من آخر التفعيلة الأولى من مطلع قصيدته التي نظمها في دار الأيتام بترورنغادي، يقول فيها^(٣):

١- في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف ١٥٢.

٢- الإعلام ٣/ ١١٨٤.

٣- الشعر العربي في كيرالا ١٤٩١.

أَلَا هَبَّ أَيْتَامٌ وَقَامُوا صَبَاحاً بَعْدَ أَنْ رَقَدُوا وَنَامُوا

وَسَارُوا مُسْرِعِينَ تَجَاهَ نَهْرٍ وَيَعْدِدُونَ قَدْ انْغَمَسُوا وَحَامُوا

فالقصيدة من بحر (الوافر) وقد جاءت التفعيلة الأولى مقطوفة (فعولن) والقطف لا يدخل الحشو وإنما هو واجب في تام الوافر عروضاً وضرباً^(١).

٨- وقد لجأ بعض الشعراء إلى ضرورات شعرية كصرف الممنوع من الصرف في قول الشيخ إعجاز أحمد السهسواني^(٢):

قَدْ جُبْتُ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ مَفَاوِزاً وَمَهَالِكاً كَالْهَائِمِ الْمُتَشَوِّقِ

فمفاوز ومهالك، ممنوعان من الصرف، ولكن الشاعر صرفهما بإدخال التنوين حفاظاً على الوزن.

ومنها أيضاً قطع همزة الوصل أو العكس، فمثال قطع همزة الوصل قول الشيخ حبيب الرحمن العثماني^(٣):

رِيَاضُ الْفُضْلِ إِهْتَرَّتْ رُبَاهَا وَزَهْرُ الدِّينِ تَبْتَسِمُ ابْتِسَاماً^(٤)

وقوله^(٥):

أَقَامُوا بَعْدَ وَهْيٍ وَانْتِكَاسٍ عُمُودُ الدِّينِ حَتَّى اسْتَقَامَا

فالكلمتان: (اهتزت، واستقاما) الهمزة فيهما للوصل، ولكن الشاعر أعطاهما حكم القطع، وأبقاها ليستقيم الوزن.

أما وصل همزة القطع، فمن أمثله قول الشيخ سعيد أحمد حسرت في الغزل وذكر الخمر^(٦):

١- القطف: اجتاع الحذف والعصب.

٢- الإعلام ٣/ ١١٩٠.

٣- معين اللبيب ص ٦٠.

٤- هكذا في المرجع: والصواب يبتسم ابتساماً.

٥- المرجع السابق نفسه.

٦- ديوان حسرت ص ١٠١، مخطوطة في خانقاه مجيبه، فلوارى شريف، بته.

وَابْتَغِي قَهْوَةً مُشَعَّشَةً نَقَضْتَ عَهْدَ زَاهِدٍ نَسِيكَ

وقول الشيخ فيض أحمد البدايوني^(١):

وَلَا تَظُنَّ لِنَجْمٍ سَعْدًا أَوْ نَحْسًا فَإِنَّهَا لَوُجُودِ الْحَقِّ آيَاتُ

فالكلمتان: أبتغي، وأو، الهمزة فيها قطعية لكن اضطر الشاعر إلى حذفها ومعاملتها معاملة همزة الوصل حفاظاً على استقامة الوزن.

ومن الضرورات التي ارتكبتها الشعراء في الهند حذف الهمزة كما في قول الشيخ عبد الله الجيتيكر^(٢):

يَا شَوْقُ بَلِّغْ إِلَى سَادَاتِي الْعُلَمَاءِ سَلَامَ عَبْدٍ كَثِيبٍ كَابِدَ الْأَلَمَاءِ

فالشاعر قصر الممدود في كلمة العلماء مراعاة للوزن والروي.

ولا شك أن هذه الضرورات كلها جائزة للشعراء كما صرح بذلك ابن جني^(٣) لأنها لا تفسد الموسيقى، ولا تخل بها.

(ب) القافية:

تعد القافية القسم الآخر في الموسيقى الخارجية، وهي - كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس: «عدة أصوات تتكرر في أواخر الأَشْطُر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية»^(٤) فهي بمثابة الفواصل الموسيقية، يتوقع السامع تردها وهي من العناصر المهمة في إيقاع الشعر؛ لأنها تمثل القرار والإيقاع لأمواج النغم، ومن هنا كانت أهميتها في تشكيل الصورة الشعرية.

وقد اشترط النقاد العرب «مشكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية، وقالوا: إن القافية يجب أن تكون كالملحود به المنتظر، يتشوقها المعنى بحقه، واللفظ بقسطه، وإلا كانت قلقلة في مقرّها، مجتلبة لمستغن عنها»^(٥) وقد سموا اجتلاب القافية بالاستدعاء، وهو

١- الإعلام ٣/ ١٠٦٧.

٢- المرجع السابق ٣/ ١٢٩٤.

٣- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار ١/ ٣٢٣، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، بدون تاريخ.

٤- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس ص ٢٤٦.

٥- شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص ١١، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ٢، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

ألا يكون للقافية فائدة إلا كونها قافية، فتخلو حينئذ من المعنى^(١) كما اشترطوا أن تكون عذبة الحرف سلسلة المخرج^(٢).

أما تحديد تلك الأصوات المتكررة في آخر البيت فهي -على الراجح- تطلق على الحرفين الساكنين آخر البيت وما بينهما من الحروف مع المتحرك الذي قبلهما^(٣). وأهم هذه الحروف الروي، فهو الحرف الوحيد الذي يلازم القوافي جميعها «وعليه تبنى القصيدة وإليه تنسب»^(٤) لتكراره بعينه مع حركته الخاصة.

أما قضية الربط بين القوافي والموضوعات الشعرية فقد أشار إليها بعض النقاد قديماً وحديثاً كابن طباطبا^(٥) وأبي هلال العسكري^(٦) وأبي العلاء المعري والبستاني^(٧).

ولكن الصواب - أنه لا توجد علاقة بين الروي وموضوع الشعر أيضاً، فالأمر فيه كالأمر بين الوزن وموضوع الشعر. وإن كان الدكتور حسين نصار يؤكد أن النظام وشعراء عصور الضعف، الذين تحوّل الشعر عندهم من خلق فني إلى صناعة عقلية كانوا يسعون في وعي تام وراء قوافيهم^(٨) لكن الشاعر المبدع هو الذي لا يعتمد رويًا يختاره عن قصد، وإنما يكون اختياره له عفويًا^(٩) بحسب شعور الشاعر وما تملّيه تجربته الشعرية.

وإذا استثنينا الشيخ فيض الحسن السهارنفوري الذي تتبع المعري في جعل جمع حروف المعجم رويًا لقصائده نجد أن بقية الشعراء قد استخدموا ثمانية عشر حرفاً من حروف المعجم رويًا في قصائدهم، واختلفت نسبة مجيئها رويًا، ويمكننا تقسيم حروف المعجم بحسب ورودها رويًا في الشعر العربي في الهند إلى أربعة أقسام:

أ- ماكثر مجيئه رويًا وهو: الميم، اللام، الدال، الراء، النون، الباء

١- العمدة ٢/ ٧٣.

٢- نقد الشعر ٥١.

٣- الكامل في العروض والقوافي محمد قناوي ١٨٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

٤- الوافي في العروض والقوافي، للخطيب التبريزي، تحقيق عمر يحيى فخر الدين قباوه ص ١٤٩، دار الفكر، دمشق ط ١٣٩٥م.

٥- عيار الشعر ٥.

٦- الصنائع ١٣٩.

٧- مقدمة الإلياذة، سليمان البستاني، ص ٩٧ مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٤م.

٨- القافية في العروض والأدب، د. حسين نصار، ص ١٢٨، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٩- من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، عثمان موافي ص ٨٣، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية ١٩٧٥م.

ب- ما توسط مجيئه رويًا وهو: التاء، العين، السين، الهاء الياء.
ج- ما قل مجيئه رويًا وهو: الكاف، القاف، الفاء، الضاد، الحاء، الهمزة، الألف المقصورة.
د- ما لم يأت رويًا مطلقًا وهو: الثاء، الجيم، الخاء، الذال، الزاي، الشين، الصاد، الطاء، الظاء، الغين، الواو.

ونلاحظ أن نسبة وقوع حروف المعجم رويًا قلة وكثرة تتقارب جداً بما توصل إليه كل من الدكتور عبد الله الطيب^(١) والدكتور إبراهيم أنيس^(٢) حيث قسم الدكتور الطيب حروف المعجم إلى ثلاثة أقسام: القوافي الذلل، والقوافي النفر، والقوافي الحوش. ويتبين لنا أن الشعراء في الهند قد تجنبوا القوافي الحوش التي توصل إليها الدكتور الطيب تجنباً تاماً فلم ينظروا إليها، أما القوافي النفر فقد جاءت في شعرهم على قلة. أما بقية حروف المعجم فهي مما أطلق عليه الدكتور الطيب القوافي الذلل، وهي تتفق كذلك مع ما توصل إليه الدكتور إبراهيم أنيس في ترتيبه للقوافي من حيث كثرة شيوعها. مما يدل على اهتمام الشعراء في الهند بموسيقى شعرهم اهتماماً كبيراً. ويلحظ أن من بين ثمانية عشر حرفاً من حروف الروي، وهي مجموع ما نظم فيه شعراء الهند، هناك اثنا عشر حرفاً مجهوراً وستة أحرف مهموسة، ومن هنا يتبين غلبة الحروف المجهورة على روي شعراء الهند.

وتنقسم القوافي من حيث الإطلاق والتقييد إلى قسمين: القافية المطلقة، وهي ما كان رويها متحركاً، والقافية المقيدة، وهي ما كان رويها ساكناً^(٣).

والقافية المطلقة تشكل الأغلبية الساحقة في الشعر العربي في الهند، وهذه سمة عامة تميز الشعر العربي كله؛ لأن القافية المطلقة أكثر وضوحاً في السمع، وأشدّ أسراً للأذن، فالرويّ فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل في الإنشاد، وتصبح حينئذ حرف مدّ، وقد استقرّ في علم الأصوات الحديث أن هذه الحركة أوضح من حرف الروي نفسه، وذات تأثير قويّ في السمع^(٤) وهي مما يسميه علماء الأصوات بأصوات اللين وهي

١- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب، ص ٥٨-٧٩.

٢- موسيقى الشعر ص ٢٧٥.

٣- العروض الواضح، د. ممدوح حقي ص ١٣١، دار مكتبة الحياة، بيروت ط ١٤، ١٩٧٠م. وميزان الذهب في صناعة شعر العرب، سيد أحمد الهاشمي ١١٩، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٤- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس ٢٨٥.

الأصوات الصائتة التي تتسم بالوضوح السمعي، فعند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة، ثم الحلق والفم في ممرّ خالٍ من الحوائل والموانع^(١). أما القافية المقيدة فقليلة جداً، في الشعر العربي في الهند، كما أنها قليلة الشيوخ في الشعر العربي عموماً^(٢) لأنها تنتهي بحرف ساكن، وعند الوقوف عليه فإنه يغمض، ويقل وضوحه في السمع حتى لا تكاد تدرى حقيقته أو تحسّ موسيقاه.

تنويع القوافي:

رُوي لنا الشعر العربي القديم من العصرين الجاهلي والإسلامي في صورة القصيدة ذات القافية الموحدة، وبقيت على هذه الحالة طوال القرون التي بقيت فيها العروبة خالصة أو تكاد.

ولما كان العصر العباسي وامتزجت الثقافة العربية الخالصة بثقافات جديدة، وتحوّلت الحياة العربية من البداوة إلى حضارة ذات مدنية عظيمة، وازدهر الغناء والموسيقى، ابتكرت نظم جديدة في القوافي، تلبيةً لحاجات المجتمع الجديدة، واتساقاً مع الموسيقى التي راجت فيها، فشاعت أشكال جديدة للقصيدة العربية كالمسمطات والمزدوجات، والرباعيات وغيرها^(٣) وازدهرت ازدهاراً كبيراً في العصر المملوكي في الشام^(٤) ونرى الشعراء في الهند قد نظموا على بعضٍ من هذه الأشكال الجديدة، كالمخمس، والمزدوج وغيرهما. وأهم هذه الأشكال:

المخمس:

أطلق النقاد والأدباء هذا الاسم على قصائد مقسمة إلى مقاطع، يضم كلٌّ منها خمسة أشطر، لها نظام خاص في قوافيها، فقد يكون كل قسم من هذه الأقسام مستقلاًّ تمام الاستقلال في قوافيه وأوزانه، وقد تتكرر فيه قافية الشطر الخامس من كل قسم من

١- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، ص ٢٦، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، ط ٤، ١٩٧١ م.

٢- موسيقى الشعر ص ٢٨٩.

٣- تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ١٩٣-٢٠٠، دارالمعارف، القاهرة، ط ٨، ١٩٨٢.

٤- الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، د. عمرو موسى باشا، ص ٦١٥، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩ م، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، د. شوقي ضيف، ص ١٢٨-١٢٩، دار المعارف القاهرة، ط ٢، ١٩٩٠ م.

أقسام المقطوعة^(١).

وقد ينظم الشاعر الخمس رأساً، وقد يعتمد إلى بيت شعر معروف، فيقدم عليه ثلاثة أشطر قوافيها جميعاً، هي قافية الشطر الأول من البيت (العروض)^(٢).
ومعظم ما جاءنا من شعراء الهند كان من النوع الثاني من الخمسات التي كان يعتمد فيها الشاعر إلى قصيدة معروفة، ويضيف إلى كل بيت منها ثلاثة أشطر من شعره، «وكان الشكل الشائع عندهم - ليسره - أن يقدم الشاعر أشطره الثلاثة مقفاة بقافية صدر البيت الذي خمسه»^(٣).

ومن أمثلة الخمسات لدى شعراء الهند ما قاله الشيخ عبد الحليم الصديقي خمساً
أبيات جعفر بن عليّة الحارثي^(٤)، يقول:

فَمَا لِنَبَاتِ الشَّوْقِ وَهَنَا تَطَلَّعَتْ وَمَا لِحُفُونِي عَنْ عُيُونِي تَقَلَّصَتْ
أَحْلُمَا أَرَى أُمَّ عَفْرَاءٍ أَقْبَلَتْ "عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنِّي تَخَلَّصَتْ

إِلَيَّ وَبَابُ السَّجْنِ دُونِي مُغْلَقُ

تَجَلَّتْ فَأَحْزَانِي بِزُورَتِهَا انْجَلَتْ رَأَتْنِي بِشَّارِبِضًا فَتَبَسَّمَتْ
أَضَاءَتْ عَرِينِي بِالْمَبَاسِمِ إِذْ بَدَتْ "أَلَمْتُ فَحَيَّتْ ثُمَّ قَامَتْ فَوَدَّعَتْ
فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتْ النَّفْسُ تَرْهَقُ

ومنها أيضاً ما قاله الشيخ محمد وحيد الدين العالي خمساً قصيدة الفرزدق المشهورة
في زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، يقول^(٥):

١ - موسيقى الشعر، ص ٣٣٨-٣٣٩ بتصرف.

٢ - العروض الواضح، د. ممدوح حقي ١٧٩.

٣ - القافية في العروض والأدب ١٧٦.

٤ - مجلة الضياء، ص ٣٠.

٥ - الجواهر الزاهرة في مدح النبي وآله الطاهرة، محمد وحيد الدين العالي الحيدر آبادي، ص ١٠، نيشنل برنتنك بريس، حيدر آباد، ١٩٥٨ م.

هَذَا الَّذِي لَا تَنَالُ الشَّمْسُ شَهْرَتَهُ وَلَيْسَ يُنْكِرُهُ مَنْ شَامَ غُرَّتَهُ
هَذَا الَّذِي تَلْتُمُ الْأَفْلَاكُ عِقْوَتَهُ "هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأْتُهُ
وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ"

وقد نوّع الشعراء في الهند في القصائد التي أخذوها للتخميس بين الزمان والمكان، فإن كان الشيخ عبد الحليم خمس قصيدة لشاعر حماسي وخمس العاليي لقصيدة الفرزدق فهناك شعراء خمسوا قصيدة النفس لابن سينا، والقصيدة النبوية للبوصيري، كما خمسوا قصائد لشعراء الهند أيضاً، فنرى الشيخ عبد العزيز خمس عدة قصائد لوالده الشاه ولي الله الدهلوي، ونرى السيد علي بن عباس التستري أيضاً خمس بعض قصائد لوالده مع تخميسه لقصيدة البوصيري، كما خمس الشيخ سليمان بن داود البهلواري قصيدة محمد عباس التستري وخمس الشيخ عبد الرحمن سيوهاروي قصيدة الشيخ حبيب الرحمن في الرثاء، وخمس الشيخ محمد يوسف البنوري قصيدة الشيخ إعزاز علي في وصف الكتاب، يقول فيها^(١):

رَأَيْتُ الْخَيْرَ فِي كَنْفِ التَّوَلَّى وَأَمْنًا فِي التَّعَزُّلِ وَالتَّخَلَّى
فَأَثَرْتُ الْخُمُولَ عَلَى التَّجَلَّى "أَلَا مَ عَلَى التَّجَنُّبِ وَالتَّخَلَّى
فَقُلْتُ أَجِيئُهُمْ هَذَا شِعَارِي"

ويقول الشيخ عبد العزيز خمسا قصيدة والده في مدح الرسول ﷺ^(٢):

عُمُومِي نَدِيمِي وَالْبَلَاءُ مُصَاحِبِي وَسَقْيِي كَأْسِي وَالْمَنَاءُ مَشَارِبِي
تَشَابَهُ مِنْ فَوْقِي وَتَحْتِي مَصَائِبِي "كَأَنَّ نُجُومًا أَوْمَضَتْ فِي الْغِيَابِ
عُيُونُ الْأَفَاعِي أَوْرُؤُوسُ الْعَقَارِبِ"

ويلحظ أن الشعراء في الهند كانوا في الغالب - يخمسون كامل القصيدة، ولم يكونوا

١ - القصائد البنورية ص ٢٤٨.

٢ - ديوان الشاه ولي الله الدهلوي خطوط في مكتبة ندوة العلماء رقم ٣٥٨، ومجلة القاسم ص ٢١. عدد صفر ١٣٣١ هـ.

يكتفون باختيار أبيات بعينها.

المزدوج:

وهو النوع الثاني من الشعر المتنوع القافية الذي اختاره الشعراء في الهند لصب تجاربهم الشعرية فيه، والمقصود بالمزدوج تلك القصيدة التي تتميز فيها القافية مع كل بيت، وتتحد في الشطرين المتقابلين من كل بيت^(١).

وقد كثر النظم عليه في العصر العباسي الأول وما بعده من العصور. ووجده الشعراء أليق بنظم القصص الطويلة والحكم والأمثال، وما أرادوا نظمهم من مسائل العلوم، لأن الشاعر يستطيع أن ينظم فيه بدون مشقة أو تعب.

ولم نجد لدى شعراء العربية في الهند احتفالاً بالمزدوج، فلم ينظم عليه إلا الشيخ محمد ناظم الندوي، فقد اشتمل ديوانه على ستّ مزدوجات إحداها في وصف المقبرة الشهيرة تاج محل في آغرا، وأخرها في الترحيب بزميله الفاضل الشيخ أبي الحسن علي الندوي حين زار باكستان، وقصيدتان في نقد الحضارة المادية المعاصرة، والخامسة في وصف أخلاق اليهود، والسادسة في ذكر هجوم في تل أبيب، يقول في وصف تاج محل^(٢):

لله دُرٌّ مَا بَنَاهُ شَاهِجَهَانُ	هُوَ بِسْمَةٍ تَعْلُو عَلَى ثَغْرِ الزَّمَانِ
أَوْ زَهْرَةٌ بَيَضَاءُ تَزْهُو فِي الْجَنَانِ	أَوْ دُرَّةٌ تَلْمَعُ فِي جِيدِ الْحَسَانِ
أَوْ دُمِيَّةٌ مِنْ مَرْمَرٍ لِمُثَلِّ	مُتَأَنِّقٍ فِي صُنْعِهِ وَمُفَصِّلِ
صُنْعٌ يَكَادُ فَتْنُهُ يَتَكَلَّمُ	بِبَرَاعَةٍ فِي نَحْتِهِ أَوْ يَنْسُمُ

والمزدوجة تقع في ٣٤ بيتاً، فيها وصف رائع لهذه المقبرة وبانيها، كما فيها دعوة إلى التذكّر والاعتبار بصروف الدهر، التي لا تدوم على حال. ويقول في قصيدة (لأخلاق

١- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، ٣٣٣، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف ١٩٦ (بتصرف).

٢- مجلة البعث الإسلامي، الصادرة من دار العلوم ندوة العلماء لكناؤ، عدد شوال ١٣٩٨ هـ ص ٧١، الزهراء، لمحمد ناظم الندوي ٢٤.

(اليهود) (١):

قَدْ زَيْنُوا كُلَّ الْفَسَادِ بِأَسْمِ الصَّالِحِ وَالرَّشَادِ
فَسَرَى الْفَسَادُ فِي الْأُمَمِ كَالنَّارِ شَبَّتْ فِي الْحِمَمِ
شَرُّ الرَّبَائِبِ مِنْ أَنْفَجَرِ وَطَمَّ سَيْلًا وَاسْتَقَرَّ
قَدْ مَهَّدُوا طُرُقَ الرَّشَا وَأَتَقْنُوا نُظْمَ الرَّبَا
نَشَأُوا عَلَى أَكْلِ الْحَرَامِ وَزَيَّنُوهُ لِلْأَنَامِ
مَضُّوا دِمَاءَ الْعَامِلِينَ أَثَرُوا وَأَشَقُّوا كَادِحِينَ
نَزَفُوا جُهِودَ الزَّارِعِينَ وَجَنَّوْا ثِمَارَ الْغَارِسِينَ
مَنْ خُلِقَ ذَا لَا يَسُودُ إِنَّ إِلَهَهُودَ لَنْ تَسُودَ

واستمر على هذا النمط في تعداد قبائلهم ورتائلهم، وبيّن مغبة من يتخذهم أولياء، وأن الخزي والعار لهم بالمرصاد.

ولم نجد أحداً من الشعراء في الهند غير الشيخ محمد ناظم الندوي ينظم المزدوجات ماعدا ما رأيناه عند الشيخ محمد عباس الشوستري، فحاول أن ينظم القصائد على كل الأنواع والأشكال الجديدة، كالمزدوج، والمثلث، والمربع، والمخمس، والمسدس، والمسيح، والمثمن، والمتسع، والمعشر.

ولا شك «أن تنوع القافية مما يزيد في موسيقى الشعر، ويكسبه جمالاً فوق جمال» (٢).
الموسيقى الداخلية:

سبق أن قلنا: إن المقصود بالموسيقى الداخلية هو: ما ينبع من اختيار الشاعر لكلماته، وما يشيع في القصيدة من تلاوم في الحروف والحركات.
وإثراء الموسيقى الداخلية في النص هو الذي تتفاضل فيه ملكات الشعراء، وهو مناط الحكم على ملكة الشاعر وقدرته والحكم على أسبقيته.

١- الزهراء ص ١٥.

٢- موسيقى الشعر ٣٣٣.

ولذا لم يكن شعراء العربية في الهند ليفوتهم هذا الجانب، فاهتموا بهذه الموسيقى اهتماماً بالغاً، وهياؤها عدة عوامل، من أهمها:

الجناس:

من أهم العوامل التي أثرت الموسيقى الداخلية في الشعر العربي في الهند، الجناس، وهو تماثل الكلمتين أو تقاربهما في النطق مع اختلافهما في المعنى^(١) ويعد من أهم ألوان الإيقاع، شريطة أن يكون مكماً للمعنى، غير مقصود لذاته، وقد عاب النقاد الإكثار منه لدلالته على تكلف الشاعر، ورأوا أن المقبول منه هو الذي يتطلبه المعنى، ويسوق نحوه، حتى لا يجد المتكلم عنه حولا، ولا يبتغي به بدلا^(٢).

ومن أمثلة الجناس في الشعر العربي في الهند، ما قاله الشيخ أحمد بن عبد القادر الكوكني في قصيدة نبوية، يقول فيها^(٣).

لَوْلَاهُمْ مَا كَلَأْتُ اللَّيْلَ مُكْتَبِبًا أَرْعَى النُّجُومَ حَلِيفَ الْوَجْدِ وَالسَّقَمِ وَالسَّقَمِ

وَلَا جَرَى دَمْعُ عَيْنِي كَالْعَقِيقِ عَلَى ذِكْرِ الْعَقِيقِ وَذِكْرِ الْبَانَ وَالْعَلَمِ

فالجناس بين العقيق والعقيق، والأول بمعنى حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص، والثاني، وادٍ معروف في المدينة المنورة^(٤).

ومنها قول الشيخ حيدر على الرضوي في قصيدة بعث بها إلى أستاذه وشيخه المفتي محمد عباس الشوستري:

أَحْسُ بِصَدْرِي نَارَ وَجْدٍ تَأَجَّجَتْ نَوَائِرُهَا قَدْ كَادَ تَحْرِقُ بِالْيَا

وَلَكِنَّ جَرِي الْعَيْنِ كَالْعَيْنِ فِي النَّوَى لِأَطْفَا ضِرَامًا أُوقِدَتْ بِفُؤَادِيَا

والجناس في كلمة «العين» فالأولى بمعنى عضو البصر، والثانية بمعنى ينبوع الماء الجاري.

١- بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي ٧٧/٤.

٢- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق د. أحمد بدوي ود. حامد عبد المجيد ص ١٦٣-١٦٤ مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٧٠م.

٣- الإعلام ١١٧٣/٣.

٤- معجم البلدان ١٣٩/٤.

وقد أتى الشعراء في الهند بأنواع عدة من الجناس، كالتمام وقد سبقت أمثلته، والمحرف، ومن أمثلته قول الشيخ محمد إعزاز علي في رثاء الشيخ عبد الرحيم رائفوري^(١):

يَا مَنْ يُرَبِّي مَنْ يَلُودُ بِظِلِّهِ سَلَّ النَّفُوسَ فَسَلَّ مِنْكَ سُورُهَا
وقول الشيخ عبد الله الجيتيكر^(٢):

هَلْ عُدَّةٌ مَعَ عِدَّةٍ نَرْجُو بِهَا دَفْعَ الْجَلَلِ
فالجناس في «سَلَّ، وَسَلَّ» و«عُدَّةٌ وَعِدَّةٌ» إذ اتفقت الكلمات حروفاً واختلقت حركاتٍ، مع اتحاد الكلمتين في النوع، فَسَلَّ وَسَلَّ فعلان، وَعُدَّةٌ وَعِدَّةٌ اسمان^(٣). وهو المسمى بالجناس المحرف.

ومن أمثلة الجناس الناقص ما نراه عند الشيخ فيض الحسن السهارنفوري في مدحه للسلطان عبد الحميد العثماني إذ يقول^(٤):

لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي قَوْمٍ طَغَوْا وَبَغَوْا عَلَيْكَ ثُمَّ عَتَوْا فِي بُعْدِ آفَاقِ
وقول الشيخ علي نعمت الفلواروي^(٥):

الْحُبُّ لَا يَسْتَطِيعُ الصَّبُّ يَكْتُمُهُ حَلَّ الْغَرَامِ بِهِ وَدَمَعُهُ وَدَمُهُ
أما جناس الاشتقاق فكثير جداً في الشعر العربي في الهند، ومن أمثلته قول الشيخ المفتي محمد كفاية الله^(٦):

ذَكَرْنَا يُوسُفَ الصَّدِيقَ لَمَّا أُسِرْتَ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أُسِرِ

١- القاسم ص ٢١، عدد شهر صفر ١٣٣٩ هـ.

٢- الإعلام ٣/ ١٢٩٥.

٣- الإيضاح مع البغية. ص ٨٠ / ٤.

٤- ديوان الفيض ٩٥، الإعلام ٣/ ١٣٣٠، قصائد قاسمي ١٧.

٥- الإعلام ٣/ ١٣١٣.

٦- السابق ٣/ ١٣٣٤.

وقوله:

سَيُنْزِلُكَ الْعَزِيزُ مَحَلَّ عِزٍّ وَيَنْصُرُكَ النَّصِيرُ أَعَزَّ نَصْرِ

ومن أسباب جمال الجناس تناسب الألفاظ في الصورة، والتناسب نظام وائتلاف تميل إليه النفوس بفطرتها، ويطمئن إليه الذوق، وما فيه من تجاوب موسيقى تطرب له الأذن، وتهتز منه أوتار القلوب، بالإضافة إلى ما يلجأ إليه المجنس من تلاعب أخاذ لاختلاس الأذهان، وخداع الأفكار، مما يحدث الدهشة لهذا الجديد الذي يفجأ النفس فتنتفتح له، وتستقبله بالبشر والسرور^(١). وإذا كان الجناس التام له أثر بارز ملموس في إثراء الجانب الموسيقي في النص، فإن الأنواع الأخرى من الجناس أيضاً لا يعدم فيها هذا الجانب، وكل هذا الجمال في الشكل والنغمة والجرس مرهون بعدم التكلف واقتسار المعنى لأجل الجناس، فإن تكلف الشاعر الإتيان بالجناس وقسر المعنى من أجله قسراً أدى ذلك إلى بروذ العاطفة وغموض في المعنى، ويبدو هذا جلياً عند الشيخ فضل حق الخير آبادي إذ يقول^(٢):

هَلْ مِنْ مُبَلِّغٍ عَنْ وَلَهَانَ مُشْتَقٍ عَنَّا وَعَنِّي فِي أَطْوَاقٍ أَتَوَاقٍ
مُسْلَسَلِ الدَّمْعِ يَرْوِي عَنْهُ مُسْنَدَةٌ وَصِدْقاً أَحَادِيثَ أَشَوَاقٍ بِأَسْوَاقٍ

وفي قوله^(٣):

فَوَادِي هَائِمٌ وَالْدَّمْعُ هَامٍ وَسُهُودِي دَائِمٌ وَالْجَفْنُ دَامٍ
فَقَلْبٌ مَا فَتِي بِجَوَى وَلَوْعٍ وَلَوْعٌ فِي اضْطِرَابٍ وَاضْطِرَامٍ
وَدَمْعٌ بَلْ دَمٌ صَرَفٌ جَرَى مِنْ نِيَاطِي سَاجِمًا أَيْ أَنْسَجَامٍ

١- التصوير البياني. د. حفني شرف، ص ٣٧٥-٣٧٦ بتصرف.

٢- حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، د. جميل أحمد ص ١٩٨ جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، بدون تاريخ.

٣- حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، د. جميل أحمد ص ١٩٨ جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، الإعلام ٣/ ١٠٦٥، آثار الصناديد ٥٧١.

وَطَرَفٌ أَرَمَدُ يُؤْذِيهِ غَمَضٌ وَلَيْلٌ سَرَمَدٌ سَاجِي الظَّلَامِ
طَوِيلٌ لَا يَقَاسُ بِهِ زَمَانٌ فَسَاعَتُهُ كَشَهْرٍ بَلْ كَعَامِ
كَأَنَّ كَوَاكِبَ الْجَوَازِئِ نِيَطَتْ بِأَجْفَانٍ دَوَامٍ بِالِدَّوَامِ
حَمَامِي حَاضِرٌ، وَالْوَجْدُ بَادٍ وَجِسْمِي ذَابِلٌ، وَالشَّوْقُ نَامِ
أَذَابَ الشَّوْقُ أَحْشَائِي وَأَوْرَى لَطَى فِي أَضْلَعِي أَبْلَى عِظَامِي
سَرَى فِي الْغَرَامِ فَصَارَ غُرْمًا وَذَاكَ الْغُرْمُ مِنْ أَذْهَى الْغَرَامِ

فهذه الأبيات لا نجد فيها بيتاً يخلو من محسن بديعي، كما يلاحظ إكثار الشاعر فيها من الجناس، وهذا الاهتمام بالمحسنات البديعية، والتكلف في الإتيان بها طغى على عاطفته وأورث شعره ثقلاً في السمع، وضعفاً في المعنى.

وقد اتفقت كلمة النقاد في الهند على شدة ولع الخير آبادي بالبديع على حساب المعنى، فقال فيه النواب صديق حسن خان: «وله نظم رائع، وشعر فائق، لولا أنه أكثر ما فيه من التجنيس الذي ينبو عنه السماع وتأباه الطباع»^(١).

وهذا الحكم الصادر عن النّوّاب صديق حسن خان قد وافقه فيه كل من العلامة عبد الحي الحسني والدكتور جميل أحمد^(٢).

ردّ العجز على الصدر:

وهو من العوامل التي أسهمت في الإيقاع الشعري لدى شعراء العربية في الهند، وهو أن تُردَّ أعجاز الكلام على صدوره، فيدلّ بعضه على بعض، «ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك، ويكسب البيت الذي يكون فيه أهبة، ويكسوه رونقاً وديباجة ويزيده مائة وطلاوة»^(٣).

ويقسم ابن المعتز هذا النوع من البديع إلى ثلاثة أقسام: أولها - ما يوافق آخر كلمة في البيت، آخر كلمة في نصفه الأول، وثانيها - ما يوافق كلمة منه، أوّل كلمة في نصفه

١- الإعلام ٣/ ١٠٦٤.

٢- الإعلام ٣/ ١٠٦٤، حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي، ص ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩.

٣- العمدة ١/ ٥٦٠.

الأول، وثالثها- ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه-^(١) وقد أطلق عليه أسامة بن منقذ «الترديد» مرة و«التسهيم» مرة أخرى^(٢).

وقد يشترك اللفظان صورة ومعنى، أو يشتركان في الصورة مع اختلاف المعنى، أو يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق^(٣).

ويلجأ إليه الشاعر لإضافة عنصر موسيقي جديد يلفت الانتباه، فتصغى له الأذان، وتفتح له القلوب، ومن أمثله قول السيد أحمد القنوجي مخاطباً الصبا^(٤):

أَهْلُ جِئْتَ مِنْ تِلْكَ الرَّبَى بِرِسَالَةٍ فَإِنَّ الصَّبَا نِعَمَ الرَّسُولِ لِمَنْ صَبَا
وقول الشيخ عبد المنعم الجاتغامي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم^(٥):

أَلَا لَمْ فِيهِ عَلَى الْحَمَامِ وَإِنِّي أَحْبَبْتُ لَوْ لَاقَيْتُ فِيهِ حَمَامِي
وقول السيد علي التستري^(٦):

أَمِيرُ الْهِنْدِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرُ وَهَلْ مِنْ مِثْلِهِ فِيهَا أَمِيرُ
وقوله من القصيدة نفسها:

كَبِيرُ فِي الْمَعَارِفِ وَالْمَزَايَا إِذَا مَا قِيلَ فِي الدُّنْيَا كَبِيرُ
دَبِيرُ فِي الْمَهَامِ بِأَصْغَرِيهِ كَمَا الدُّنْيَا عَطَارِدُهَا دَبِيرُ
وقول الشيخ محمد بن حسين الأنصاري^(٧):

خَلِيلِي لَمْ يَبْقَ الْجَفَاءُ لِنَظِيرِي بُكَاءٌ فَهَلْ عَيْنٌ تُعِيرُ بُكَاهَا

١- البديع ، لابن المعتز ٤٧-٤٨.

٢- البديع في نقد الشعر ، أسامة بن منقذ ٥١، ٢٧١.

٣- الصور البديعية بين النظرية والتطبيق، د. حفني شرف ص ٥٠ مكتبة الشباب القاهرة، ط أولى، ١٩٦٦ م.

٤- الإعلام ٨٩٧/٣.

٥- الإعلام ١٣٠٥/٣.

٦- الإعلام ١٣٠٩/٣.

٧- الإعلام ١٣٤٢-١/٣.

وقوله^(١):

دَعَانِي مَن هَوَى سَعْدِي دَعَانِي فَدَاعِي الشُّوقِ لِلنَّدْوَى دَعَانِي
وقوله أيضاً^(٢):

لَمْ يَزَلْ سَيِّداً حَلِيماً رَشِيداً فَهُوَ جُزْءٌ مِّنَ الْحَلِيمِ الرَّشِيدِ
بَدُرٌ سَعْدٍ لِأَجْلِ ذَا أَرْخُوهُ بَدُرٌ تَمَّ بَدَا بِوَقْتِ سُؤْدِ
ولا شك أن هذه الأمثلة قد أضفى عليها هذا المحسن البديعي رونقاً وبهاءً لوروده فيها عفواً، غير متكلف ولا مجلوب.

التصرّيع:

وهو من أهم العوامل في الموسيقى الداخلية في الشعر العربي في الهند، ويقصد به أن ينهي الشاعر المصراع الأوّل من القصيدة بحرف الروي الذي بنى عليه القصيدة^(٣). ويحسن التصرّيع في مطلع القصيدة؛ لיתاح للصوت مركزان يتوقف عندهما في استهلال نشيده، حتى تأنس الأذن لقرار النغم المكرر في قافية القصيدة، وليتميز به الابتداء من غيره إذا لم يصرع الشاعر في غير المطلع، ويعد التصرّيع أثراً من آثار ارتباط الشعر بالغناء، كما شبهه بعض النقاد بمقدمة موسيقية خفيفة تلهب الإحساس^(٤) ونرى أن معظم القصائد العربية في الهند استهلها الشعراء بأبيات مصرّعة لمعرفتهم بدور التصرّيع في إنشاء النغمة الموسيقية. وقد لجأ بعض الشعراء إلى تصرّيع أكثر من بيت في القصيدة الواحدة، محاولة لإثراء الجانب الموسيقي وذلك على نحو ما نجد عند الشيخ أوحّد الدين البلكرامي في قصيدته التي مطلعها^(٥):

١- الإعلام ٣/ ١٣٤١، ١٣٤٢.

٢- الإعلام ٣/ ١٣٤٢، ١٣٤١.

٣- الإعلام ٣/ ١٣٤٢.

٤- الشعراء وإنشاد الشعر، علي الجندي، ص ٣٤، دار المعارف القاهرة، ١٩٦٩هـ.

٥- الإعلام ٣/ ٩٣٠، سبق ذكر هذه الأبيات في مبحث «الغزل» ص ٢٠٢.

مَيَّاسَةُ الْقَدِّ مَا مَاسَتْ وَمَا خَطَرَتْ إِلَّا وَقَلْبِي بِحَبْلِ الْوُدِّ قَدْ أَسْرَتْ

فقد أتى فيها بثلاثة أبيات مصرعة، وكذلك عبد الجبار العمر بورى في قصيدته التي مطلعها^(١):

لَحَا اللَّهُ دُنْيَا فَتَنَّنِي بِزَهْرَةٍ وَقَدْ أَوْفَعَتْنِي فِي بَلَاءٍ وَحَيْرَةٍ

فصرع فيها ثلاثة أبيات متتالية أيضاً.

الترصيع:

ومن العوامل التي أسهمت في موسيقى الشعر لدى شعراء العربية في الهند ما يعرف بالسجع أو الترصيع، وقد أعجب به الشعراء ورحب به النقاد؛ لأنه يزيد موسيقى الشعر جمالاً، وهو أن يتوخى الشاعر «تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف»^(٢). وقد يتوخى الشاعر أن تكون كل لفظة في صدر البيت مقابلة لنظيرتها في العجز بأن تكون على وزنهما ورويها^(٣) وقد ورد كلا النوعين لدى شعراء العربية في الهند، فمثال النوع الأول ما قال الشيخ ذو الفقار علي الديوبندي^(٤):

هيفاء ضامرة، لعساء غادرة بيضاء ساحرة بالغنج والكحل

وقوله في القصيدة نفسها:

لِلْهَدْمِ مَا رَفَعُوا، لِلْخَرَقِ مَا رَقَعُوا لِلنَّهْبِ مَا جَمَعُوا بِالزُّورِ وَالْبُخْلِ

لِلسَّبِي مَا وَلَدُوا، لِلْحَرَقِ مَا حَصَدُوا لِلسَّلْبِ مَا حَشَدُوا بِالْغَدْرِ وَالِدَّغْلِ

وقوله أيضاً في نفسها:

١- الإعلام ٣/ ١٢٦٠، سبق ذكر هذه الأبيات في مطلب «بناء القصيدة» ص ٣٥٠.

٢- نقد الشعر ص ٤٠.

٣- خزانة الأدب ص ٥١٥.

٤- قصائد قاسمي ص ١٥-١٦، الإعلام ٣/ ١٢٢٦.

فَالْكَفْرُ فِي خَطَرٍ، وَالِدِّينُ فِي ظَفَرٍ وَالرُّوسُ فِي خَجَلٍ، وَالرُّومُ فِي جَذَلٍ
أَضْحَى سِيُوفُهُمْ، أَمْسَى مَدَافِعُهُمْ فِي الْغَمْدِ مِنْ عَطَلٍ، وَالْحَرْسُ مِنْ صَحَلٍ

فأتى الشاعر هنا بخمسة أبيات مصرعة من ثلاثة وخمسين بيتاً في مواضع متفرقة من قصيدته، ولا شك في أنها تزيد الموسيقى ثراءً وجمالاً لما جاءت من غير تكلف واقتسار. ومن أمثله أيضاً ما قاله الشيخ القاضي طلاً محمد البشاوري^(١):

عَلِيَاءُ فِي نَسَبٍ، غَيْدَاءُ فِي طَرَبٍ لَمِيَاءُ فِي شَنْبٍ، كَحَلَاءُ فِي الْحَدَقِ
وقوله في القصيدة عينها:

أَلْبَيْنُ أَرْقَنِي، وَالْوَجْدُ أَحْرَقَنِي وَالْقَلْبُ فِي دَهَقٍ، وَالْعَيْنُ فِي أَرْقٍ

وقلما نجد شاعراً مجيداً في الهند ينظم قصيدة ثم تخلو من بيت أو أكثر مشتمل على ترصيع، مما يدل دلالة واضحة على اهتمامهم بهذا اللون البديعي، أما أمثلة النوع الثاني فلا تبلغ مبلغ النوع الأول في الكثرة، ومنها قول الشيخ السيد أحمد بن أولاد حسن القنوجي^(٢):

فَإِنْ لَهَا بَدْرًا يُسَمَّى جَبِينُهَا وَإِنْ لَهَا شَمْسًا تُسَمَّى عِذَارُهَا
وقول الشيخ إسماعيل المراد آبادي^(٣):

فَهُمْ فِي حِمَاهَا كَالنُّجُومِ إِذَا بَدَتْ وَهُمْ فِي رُبَاهَا كَالشُّمُوسِ الْمُضِيئَةِ

فالشاعر في البيت الأول حاول في العجز أن يأتي بما يقابل الصدر في كل حرف وحركة، ومثله في المثال الثاني أيضاً إلا أن الشاعر هنا خالف في الكلمة الأخيرة بين الشطرين. ولا شك أن هذه المطابقة والمائلة بين الشطرين في كل حرف وحركة يستلذهما السمع، ويميل إليها إذا جاءت عفو الخاطر، وهذا هو سر جماله.

١- الإعلام ٣/ ١٢٥٢.

٢- الإعلام ٣/ ٩٩٤.

٣- الإعلام ٣/ ٩١٨.

المطلب الرابع

بناء القصيدة

يقصد بالبناء الفني للقصيدة شكلها الخارجي المتمثل في المطلع أو المقدمة والتخلص والغرض والخاتمة، والوحدة الموضوعية، والطول أو القصر.

وقد تحدت ملامح النضج الفني للقصيدة العربية في العصر الجاهلي، يقول ابن قتيبة: «إن مقصد القصيد إنما ابتداءً فيها بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى وخاطب الربع، واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق، وفرط الصبابة؛ ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن النسيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب؛ لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسري الليل وإنضاء الراحلة والبعير فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل وقرّر عنده ما ناله من المكارة في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافآت، وهزه على السماع»^(١).

وكان هذا هو النهج السائد في القصيدة العربية عند أغلب شعراء الجاهلية في كثير من أغراضهم الشعرية، لاسيما في غرضي المدح والفخر، إذ كانوا لا يستحسنون البدء بالغزل أو بذكر الأطلال والأحباب في الرثاء، كما كان هناك شعراء حادوا عن هذا المذهب في بعض قصائدهم، فبدأوا بالغرض الأساس مباشرة من دون مقدمات.

ولما كان الشعراء والنقاد يرون الشعر الجاهلي هو النموذج الأفضل، كانوا يحاولون -على تفاوت بينهم في القلة والكثرة- اتباع هذا المنهج في قصائدهم، ويرونه تقليداً فنياً. وكان الشعراء في الهند بعيدين عن الجزيرة العربية منبع اللغة العربية ومهداها، إضافة إلى كونهم من غير العرب، فكانوا يحسّون بنوع من التخلف عن الركب في قافلة الآداب العربية، ويحاولون إثبات شخصيتهم، وتأكيد تفوقهم، باتباع مناهج شعراء عصور القوة من الجاهلية وصدر الإسلام والأموي والعباسي.

١- الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص ٢٧-٢٨، تحقيق: د. مفيد قميحة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥ هـ.

يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يتتقون على شعراء الحماسة، ودواوين المتنبي وأبي تمام والبحري، والإنسان ابن ثقافته، ومجبول على تقليد من هو أفضل منه. من هنا كان الشعر العربي في الهند -في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين- متعدد الموضوعات وإن كانت هناك بعض القصائد ذات الموضوع الواحد، متبعة ذلك النهج الشكلي للقصيدة مبدوءاً بالمطلع أو المقدمة ثم التخلّص ثم الغرض ثم الخاتمة. وإذا أردنا الوقوف على كل عنصر من هذه العناصر مستقلاً لنرى مدى إجادة شعراء الهند فيها أو عدم إجادتهم فلنبداً بالمطلع.

المطلع:

اهتم النقاد بمطالع القصيد، وجعلوا من علامات حذق الشاعر إجادته للابتداء والمطلع^(١) وحمّدوا للشاعر مطالعه الحسنة التي تكون واضحة، سهلة المأخذ مع القوة والجزالة^(٢)؛ لأن المطلع أول ما يقرع أذن السامع؛ فإن كان حسناً طريفاً كان داعية الانشراح، ومطيّة النجاح^(٣).

ولاحظ النقاد مناسبة المطلع لموضوع القصيدة، فإذا كان المقام مقام حزن كان أولى بالمطلع أن ينبئ بذلك من أوّل البيت، وإن كان المقام مقام تهنئة أو مديح كرهوا الابتداء بما يتشائم به. كما لا حظوا التناسب بين الشطر والعجز وترباط المعنى بينهما. يقول أبو الحسن حازم القرطاجني: «ويجب أن تكون المبادئ جزلة، حسنة المسموع والمفهوم، دالة على غرض الكلام، وجيزة، تامة، وكثيراً ما يستعملون فيها النداء والمخاطبة والاستفهام، ويذهبون بها مذاهب من تعجيب أو تهويل أو تقرير أو تشكيك»^(٤).

واعتنى الشعراء في الهند بمطالع قصائدهم، وحاولوا فيها الإتقان والإجادة من حيث اللفظ والمعنى، وراعوا المناسبة بين المطلع والموضوع، ومن تلك المطالع الحسنة، ما نراه عند الشيخ أبي محفوظ الكريم المعصومي في رثائه لطبيب البنغال، بدأه بقوله:

١- المثل السائر ٣/ ١٠١.

٢- الشعر الجاهلي، د. يحيى الجبوري ص ٢٤٣.

٣- العمدة ١/ ١٩٥، ت: د. عبد الحميد هندواني.

٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني تحقيق: د. محمد الحبيب بن الخوجة ص ٣٠٥-٣٠٦، دار الكتب الشرقية، بدون تاريخ.

أَتَرَوْقُ دَاكَّةً بَعْدَ فَقْدِ حَبِيبِهَا أَمْ تَشْتَفِي الْبَنْغَالَ بَعْدَ طَبِيبِهَا^(١)

فبدأ الشاعر رثاءه لذلك المرثي بداية حزنية، فلا تعجبه «داكة» إذا خلت من حبيبها، كأن هذا المرثي كان هو السبب في جمال دাকে وبهائها، وحب الشاعر لها، فإذا مات لم يبق فيها شيء يدعو إلى الإعجاب بها.

كما يستنكر طلب الشفاء من البنغال بعد ذهاب هذا الطبيب الحاذق في صناعته، كأنه لم يبق بعده من يثق به الشاعر في هذا المجال.

ولم يستخدم الشاعر أسلوب النفي للإخبار عن فقدان «داكة» روعتها وبهاءها، بل أتى بأسلوب الاستفهام الإنكاري، لتأكيد الفكرة، وكأنه يرى أن جمالها وبهجتها بعد هذا الحبيب شيء منكر ياباه الذوق، وينفر منه الطبع.

ومن المطالع التي راعى فيها الشاعر المناسبة بين المطالع والموضوع، بحيث ينبنى المطالع من أول كلمة منه عن غرض الشاعر، ومحتوى القصيدة، مع عذوبة الألفاظ وسلاستها، قول الشيخ عبد الرحمن الغازيفوري في الغزل:

ظَعَنْتَ سُلَيْمَى، فَالْشُّرُورُ قَبِيحٌ وَالْعَيْنُ تَذْرِفُ، وَالْفَوَادُ جَرِيحٌ^(٢)

استطاع الشاعر أن يعبر من بداية القصيدة عما ألمّ به من تعب ونصب، وجهد ومشقة، بسبب مفارقة حبيبته سليمة إياه، فقبح الفراق في عينيه الفرح والمسرّة، وتركه جريح الفؤاد لا يستريح، وتذرف عيناه الدموع.

وقد وقر الشاعر في المطالع موسيقى خاصة إذ أتى بأربع جمل متساوية ارتبطت أولها بما بعدها ارتباطاً سببياً، «علاوة على ما في البيت من التصريح» المتمثل في وحدة القافية بين شطري البيت، مما زاده إثراءً في الموسيقى وجمالاً في الأذن.

ومن المطالع الجيدة أيضاً قول الشيخ محمد بن حسين الأنصاري في ذهاب أركان ندوة العلماء إلى مدراس، يقول مطلعها:

شَكَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ طُولَ جَفَاهَا وَنَادَتْ وَلَكِنْ مَنْ يُجِيبُ نَدَاهَا^(٣)

١- مجلة «معارف»، ص ٣١٧، العدد ٤، المجلد ٥٩.

٢- الإعلام ٣/ ١٢٧١.

٣- الإعلام ٣/ ١٣٤٠.

يصور الشاعر في هذا المطلع تلك الأحوال التي جعلت أعضاء ندوة العلماء يشدون أمراس رحالهم متجهين لمدينة مدراس النائية؛ ليستعينوا بأهل تلك المنطقة في تكميل مسيرتهم الإصلاحية، ويذكر أنهم لم يحتاجوا إلى شد الرحال إلى هذه البقعة القاصية لو كان أهل الشمال ساعدوهم، وشدوا أزرهم، ولكن تقصيرهم معهم هو السبب في اختيار ندوة العلماء هذا السفر الشاق المضني، فيلومهم على تفریطهم فيما وجب عليهم ويحثهم على النهوض مع هؤلاء العلماء، وبذل المزيد من المال والجهد والوقت ليتحقق مسعاهم بالنجاح.

المقدمة:

المقدمة هي مفتتح القصائد، وهي من الظواهر الفنية التي صاحبت القصيدة العربية على اختلاف الأعصار التي مرّت عليها، والأمصّار التي انتقلت إليها^(١). وتنوعت مقدمات القصائد في الشعر العربي في الهند، فمن أهمّها: المقدمة الطللية:

افتتح شعراء في الهند قصائدهم بمقدمات طللية إمعاناً منهم في ترسم خطا الأقدمين، وجرياً في محاكاة الشعراء الجاهليين، ذكروا فيها تلك الأماكن والديار التي ذكرها شعراء العرب، وإن لم يكن لهم عهد بتلك الأطلال، ولا صلة لهم بتلك البقاع والديار إلا عن طريق القراءة والمطالعة في الدواوين. ومن أمثلته ما قاله الشيخ إسماعيل بن وجيه المراد آبادي^(٢):

خَلِيلِي عَوْجَا عَنْ شَمَالِ الْعَقَنْقَلِ وَحُطّاً رِحَالِ الْعَيْسِ فِي عَضِدِ عَوْكَلِ
فَنَدْعُو رَبَّاعَا لَا تَجْرُ^(٣) دُعَاءَنَا لِمَا قَدْ عَفَتْ مِنْ سَجَمِ غَيْمٍ مُظَلَّلِ
عَفَا اللَّهُ أَهْضَاباً^(٤) سَعَتْ فِي خَرَابِهَا فَبَاتَتْ طُلُولاً بِأَدِرَاتِ التَّعَطُّلِ

١ - مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي، د. حسين عطوان، ص ٢٥٦، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤ م.

٢ - الإعلام ٩١٧/٣، تاج اللغات ٦/١ مطبع سلطاني، لكهنؤ.

٣ - هكذا في الأصل ولعل الصواب: لا تجيب . سجم: سال قليلاً أو كثيراً (القاموس، مادة: س ج م).

٤ - الأهضاب: جمع هضب أي مطر (اللسان: مادة: ه ض ب).

أَلَا عَوْجًا فِي الْعَوْجِ رُوحِي فِدَاكُمَا فَمَهْلًا وَرَفَقًا بِالْكَيْبِ الْمُؤَمَّلِ^(١)
فَتِلْكَ رِبَاعٌ عَطَلَتْ عَنْ أَهْلِهَا قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلِ
أَيَّا سَائِقِ الْأَظْلَعَانِ إِنْ كُنْتَ مُحْسِنًا عَلَى مُغْرَمٍ، صَابٍ، عَدِيمِ التَّوَسُّلِ
فَالْتُتْ^(٢) حَمَاكَ اللَّهُ عَنْ مَسْقَطِ الرَّدَى بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلِ
وَلِلَّهِ أَيَّامٌ غَضَارٌ مَضَيْنَ فِي غُضُورٍ وَجَمْدَانٍ وَحَوْمَةٍ جَنْدِلِ^(٣)
لَحَى اللَّهُ دَهْرًا بَاتَ فِي النَّجْدِ دَاهِرًا فَكَدَّ عَيْشًا مُحْضًا بِالْتَفْتُلِ
وَحَرَبَ دَارًا بَعْدَ دَارٍ بِضَيْمِهِ وَلَمْ يُبْقِ دَارِيًّا بِدَارَةٍ ضُلُصِلِ^(٤)
أَقُولُ لِبَرْقٍ لَا يَحُجُّ مِنْ أَبْرِقٍ لَكَ الْخَيْرُ، يَا بَرْقَ الْأَبْرِقِ أَمْهِلِ^(٥)

فهذه مقدمة طويلة، لكنها واضحة التكلف، خالية من العاطفة الصادقة، وإن كان الشاعر أكثر فيها من إيراد أسماء تلك الأماكن التي ذكرها امرؤ القيس، بل وصل به الأمر في تقليد امرئ القيس إلى أنه ضمن قصيدته أشطراً من معلقته، والحديث عن خراب الديار، وطمس المنازل، وعفاء الآثار قد سيطر على الشاعر، ولم يرد في الأبيات ما يدل على علاقة الشاعر بهذه الديار، وشغفه بها، وشوقه إلى الأيام السعيدة - إن كانت - التي قضاها في ربوعها.

وكأن الشاعر قصد بهذه الأبيات إبراز قدرته الفنية على نظم أمثال هذه الأماكن، وإظهار ملكته البيانية، ولم تكن صادرة عن تجربة عايشها الشاعر، وعانى فيها الفراق والبعد؛ ولذا جاءت فاترة باردة، خالية من التأثير.
ومن افتتح قصائده بالمقدمة الطللية أيضاً السيد محمد مهدي المصطفى آبادي في

١ - عوج: جبالان باليمن (القاموس المحيط: مادة: ع وج).

٢ - هكذا في الأصل.

٣ - هكذا في المرجع، ولعل الصواب: دومة جندل، وهو علم لبقة (القاموس: ج ن د ل).

٤ - دارة ضلصل: علم لبقة (القاموس: ص ل).

٥ - الأبرق، تصغير أبرق: علم لموضع (القاموس: ب ر ق).

رثائه لشيخه المفتي عباس الشوستري، يقول^(١):

قَفَا بَدِيَارِ دَارِ سَاتِ بِلَاقِعِ عَفَتْ مِنْ رِيَّاحِ عَاصِفَاتِ زَعَاذِعِ^(٢)

فالشاعر يدعو إلى الوقوف بهذه الديار التي خربتها الرياح الشديدة، لكنها ليست بديار الحبيبة وبقاعها، كما تكون عند شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، بل يقصد بها الشاعر تلکم الأماكن التي كانت عامرة بالعلم ومدارسته ومذاكرته في حياة شيخه ويقول:

طُلُولُ عُلُومٍ أَوْحَشَتْهَا يَدُ الْفَنَاءِ وَمَا غَابَ مِنْ أَثَارِهَا غَيْرُ رَاجِعِ
تَعَفَّى الْعُلُومُ بِالْخُطُوبِ فَأَصْبَحَتْ قَفَارَ الدِّيَارِ خَاوِيَاتِ الْمَرَاتِعِ
خَوَالِدَ صَمَاءٍ بِالْإِكَامِ كَمَا تَرَى أَثْنِي سُفْعاً فِي فَنَاءِ الْمَرَايِعِ
لَقَدْ لَعِبَ الدَّهْرُ الْمُشِيتُ بِأَهْلِهَا فَأَطْعَنَهُمْ تَبَّالَهُ مِنْ مُحَاذِعِ
فَقَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا جَمِيعاً وَعَادَرُوا مَعَالِمَ مَنْ أَقْلَامِهِمْ وَالْأَصَابِعِ
بِذَا الْيَوْمِ قَدْ صَارُوا رَهِيْنَ مَقَابِرِ وَبِالْأَمْسِ قَدْ كَانُوا رُؤُوسَ الْمَجَامِعِ

فهذه المقدمة وإن كانت أقصر من سابقتها إلا أنها أشد تأثيراً منها، وقد راعي فيها الشاعر المناسبة بين المقدمة والموضوع الذي هو الرثاء. فذكر فيها خراب الديار، وفراق الأحباب، وهجر المنازل؛ ليقدم بذلك لموضوع الرثاء.

المقدمة الغزلية:

افتتح بعض الشعراء قصائدهم بمقدمات غزلية، وهذه المقدمات تدور «حول موضوعين: وصف الحبيبة وصفاً حسيّاً أو معنوياً، والتغني بجملها الجسدي أو النفسي، من ناحية، وتصور عواطف الشاعر ومشاعره لها، وما تحيى به نفسه من حبٍّ وفتنة ووجد، ولوعة وهيام وحنين وأمثال هذه الانفعالات التي تملأ على العشاق نفوسهم -

١- الإعلام ٣/ ١٣٧٣.

٢- بلاقع: ج بلفع: خال، (اللسان: ب ل ق ع) زعازع: ج زعزع: يقال: ريح زعزع: شديدة (اللسان: زعزع).

من ناحية أخرى^(١) ومن أمثلتها قول الشيخ أحمد بن محمد الشرواني^(٢):

أَرَاكَ صَدَدْتَ عَنِ الصَّبِّ ظُلُمًا أَيَا عَادِلَ الْقَدِّ رِفْقًا وَرَحْمًا
تَرَكْتَ فُؤَادِي يَذُوبُ اشْتِيَاقًا وَصَيَّرْتَنِي أَشْهَرَ اللَّيْلِ هَمًّا
أَمَّا مِنْكَ لِي رَحْمَةٌ وَالتَّفَاتُ فَقَدْ عَيْلَ صَرِي لِمَا بِي أَلَمًا
وَلَوْلَاكَ مَا سَلَسَلَ الشَّوْقُ دَمْعِي وَلَا قُلْتُ فِي الْحُبِّ نَثْرًا وَنَظْمًا
أَيَا عَاذِي أَقْصِرِ اللَّوْمَ إِنِّي أَرَاكَ أَزْكَبْتَ بِذَا اللَّوْمِ جُرْمًا
فَمَا نَالَ مَنْ لَامَ فِي الْحُبِّ مُضْنَى كَمَثَلِي مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ قِسْمًا

ولا ينسى الشاعر في هذا المقام أيضاً حاجته العقلية مع عاذله، فيطالبه بالدليل في لومه العاشق المضني، ويدعو عليه بالعدم والحرمان من رحمة الله تعالى، يقول:

وما ذا دليلك في اللوم قل لي فإن الهوى مذهب لن يذمما
أراك تبالغ في لوم صَبٍّ أحاط بفن الهوى المحض علما

ويلاحظ أن الشاعر ذكّر الحبيب على عادة الشعراء الأعاجم من الفرس والهنود. وقد ذكر بعض الشعراء في مقدماتهم ترحل الحبيبة وعشيرتها، وما آلت إليه الديار بعدهم، كما يذكرون بعض صفات الراحلة التي ركبها للوصول إلى تلك الديار، وفي ذلك يقول الشيخ محمد وحيد الدين عالي^(٣):

إِذَا شَدُّوا رِحَالَهُمْ وَرَاحُوا بَدَا فِي الْقَلْبِ حُزْنٌ لَا يُزَاخُ^(٤)
فَيَا لَهْفِي لِصَحْبٍ فَارَّقُونِي فَكَمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ انْتِزَاخُ^(٥)

١- دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، ص ١٤٨، مكتبة غريب، القاهرة.

٢- نفحة اليمن ص ١٤٨-١٤٨.

٣- الجواهر الزاهرة ص ٧.

٤- لا يزاح: لا يزال.

٥- انتزاح: بعد.

مَضَوْا وَبِهِمْ كَوَاعِبُ نَاعِمَاتٍ حِسَانٌ خُرَّدٌ يَبْضُ مِلَاحٌ^(١)
تَفُوحٌ بَيْنَ رَامَةٍ مِثْلُ مِسْكٍ فَأَوْدِيَّةُ اللَّوَيِ ثُمَّ الْبَطَاحُ^(٢)
إِذَا أَقْوَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَمْسَتْ طُلُولًا قَدْ تَعَقَّتْهَا الرِّيحُ
وَقَفْتُ بِهَا وَيَجْرِي مِنْ دُمُوعِي دَمٌّ قَانٍ عَلَى نَحْرِي مُفَاحٌ^(٣)
وَلَمَّا زَادَ وَجْدِي زُدْتُ رَحِيلِي إِلَيْهِمْ حَيْثُ حَلُّوا وَاسْتَرَاخُوا
وَتَحْتِي نَاقَةٌ كَوْمَاءٌ بَكْرٌ شَمَرْدَلَةٌ، عَذَافِرَةٌ، رَدَاحٌ
فَكَمْ قَفَرٍ قَطَعْتُ بِهَا وَكَانَتْ تَحِيبٌ وَلَا يُوَانِيهَا رُزَاحٌ

ويحاول الشاعر أن يجعل وقوفه على الأطلال عجباً قصيراً، فلا يدخل في وصف الديار وجزئياتها، والتغيرات التي طرأت عليها، بعد ارتحال أصحابها عنها، كما نرى ذلك عند الشعراء الجاهليين.

مقدمة في الطبيعة:

بدأ بعض الشعراء قصائدهم بوصف الطبيعة وما فيها من روعة وجمال، ممتزجة بمشاعرهم ووجدانهم، فيصفون عليها كثيراً من الصفات البشرية، ويبادلونها السرور والابتهاج، ومن أمثلة ذلك ما قاله الشيخ محمد يوسف البنوري في قصيدة رحب فيها بالشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، بدأها بقوله^(٤):

أَلَا اسْتَهَلْتُ عَوَادِي الْمُزْنَ بِالْدَّيْمِ وَأَلْبَسْتُ سُندُسًا لِلْقَاعِ وَالْأَكَمِ
وَاخْضَرَّتِ الْأَرْضُ فِي زَهْوٍ وَفِي نَضْرٍ وَأَصْبَحَ الْخَضْبُ فِي وَشِيٍّ مِنَ الرِّقَمِ

١ - كواعب: النواهد، الخرد جمع خريدة: الأبكار التي لم يمسه أحد.

٢ - رامة وأودية اللوى والبطاح: أسماء أماكن.

٣ - مفاح: أفاح الدم: أي سأل (اللسان: ف ي ح) قان: تسهيل قانئ يقال: شيء أحمر، قانئ (الصحيح: قنأ)، قنأ من باب منع: اشتدت حرته (القاموس: قنأ)، مختلط (اللسان: ق ن ي).

٤ - القصائد البنورية، تحقيق: د. محمد حبيب الله مختار ص ١٩٠، المكتبة البنورية، كراتشي ١٤٠٤ هـ.

وَالْجَدْبُ يَشْكُرُ جُودَ الشَّحْبِ هَاطِلَةً
وَالْوُرُقُ تَهْتَفُ، وَالْأَرْوَاحُ نَافِحَةٌ
وَنَسَمَتِ نَفَحَاتِ الرِّيحِ مِنْ طَرَبٍ
وَالزَّهْرُ يَنْسُمُ وَالْأَنْهَارُ جَارِيَةٌ
وَرَدٌّ، وَأَسٌّ، وَقَيْصُومٌ، وَعَبْهَرَةٌ
إِذْ ظَلَّ رَوْضًا مَرِيحًا رَائِقَ السِّيمِ
تَشْدُو الْحَمَائِمُ، وَالْكَعْتَانُ بِالنَّغَمِ
يُحْيِي نَسَائِمُهَا الْأَمْوَاتَ بِالنَّسَمِ
عَمَّ الْحُبُورُ لِمَنْ فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ
أَصْبَحْنَ مِنْ فَرَحٍ فِي حُسْنِ مُبْتَسَمِ

فهذا التصوير البديع لذلك المنظر البهيج ولتلك الفرحة التي شملت البيئة بجميع أجزائها وما فيها من حيوان ونبات، ورياح وأنهار، يتواءم بشدة مع ترحيب الصديق بصديقه، ويعبر عن ولعه به، وحبّه له. ومن بدأوا قصائدهم بمقدمات في الطبيعة أيضاً الشيخ عبد الجبار خان آصفى^(١) في قصيدته النبوية، نختار منها قوله^(٢):

كَمْ رَاحَةً رَوَّحَتْ بِالرَّوْحَاءِ
كَانَ الرِّبْعُ عَلَى الرُّبَى وَنَسِيمُهَا
وَالطَّلُّ فَوْقَ الْوَرْدِ فِي أَوْرَاقِهِ
وَالْوَرْدَةُ الْحُمْرَاءُ بَيْنَ الضَّفَّةِ الْـ
فَاقَتْ خُدُودَ الْحَسَانِ بِحُمْرَةٍ
نَصَبَتْ مَنَابِرَ فَضْلِهَا أَطْيَارَهَا
فِي كَفِّ أَمْوَاجِ الْحِيَاضِ صَوَارِمُ
بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ وَالنَّعْمَاءِ
رَبَّتْ بَنَاتِ الْوَرْدِ فِي الْخَضْرَاءِ
كَالِدُرِّ فَوْقَ الْخَدِّ مِنْ حَسَنَاءِ
خَضْرَاءِ فَوْقَ الْحَوْضَةِ الْبَيْضَاءِ
تَحْتَ الْعُيُونِ النَّعَسِ الشَّهْلَاءِ
بَتَغَرْدِ الْأَحْلَانِ كَالْخُطْبَاءِ
بَتَّارَةً كَاللَّحْظَةِ الْبَثْرَاءِ

١- هو الشيخ عبد الجبار خان بن عبد الرزاق خان، ولد عام ١٢٧٧هـ في رامفور. درس على علماء بلده ثم سافر إلى بهوفال وحيدر آباد لطلب العلم، وتوظف في دولة حيدر آباد.
من تصانيفه: مرآة العروس، آثار إقبال، تاريخ دكن، سلك غوهر، نظام سروري، كليات نظم آصفى، ديوان غزليات، شقائق الرسول، شواهد النجوم، نور الأنوار وغيرها، توفي سنة ١٣٤٤هـ (ينظر: تذكره كاملان رامفور ١٩٠-١٩٨، نقوش شخصيات نمبر ٢/ ١٢٦٤-١٢٦٥).

٢- كليات نظم آصفى ص ٢٠، عبد الجبار خان، اختر دكن بريس، حيدر آباد ١٣٢٦هـ.

فَالْهَمُّ مِنْ أَشْفَارِهِمْ مُتَقَطَّعٌ وَالْغَمُّ صَيْدُ نُصُولِهَا الزَّرْقَاءِ
وَالسَّوْسُنُ الْغَضُّ الطَّرِيُّ لِسَانِهِ مُتَشَكَّرٌ لِلرَّوْضَةِ الْغَنَاءِ

فهذه المقدمة الربيعية الطويلة تشتمل على تشبيهات جميلة، والمقدمة بعناصرها المختلفة من أنواع الزهور والطيور، وأمواج الحياض، والألوان المتعددة تدل على بيئة الفرح والطرب، وإن كان ولع الشاعر بمحسنات بديعية كالجناس والتدبيج قد أدّى في النهاية إلى غموض المعنى، وضعف العاطفة.

مقدمة زهدية:

ونرى بعض القصائد مفتوحة بشعر يصور ما في الدنيا من بريق ولمعان، وزخرفة وابتهاج، إلا أنها وخيمة العاقبة، تودّي في النهاية إلى متاعب لا كاشف لها إلا الله تعالى، يقول الشيخ عبد الجبار العمر فوري^(١):

لَحَا اللَّهُ دُنْيَاً فَتَتَنِي بِزَهْرَةٍ وَقَدْ أَوْقَعْتَنِي فِي بَلَاءٍ وَحَايِرَةٍ
بِخُضْرَتِهَا أَشْوَاكُ يَأْسٍ وَحَسْرَةٍ بِنُضْرَتِهَا أَسْقَامُ رُوحٍ وَمُهِجَةٍ
عَدَائِرُهَا حَيَّاتُ حُزْنٍ وَوَحْشَةٍ عَقَارِبُ أَذْوَاءٍ وَزُورٍ وَنَكْبَةٍ
لَقَدْ لَدَغَتْ مَنْ كَانَ يَهْوَى وَصَالَهَا فَلَا زَالَ فِي بُؤْسٍ وَكَرْبٍ وَنَقْمَةٍ
فَلَيْسَ لَهُ رَاقٍ وَوَاقٍ وَنَافِعٌ وَلَمْ يَسْتَرَحْ مِنْ كُرْبَةٍ وَصُعُوبَةٍ
زَخَارِفُهَا قَدْ هَيَّجَتْ لَوْعَةَ الْمَوَى فَأَوْرَتْ بِنَفْسِي وَالْفُؤَادِ بِشُعْلَةٍ

وبدأ بعض الشعراء قصائدهم بالكف عن الاشتغال بالغزل، وذكر النساء وتعداد محاسنهن، ودعا إلى الاهتمام بما ابتلي به المسلمون من ذل وضعف وتشرذم، وفي هذا يقول الشيخ عبد الله الجيتيكر^(٢):

١- الإعلام ٣/ ١٢٦٠-١٢٦١.

٢- الإعلام ٣/ ١٢٩٤.

دَعْ ذِكْرَ رَبِّاتِ الْكِلَلِ وَذَرِ الصَّبَابَةَ وَالْغَزَلَ

أَلْقَلْبُ مَشْغُولٌ فَمَا لِلْعِشْقِ فِيهِ مِنْ مَحَلٍّ

وإن كان الشيخ عبد الله الجيتيكر لم يطل في المقدمة، وانصرف عنها إلى غرض القصيدة، لا اشتغال قلبه به، وتعلقه الشديد، فرى الشيخ حبيب الرحمن العثماني قد أطلال النفس في المقدمة، ودعا إلى ترك الصبابة، واللهو، وحث على صرف الهمة إلى طلب العلم والكمال، يقول^(١):

أَلَا خَلَّ الصَّبَابَةُ وَالْغَرَامَا وَذَكَرَاكَ الْحُمَيَّا وَالنَّدَامَا^(٢)

وَحَانَاتِ الْمَدَامِ وَعَاكِفِيهَا وَكَأْسَ الرَّاحِ وَالشَّرْبِ الْكَرَامَا

وَجَامَاتٍ عَلَى أَيْدِي مِلَاحٍ يَزِيدُكَ طَرْفَهَا السَّاجِي سِقَامَا^(٣)

وَأَيَّاكَ الْحَبَائِبَ وَالْغَوَانِي تَصِيرُ بِهِنَّ صَبًّا مُسْتَهَامَا

بُيُوتَهُ وَالرَّبَابَ وَأُمَّ عَمُرُو وَلُبْنَى تُشْبِهُ الْبَذَرَ التَّمَامَا

وَسُعْدَى لَا تُرِيدُ لَهَا وَصَالًا وَلَيْلَى لَا تَهْنُمُ بِهَا هَيَامَا

وَمَيَّةَ لَا تَرُومُ لَهَا ذَوَاتَا وَسَلَمَى لَا تَزِيدُ بِهَا أُوَامَا^(٤)

فَقِلْكَ خَلَاعَةُ الشُّبَّانِ شَيْبَتِ مُجُونًا وَاجْتِرَاءً وَاجْتِرَامَا^(٥)

إِذَا تُكْسِيكَ مَنَدَمَةً وَخَزِيًّا وَفِي أَخْرَاكَ تَلَقَّى بِهَا أَثَامَا

وَهَبْكَ حُبَيْتَ أَطْيَبَ كُلِّ عَيْشٍ فَمَا عُقْبَاكَ إِلَّا أَنْ تُذَامَا

١- معين اللبيب ص ٥٩-٦٠.

٢- الحميّا: بلوغ الخمر من شاربها (اللسان: مادة ح م ي).

٣- ساجية الطرف: فاترة الطرف ساكنته، طرف ساج أي ساكن: (اللسان: س ج ي).

٤- أوام: حرّ العطش في الجوف (المحيط في اللغة ١٠/٤٦٢).

٥- اجتراء واجترام: كسب (اللسان: ج ر م).

وَدَعَّ عَنْكَ التَّمَادِي فِي تَعَامِي فَإِنَّ الصُّبْحَ قَدْ كَشَفَ الظُّلَامَا
وَلَا تَجْهَلْ فَإِنَّ الْجَهْلَ دَاءٌ وَخُذْ بِالْعِلْمِ وَارْضَ بِهِ إِمَامَا

مقدمة ذاتية:

وصف بعض الشعراء في مقدمات قصائدهم تجاربهم الذاتية، وصوروا مواقفهم تجاه حوادث معينة، ومن أمثلة ذلك ما قاله السيد محمد باقر اللكهنوي^(١) في مقدمة قصيدته التي مدح بها سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يقول فيها^(٢):

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ حُبِّ الْحِسَانِ الْعَوَاتِقِ وَأَصْبَحْتُ فِي سُغْلِ عَنِ اللّٰهُوَ عَائِقِ
أَبْغَيْ وَصَالَ الْبَيْضِ، وَالشَّيْبُ شَامِلٌ كَفَى وَازِعَا عَنْهُمْ شَيْبُ الْمَفَارِقِ
وَصَاحَ نَهَارُ الشَّيْبِ فِي لَيْلٍ عَارِضِي وَحَلَّقَ غَرْبَانُ الشَّبَابِ الْغَرَانِقِ

ذكر الشاعر أن قلبه قد استفاق من سكرة حب الغيد النواعم؛ لأن شبابه انصرم، وهاجمه الشيب. فكفه عن التمادي في اللهو والصبأ.

ونرى الشيخ إسماعيل المراد آبادي يشكو صروف الدهر، ونوائب الزمان، فيقول^(٣):

لَحَى اللَّهُ دَهْرًا قَدْ رَمَانِي بِغُرْبَةٍ وَطُولِ صُدُودٍ لَاحٍ لِي بَعْدَ قُرْبَةٍ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ زَمَانٍ يُجُورُنِي هُوَ اللَّهُ مَوْلَانَا، إِلَيْهِ لَشْكُوْنِي
إِذَا سَرَّ نَايَوْمًا أَسَاءَ بِنَا غَدًا وَأَلْقَى عَلَيْنَا شِدَّةً بَعْدَ شِدَّةٍ
إِذَا فُرِّجَتْ أَنَا هُمُومِي فَعَادَ بِي مُصِرًّا بِضَيْمٍ لَحْظَةً بَعْدَ لَحْظَةٍ

وهذه مقدمة جاءت موافقة لغرض القصيدة الذي هو رثاء الأم؛ إذ القصيدة من أول شطر منها تدل على الافتراق والبين، وأثره على قلب الشاعر الضعيف، وما أورثه فيه من أسى وشجى.

١- الإعلام ١٣٥٢/٣.

٢- الغرائق ج غُرُوق: الشاب الناعم (اللسان: غرنق).

٣- الإعلام ٩١٧/٣.

مقدمة حكيمية:

ونجد بعض القصائد مفتتحة بالحكمة -وهي قليلة- وخاصة في وصف الحروب، ومدح الولاة، والإشادة بالأبطال البواسل الذين أبلوا في الحروب بلاء حسناً. كما قال الشيخ يعقوب بن مملوك النانوتوي في قصيدة مدح بها السلطان عبد الحميد العثماني، يبدأها بقوله^(١):

أَلَوْعْظُ يَنْفَعُ لَوْ بِالْعِلْمِ وَالْحَكَمِ فَالسَّيْفُ أَبْلَغُ وَعَاطِ عَلَى الْقَمَمِ
لَوْلَاهُ مَا بَلَغَ الدُّنْيَا لآخرَهَا وَأَضُّ كُلُّ وَجُودٍ الدَّهْرِ فِي الْعَدَمِ^(٢)
وَالسَّيْفُ لِلضَّيْمِ إِغْدَامٌ بِهَمَّتِهِ كَالْبَدْرِ يَجْلُو الدُّجَى بِالنُّورِ فِي الظُّلَمِ

هذه أهم المقدمات التي بدأت بها القصائد في الشعر العربي في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، وأراها جاءت ملائمة للأغراض، مناسبة للمقام، مشرقة الألفاظ، مجلجلة المعاني، يعرف بها المتلقي غرض الشاعر بمجرد الاستماع لأول بيته، ويجد المتلقي في نفسه إقبالا وإصغاء لما بعده من الأبيات، غير نافرة، ولا نابية. ومع هذا الإحسان وتلكم الإجادة قد وجدت ابتداءات غير ملائمة للموضوع، وغير متوافقة مع السياق، فمنها بدء الشيخ حبيب الرحمن العثماني رثاءه للشيخ عبد الرحيم رائيفوري بمقدمة طليية، ذكر فيها أن خلو تلك الآثار من حبيباته أثار حزنه وشجاءه، يقول^(٣):

أَهْأَجَكَ وَجَدًا فَالْدُّمُوعُ هَوَامِعُ خَلَاءُ الْمَلَاهِي وَالْدِّيَارُ الْبَلَاقِعُ
مَحَتْ رَسَمَهَا هُوْجُ الرِّيَّاحِ وَغَادَرَتْ أَكْفِيَهَا سُفْعًا بُرُوقُ لَوَامِعُ
أَسْأَلُ عَنْهَا أَهْلَهَا فَتُحِبُّنِي خَلَتْ عَنْ أَنْيْسٍ لَيْسَ دَاعٍ وَسَامِعُ
تَرَاهَا وَقَدْ كَانَتْ بَهِيْجًا رَوَاقَهَا مَرَابِعُ غَيْدٍ، لِلظُّبَاءِ مَرَاتِعُ

١- قصائد قاسمي ص ١٨، الإعلام ٣/ ١٤٠٣.

٢- آض مواضه: بادر إلى الشيء.

٣- معين اللبيب ص ٦٣.

فلا أرى الشاعر مصيباً في ذكر هذه المقدمة الطللية؛ إذ لا يستحسن بدء الرثاء بالغزل، ولم يكن هذا من عادة الشعراء^(١)؛ لأن الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولاً عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة والأسى.

ووجدت قصائد خلت من أي نوع من هذه المقدمات، واتسمت بالوحدة الموضوعية، حيث احتوت على موضوع واحد من بداية القصيدة إلى نهايتها، على نحو ما نرى ذلك في أغلب قصائد الشيخ عبد الحميد الفراهي، وبعض قصائد الشيخ عبد الرحمن سيوهاروي، وأنور شاه الكشميري، وحبيب الرحمن العثماني، مع أن النقاد العرب القدامى لم يستحسنوا هذا النوع من القصائد، التي لم يمهد لها الشاعر بشيء من النسيب أو الغزل، ويهجم فيها على غرضه مباشرة، وسموها مبتورة تشبيهاً لها بالخطبة البتراء التي تبدأ بدون ثناء على الله، والصلاة والسلام على النبي.

وأرى أن سيطرة الموقف على الشاعر، واهتمامه بالفكرة هي التي جعلت هؤلاء الشعراء يحددون عن هذا المنهج المتبع في أغلب الشعر العربي القديم، والشعر العربي في الهند أيضاً؛ إذ أغلب شعر الشيخ عبد الحميد الفراهي في ذكر الحروب التي أشعلتها أوربا ضد المسلمين في ليبيا والبلقان وغيرهما، وقصائد الشيخ أنور شاه الكشميري الخالية من المقدمات في الرد على القاديانية، وقصيدة الشيخ عبد الرحمن في مناسبة استكمال بناء قاعة دار الحديث في ديوبند، وقصيدة الشيخ عبد الرحمن سيوهاروي في ذكر الشوق والحنين إلى المدينة. كما يحتمل أن يكون هؤلاء الشعراء قد اطلعوا على ما طالب به النقاد في العصر الحديث - متأثرين بأداب الأوربية - من ترك المقدمات والوحدة الموضوعية والوحدة العضوية فحاولوا تطبيق هذا المبادئ النقدية؛ لأن بعضهم كالشيخ عبد الحميد الفراهي والشيخ أنور شاه كانوا معروفين بسعة اطلاعهم على المؤلفات القديمة والحديثة.

الخلاصة:

كانت القصيدة العربية - في أكثر حالاتها - متعددة الموضوعات، متنوعة المعاني، مشتملة على عدة أجزاء من مقدمة وغرض وخاتمة، وكان الشعراء الأقدمون عند انتقلهم من موضوع إلى آخر، ومن معنى إلى معنى جديد كانوا يقطعون الكلام السابق

١ - العمدة ٢ / ٨٣٧.

فجأة، ويستأنفون معنى جديداً؛ لما عندهم من شظف العيش وغلظ الطبع، ولا يبالون كثيراً بحسن الانتقال والتدرج.

ولكن لما جاء المحدثون بما عندهم من الرقة واللطافة، ولين الطباع؛ بسبب التحضر وتعود على رفاهية العيش، استكروا طريقة القدماء، وبدأوا يهتمون بمواضع الانتقال من جزء إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى، حتى لا يشعر السامع بالانتقال المفاجئ، ولا يتيه في تشتت الأفكار والموضوعات، بل يبقى منتبهاً للشاعر وشعره؛ لأن «الأديب الحاذق هو الذي يراعي أقصر الطرق وأسرعها إلى جذب السامع والسيطرة على أحاسيسه ومشاعره»^(١).

فإن خرج الشاعر من معنى إلى آخر بلطف تحيل^(٢) بأن جعل الأول سبباً إلى الثاني، فيكون بعض الكلام أخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلاماً ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً واحداً^(٣) سمي تخلصاً، ودلّ على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أن نطق الكلام يضيق عليه بسبب اتباعه للوزن والقافية، فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته^(٤) ولذا عدّ التخلص من مستعصيات البيان^(٥).

أما ضدّ التخلص فهو الاقتضاب وهو «قطع الكلام واستئناف كلام آخر غيره بلا علاقة تكون بينه وبينه»^(٦). ومن الاقتضاب التخلص بفصل الخطاب، وهو كقول القائل بعد حمد الله: أما بعد^(٧).

وقد بذل الشعراء في الهند في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين عناية خاصة بالتخلص، ومن ذلك ما قاله السيد محمد باقر اللكهنوي مفتخراً بنفسه^(٨):

١- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، د. منصور عبد الرحمن ص ٧٩م، دار العلم للطباعة، القاهرة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

٢- العمدة ١/ ٣٧٢.

٣- المثل السائر: ٢/ ١٢١.

٤- المثل السائر ٢/ ١٢١.

٥- المرجع السابق ٢/ ١٤١.

٦- المرجع السابق ٢/ ١٣٩.

٧- دراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات أبوسنتيت ص ١٢٣.

٨- الإعلام ٣/ ١٣٥٢.

وَمَا أَنَا إِلَّا الْبَدْرُ فِي اللَّيْلِ طَالِعًا وَهُمْ كَالْكِلَابِ الْعَادِيَاتِ الزَّوَاعِقِ ^(١)
فَقُلْ لِأَلْكُلَى أُمُّوا اللَّحَاقَ أَلَا أَرْبِعُوا عَلَى ظِلْعِكُمْ فَلَا تَدْحَضُوا فِي الْمَزَالِقِ ^(٢)
وَقُلْ لِلْعِدَى مُوتُوا بِغَيْظِ نَفُوسِكُمْ فَمَا الْفَضْلُ إِلَّا لِلْكَرَامِ الْمَعَارِقِ
وَنَحْنُ وَرَثَتَا الْمَجْدِ عَنْ كُلِّ مَا جِدِ وَأَبَاءِ صِدْقٍ كَالشُّمُوسِ الشَّوَارِقِ
بِهَالِيلِ أَزْوَالٍ تُنَاحُ بِبَاهِمِمْ صُدُورُ الْأَمَانِي أَوْ صُدُورُ الْإِيَانِقِ ^(٣)

تم انتقل إلى مدح سيدنا علي - رضي الله عنه - فقال:

وَكُلُّ فَتَى تَعَشُّوْا إِلَى صَوِّهِ نَارِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى، مَوْئِلٌ لِلدَّرَادِقِ
رَبِيعُ الْيَتَامَى، يُنْعِشُ النَّاسَ سَبِيَّهُ إِذَا أَخْلَفَتْ قَطْرُ الْغُيُومِ الدَّوَافِقِ

فأجاد التخلّص، إذ لا يشعر القارئ بالطفر أو القطع المفاجئ.

واتخذ الشعراء أساليب وأدوات عدة للتخلّص كالواو والفاء، ولكن، وبل، والنداء، والاسْتفهام وغيرها للدلالة على ارتباط الكلام اللاحق بالسابق، وشدة تعلقه به، وأن اللاحق مبني على السابق، ليس مبتورا منه، ومن ذلك ما نراه عند الشيخ عبد الصمد علمي في لاميته النبوية، يقول فيها في نهاية المقدمة الغزلية ^(٤):

لَمْ يَنْفَعِ الصَّبَّ إِذْ لَمْ يَلْقَ مَطْلَبَهُ تَتَابُعُ السَّيْرِ فِي الْأَسْحَارِ وَالْأَصْلِ
وَمَطْلَبِي لَيْسَ إِلَّا مَنْ بِمِلَّتِهِ أَلْ غَرَاءَ قَدْ ذَهَبَ الْمَنَانُ بِالْمَلَلِ

فتخلّص بقوله: «ومطلبي ليس إلا من...» إلى مدح الحبيب المصطفى ﷺ واستخدم له حرف العطف «و» وتكرار كلمة وردت في البيت السابق.

١ - الزواعق: من زَعَقَ يَزَعُقُ زَعَقًا: أفرعه - أما كلمة الزواعق فلم أجدها في اللسان.

٢ - أربع على ظْلْعِكَ: أرفق على نفسك (اللسان: طلع) الدَّحَضُ: الرَّقُّ (اللسان ز ل ق).

٣ - الأيانق ج ناقة (المحيط في اللغة ن وق ٦ / ٣٥)، عالم الكتب، بيروت ط ١، ١٤١٤ هـ، وهو جمع أَيْنَق.

٤ - لامية العلمي مع البائية، ص ٢، المطبع الحفاني مدراس ١٣٥٥ هـ.

ومن ذلك أيضاً قول الشيخ عبد الرحمن الغازيفوري في نهاية مقدمته الغزلية^(١):

يَا وَيْلَتِي مَا فُزْتُ قَطُّ بِمَقْصِدِي بَلْ مَسَّنِي مِنْ قَطْعِهِ التَّزْرِيحُ
لَمْ يَسْمَحِ الزَّمَنُ الْمُعَانِدُ بِالَّذِي أَغْدُو لَهُ مَتَأَسِّفًا وَأَرْوَحُ
ثم تخلص إلى غرض القصيدة بقوله:

فَالآنَ يَا نَفْسُ اشْغِلِي بَشَاءٍ مَنْ ذَكَرَاهُ لِلْقَلْبِ الْحَزِينِ مُرْبِحُ
وتخلص الشاعر هنا بالفاء.

وكذلك الشيخ عبد الرحمن السيوهاروي بدأ قصديته النبوية بمقدمة غزلية، يقول مطلعها^(٢):

رَمَتْ إِلَيَّ بِسَهْمِ اللَّحْظِ عَيْنَاكَ أَصَابَ قَلْبِي فَهَذَا الصَّيْدُ مَضْمَاكَ
إلى أن قال:

مَلَكَتْ إِقْلِيمَ حُسْنٍ فَارْحَمِي وَصِلِي قُلُوبَ أَهْلِ الْهَوَى طُرًّا رَعَايَاكَ
بِحَاجَتِكَ مَحَارِبُ لِسَجْدِهَا كَمَا بِعَيْنَيْكَ حَانَاتُ لِسُكْرَاكَ
لَمْ أَنْسَ ذِكْرَكَ فِي ضَيْقٍ وَفِي سَعَةٍ لَكِنْ بِمَدْحِ رَسُولِ اللَّهِ أَنْسَاكَ

فجمع في بيت واحد بين الغزل والمدح النبوي بأسلوب جميل، وتخلص بطريقة لا تشعر السامع بالانتقال لشدة تماسك المعنى، وتآلف الكلام بعضه ببعض، بسبب بناء بعضه على الآخر.

ومن التخلص الحسن أيضاً ما قاله الشيخ أحمد الشرواني في قصيدة بدأها بالنسيب يقول فيها مخاطباً حبيبته^(٣):

١- الإعلام ٣/ ١٢٧١.

٢- مجلة «القاسم» عدد ذي القعدة ١٣٣١هـ، ص ٢.

٣- نفحة اليمى ص ١٤٨، وقد ذكرت المقدمة في بداية هذا البحث ص ٣٤٦.

أَرَاكَ صَدَدْتَ عَنِ الصَّبِّ ظُلْمًا أَيَا عَادِلَ الْقَدْرِ فَقَا وَرَحْمًا

ثم تخلص بعد الغزل وذكر اللوام والمحاجة معهم إلى الفخر والاعتداد بالنفس وذكر بعض صفاته التي تؤهله - في نظره - لذلك الفخر، فقال:

خَلِيلِي مَا لِي وَلِلدَّهْرِ أَضْحَى يَرُومُ انْحِفَاضًا لِقَدْرِي وَهَضْمًا

أَلَمْ يَدْرِ أَنِّي شَهَابُ الْمَعَالِي لَعَمْرِي مُنْكَرُ ذَا الْقَوْلِ أَعْمَى

ولم يحسن الشاعر التخلص من المقدمة إلى الغرض فحسب، بل أجاد في الانتقال من جزئية إلى أخرى داخل موضوع واحد أيضاً، كما فعل في الانتقال من مخاطبة الحبيب إلى مخاطبة العذال.

وبهذا رأينا أن الشعر العربي في الهند قد اشتمل على عناية بالتخلص، وحاول الشعراء الإلتقان في هذا الجانب، ليتدرج المتلقي من موضوع إلى آخر تدرجاً طبيعياً ولا يشعر بالقطع فجأة.

الخواتيم:

عنى النقاد بالخواتيم عناية تكاد تقترب من عنايتهم بالمطالع، وذلك لأن الختام آخر شيء يبقى في السمع، فإن كان حسناً بليغاً بقي في النفس من ذلك الشعر شيء حسن، وإن كان خلاف ذلك كدر ما قبله أيضاً.

ولذا يرى النقاد أن يكون آخر بيت في القصيدة أجود بيت فيها^(١). وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له يجب أن يكون الآخر قفلاً عليه، ولذا لا بد أن يكون محكماً لا تمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعده أحسن منه^(٢).

ولم يكن النقاد يلزمون الشعراء بنهاية معينة، بل يرون أن تحديد نهاية القصيدة بيد الشاعر نفسه^(٣) غير أنه يفضل أن تكون الخاتمة سارة فيما قصد به التهنائي، مشتملة على معان مؤسسية فيما قصد به التعازي والمراثي، وفي كل غرض بها يناسبه^(٤).

١ - الصناعتين ص ٥٠٣.

٢ - العمدة ١/ ٣٧٨.

٣ - بناء القصيدة العربية القديمة ص ٢٣١.

٤ - منهاج البلغاء ص ٨٥.

وكان الشعراء يختمون قصائدهم بمعانٍ بديعة، أو أمثال رائعة، أو تشبهات رائقة، أو ألفاظ حسنة أو حكمة بالغة^(١). واستحسن النقاد الحكمة في الخاتمة، وعدوها دليلاً على جودة الانتهاء وحسن الختام^(٢) لما تتضمنه الحكمة من تجارب وخبرات تحتاج إليها الأجيال والأقوام، كما كرهوا الخاتمة بالدعاء ورأوه من عمل أهل الضعف^(٣)؛ لأن الشعراء يملكون طرقاً شتى للتعبير عن مغزاهم، فالانصراف عنها واللجوء إلى الدعاء للدلالة على النهاية، دليل عدم التمكن.

وأرى أن الخاتمة الدعائية كانت سائدة في الشعر العربي في الهند، ولعل ذلك راجع إلى كون أغلب الشعراء ينتمون إلى بيئة دينية ويعرفون جيداً أن الدعاء هو أقوى سلاح المؤمن، فأهمية الدعاء وفوائده هي التي جعلتهم يختمون به قصائدهم، وإن عدّه أهل الأدب والنقد من الضعف، ومن أمثلة ذلك ما قاله الشيخ أنور شاه الكشميري في نهاية رثائه للشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، يقول فيها^(٤):

فَرَحَّمَهُ رَبُّهُ أَبَدًا عَلَيْهِ وَطَابَ ثَرَاهُ مِنْ رِضْوَانِ بَارِي

ومثله الشيخ ناظم الدين الندوي يدعو للملك فيصل في نهاية قصيدته الرثائية بالرحمة والمغفرة، ودخول الجنة، كما يدعو للملك خالد بعده بانتهاج سياسة رشيدة، والحفظ والنصرة، وطول بقاء ملكه وسيادته، يقول^(٥):

اللَّهُ يَرْحَمُهُ وَيَشْكُرُ سَعْيَهُ وَيَجُودُ مَضْجَعَهُ سَحَابٌ مَاطِرُ
تَرْجُو لَهُ غُفْرَانَ رَبِّ غَافِرٍ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ حَيًّا يُحْبَرُ
تَرْجُو أَخَاهُ أَنْ يَسُوسَ كَمَثَلِهِ صِنَوَانٍ مِنْ دَوْحٍ يُظِلُّ وَيُثْمَرُ
اللَّهُ يَحْفَظُهُ وَيَنْصُرُ جُنْدَهُ وَيَطْوِلُ سُودَدَهُ يُطَاعُ وَيَأْمُرُ

١ - الصناعتين ص ٥٤.

٢ - بناء القصيدة العربية القديمة ٣٠٢.

٣ - العمدة، ١/ ٣٨٠.

٤ - نفحة العنبر من هدي الشيخ أنور ص ١٥٩.

٥ - الزهرات ص ١٠.

ويختتم الشيخ عبد الرحمن سيوهاروي قصيدته في الشوق إلى المدينة المنورة مهاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة لها بالحفظ والرعاية، ونزول الأمطار عليها، يقول^(١):

أَيَا مَدِينَتَهُ طَيِّبِي وَأَنْعَمِي وَعِمِّي وَفَيْتِ شَرًّا وَعَيْنُ اللَّهِ تَرَعَاكِ
سَقَاكِ جُودٌ مِنَ الْوَسْمِيِّ مِنْهُمْ رَأً وَصَوْبٌ وَلِي مِنَ الْأَمْطَارِ رَوَاكِ
ويدعو الشيخ أحمد الشرواني لصديقه وخدنه الشيخ إله داد بطول العيش والسلامة في نهاية قصيدته التي مدحه بها، يقول فيها^(٢):

فَاسْلَمْ وَعِشْ مَا هَزْ مُضْنَى هَائِمًا ذَكُرْ الْحِمَى وَمَرَابِعُ الْأَخْدَانِ
وختتم بعض الشعراء قصائدهم بالصلوة والسلام على النبي الكريم، ومن هؤلاء الشيخ محمد حسيني الكالفوي يختتم قصيدته المدحية بقوله^(٣):

صَلُّوا عَلَيْهِ صَلَاةً فَاحْ نَفَحَتْهَا وَسَلُّوا بِسَلَامٍ طَيِّبُهُ عَبَقَا
كما ختم الشيخ أنور شاه الكشميري أيضاً قصيدته النبوية بالصلوة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين، يقول في قصيدته التي مطلعها^(٤):

بَرْقٌ تَأَلَّقَ مُوهِنًا بِالْوَادِي فَأَعْتَادَ قَلْبِي طَائِفُ الْإِنْجَادِ
يقول في نهاية هذه القصيدة:

سُبْحَانَ مَنْ صَرَفَ الْأُمُورَ وَمَا أَتَتْ غَيْرَ عَلَيْهِ عَلَى مَدَى الْأَبَادِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ مَعَ السَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ سِيَّيْ وَالْهِيَ مَعَ صَحْبِهِ الْأَنْجَادِ
ومن الشعراء من جمع بين الدِّعاء وبين الصلوة والسلام على النبي المصطفى، ومن

١ - القاسم، جمادى الأولى ١٣٣٢ هـ ص ٨.

٢ - نفحة اليمن ١٥٢.

٣ - الإعلام ٣/ ١٣٤٧.

٤ - القاسم شوال ١٣٢٩ هـ ص ٣٤، نفحة العنبر ص ١٥٦.

أمثلة ذلك قول الشيخ أنور شاه^(١):

وَأَقَامَ رَبُّ الْعَرْشِ عِزَّةً دِينِهِ وَأَطَالَ ظِلَّ خِلَافَةِ السُّلْطَانِ
ظِلُّ الْإِلَهِ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهِمْ سُلْطَانُهُمْ عَبْدُ الْمَجِيدِ الثَّانِي
سَعِدَتْ مَسَاعِيهِ وَأَنْجَحَ جَدَّهُ مَا دَامَ يَسْعَى فِي رِضَى الرَّحْمَنِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ خَصَّنَا بِمَزِيدٍ فَضْلٍ مِنْهُ ثُمَّ حَنَانِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ خَيْرِ الْخَلَائِقِ مِنْ بَنِي عَدْنَانِ

وكان بعض الشعراء يحاولون أن يأتوا في نهاية القصائد ما يدل على تاريخ الحدث الذي نظم فيه الشعر، كعام الوفاة في نهاية قصيدة الرثاء، كما قال الشيخ أنور شاه في رثائه لعبد الباقر، يقول في النهاية^(٢):

وَلَمَّا قَضَى نَحْبًا حَسَبْتُ بِمَغْفِرَةِ أَوْبٍ، وَلِلَّهِ مَرْجِعُ
أو تاريخ الولادة مثلاً في قصيدة التهنئة عند ميلاد مولود، كما في شعر الشيخ محمد الأنصاري في تهنئة للشيخ عبد الحي عند ولادة مولود له سمي عبد العلي، يقول في آخر بيت في تلك القصيدة^(٣):

بَدُرٌ سَعْدٍ لِأَجَلٍ ذَا أَرْخُوءُهُ بَدُرٌ تَمَّ بَدَا بِوَقْتِ سَعُودِ
أو وقت حصول حادث في شعر المناسبات كما نرى عند الشيخ حبيب الرحمن العثماني في قصيدة أنشأها عند استكمال إنشاء مبني خاص لدراسة الحديث النبوي سمي بدار الحديث، يقول فيها^(٤):

وَقُلْتُ بِرَأْسِ الْبَشْرِ يَوْمَ افْتِتَاحِهَا وَثَبُّ مَعَالِيهَا أُنْبِقُ قُصُورُهَا

١ - نفحة العنبر ص ١٦٥.

٢ - مجموعة قصائد مرثية وقطعات تاريخ وفات ص ٤، رتبها: حبيب الرحمن عثمانى، ديوبند ١٣٣٦ هـ.

٣ - الإعلام ١٣٤٢/٣.

٤ - معين اللبيب ص ٤٧.

وكان الشعراء يصبون اهتمامهم باستخراج مادة التاريخ، ويخصونه بفضل عنايتهم، ولذا سمّوا كثيراً من القصائد أو المقطوعات بقولهم: «قطعة تاريخ كذا» ويقصدون بها المقطوعة أو القصيدة التي نظمت في تلك المناسبة.

وكان من عادات الشعراء في نظم اللغتين الأردية والفارسية أن يذكروا ألقابهم الشعرية التي لقبوا بها أنفسهم في نهاية القصيدة، وهذا اللقب يسمى في اللغتين، «التخلص»، ونرى أن بعض الشعراء ذكروا التخلص في قصائدهم العربية أيضاً، فمن ذلك قول الشيخ طلال محمد البشاوري في نهاية قصيدته^(١):

فَيَارَبِّ بِالْخَلِّ الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الْبَرَايَا، وَهُوَ فِي الْحَشْرِ شَافِعُ
رَسُولُكَ، وَهُوَ النُّورُ ذُو الشَّرَفِ السَّنِي نَبِيُّكَ، وَهُوَ السَّيِّدُ الْمُتَوَاضِعُ
أَنَلْنَا مَعَ الْأَحْبَابِ رُؤَيْتَكَ الَّتِي لَهَا فِي فُؤَادِ الْأَصْفِيَاءِ مَطَامِعُ
وَأَحْسَنَ الْإِنْيَايَا إلهِي بِرَحْمَةٍ إِلَهِي أَقْلُوبُ الْأَوْلِيَاءِ تُسَارِعُ
فَبَابِكَ مَقْصُودٌ وَفَضْلُكَ زَائِدٌ وَلُطْفُكَ مَأْمُورٌ، وَعَبْدُكَ ضَارِعُ
وَذَنْبِي لَا يُحْصَى، وَمَنْحُكَ مُرْتَجَى وَجُودُكَ مَرْجُوٌّ، وَعَفْوُكَ وَاسِعُ
وَأَيْدٍ بِنُورِ كَيْ يَقُولُ لَهُ طَلَاً أَبْدُرُ بَدَا مِنْ جَانِبِ الْغُورِ لَامِعُ
ومن أمثله أيضاً قول الشيخ باقر بن مرتضى المدراسي في الغزل، يقول في نهايته^(٢):

أَكَاهُ تَنَاهَتْ حَيْرَتُهُ أَذْرَكْنَاهُ إِلَهِي بِالْكَرَمِ

وقد ختم بعض الشعراء قصائدهم باقتباس جزء من الآية القرآنية الكريمة، وأكثره في شعر الدعوة الإسلامية، كما نرى ذلك عند الشيخ عبد الله الجيتيكر في قصيدته التي وجه بها النداء إلى علماء الدين، وحثهم على نبذ الفرقة والخلاف، وناشدهم النهوض بما ينفع المسلمين، يختمها بقوله^(٣):

١- نشأة الطرب في أشواق العرب ص ١٠-١١، مطبع آفتاب، ببشاور ١٢٩٢هـ.

٢- الإعلام ٩٣٣/٣.

٣- روداد اجلاس نهم ندوة العلماء ص ٢، محمود المطابع، كانفور ١٣١٩هـ.

وَأِنْ أَرِيدُ سَوَى الْإِصْلَاحِ مُتَّكِلًا عَلَى الْعَزِيزِ، وَتَوْفِيقِي بِهِ أَسْمًا

وكما رأينا ذلك أيضاً في قصائد الشيخ عبد الحميد الفراهي في شعر الجهاد^(١)
ومن أمثلته أيضاً قول الشيخ طلا محمد البشاورى^(٢):

«سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزِّ» عَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ أَوْلُو الْأَهْوَاءِ وَالنَّكْرِ^(٣)

ومن الطرق التي سلكها بعض الشعراء في نهاية قصائدهم التذكير والوعظ بعدم
الاغترار بالدنيا، والحث على العمل للآخرة، والقيام بأداء الواجب، ومن ذلك قول
الشيخ حبيب الرحمن العثماني في نهاية رثائه لشيخه محمود الحسن، يقول فيها:

وَقُمْ أَيُّهَا الْوَاقِي لِدِينِكَ وَاعْتَصِمْ وَإِلَّا سَتُصْبِحُ قَارِعًا مِنْ نَادِمٍ
وَلَا تَشْتَرِ الدُّنْيَا بِدِينِكَ مَا جِنَّا وَلَا تَكُ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِ الدَّرَاهِمِ
وَلَا تَكُ مُغْتَرًّا بِجَاهِكَ وَالْغِنَى فَمَا أَنْتَ مِنْ رَبِّ الْمُنُونِ بِسَالِمٍ
وَلَا تَكُ مِمَّنْ يَخْتَلُونَ بِدِينِهِمْ مَتَاعًا قَلِيلًا لَيْسَ يُغْنِي لِبَطَاعِمِ

ومنها أيضاً قول الشيخ عبد الله الجيتيكر في نهاية قصيدته التي وجّه بها النداء إلى
العلماء لتدارك الأمر قبل تفاقم الخطب، يقول فيها^(٤):

غَدًا سَيُسْأَلُ كُلُّ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَمَا جَوَابُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ؟

وهذه - لا شك - نهاية مؤثرة حيث تحت المتلقين على اختلاف طبقاتهم للعمل،
وتذكرهم بموقف العرض على الله تعالى في عرصات القيامة.

ومن النهايات ما ختم به الشيخ محمد بن حسين الأنصاري قصيدته التي بعث بها إلى
الشيخ عبد الحي يذكر فيها شوقه إلى الفوز بلقائه ورؤيته؛ إذ لا يقرّ له قرار بدونه حتى

١ - ينظر: المطلب الرابع، المبحث الأول، الفصل الثاني من الرسالة.

٢ - الإعلام ٣/ ١٢٥٣.

٣ - في الشطر الأول اقتباس من سورة الصفات، الآية: ١٨٠.

٤ - الإعلام ٣/ ١١٧٥.

ولو كان في جنة الخلد، يقول^(١):

حَرَامٌ عَلَيَّ النَّوْمُ حَتَّى أَرَاكُمْ وَلَوْ كُنْتُ فِي الْفِرْدَوْسِ أَوْ جَنَّةِ الْخُلْدِ

وهذه نهاية جميلة تؤكد شدة تعلق الشاعر بالمرسل إليه، وتذكره حقوق الصداقة مع ما اشتملت عليه النهاية من مبالغة.

كما ختم الشيخ أحمد الشرواني بعض قصائده بالفخر، فيقول^(٢):

أَنَا ابْنُ الْكَمَالِ وَرَبُّ الْفَخَارِ فَلَا غَرَوَ إِنِّ فُقْتُ عَرَباً وَعَجَباً

مَقَامِي جَلِيلٌ، وَمَجْدِي أَثِيلٌ وَفَرْعِي إِلَى مُحْتَدَى الْجُوْدِ يُنْمَى

ومع هذه الانتهات الحسنة الكثيرة، هناك خواتيم لم يوفق فيها الشعراء فمن ذلك ما ختم به الشيخ ظفر أحمد التهانوي رثاء زوجه حيث يقول^(٣):

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ مَاكَامَ بَهْجَةٍ لِيَلَةَ التَّعْرِيسِ

فإن كان ذكر البهجة والعرس يستقبح في ثنایا الرثاء، وخاصة رثاء الزوجة الذي ينتظر أن يكون أشد تحسراً، وأكثر حرارة، فإن الانتهاء بمثل هذا الكلام أشد وأنكى، وخلاف ما قرره الذوق والنقد من أن تكون الخاتمة في المراثي والتعازي حزينة مؤسسية^(٤).

الوحدة الموضوعية:

رأينا - فيما سبق أن أغلب القصائد في الشعر العربي كانت متعددة الموضوعات؛ وذلك لأن شعراء العربية في الهند كانوا يرون الشعر الجاهلي هو النموذج الأفضل، ويحاولون أن ينتهجوا نهجهم، ولذا جاء أغلب القصائد مشتملة على أكثر من موضوع. لكن مع هذه الأغلبية للقصائد ذات الموضوعات المتعددة، نجد - بجوارها - جملة صالحة من القصائد - تتسم بالوحدة الموضوعية، كما رأينا في شعر الجهاد لدى كل من

١- الإعلام ٣/ ١٣٤٣.

٢- نفحة اليمن ١٤٨.

٣- معارف ٤ جلد ٦٧ ص ٣٠٧.

٤- منهاج البلغاء ص ٢٨٥.

الشاه عبد العزيز الدهلوي، والشيخ حميد الدين الفراهي، والشيخ عبد الحق حقي، وفي قصائد الاستنهاض بالهمم لدى الشيخ عبد الحميد الصادقفوري، وفي بعض قصائد المديح النبوي لدى الشيخ عبد الرحمن السيوهاروي، وقصائد الرثاء لدى الشيخ عبد الله الجيتيكر، والشيخ حبيب الرحمن العثماني، والشيخ إبراهيم مسقطي، وفي الغزل لدى الشيخ صدر الدين آزرده، والشيخ عبد الأول الجونفوري، وسيد أحمد حسرت، والمفتي محمد عباس، وفي شعر الإخوانيات لدى الشيخ محمد أحمد اليميني الشرواني في رسائله إلى بعض إخوانه، وفي ردّهم إليه.

الوحدة العضوية:

عرف الدكتور غنيمي هلال الوحدة العضوية بقوله: «نقصد بالوحدة العضوية في القصيدة وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع، وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية، لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر»^(١). فهذا التعريف يتطلب توافر ثلاث عناصر في القصيدة:

العنصر الأول: وحدة الموضوع.

العنصر الثاني: وحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع.

العنصر الثالث: الترتيب والتسلسل في الأفكار والمشاعر.

ونجد في الهند جملة من القصائد توافرت فيها هذه العناصر الثلاثة، كقصيدة الشيخ محمد ناظم الندوي التي سماها بـ «لون من ألوان الحياة الغربية»، يقول فيها^(٢):

قَدْ وَسَّوْسُوا إِلَى الشَّبَابِ أَنْ التَّقَالِيدَ السَّارِبَ
فَبَعَوْا عَلَى كُلِّ الْقَدِيمِ لِيَجْعَلُوهُ كَالرَّمِيمِ
خَرَجُوا غَضَابِي شَارِدِينَ وَعَلَى الْحَضَارَةِ مَارِدِينَ

١- النقد الأدبي الحديث ٣٧٣.

٢- الزهرات، محمد ناظم الندوي، ص ٢١-٢٢.

عَاشَ التَّعَبَ بِالْمَهَنَ	سَمُّوا الْحَيَاةَ فِي الْمُدُنَ
عَاشَا شَفِيًّا بِالنَّصَبِ	عَاشَا بَغِيضًا بِالصَّخَبِ
مُتَصَاعِدًا إِلَى الْعَنَانِ	عَاشَا يُكَدِّرُهُ الدُّخَانُ
وَيَرْثُهُ كُلُّ الْعَجِينِ	جَاوًا يُنْعِصُهُ الصَّجِينِ
فَعَقَّةً وَجَرَجَ رَهَ	فَقَرَقَةً وَزَجَجَ رَهَ
يَعْقُ بُهْ طُولَ الزَّفِيرِ	يُزَعِرُهُمْ مَدُّ الصَّفِيرِ
وَيُوهِّمُهُمْ مَثَلُ الْأَزِيْزِ	يُقْلِقُهُمْ طُولُ الْأَزِيْزِ
مَتَمَرَّدًا وَمَضًى لَلَّا	خَارَجَ الْفَتَى سَبْهُ لَلَّا
بِيَّتِيَّتِهِ وَهَائِلًا	يَتَجَوَّلُ مَتَمَرِّمًا
وَعَلَى الْأَنْثَاقَةِ ثَائِرًا	يَأْنِي وَيَمْضِي سَادِرًا
مَلِيَّةً بِاللُّتْرَهَاتِ	قَدْ ضَاقَ ذَرْعًا بِالْحَيَاةِ
لَزِمَ الْوَسَاخَةَ فِي غُرُورِ	كَرِهَ النَّظَافَةَ وَالطُّهُورِ
يَتَرَدَّدُ بِلَا عَمَلِ	قَدْ يَرْتَعِي مَرَأَى الْهَمَلِ
يَنْغِي الْهُدُوءَ مُسَافِرًا	وَيَطُوفُ مُتَحَيِّرًا
مُتَهَادِيًّا مَعَ الرَّفِيقِ	مَتَمَشِّيًا عَلَى الطَّرِيقِ
مُتَّخِذًا سُوءَ الْخَدِينِ	مُتَّجُوًّا مَعَ الْقَرِينِ
وَعَلَى الظُّرُوفِ سَادِمًا	يَمْشِي الْهُوَيْنَى وَاجِمًا
وَعَلَى الثَّقَافَةِ نَاقِمًا	يَبْدُو كَثِيْبًا سَاهِمًا

خِـلَانُهُ وَمُسَامِرَا	حِينَ تَرَاهُ مُحَاصِرَا
مُتَبَاطِئًا مُتَرَسِّلَا	مُتَكَاسِلًا وَمُهْلَهْلَا
يَزْنِي لَهْ أَتَرَابُهُ	مُرْقَّعَا أَثْوَابُهُ
ذَوَائِبُهُ مَعَ اللَّحَى	مُتَوَسِّخَا وَمُرْسِلَا
يَنْفِيهِ بَدُوٌّ وَحَضَرُ	ضَرْبٌ عَجِيبٌ مِنْ بَشَرُ
أَوْ دُبٌّ أَسْتَرِيدِيَا	فَكَأَنَّهُ ضَبُّ الْفَلَا

أَيَّنَ الْقَرَارُ يَا فَتَى	أَيَّنَ الْفَرَارُ يَا تَرَى
حَيْثُ هُدُوٌّ وَهُدَى	إِفْزَعُ إِلَى رَبِّ الْوَرَى
مُسْتَرْحِمًا وَفِي وَجَلْ	إِزْجِعْ إِلَيْهِ فِي أَمَلْ
يُؤْنِسُكَ مِنْ وَحْشَتِكََا	يُخْرِجُكَ مِنْ حَيْرَتِكََا
يُنْقِذُكَ مِنْ حُفْرَتِكََا	يُنْعِشُكَ مِنْ عَثَرَتِكََا

يصور الشاعر في هذه القصيدة لونا من ألوان الحياة الغربية المادية التي أقيمت على الكفر والإلحاد، والتمرد على الدين والأخلاق، والقيم والأعراف، والتقاليد والعادات، لا هم لأصحابها في الحياة إلا الكد من أجل الحصول على حطام الدنيا ومتعها الزائلة، ولا ضابط لديهم في سبيل القضاء على حوائجهم، ولا وازع من دين أو خلق يردعهم ويمنعهم، لكن هذا الكفر بالله تعالى، والتحرر من الدين والخلق، والحرية المزعومة أوصلتهم إلى حالة يرثى لها، حيث تفككت الروابط الأسرية، وفسدت الأوضاع، وانحلت المجتمعات وأورث لديهم خواءاً روحانياً، فبدأوا يتيهون في الأرض لإشباع الجانب الروحي ويجرون في سبيله شرقاً وغرباً، ويبحثون عنه في كل

الأديان والطوائف، وصاروا تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾^(١)، وبدأ العقلاء منهم يكرهون هذا الوضع، يصور الشاعر هذه الأحوال في المقطوعتين الأولى والثانية: في الأولى متمثلة في حياتهم الشاقة المضنية في المدن والمصانع، وفي الثانية في عدم اهتمامهم بالذات، وعدم عنايتهم بطهارة البدن واللباس والروح، حتى كأنهم خرجوا من الإنسانية وتحولوا ذئاباً وسباعاً.

وفي المقطوعة الأخيرة يدعو هذه الإنسانية الهائمة على وجهها إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى دينه الأفوم، لتخرج من متاهات الضلال، وتفوز بالأمن والاطمينان. وتتسم القصيدة كلها بوحدة الموضوع، كما تثير نوعاً واحداً من المشاعر، وهي مشاعر الشفقة والرحمة بعباد الله الذين ضلّوا سبيل الرشاد والفلاح، كما نرى فيها الترتيب والتسلسل في الأفكار والمشاعر، بدءاً من ذكر السبب، ومروراً بشقائهم في المدن، ثم في تصوير حياتهم اللاهية العابثة، الخالية من أي هدف عال، أو مطمع شريف مجيد، ثم دعوتهم إلى دين الله الذي إليه المفزع، وهو المنقذ الوحيد من هذا الظلام المطبق، والضلال المبين.

الطول والقصر:

أما من حيث الطول والقصر فكانت القصائد الطوال هي الغالبة في الشعر العربي في الهند؛ وذلك لأن الشعراء في الهند - كما يظهر - كانوا يرون التطويل - في نفسه - مفخرة.

١ - جزء من الآية ١٩ في سورة الحشر.

المبحث الثاني

خصائص المضمون

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : المعاني والأفكار.

المطلب الثاني : التجربة الشعرية.

المطلب الأول

المعاني والأفكار

يعد المعنى عنصراً هاماً في بناء العمل الأدبي ، بل يعد أساساً في كل الفنون ما عدا الموسيقى^(١) لأنه لا يمكن أن يستغني عنه النص، ولا يمكن خلوه منه^(٢) كما يمثل دوراً هاماً في رفع قيمة الأدب أو وضعه لأنه يمثل العنصر العقلي في النص ومظهر فكر الأديب وثقافته ووعيه بالمعارف التي يتعرض للحديث عنها أو التي يستمد أفكاره منها^(٣) والمعنى الصائب العميق هو الذي يفتح بوابة الخلود لأي أثر من الآثار الأدبية، فالأدب الذي لا يقوم على أساس من الفكر العميق لا تطول حياته بل يسقط ويبطل، وينتهي به الأمر إلى الزوال^(٤).

وتختلف مكانة الأفكار والمعاني من فن إلى آخر فإذا كانت تحتل مكانة الصدارة وتعلو نبضاتها في كتب الفلسفة والاجتماع والعلوم البحتة فإن العواطف تأخذ هذه المكانة في الشعر والأدب، وتقل مرتبة المعنى عنها، لأن الغرض من الشعر في المقام الأول التأثير^(٥) وإثارة العواطف وليس التعليم وإزالة الجهل. ولا بد أن يكون الشاعر أفكاره بعواطفه وخلجات نفسه، فيقدمها حية نابضة بالجمال

١- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب ص ٣١.

٢- الفكرة في الأدب، د. محمد عبد الرحمن شعيب ١٠٢ مطبعة دار التأليف بمصر ١٩٧٥ م بتصرف.

٣- السابق ص ٦٦.

٤- الموشح للمرزباني ص ٥٥٦.

٥- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب ص ٢٣ بتصرف.

والفكرة، ممتزجة بالمشاعر والوجدان، فالأديب العظيم حقاً هو الذي يجمع بين عمق التفكير وقوة التأثير^(١).

أما الشاعر الذي يقف أمام الفكرة ويعجز عن مزجها بإحساسه يجيء شعره أقرب إلى النظم منه إلى القريض، لأن الذهنية المسيطرة على منابع الفكرة تطمس رونق شعره، والجفاف يذهب بهائه، فلا نضارة ولا شعور بالجمال^(٢).

ولم يغفل شعراء العربية في الهند عن الاهتمام بالمعنى، واتسمت المعاني عندهم بسمات عديدة، من أهمها :

(١) التأثر بالمعاني الدينية :

يعد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أهم منابع الثقافة لدى المسلمين كما أنها يتبوأن مكانة أدبية مرموقة لا تدانيها مكانة نص آخر.

وكان الشعراء في الهند يركزون جل اهتمامهم على مدارسة القرآن الكريم والسنة المطهرة بحكم انتباههم إلى بيئة العلم الشرعي، بل كان فهم الكتاب والسنة هو رائدهم إلى تعلم اللغة العربية.

فلا غرو أن نرى لدى هؤلاء الشعراء وفي معاني شعرهم تأثراً عميقاً بكتاب الله - عز وجل - وحديث الرسول المصطفى - عليه أطيب التحيات وأزكى التسليمات - فقد استقوا كثيراً من معانيهم من هذين النبعين الخالدين ونظموا فيها أشعارهم، ونأخذ الآن في بيان ذلك:

(أ) التأثر بالقرآن الكريم :

نلاحظ في الشعر العربي في الهند تأثراً واضحاً بمعاني القرآن الكريم، ومن أمثلته قول الشيخ أحمد بن عبد القادر الجيتيكر^(٣):

أَلَيْسَ أَكْمَلَ هَذَا الدِّينَ رَبُّكُمْ أَمَّا أَتَمَّ عَلَيْكُمْ فَضْلُهُ النَّعْمَا

ففيه تأثر واضح بقوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٤).

١ - أصول النقد الادبي، أحمد الشايب ص ٢٣٠ بتصرف.

٢ - النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي، ص ١٢٤، مؤسسة الخانجي بمصر ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

٣ - الإعلام ٣ / ١١٧٤.

٤ - سورة المائدة : ٣.

ومثله قول السيد أبو محمد طاهر سيف الدين في مدح الرسول^(١):

إِنَّمَا طَهَّرَهُ أَمَّانٌ قَائِمٌ لِلْبَرَايَا مِنْ بَلَايَا وَغَيْرِ

فالشاعر في هذا البيت متأثر بقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٢)، ومثله قول السيد محمد حسين الجزائري^(٣):

وَيَطْمَعُ الْمَرْءُ فِي أَنْ يَتْرُكُوهُ سُدًى وَلَا يُحَاسِبُهُ رَبُّ الْوَرَى أَبَدًا

ففيه تأثر ظاهر بقوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٤)، ومن أمثله قول الشيخ طلا محمد البشاوري^(٥):

فَإِنْ رَحِمْتَ عَلَى مَنْ جَاءَ مُفْتَقِرًا فَكَأَنَّ أَهْلًا بِهِ يَارَبَّ فَاعْتَفِرْ

وَإِنْ تُعَذِّبْ فَإِنِّي أَهْلُ ذَاكَ وَذَا عَذْلٌ قَوِيمٌ بِلَا لَوْمٍ وَلَا نُكْرِ

فإن الشاعر متأثر في هذين البيتين بما جاء في نهاية سورة المائدة على لسان عيسى بن مريم - عليهما السلام - :

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٦)، ومن الأمثلة أيضاً قول الشيخ السيد محمد الحسيني الكالبي من قصيدة في مدح رسول الهدى يقول فيها^(٧):

يَعْفُو عَنِ النَّاسِ مِنْ حِلْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ عَنِ الرَّقَابِ يَفُكُّ الْغِلَّ وَالرَّبَقَا

وَيَكْظِمُ الْغَيْظَ عِنْدَ الْغَيْظِ مَرْحَمَةً وَلَا يَقُولُ سِوَى وَحْيٍ إِذَا نَطَقَا

١ - قصيدة أبو محمد طاهر سيف الدين ص ٢، برتش انديا بريس، بومباي، التاريخ غير مذكور.

٢ - الأنفال : ٣٣.

٣ - الإعلام ٣/ ١٠٩٢.

٤ - سورة القيامة : ٣٦.

٥ - الإعلام ٣/ ١٢٥٣.

٦ - سورة المائدة : ١١٨.

٧ - الإعلام ٣/ ١٣٤٦.

لِلْمُؤْمِنِينَ جَنَاحُ الرَّفْقِ يَخْفِضُهُ مِثْلُ الْأَبِ الْبَرِّ بِالْأَوْلَادِ قَدْ رَفَقَا

فترى في هذه الأبيات تأثر الشاعر بكثير من الآيات الواردة في محاسن الرسول الكريم، ومكارم أخلاقه أو في وصف عباد الله المؤمنين برهم المحسنين في أعمالهم ففي البيت الأول تأثر الشاعر بقوله تعالى عن هذا النبي الأمي ﷺ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١﴾.

كما أنه متأثر في الشطر الأول من البيت التالي بقوله تعالى في صفات المتقين: ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّيِّئَاتِ الضَّرَّاءِ وَالْكَظِيمِ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢﴾. وفي العجز من البيت نفسه تأثر بقوله تعالى في صفة الرسول ﷺ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾، وفي البيت الثالث يبدو التأثر بقوله تعالى في نهاية سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٤﴾.

وإذا كان هؤلاء الشعراء قد أخذوا معاني من القرآن الكريم ثم عبروا عنها بأسلوبهم الخاص تأديباً منهم مع كتاب الله تعالى، وإظهاراً لمقدرتهم على إبراز المعاني في قوالب من عندهم، فهناك شعراء أخذوا المعاني مع الأساليب واقتبسوا أجزاء من بعض الآيات الكريمات، لما يمتاز به النص القرآني من الأسلوب المعجز والتعبير الناصع والتصوير الرائع، فأضفى هذا الاقتباس رونقاً وبهاءً على شعرهم، ومن أمثلته قول الشيخ عبد الحميد الفراهي في آخر قصيدة في ذكر اعتداء إيطاليا على ليبيا، حاثاً المسلمين على الاستعداد للجهاد، والدفاع عن الدين والوطن، يقول: ﴿٥﴾:

فَاخْمُوا ذِمَّارَ الْمَلَّةِ الْـ بَيْضَاءٍ كَالْأَسَدِ الشَّكْسِ ﴿٦﴾

١- سورة الأعراف ١٥٧.

٢- سورة آل عمران ١٣٤.

٣- سورة النجم ٣-٤.

٤- سورة التوبة ١٢٨.

٥- ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي: ص ١٦.

٦- الشكس: عسير (اللسان).

وَاسْتَجْمَعُوا عَدَدًا فَمَا
تَجْرِي السَّفِينُ عَلَى الْيَبْسِ
أَغْنِي الْمَرَакِبَ وَالْمَدَا
فِعْ وَالْكَتَائِبَ وَالْحَرَسِ
وَتَعَلَّمُوا حَيْلَ الْحُرُوفِ
بِ لَتَغْلِبُوا الْخَصَمَ الشَّرِسَ
فَتَاهَبُوا وَتَأَلَّبُوا
وَتَلَبَّبُوا لِوَعَى ضَرَسِ
وَاسْتَنْصُرُوا اللَّهَ الْـ
مُهِمِّنَ فِي الْعَشِيِّ فِي الْغَلَسِ
وَلَيْنُ صُرْنِ اللَّهِ مَنَنْ
يَنْصُرُهُ فَلْيَخْتَمِسْ

فقد اقتبس الشاعر في البيت الأخير جزءاً من قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَيَبِيعُ صُلُوبُهُمْ وَمَسْجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴿١﴾.

ومن أمثلته أيضاً قول الشيخ ذي الفقار علي في ذكر هزيمة الروس على أيدي الجيوش العثمانية يقول فيها (٢):

فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ
بَيْنَ الْبَلَاقِعِ وَالْغَابَاتِ وَالطَّلَلِ
فهذا جزء من قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٣)، اقتبسه الشاعر وجعله شطراً كاملاً في قصيدته، ولا شك في أن هذا الاقتباس يعلي من شأن الكلام الذي ورد فيه ويضفي عليه رونقاً وطلاوة.
(ب) التأثر بالحديث النبوي :

كان الحديث النبوي من تلك المصادر المهمة التي استقى منها الشعر العربي في الهند كثيراً من معانيه ، ومن أمثلته قول المفتي كفاية الله في مدح الشيخ محمود الحسن حين

١ - سورة الحج ٣٩-٤٠.

٢ - قصائد قاسمي ٢٢، الإعلام ١٢٢٦/٣.

٣ - سورة الأحقاف ٢٥.

كان أسيراً في مالطة ، يقول^(١) :

أَلَا يَا مَالِطَهُ كُنُونِي سَلَامًا عَلَى مَحْمُودِنَا الرَّاضِي بِقَدْرِ
إِمَامِ الْخَلْقِ قُدُونُهُمْ جَمِيعًا لَهُ كَرَمٌ إِلَى الْآفَاقِ يَسْرِي
جَنَيْدُ الْعَصْرِ، سِرِّي الزَّمَانِ عُيُوثُ فُيُوضِهِ تَهْمِي وَتَسْرِي
فَرِيدٌ فِي خَلَائِقِهِ الْعَذَابِ وَحِيدٌ فِي التَّقَى مِنْ غَيْرِ فَخْرٍ
أَشَدُّ النَّاسِ أَمْثَلُهُمْ بَلَاءً فَيَا شَمْسَ الْهُدَى يَا طُودَ صَبْرٍ
ذَكَرْنَا يُوسُفَ الصَّدِيقَ لَمَّا أُسِرْتَ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ أُسْرِ

فالشاعر في قوله: «أشد الناس أمثلهم بلاء» يتأثر بقول رسول الله الذي رواه مصعب بن سعد عن أبيه. قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل... الحديث^(٢).

ومن أمثلته أيضاً قول الشيخ أحمد بن عبد القادر الجييتي الكوكبي^(٣):

غَدًا سَيُسْأَلُ كُلُّ عَنَنْ رَعِيَّتِهِ فَمَا جَوَابُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ
فالشاعر متأثر بقول سيد المرسلين: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» الحديث^(٤).

ومن أنواع التأثير بمعاني الحديث النبوي في الشعر العربي في الهند ما نراه عند بعض الشعراء من نظم أحاديث عدة كما فعل الشيخ عبد الحميد الفراهي حيث نظم عدة أحاديث واردة في أشراف الساعة في إحدى قصائده ، يقول^(٥):

١- الإعلام ٣/ ١٣٣٤.

٢- أخرجه الترمذي. كتاب الزهد. باب ما جاء في الصبر على البلاء.. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

٣- الإعلام ٣/ ١١٧٥.

٤- الحديث أخرجه الإمام البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، كتاب الاستقراض، باب العبد راعٍ في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه.

٥- ديوان الفراهي ص ٢٦.

فَإِنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ أُرْلِفَتْ إِلَيْنَا فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا
فَقَدْ أَخَذَ النَّاسُ جُهَاْلَهُمْ هُدَاةً فَيَخْبَطُ خَبَاطُهَا
فَضَاعَ الْأُمُورُ، وَشَاعَ الْفُجُورُ وَذَاعَ الْخُمُورُ وَإِفْرَاطُهَا

فالشاعر متأثر في هذه الآيات بأحاديث عديدة. منها قوله : «إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهالون يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتَوْنَ بِرَأْيِهِمْ فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ»^(١).

فكان الشاعر نظم معنى هذا الحديث في البيت الثاني. أما البيت الثالث فورد فيه عدة أشرط للساعة، والتي وردت في قوله : «من أشرط الساعة أن يظهر الجهل، ويقل العلم، ويظهر الزنا، وتشرب الخمر، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى تكون خمسين امرأة فيهن رجل واحد» الحديث^(٢).

وقول الشاعر «ضاع الأمور» مأخوذ من قوله : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(٣).

واستمر على هذا المنوال في القصيدة كلها بذكر علامات عديدة منها اجتماع اليهود في فلسطين، وطغيان الروم وإفسادهم في الأرض، وقيام السودان لنصرة دين الله الحنيف، وغيرها من العلامات.

ونجد مثل هذا عند الشيخ حبيب الرحمن العثماني أيضاً حيث نظم مائة من معجزات النبي في قصيدته اللامية وسماها لامية المعجزات والتي بلغ عدد أبياتها أربعة وخمسين ومائتي بيت وله على غرارها بائية نظم فيها أيضاً مائة معجزة، وبلغ عدد أبياتها أيضاً مائتي بيت ونختار من اللامية هذه الآيات^(٤):

وَأَصْأَسَوْطُ عَصَاً وَأَصَابِعُ مِثْلُ مِصْبَاحٍ لِيَمْتَنَزَرَ السُّبُلُ

١- أخرجه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يذكر في ذم الرأي، عن عبد الله بن عمرو.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الأشربة، باب.

٣- أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشغول في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل.

٤- معين اللبيب ص ١٤-١٥.

فَأَسِيدٌ وَابْنٌ بِشَرٍّ إِذْ رَأَوْا أَنْ يَسِيرُوا فِي ظَلَامٍ مُنْسَدِلٍ
صَارَ مِصْبَاحاً عَصَى لِوَاحِدٍ يَبْصُرَانِ النَّهْجَ مَاءً وَوَحَلٍ
ثُمَّ لَمَّا أَنْ تَقْضَى جَمْعُهُمْ صَارَ مِصْبَاحَيْنِ مِنْهُ كَالْبَدَلِ
وَقَتَادَةُ أَضَا عُرْجُونُهُ فَمَضَى حَتَّى إِلَى الْمَثْوَى وَصَلِ
وَطَفِيلٌ إِذْ سَرَى فِي ظُلْمَةٍ صَارَ ذَا نُورٍ بِسَوْطٍ مُشْتَعِلٍ

كما أن أغلب من مدحوا الرسول، نظموا بعض شئائله أو بعض معجزاته في غضون قصائدهم على نحو ما نرى الشيخ رفيع الدين الدهلوي ينظم كثيراً من جزئيات معجزة الإسراء والمعراج في قصيدته المدحية، يقول فيها :

يَا أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ يَا زَيْنَ الْوَرَى يَا خَاتِمَ الرُّسُلِ مَا أَعْلَاكَ
يَا كَاشِفَ الضَّرَاءِ مِنْ مُسْتَجِدٍ يَا مُنْجِيَّ فِي الْحَشْرِ مَنْ وَالَاكَ
هَلْ كَانَ غَيْرُكَ فِي الْأَنَامِ مِنْ اسْتَوَى فَوْقَ الْبُرَاقِ وَجَاوَزَ الْأَفْلَاكَ
وَاسْتَمْسَكَ الرُّوحَ الْأَمِينَ رِكَابُهُ فِي سَيْرِهِ وَاسْتَخْدَمَ الْأَفْلَاكَ

وهكذا استمر في نظم كثير من التفاصيل التي حصلت في تلك الحادثة العظيمة والمعجزة العجيبة.

ويلحظ أن هذا التأثير بالكتاب والسنة كان في غرض الدعوة الإسلامية وفي مدح الرسول أكثر حظاً من غيرهما من الأغراض، لأن فيها مجال رحب لمثل هذه المعاني.

(٢) التأثير بالبيئة الهندية:

أشاد النقاد والأدباء كثيراً بقيمة التجديد في العمل الأدبي في مجال الأفكار والمعاني لما فيه من جوانب إثراء لذلك الأدب؛ حيث كان التجديد والابتكار «مظهران من مظاهر العبقرية المبدعة للفنان البارِع الذي تعمق تجاربه، وتملك القدرة على الإبداع، ودليل واضح على عمق ثقافته، وكثرة ذخيرته من الأفكار والمعاني»^(١).

١ - اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري. ص ٣٣٥.

وقد ذكر صاحب الصناعتين أن معرفة أكثر من لغة تمكن الأديب من التنوع والتجديد في أفكاره ومعانيه^(١) بسبب تعدد روافده الثقافية.

والشعراء في الهند حاولوا إثراء اللغة العربية بمعان جديدة لم تكن معروفة للعرب أخذوها من البيئة الهندية، ومن آدابها، وأدخلوها في شعرهم العربي، إثباتاً لشخصيتهم المستقلة في هذا الأدب، فمن تلك المعاني الجديدة قول النواب السيد صديق حسن خان في وصف حبيبته^(٢):

وَمِنْ فَمٍ أَضْيَقَ مِنْ قَلْبِ بَقَالٍ وَمِنْ حَوَاجِبَ خُودٍ مِثْلِ أَفْوَاسٍ
وَمِنْ ذَوَائِبَ قَدْ طَالَتْ إِلَى قَدَمٍ وَمِنْ وُجُوهِ مُضِيَّاتٍ كَنْبَرِاسٍ
وَمِنْ ثَنَدِي كَحَقِّ الْعَاجِ نَاعِمَةٍ وَذَاتِ قُرْطٍ لَفِي الْأُذْنَيْنِ نَوَّاسٍ^(٣)

فشبه الشاعر ضيق فم الحبيبة بقلب البقال، الذي يضرب به المثل - في شبه القارة الهندية - في البخل الشديد والشح وضيق القلب، ولم أعر في الأدب العربي على تشبيه الشيء بقلب البقال في الضيق كما أن الشاعر نعت الذوائب بالطول إلى القدم، ونعت القرط بالتذبذب والتحرك في الأذنين، وكل هذه إضافات أخذها من البيئة الهندية. ومن أمثلتها أيضاً قول الشيخ أحمد حسين المبار كفوري^(٤):

وَيَوْمَ الْوُضَلِ غَابَتْ عَنْ فِرَاشِي كَقَرْنٍ غَابَ عَنْ رَأْسِ الْحِمَارِ
فقوله: «قرن غاب عن رأس الحمار» تعبير أردي يستخدم عند فقد الشيء وغيابه بحيث لا يبقى له أثر ولا عين^(٥).

ومن المعاني الجديدة عند شعراء العربية في الهند قول السيد حيدر حسين الشيعي

١ - الصناعتين : ٨٤.

٢ - نفح الطيب من ذكر المنزل الحبيب _ نواب صديق حسن خان ص ٦٣.

٣ - العاج : ناب الفيل ، حق : وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من زجاج أو عاج أو غيرهما. ناس الشيء نوساً ونوساناً : تحرك وتذبذب ، يقال : ناس القرط ينوس في الأذن. (المعجم الوسيط).

٤ - ديوان احمد حسين مبار كفوري ص ٢٠.

٥ - ينظر فيروز اللغات.. محمد فيروز الدين ١٠٨٦ أيجوكيشنل بيلشنك هاوس دهلي، ٢٠٠٠م.

اللکهنوي في مدح سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -^(١):

وَلَا سَيْفَ إِلَّا سَيْفُهُ الْبَاطِرِ الَّذِي لَهُ كَثْرُ الْمَضْرُوبِ، قَلَّ ضَرْبُ
وَلَا يَسْتَنْحِي بِالْوَقْعِ قَطُّ وَإِنَّهُ أَكُولُ لَحُومٍ لِلدَّمَاءِ شَرِيبُ^(٢)
فَيَسْرُبُهَا فِي الْقَحْفِ شَوْقاً كَأَنَّهَا رَحِيقٌ لَهُ أَوْ لِلرَّضِيعِ حَلِيبُ
وَإِذْ يَرْتَوِي مِنْهَا تُرِيقُ عَلَى الثَّرَى فَلِلْأَرْضِ مِنْ كَأْسِ الْكِرَامِ نَصِيبُ
بِمَوْلِدِهِ بَيْتُ الْمُهَيَّمِينَ قِيلَهُ لِكُلِّ الْوَرَى تَهْوِي إِلَيْهِ قُلُوبُ
وَمَنْ حَازَ فَضْلاً صَرَتْ أَنْتَ ضَرْبِيهِ وَمَالِكَ يَا مَوْلَايَ فِيهِ ضَرْبُ
أَيَا لَائِمِّي كُفَّ الْمَلَامَ فَإِنْ لِي حَيْبُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَيْبُ
فَيَا لِحَبِّ شَارِكِ اللَّهِ فِي الْهَوَى وَيَا لِلْهَوَى فِيهِ الْإِلَهَ رَقِيبُ

والرقابة في الأدب الأردني يطلق على مشاركة عدة أشخاص في هوى حبيب واحد أو حبيبة واحدة، فكل من العشاق يبغض الآخر غيره وحسداً^(٣) واستخدم الشاعر كلمة «رقيب» بمعناها الذي في الأردية وذكر أن الله يحب علياً - رضي الله عنه - ، وأن الشاعر شارك الله في حبّ علي ، فصار الله - سبحانه وتعالى - رقيباً في هذا الهوى. ولا يخفى ما في هذا المعنى من خروج على الشرع وسوء أدب مع الله - سبحانه وتعالى - بسبب تشبيهه الله تعالى بالمخلوق، ووصفه بصفة لم يصف بها الله - سبحانه وتعالى - نفسه ، ولا وصفه بها رسوله ثم إشراك الشاعر نفسه مع الله - تعالى - في حب علي ! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. ومن المعاني التي تتسم بالجدّة والابتكار أيضاً ما ذكره الشيخ ذو الفقار على الديوبندي

١ - هندوستان كي عربي شاعري . د. حامد علي ص ٢٠٨.

٢ - الْقَحْفُ: جمع قَحَافٍ: أحد أقحاف ثمانية تُكوّن علبة عظيمة من الجمجمة وفيها الدماغ، وما انفلق من الجمجمة ضبان، وإناء من خشب على هيئة قحف الرأس. (المعجم الوسيط).

٣ - فيروز اللغات ص ٧١٤ وقد شاع هذا المعنى في الأدب الأردني ، حتى عد من التقاليد ولا نجد شاعراً أو أديباً يذكر الحب والهوى إلا مقروناً بذكر الرقيب.

في مقدمته الغزلية التي يقول فيها^(١):

قَدْ صَادَنِي عَرَضاً رُؤْسِيَّةٌ غُنِيَتْ بِحُسْنِهَا عَنْ جَمَالِ الْحُلِيِّ وَالْحُلَلِ
سَفَاكَةً وَحَيَاةَ الْعَاشِقِينَ بِهَا قَتَّالَةٌ وَهِيَ مَعَ ذَا مَرْهِمُ الْعِلَلِ
هَيْفَاءُ ضَامِرَةٌ، لَمَسَاءُ غَادِرَةٌ بَيْضَاءُ سَاحِرَةٌ، بِالْغَنَجِ وَالْكُحْلِ
كَالشَّمْسِ تَبْدُو جَهَارًا غَيْرَ خَافِيَةٍ وَلَا تَسْتَرُّ بِالْأَسْتَارِ وَالْكِلَلِ

والجدة في بيته الأخير إذ وصف المرأة بالسفور وكشف الوجه والبروز أمام الرجال من غير حياء ولا حشمة ، بينما توصف المرأة في الشعر العربي بالحياء والخفر ، ولا تذكر إلا متحجبة، متقنعة، دلالة على عفتها وحشمتها، ولا يذكر الشعراء ظعن حبيباتهم إلا في الهوادج التي كانت قد غُطِّيت بالأثواب والأستار سترًا للنساء عن عيون الرجال، وكان الشاعر يتمنى أن يظفر ولو بنظرة واحدة إلى حبيبته ، لكن الشاعر الشيخ ذا الفقار يصف حبيبته على عكس ما كانت توصف به في الأدب العربي.

وقد ناسب هذا الوصف كون تلك الحبيبة من الروس الذين أغلبهم ملاحدة، ولا يعرفون شيئاً عن الحجاب، وليس عندهم ما عند المسلمين من الغيرة على المحارم والنساء.

والشيخ السيد سليمان الندوي أتى بفكرة جديدة وطريفة في وصفه الشمس عند مغيبها، فيقول^(٢):

بَلْ إِنَّ الشَّمْسَ مِنْ أَعْمَارِنَا قَتَلَتْ يَوْمًا، فَسَالَ دَمٌ جَارٍ مِنَ الْعُنُقِ
فَذَلِكَ الشَّفَقُ الْمُحْمَرُّ مِنْ دَمِهِ وَقَبْرُهُ لَيْلُهُ الْمَسْتُورُ بِالْغَسَقِ

وهذا بلا شك معنى طريف رائع. كما أنه معنى جديد لا نجده عند الشعراء من قبل، وصل إليه الشاعر بعد تأمل طويل وتأن شديد ، كما أنه يحث القارئ على التفكير في حياته وعمره، وأن لا يضيع أوقاته سدى.

١ - قصائد قاسمي ٢٢ الإعلام ٣/ ١٢٢٦.

٢ - الإعلام ٣/ ١٢٣٨.

وتطرق الشاعر السيد محمد هارون^(١) إلى موضوع لا نجده عند غيره من شعراء العربية قديماً وحديثاً، وهو هجو الذباب، يقول:

نَهَارُ الذَّبِّ فِي ضُرٍّ وَبُؤْسٍ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ يَوْمِ عُبُوسٍ
فَقَدْ يَدْخُلْنَ بَيْنَ فَمٍ وَأَنْفٍ وَقَدْ يَخْطُرْنَ فِي شَعْرِ الرُّؤُوسِ
وَقَدْ يَجْمُنَ مِثْلَ الْمُجْدِبَاتِ أَلْ مُغِيرَاتٍ عَلَى الْمَوَائِدِ وَالْكُؤُوسِ
وَلَا يَعْبُدْنَ إِلَّا شَمْسَ وَجْهِهِ فَعِنْدِي إِنْهُمْ مِنَ الْمَجْجُوسِ
وَمَا شَيْءٌ أَشَدُّ لَدَيَّ رُزْءًا مِنْ أَيَّامِ الذَّبَابِ عَلَى الثُّفُوسِ

فهذا موضوع جديد ولا سيما قوله «ولا يعبدن إلا شمس وجه فعندي إنهن من المجوس» يتسم بشيء كثير من الجدة كما فصل الشاعر في وصف الذباب ومضايقته للإنسان بطرق شتى، وكثرة وقوعه على الوجه، وتنقله بين الفم والأنف والشعر وغيره.

وإن كان المتنبي قد شبه الوشاة في قبيح صنعهم، وإفسادهم العلاقة بين المحبين بالذباب الذي يحط على القاذورات ثم يحط على الطعام فيفسده حيث قال:

طَارَ الْوُشَاءُ عَلَى صَفَاءِ وَدَادِهِمْ وَكَذَا الذَّبَابُ عَلَى الطَّعَامِ يَطِيرُ^(٢)

إلا أن المتنبي لم يدخل في تفاصيل الوصف وذكره عرضاً في معرض التشبيه بينما الشاعر سيد محمد هارون لم يفصل فحسب بل أفرد لهذا الموضوع مقطوعة كاملة.

(٣) الوضوح وعدم العمق:

الوضوح والغموض والعمق والسطحية من المقاييس المهمة التي قاس بها النقاد المعاني عند الأدباء والشعراء وكثيراً ما أشاد النقاد بوضوح المعاني، ورفعوا قيمة هذا الوضوح لكنهم لا يقصدون بذلك أن تكون المعاني على تلك الدرجة من السذاجة والسطحية التي يتساوى معها في فهمها العالم والأمي أو المثقف والجاهل. بل

١ - كليات سيد محمد هارون ١٦٤/٢.

٢ - ديوان المتنبي مع شرح العكبري ضبطه وصححه ووضع فهرسه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ١٣٦/٢ مطبعة مصطفى البابي بمصر ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

استحسنوا المعاني العميقة التي لا تسفر عن مغزاها لأول وهلة بل تحتاج إلى التأمل والكد والاشتياق إليها لـ «أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى»^(١).

لكن من الملاحظات المهمة جداً على الشعر العربي في الهند أن معانيه «واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال»^(٢).

فهي في أغلبها معانٍ ساذجة، خالية من العمق، بعيدة عن الغموض، بل يصل كثير منها في الشرية والتقريرية والسطحية إلى حد يخرجها من دائرة الشعر، ولا يبقى فيه من هذا الفن الرفيع إلا الوزن والقافية والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ولعل النصوص الشعرية السابق ذكرها تشهد على وضوح المعاني وقرب تناولها؛ لذا أترك الاستدلال بأمثلة جديدة وأكتفي بمثال من تلك الأبيات السابق ذكرها والتي ذخرت بالمعاني السطحية، واقتربت لغتها من الشرية والتقريرية والمباشرة، ولذا لم تتمكن من إثارة عواطفنا إذ الشعر غرضه تحريك النفوس وإثارة المشاعر.

يقول الشيخ ضياء الدين أحمد^(٣) في رثاء شيخه عبد الوهاب الويلوري^(٤):

يَا مَوْتَ عَالَمَةٍ لَمَّا تُقَاتِلْنِي يَا نَعِي فَهَامَةٍ لَمَّا تُرِيْقُ دَمِي

١ - أسرار البلاغة ص ١٣٩.

٢ - تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي د- شوقي ضيف ص ٢١٩ دار المعارف الطبعة الثامنة عشرة.

٣ - هو الشيخ ضياء الدين أحمد الأماني، ولد في بلي كندة في ولاية تامل نادو، وتلقى العلم في مدرسة الباقيات الصالحات بويلور، وتعلم على الشيخ عبد الوهاب الويلوري، تولى التدريس وإدارة كلية منبع الأنوار بـ «لال بيت» في ولاية تامل نادو.

له رسائل عديدة، منها: رسالة في تحديد جهة القبلة وقصائد بالعربية، توفي سنة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م (الدراسات العربية والإسلامية في تمل نادو منذ سنة ١٩٥٧، رسالة دكتوراه للباحث: محمد سليمان عمري، تحت إشراف د. بيش إمام نثار أحمد جامعة مدراس الهند سنة ١٤١٤ هـ).

٤ - مراثية شمس العلماء المولوي عبد الوهاب الويلوري. من تأليف المولوي ضياء الدين أحمد ص ٣-٤ مدارس ، ١٣٣٧ هـ.

هو الشيخ عبد الوهاب بن عبد القادر الآثوري، ولد سنة ١٢٤٧ هـ ودرس على الحكيم زين العابدين، ومولانا غلام قادر المدراسي، والشيخ رحمت الله الكيرانوي، وغيرهم من علماء الحرم المكي.

أنشأ مدرسة الباقيات الصالحات بويلور، وتولى فيها التدريس والإدارة، وقد استفاد به خلق كثير، توفي سنة ١٣٣٧ هـ (مقدمة المراثية ضياء الدين أحمد ص ٢، مطبعة الكريمي مدراس ١٣٣٧ هـ، الإعلام ١٣٠٦/٣).

أَعْنِي بِهِ شَيْخَا الْعَلَامِ ذَا عَمَلٍ كُنَزَ الْمَعَارِفِ بَحْرَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمِ
جَدِّي وَمُسْتَنَدِي، ذَا مُرْشِدِي عَضْدِي مَجْدِي وَمُعْتَمِدِي، قَدْ فَاقَ بِالْهَمِّ
الْمَاهِرُ الْفَطْنُ الْقَمَقَمَامُ قُدُوتُنَا عَبْدُ لَوْهَابِنَا عَلَمًا مِنَ الْكَرَمِ
هُوَ الْمُفَسِّرُ وَالْأُسْتَاذُ لِلْكَمَلَاءِ وَالْمُحَدِّثُ وَالنَّحْرِيرُ لِلْفَهْمِ
صَبْرٌ فَقِيهٌ فَطِينٌ فَاضِلٌ وَرَعٌ مُوَحِّدُ اللَّهِ رَبِّي بَاعِثُ الرِّمَمِ
ذُو النُّونِ فِي عَمَلٍ، نُعْمَانُ فِي وَرَعٍ لُقْمَانُ فِي حِكْمٍ سَحْبَانُ فِي كَلِمِ

ونرى الشيخ الشاعر يستمر بهذه الطريقة في رثاء شيخه في قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها سبعة وسعين بيتاً لكنها جاءت باردة فاترة، خالية من العاطفة مع أن الرثاء يعد من الأغراض التي تمتاز بحرارة العاطفة وجيشانها، لأن الشاعر لا يقوله تكسباً وإنما وفاءً بحق المرثي.

وأرى أن هذا الوضوح الشديد البالغ حد السطحية منشؤه عدة أسباب لعل من أهمها :

١- أن معظم الذين خاضوا غمار الشعر لم يكن الشعر صناعتهم الأولى، بل كانوا منشغلين بأعمال أخرى لكسب ما يعينهم في دفع عجلة الحياة كالتدريس وغيره، فما كانوا يجدون تلك الفسحة من الوقت التي تمكنهم من تمحيص أعمالهم، وتنقيح قصائدهم والتحليق بأفكارهم، إضافة إلى فقدانهم تلك المواهب القوية الشعرية التي تؤهلهم للإبداع والإجادة.

٢- أن كثيراً منهم أطلوا النفس في القصائد فجاوز عدد الأبيات في قصيدة واحدة عند بعض الشعراء خمسمائة بيت، وبلغ عند كثير منهم مائة بيت أو ما يقاربها، ولعلهم ظنوا أن طول القصيدة في حد ذاته ميزة، ودلالة على التفوق والبراعة، ونسوا أن التطويل في القصائد مظنة الوقوع في المعاني السطحية التي لا طائل تحتها فنجد الأبيات حيثئذ رصفاً من الكلمات الجوفاء^(١).

ونلاحظ عند بعض الشعراء نوعاً من الغموض لأسباب مختلفة، مثل استخدام

١- الشعر في المملكة العربية السعودية ، خلال نصف قرن .. د. عبد الله الحامد ص ٦٦ .

الشاعر بعض التلميحات التاريخية، إذ تخفى معانيها على من لا يكون محيطاً بتلك الظروف

والأحوال ويبدو ذلك عند الشيخ أحمد الكوكني في قوله^(١):

أَبْنُ الصَّنَادِيدِ مِنْ فُرسٍ وَمِنْ عَرَبٍ لَمْ يَنْجُ دَارًا، وَلَا صَخْرًا، وَلَا هَرَمًا

أما صخر فهو أخو الخنساء ، وأما هرم فهو ابن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى، ودارا ملك الفرس فالقارئ لا يستطيع فهم البيت، والوصول إلى معناه إن لم يكن يعرفهم ، وما كانوا يتمتعون به من منزلة سامية ومكانة مرموقة في مجتمعاتهم ، وفي عصورهم.

وقد يستخدم الشاعر مصطلحات فن من الفنون، أو عبارات مستخدمة عند طائفة معينة ، لا يفهمها إلا أصحاب ذلك الفن أو تلك الفئة، فيقع اللبس وينشأ الغموض عند كثير من القراء، مثل ما نرى عند الشيخ حيدر حسين اللكهنوي^(٢):

أَتَرِشْدُ مَنْ أَغْيَا الْهُدَاةَ رَشَادُهُ يَرَى مُوجِبَاتِ الْعَقْلِ مِثْلَ السَّوَالِبِ

فالموجب والسالب من مصطلحات المناطقة، ويراد بالإيجاب والسلب الثبوت واللاتبوت، فثبوت شيء لشيء إيجاب، وانتفاؤه عنه سلب، وقد يعبر عنه بالوقوع واللاوقوع^(٣).. فليس من السهل الوصول إلى معنى هذا البيت بسبب هذه المصطلحات ومن أمثلة هذا النوع من الغموض أيضاً قول الشيخ ذي الفقار علي في وصف المانجو^(٤):

وَلَيْنَ يَلْمُكَ اللَّائِمُونَ فَقُلْ لَهُمْ: "الْإِضْطِرَارُّ يُبِيحُ مُحْظُورَاتٍ"

ومنشأ الغموض في هذا البيت هو استخدام الشاعر قاعدة فقهية «الاضطرار يبيح محظورات» فلا يفهم معنى البيت من لم يكن لديه هذه الثقافة الفقهية الأصولية^(٥).

١- الإعلام ٣/ ١١٧٤.

٢- هندوستان كى عربي شاعري د. حامد علي ص ٢٠٨ رسالة دكتوراه في جامعة عليكره.

٣- موسوعة كشف اصطلاحات العلوم والفنون ، محمد أعلى التهانوي ٩٦٥/١ تحقيق د. علي دحروج ، مكتبة لبنان ناشرون ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٤- الهدية السنوية ص ١١.

٥- معلوم في الفقه أن «الضرورات تبيح المحظورات».

التقليد والأخذ من السابقين:

تقليد السابقين ومحاكاة الأقدمين من المحتمات في كل فنّ، ولا يتأتى التجديد إلا في دائرة ضيقة، ويكون التقليد له دائماً الحظّ الأوفى والنصيب الأكبر، كما لا يمكن أن يكون التجديد مقبولاً إلا إذا كان مبنياً على ثوابت راسخة.

ومن ثم فالمعاني في الشعر أيضاً على ضربين: «ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها»^(١) وهذا من «المختص الذي حازه المبتدئ فملكه، فصار المعتدي مختلساً سارقاً، والشارك له محتدياً تابعاً»^(٢).

و ضرب ثانٍ هو «ذلك المشترك الذي لا يجوز ادّعاء السرقة فيه، والمتبذل الذي ليس أحد أولى به»^(٣).

أما الشعر العربي في الهند فأغلب معانيه من قبيل العام والمشارك الذي كثر تداوله واستعماله لدى الشعراء فمن ثم يصعب القول بتقليد الشعراء الهنود الشعراء السابقين في أبيات أو معان معينة.

لكنّ هناك جوانب دلّت على شيء من التأثير والتقليد في معاني أشعارهم، ويمكن تلخيصها فيما يأتي:

(١) التضمين:

وهو أن يضمن الشاعر شيئاً من شعر غيره وينبه على ذلك إن لم يكن مشهوراً^(٤). والشاعر يلجأ إلى التضمين «لتأييد أفكاره أو جعلها مؤثرة في عقل المتلقي ووجدانه»^(٥) أو إظهاراً لإعجابه بذلك الشاعر المتقدم، وقد حاول شعراء في الهند تضمين أبيات للمتقدمين.

ونلاحظ أن التضمين يتنوع في العصور الأدبية المختلفة ما بين العصر الجاهلي والإسلامي والعباسي. ولم أظفر بشاعر ضمّن من شعراء الأندلس أو شعراء العصور

١ - الصناعتين: ٨٤.

٢ - الوساطة: ١٨٣.

٣ - الصناعتين: ٨٤.

٤ - الإيضاح (ص ٥٨٠) شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب اللبناني، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٥ - شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثالث، د. سفير القثامي ص ٣٤٤ رسالة الدكتوراة.

المتأخرة في المشرق.

كما يُلاحظ أن التضمين لم يتجاوز في معظم أحواله شطراً واحداً، ومن أمثلة التضمين قول الشيخ محمد شفيع الديوبندي في رثاء الشيخ محمد أحمد^(١):

«وَكَاَنَا كَنْدَمَائِي جَذِيمَةً حِقْبَةً» فَصَارَا كَأَنْ فِي مَاضِي مَا نَصَاحِبَا

فالشاعر ضمن الشعر الأول من قول متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك ابن نويرة^(٢):

وَكُنَّا كَنْدَمَائِي جَذِيمَةً حِقْبَةً مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا

ومن أمثلته أيضاً ما نراه عند الشيخ حيدر حسين اللكنوي في مدح علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ يقول^(٣):

وَإِذِ يَرْتَوِي مِنْهَا يَرِيقُ عَلَى الشَّرَى "وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَأْسِ الْكِرَامِ نَصِيبٌ"

فالشطر الثاني مأخوذ من قول شاعر مجهول^(٤):

وَلِلَّهِ فِي تِلْكَ الْحَوَادِثِ حِكْمَةٌ وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَأْسِ الْكِرَامِ نَصِيبٌ

ونرى الشيخ علي عباس الجرياقوتي يضمن شطراً من أبيات الإمام الشافعي -رحمة الله عليه- حيث يقول في إحدى مدائحه لسراج الدولة^(٥):

لَئِنْ تَسَمَّخَ وَتُكْرِمْنِي وَتَمَنَّخَ "لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَمٍ مِنْ لَبِيدٍ"

وبيت الإمام الشافعي الذي أخذ منه الشطر الثاني، يقول^(٦):

١ - النفعات ٥.

٢ - المفضليات، المفضل الضبي ص ٢٦٧، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت، ط. ٦، بدون تاريخ.

٣ - هندوستان كي عربي شاعري، د. حامد علي، ص ٣١٨، رسالة الدكتوراة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة علي كره بالهند.

٤ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس ٢/ ٢٦٣، دار صادر، بيروت (دون التاريخ والطبعة).

٥ - القصائد العباسية، علي عباس جرياقوتي، ص ٣٧، مطبع سكندري، بهوفال ١٢٧٣ هـ.

٦ - ديوان الإمام الشافعي، ص ٧١، جمعه وحققه وشرحه: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

وَلَوْلَا الشُّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرُ مِنْ لَيْدٍ

وكثر التضمين من شعراء العصر العباسي الفحول مثل أبي تمام والمتنبي وابن الرومي وغيرهم ومن أمثله قول الشيخ علي عباس الجرياقوتي أيضاً مقرظاً على كتاب «السيرة المحمدية» الذي ألفه أحد أصدقائه، يقول^(١):

لَا تَعْجَبُوا إِنْ عَلَا كُتُبَ الدُّنْيَا مَضَوْا "فَإِنَّ فِي الْحَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْعَبِّ"

الشرط الثاني مأخوذ من قول المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة^(٢):
ومن الأمثلة أيضاً قول الشيخ عبد العزيز بن شاه ولي الله الدهلوي في وصف العاصمة الهندية دلهي، وإبراز محاسنها^(٣):

لَا غُرُو إِنْ رَيْنَتْ الدُّنْيَا بِزِيَّتِهَا "كَمْ مِنْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ ذُرّاً شَرَفٍ"

فالعجز مأخوذ من قول ابن الرومي^(٤):

وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِابْنٍ ذُرّاً حَسْبٍ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ

وكان المتنبي أكثر الشعراء تأثيراً في شعراء الهند، فممن ضمن أبياته الشيخ راجب بخش البدايوني، يقول في رثاء الزعيم الكبير مولانا محمد علي جوهر^(٥):

قَضَى إِلَهُ قَضَاءً لَنْ يُبَدِّلَهُ أَلْذُلُّ لِلْوَعْدِ، "وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا"

فالشاعر ضمن هذا البيت جزءاً من قول المتنبي^(٦):

فَالْمَوْتُ أَعْدَرِي، وَالصَّبْرُ أَجْمَلِي وَالْبِرُّ أَوْسَعُ، وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

١ - السيرة المحمدية، مولوي كرامة علي، ص:.

٢ - ديوان المتنبي ١/ ٢٢٠.

٣ - آثار الصناديد ص ٥٢٢.

٤ - ديوان ابن الرومي - شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنا ٦/ ١٧٩، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٩١م الطبعة الأولى.

٥ - «الضياء» ص ٢٨، ذو القعدة ١٣٥١هـ.

٦ - ديوان المتنبي ١/ ٩٤٩.

وقد ضمن هذا الجزء من البيت نفسه المولوي نذير أحمد الدهلوي أيضاً في قوله^(١):

الْأَمْرُ وَالْحُكْمُ أَيَّامٌ مُدَاوِلَةٌ بَيْنَ الْخَلَائِقِ، "وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا"
فمن ضمن بعض أبيات المتنبي أيضاً الشيخ إعزاز علي الديوبندي حيث قال في رثاء
الشيخ عبد الباقر^(٢):

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ دَفْنِكَ فِي الثَّرَى أَنَّ الْبُدُورَ بُرُوجَهَا الْأَلْحَادُ
فالشطر الأول تضمين من قول أبي الطيب^(٣):

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ دَفْنِكَ فِي الثَّرَى أَنَّ الْكَوَكِبَ فِي الثُّرَابِ تَغْوُورُ
كما أن الشطر الثاني أخذ فيه الشاعر المعنى من بيت المتنبي نفسه دون اللفظ.
ونرى الشيخ عبد الحميد الفراهي ضمّن إحدى قصائده شعراً من أبي العتاهية بعد
تصرف يسير، وذلك في قوله^(٤):

وَاسْتَجْمَعُوا عَدَدًا فَمَا تَجْرِي السِّفِينُ عَلَى الْيَبَسِ
فالعجز مأخوذ من قول أبي العتاهية^(٥):

تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السِّفِينَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ
وقد سبق أن رأينا تضمين الشيخ إسماعيل بن وجيه المراد آبادي عدة أشر من
معلقة امرئ القيس^(٦).

وإن كان هؤلاء الشعراء ضمنوا شعراً واحداً فهناك شعراء ضمنوا بيتاً كاملاً، ومن
أمثلته قول الشيخ عبد الحق حقي الأعظمي مخاطباً الأمة الإسلامية، ومبدياً التأسف

١ - الإعلام ٣ / ١٣٩١.

٢ - ذكر خير مولوي عبد الباقر، رتبه حبيب الرحمن العثماني ص ٥.

٣ - ديوان المتنبي ٢ / ٢٣٢.

٤ - ديوان الفراهي ١٦.

٥ - ديوان أبي العتاهية، تحقيق: شكري فيصل ص ١٩٤، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥ م.

٦ - ينظر: فصل الخصائص الفنية، مبحث الشكل، مطلب البناء الفني للقصيدة.

على حالها المؤلمة، ومحاولاً إيقاظها من غفلتها العميقة، يقول^(١):

مَاذَا أَصَابَكَ هَلْ دَاءُ الْفَنَاءِ جَرَى فِي جِسْمِ شَعْبِكَ مَجْرَى السَّمِّ فِي الْعَصَبِ
فَالْجِسْمُ فِي شَلَلٍ، وَالْعَقْلُ فِي خَلَلٍ وَالْقَلْبُ فِي نَصَبٍ، وَالرُّوحُ فِي وَصَبٍ
أَمْ مَا أَصَابَكَ مِنْ سُوءِ التَّصَرُّفِ فِي تُرَاثِ أَسْلَافِكَ الصَّوَابَةِ النُّخَبِ
"الْحَارِسِي الدِّينِ لَا يَلْهُو نَهَارُهُمْ عَنْهُ وَلَا لَيْلُهُمْ بِالنَّائِمِ الرُّقَبِ"
"الْكَافِظِي الْمُلْكِ وَالْحَامِينَ حَوَزَتَهُ مِنَ الْأَعَادِي ذَوِي الْأَصْغَانِ وَالْكَلْبِ"
فالبيتان لابن الرومي^(٢).

ترجمة مضمون القصائد الأردنية:

من مظاهر التأثير بالسابقين لدى شعراء العربية في الهند ما نراه من قيام بعضهم بترجمة أبيات أو قصائد من عيون الشعر الأردني، إعجاباً بتلك القصائد والأبيات وما تضمنته من معان جديدة وطريفة، وإثراء لساحة العربية وآدابها بنتاج أفكار الآداب الأخرى وما خلف به أبنائها من آيات الروعة والجمال.

ومن هؤلاء الشعراء الشيخ عبد الرحمن الكاشغري الندوي الذي قام بترجمة قصيدتي محمد إقبال الأرديتين، منها القصيدة المشهورة «همالية» التي بدأ بها محمد إقبال ديوانه الأردني الضخم، والتي تزرخ بوصف رائع لهذا الجبل الشامخ، وتصوير رائع لجمال الطبيعة، ويمتزج هذا الوصف وذلك التصوير بالتأمل في الكون، واستحضار التاريخ الغابر، واستعادة ذكريات قوافل الإنسانية تحت سفوح هذا الجبل.

وقد ترجم الشيخ الكاشغري معاني من هذه القصيدة ونظمها بالعربية، ولم يخض الكاشغري في ترجمة القصيدة مباشرة، بل بدأ بأبيات من نظمه وخالص شعره خاطب فيها أولئك السياح الذين يسافرون عبر القارات للسياحة والمتعة، ويغفلون عما وهب الله تعالى بلادهم من جمال الطبيعة، يقول^(٣):

١ - أعجب العجب من أحوال العرب ص ٢١.

٢ - ديوان ابن الرومي ١/ ٢٠١، شرح محمد شريف سليم، مطبعة الهلال مصر، ١٣٣٥ هـ.

٣ - الزهرات، الشيخ عبد الرحمن الكاشغري الندوي، ص ٤٤، ومجلة الضياء، عدد شعبان ١٣٥١ هـ ص ٢٩.

ذَرِ التَّسَالَ وَالْقَيْلَ الْمُحَالَ
أُنَبِّئُكَ الْحَقِيقَةَ وَالْمَالَ
أَعِزَّنِي سَمْعَكَ الصَّاعِيَّ وَقَلْبُكَ
أَرَاكَ تَجُولُ فِي الْأَقْطَارِ جَوْلًا
وَتَرْكَبُ ظَهْرَ مَا خِرَّةٍ دُفُوقٍ
لِتَشْرَبَ مَاءَ أُورُبَّاءِ الزُّلَالِ
إِخَالُكَ أَيُّهَا السَّارِي ضُلُوكًا
تَرَكْتَ سَبِيلَكَ الْوُسْطَى شِمَالًا
شِمَالٌ قَدْ حَوَى عِبْرًا وَنُصْحًا
وَفِيهِ مِنَ الْعُجَابِ ذَرَى هِمَالًا

ثم أخذ الشاعر في ترجمة جزء أو معانٍ جزئية من قصيدة، إقبال، فيقول:

هِمَالًا، أَيُّهَا الْخِصْنُ الْمُعَلَّى
لَأَرْضِ الْهِنْدِ مِنْ أَنْ تُسْتَلَا
كَفَى بِكَ عِزَّةً وَفَخَارَ نَفْسٍ
تُبَارِي فِي الْعُلَى السَّبْعَ الطُّوَالَ
بَلِ السَّبْعِ الطُّوَالِ تَخِرُّ عَجْزًا
وَتَلْتُمُ صَلْتَ وَاضِحَكَ ابْتِهَالًا

وبعد ذكر علو الجبل وشموخته ينتقل إلى ميزته الأخرى ألا وهي القدم، فيقول:

خَلْتُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عُصُورُ
وَأَحْقَابُ يُفَتِّتَنَّ الْجَبَالَ
فَمَا أَثَرَنَ فِيكَ وَظِلَّتْ قَدَمًا
تَدُودُ أَرَامِيعَ الدَّهْرِ الثَّقَالَ
مُرُورُ الْأَبَرْدَيْنِ عَلَى التَّوَالِي
أَشَابَ الْمُرْدَ وَاخْتَلَسَ الرَّجَالَ
فَيَا اللَّهَ، أَنْتَ عَلَى شَبَابٍ
رَطِيبِ الْغُصْنِ مَا غَيَّرْتَ حَالَ

وينتقل إلى معنى جديد، فيقول إن موسى عليه السلام لما طلب من الله تعالى رؤيته في وادي سيناء على جبل الطور تجلّى سبحانه وتعالى للجبل فكان في ذاك التجلي آية واحدة فقط، أما جبل همالية فيحتوي على آيات كثيرة وآلاء عديدة تدعو إلى الاعتبار والاتعاظ، فيقول:

١ - اسم مكان في جنوب إفريقيا.

إِلَهُ الْخَلْقِ إِذْ نَادَى كُلِّيماً تَلَقَّى مِنْ مُنَادِيهِ الْكَلَامَ لَا
فَكَانَ الطُّورُ مَهْطَ كُلِّ سِرٍّ خَفِيٍّ مِنْ تَجَلِّيهِ تَعَالَى
لَعَمْرُ اللَّهِ أَنْتَ بِلَا امْتِرَاءٍ بَصَائِرُ لِلَّتِي طَابَتْ خِصَالاً
فَلَا يَرْمِي بِكَ الرَّجَوَانِ وَاثْبُتْ ثَبَاتَ مُقَدَّمٍ يَبْغِي النَّضَالاً

أما القصيدة الثانية التي قام الكاشغري بترجمتها من شعر إقبال، فهي التي خاطب بها الشاعر الشباب المسلمين، وقارن بينهم وبين أسلافهم ووجه أنظار هؤلاء الشباب إلى صفات آبائهم، تلکم الصفات التي جعلتهم يسودون ويقودون العالم بأسره، ثم تطرق إلى ذكر واقع الشباب المسلمين في عصره، وبخهم على ما فيهم من الكسل والبطالة وحب الراحة، والركون إلى الدنيا، وعدم الاهتمام بالعلم، وعدم الالتفات إلى ما حولهم. فكان الدهر قد أزاحهم عن مكانة آبائهم السامية، وأوقعهم في حضيض الدل والإدبار، وقد بدأ الكاشغري -كعادته في القصيدة السابقة- بأبيات وصف فيها نفسه بالنصح ومحض الوداد، وفخر بموهبته الشعرية، وبيّن مذهبه الشعري وأن الشعر لديه أداة لنشر الفضيلة ونصرة الحق وبيان الطريق القويم، وبيّن أهمية الدين، والتمسك به في سبيل عز المسلمين، ثم يبدأ في ترجمة قصيدة إقبال، فيقول:

أَلَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُ النَّاشِئُ الْفَتَى تَفَكَّرْتُ فِي عَهْدٍ سَعِيدٍ مُوَافِقٍ^(١)
فَلِلَّهِ عَلَى السَّمَاءِ الَّتِي هَوَتْ ثَوَاقِبُ مِنْهَا زَاهِرَاتُ الْمَشَارِقِ
فَمَا أَنْتَ إِلَّا ذَلِكَ الْكُوكَبُ الَّذِي هَوَى وَتَوَارَى الْيَوْمَ فِي جُنْحِ غَاسِقِ

وبعد توجيه هذا الخطاب للشباب، يبدأ بتذكيرهم سيرة آبائهم، فيقول:

تَعَلَّمْ، فَقَدْ رَبَّكَ قَوْمٌ أَعَزَّةٌ بِهَالِكٍ دَاسُوا تَاجَ "دَارِ" الْغُرَانِقِ
أُولَئِكَ آبَاءٌ كِرَامٌ جَحَاجِحُ أُولُوا الْأَيْدِ وَالْأَبْصَارِ عِنْدَ الْمَضَاقِ

١- الزهراء ٣٣-٣٩، الضياء محرم سنة ١٣٥٢هـ، ٢-٢١.

وبعد أبيات يقول:

هُمْ فَرَشُوا الْحَصَبَاءَ تَحْتَ جُنُوبِهِمْ وَفَاقُوا عَلَى أَشْرَافِ أَهْلِ النَّهَارِ^(١)
هُمْ عَبَدُوا طُرُقَ الْحَضَارَةِ لِلدُّنَى تَسِيرُونَ أَنْتُمْ خَلْفَهُمْ فِي السَّلَاقِ
هُمْ أَرْغَمُوا شَمَّ الْأَنْثُوفِ بِضَرْبِهِمْ رِقَابَ الْأَعَادِي بِالسُّيُوفِ الْبَوَارِقِ
أَيَادٍ لَهُمْ بَيْضَاءُ لَمْ يُلَفْ مِثْلُهَا عَلَى كَاهِلٍ مِنْ جَمْعِنَا وَالْعَوَاتِقِ

ويتوجه إلى الشباب باستنهاض همهم، فيقول:

وَلَكِنْ حُلُومُ النَّاشِئِينَ تَقَاصَرَتْ عَنِ الْفَهْمِ أَوْ إِدْرَاكِ مَا فِي السَّرَادِقِ
نَصِيبُكَ بِالْأَعْمَالِ يَا أَيُّهَا الْفَتَى مَقَالٌ بِلَا جَدْوَى وَهَدْرُ الشَّقَائِقِ
دَعِ الْقَوْلَ وَاعْمَلْ وَاجْهَدْ النَّفْسَ وَانْتَبِهْ مِنَ الرَّفْدَةِ الْكُبْرَى الَّتِي لَمْ تَقَارِقِ

وهكذا يستمر في حثّ الشباب في السير على آبائهم، والجدّ والمصابرة، ثم يختم القصيدة بذكر الأسى الذي كاد يمزق قلبه، فيقول:

أَلْهَفَنِي، لَقَدْ ضَاعَتْ مَا ثَرَجُمُ يُبْكِي عَلَيْهَا كُلُّ قَالٍ وَوَامِقِ
وَأَنْزَلْنَا الدَّهْرُ الْغُشُومَ بِحُكْمِهِ عَلَى مَضْجَعِ ذِي قِصَّةٍ لَمْ يُوَافِقِ
وَهَبَّتْ عَلَى آثَارِ عَمْرٍ وَخَالِدٍ أَعَاصِيرُ قَدْ أَوْدَتْ بِأَجْبَالِ طَارِقِ
فَلَا تَسْأَلِ الدُّوَلَاتِ أَيْنَ مَقَرُّهَا؟ تَفَانَتْ بِمَا تَقْضِي قَوَانِينُ خَالِقِ
وَلَكِنْ أَوْرَبَا حَوَتْ كُلَّ نَافِعٍ بِمَا كَتَبَتْ أَيْدِي الْكِرَامِ الْأَصَادِقِ
فَذَلِكَ هُمْ بِأَهْظِ أَلْفِ الْحَشَا إِذَا مَرَّ نَازِلًا كُلُّ حَازِقِ

ونرى تلميذه الوفي الشيخ أبا محفوظ الكريم المعصومي يحدو حدو شيخه، ويترسم خطاه، فيعرب أبياتاً لشاعر أردني آخر، ألا وهو أسد الله خان غالب، فقام بترجمة خمسة

١ - في هذه الأبيات لم يتقيد الشاعر بالقصيدة الأصلية بدقة، بل عبر عن المعنى العام الذي تدور حوله القصيدة.

وثلاثين من أبياته إلى العربية وصاغها في قالب الشعري، آخذاً معاني فقط، وفي الغالب نظم بيتاً واحداً لغالب، في بيتين له؛ بسبب إفعام تلك الأبيات الغالبة بالمعاني الكثيرة، ومن أمثلتها، قوله:

حُطُوبٌ إِذَا مَا اعتَادَهَا الْمَرْءُ تَمَحَّيْ تَمَاماً، وَكَمْ هَانَتْ عَلَيَّ صِعَابُهَا
ويقول:

أَسَايِرُ كُلِّ مُنْشَمِرٍ قَلِيلًا وَأَخْسِبُهُ سَيْهٍ دِينِي السَّيْلًا
وَلَكِنْ أَنْشَيْ عَنْهُ وَلَمَّا أَزَلَّ حَيْرَانٌ لَمْ أَعْرِفْ دَلِيلًا
ويقول:

تُخَالِفُنِي النُّعْمَى إِلَى غَيْرِ سَاحَتِي فَأَصْبَحْتُ أَنِّي كُنْتُ حَلَفَ قَفَارِ
أَيَّاعِبًا جُذْرَانُ بَيْتِي أَمَرَعْتُ مَقَامِي بِقَفْرِ، وَالرَّيْبُ بِدَارِي
ويقول أيضاً:

وَعَانِيَّةٌ فِي حُسْنِهَا ضَاقَتْ الْوَرَى وَمَا زِلْتُ أُطْرِيهَا بِآيِ الْبَلَاغَاتِ
إِلَى أَنْ غَدَلِي فِي هَوَاهَا مُشَارِكًا قَرِنِي الَّذِي أَوْدَعْتُهُ سِرَّ غَايَاتِي

وللشيخ المعصومي تراجم أخرى من اللغة الفارسية لكنني صرفت عنها النظر لكونها تمت في بداية القرن الخامس الهجري أي الفترة التي خارج نطاق هذا الدراسة. ويلحظ أن شاعري العربية الكاشغري والمعصومي لم يستطيعا الوصول إلى درجة غالب وإقبال، في وضوح العبارة، وحسن السبك، وقوة التركيب، وإشراقة الديباجة، وإضفاء الموسيقى، وجلب الماء والرونق في صياغتهما، فضلاً عن التفوق عليهما.

وذلك لقصور المواهب الشعرية لدى الشاعرين المترجمين، وقد يعذران؛ لأن العربية لم تكن لغتهما الأم، كما أنها كانا في بيئة أجنبية بالنسبة للغة العربية، ويضاف إلى ذلك عدم الحافر المادّي، أو أي تشجيع ملموس، فكلاهما كان يقوم بقرض الشعر بالعربية وترجمته إلى العربية إرضاءً لنفسه، وإسهاماً منها في خدمة لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أما الشاعران الأردنيان غالب وإقبال فيعدّان من العباقرة والقمم، ولهما تأثير مشهود على الآداب العالمية، فقد ترجمت أعمالهما إلى عدّة لغات عالمية، وأثريا الآداب الإنسانية بأفكارهما، كما أطربا شعبيهما بجمال شعرهما، هذا في جانب المعنى، ومن ناحية اللفظ والأسلوب فكلاهما كان يستخدم الأردية لنظم ما تجيش به خواطره، وهي لغتهما الأصلية. كما كان الشاعر غالب يتمتع ببعض الجوائز والصّلات من السلاطين المغول والإنجليز ومن الأمراء المحليين أيضاً مكافأة على مدحه إياهم.

المطلب الثاني

التجربة الشعرية

التجربة الشعرية «تعبير مستحدث في مصطلحات النقد الأدبي الحديث، وإن كان مضمونها لم يغيب عن النقاد في النقد العربي القديم»^(١).

ويقصد بها لدى النقاد «الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني، لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يجاري شعور الآخرين؛ لينال رضاهم، بل إنه ليغذي شاعريته بجميع الأفكار النبيلة، ودواعي الإيثار التي تنبعث عن الدوافع المقدسة، وأصول المروءة النبيلة، وتشف عن جمال الطبيعة والنفس»^(٢).

وتعددت تعاريف النقاد^(٣) للتجربة الشعرية إلا أنها كلّها تعني بها في النهاية معايشة كاملة لإحساس معين من بدء ملاحظته إلى تخلقه فنياً بشكله النهائي^(٤) إذ العمل الأدبي ليس إلا «التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية»^(٥).

فليست كل قصيدة جمعت أبياتها في إطار موسيقي تسمى تجربة شعرية بل يشترط لها النقاد أن تكون نابعة من نفس صاحبها ومن عقله ومن كل حواسه ودخائله النفسية

١ - في ميزان النقد الأدبي، د. طه مصطفى أبوكريشة ص ١٧.

٢ - النقد الأدبي الحديث، د. غنيمي هلال ص ٦٣٦.

٣ - ينظر لهذه التعاريف: الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث، مصطفى عبد اللطيف السحرتي، ص ١٤، النقد التطبيقي والموازنات ٥٨-٦٣، في النقد الأدبي الحديث د. محمد عبدالرحمن شعيب ١١-١٧.

٤ - عن اللغة والأدب والنقد، رؤية تاريخية ورؤية فنية، د. محمد أحمد العزب، ط ١، المركز العربي للثقافة والعلوم.

٥ - النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، سيد قطب، ص ٩.

والفكرية الظاهرة والباطنة، وأن يكون الشاعر قد عايشها أوضح ما تكون المعيشة، ولا بد أن تكون واضحة المعالم، متميزة الأجزاء في نفس الشاعر، كل جزء يقود إلى أخيه، ولا يمكن أن يقوم جزء تالٍ بدون سابقة، متحدة الموضوع، فلا تجمع فيها بين مضامين وموضوعات عديدة، وأن تكون معبرة عنها بوسائل الشاعر اللغوية والخيالية والموسيقية لنقل الفكرة وإثارة العاطفة وتحريك الوجدان^(١).

ولا يشترط أن يكون الحدث الذي هو أساس التجربة موضوعاً أو شيئاً كبيراً، بل كل شيء في الدنيا صالح لأن يكون موضوعاً للتجربة، مهما كان لهذا الموضوع من عظم الشأن أو صغره أو نفاسة القيمة أو تفاهتها^(٢) بشرط أن يتوافر لدى الشاعر الإحساس والخيال اللذان يخلعهما على الأشياء العابرة، وأن تمتزج تلك الأشياء بالحياة الإنسانية^(٣). وإذا أردنا معرفة ما في الشعر العربي في الهند من تجارب نلاحظ قلة التجارب الناضجة فيه، وذلك لأسباب عديدة كقصور المواهب الشعرية لدى كثير من الشعراء، وعدم تفرغهم للشعر، ولعل أهم سبب في ذلك هو -حسب ما ظهر لي- افتقارهم إلى صدق العاطفة في أعمالهم الشعرية، و«الأحاسيس والمشااعر هي أهم العناصر في القصيدة أو في التجربة الشعورية»^(٤) فلم يكن الشعر لدى أغلب شعراء العربية في الهند وليد معاناة، عاشوها، ثم حاولوا التنفيس عنها في صياغة شعرية، بل أكثرهم كان ينظم أبياتاً أو قصائد ليظهر رسوخ قدميه في العربية، أو ليدرج ضمن قائمة شعرائها؛ لأن إجادة القريض - مع ما فيه من التزام بالوزن والقافية - لا تتأتى إلا مع ثقافة لغوية واسعة، وبعد اقتدار ناصية البيان، بالإضافة إلى الطبع والموهبة. وقد صرح الدكتور ظهور أحمد أظهر في مقدمته لديوان الشيخ فيض الحسن السهارنفوري أن الشيخ في بعض أغراض شعره كالغزل، والفخر والحامسة، والهجاء ما كان ينطلق من صدق العاطفة ومعاناة وتجربة؛ إذ كان من أبرز رجال الدين في شبه القارة ولا يتصور منه^(٥) أن يغامر

١- في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف ١٣٨-١٤٠ بتصرف.

٢- مقدمة ديوان عابر سبيل للعقاد ص ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الديوان الخامس ١٩٧٤م.

٣- المرجع السابق ٣٧٨.

٤- في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف ص ١٤٦.

٥- وفي الأصل: ولا يتصور عنه.

في شبكات الغرام أو يقتحم في نيران الحب»^(١) بل كان يري أنه «فن من فنون الشعر، وغرض من أغراضه يجب أن يسهم فيه، ولا يتخلف عن غيره من الشعراء في ذلك»^(٢) وما قاله الدكتور ظهور أحمد أظهر عن الشيخ فيض الحسن ليس خاصاً به فحسب، بل جميع الشعراء كانوا قد نشأوا وعاشوا في البيئة نفسها، وفي الظروف عينها، ولذا فإن ما قيل عن الشيخ فيض الحسن يصدق على غيره من الشعراء أيضاً، كما أن بإمكاننا بعد التمعن في قصائد الشيخ فيض الحسن إرجاع كثير من المدائح والمراثي أيضاً إلى ذلك الشعر الذي تنعدم فيه عاطفة صادقة مخالفاً فيها رأى الدكتور ظهور أحمد أظهر؛ إذ علامات التكلف وإمارات التفعّل بادية فيها.

وإذا أضفنا إلى هذا السبب سبباً آخر ألا وهو كون جزء كبير من هذا الشعر قد صدر بمناسبات معينة مثل تهنئة بالعيد، أو الزواج، أو الترحيب بضيف أو صديق، أو غير ذلك^(٣) وأضفنا إلى شعر المناسبات كثيراً من تلك المدائح والمراثي التي أثمرتها حاجات العيش، أو مجاملات اجتماعية، فلن يبقى من هذا العدد الكبير إلا تجارب قليلة جداً. ولا شك أن هؤلاء الشعراء يعذرون في قلة التجارب الشعرية لديهم، إذ أنهم كانوا يجعلون من الشعر العربي القديم عموماً، والشعر الجاهلي خصوصاً، نبراساً لهم، يستضيئون به، ويستنبطون بنوره، ومعروف أنه «لم يكن العرب يتصورون القصيدة تجربة شعورية»^(٤) ولا كانوا يشغلون أنفسهم بفكرة التجربة الشعورية كما نتصورها الآن، وكان حسب الشاعر منهم أن يطوف بأبياته حول الموضوع الذي ينظم فيه وحسبه أن يؤلف قصيدته دون أن يعنى بنظامها ودون أن يعنى بالوقوف الطويل في أثنائها يتأمل ويفحص أحاسيسه وأفكاره، بل كان الإحساس يعرض له، أو تعرض له الفكرة، فيوجز ما يعرض له من ذلك ويجمله إجمالاً يفقده كل انبساط وكل اتساع وبذلك أصبحت القصائد - في أغلب أمرها - أشبه ما تكون بخطرات عابرة، وقطرات منعقدة لا تتسع دائرتها ولا تشكل ما يمكن أن نسميه حدثاً أو تجربة شعورية كاملة»^(٥).

١ - ديوان الشيخ فيض الحسن ص ٢٨.

٢ - المرجع السابق ٢٧، وفي الأصل: يساهم فيه.

٣ - فعلى سبيل المثال نرى أن قصائد المناسبات في القصائد البنورية تفوق على نصفها.

٤ - في النقد الأدبي د. شوقي ضيف ١٤١.

٥ - في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف، ص ١٤١-١٤٢.

كما أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا على اطلاع بما جدّ من آراء وأفكار، ودراسات وبحوث في عالم الأدب والنقد عموماً، وفي الأدب والنقد الغربيين خصوصاً، الأمر الذي ترتب عليه عدم إعطائهم هذا الجانب عناية يستحقها.

ومن أمثلة التجارب الناجحة لدى شعراء العربية في الهند ما قاله الشيخ محمد ناظم الندوي في مجاهدي فلسطين وقد قاموا بتنفيذ إحدى عمليات استشهادية، يقول فيها^(٦):

مَنْ أَجْلِي عَنِ الدِّيَارِ	وَعَنِ الْمَزَارِعِ وَالْعَقَارِ
وَأَذِيقَ بُؤْسًا وَافْتِقَارَ	وَسِيئَمَ ذُلًّا وَصَغَارَ
وَأَصَابَهُ كُلُّ الضَّرَارِ	كَيْفَ يَقِرُّ لَهُ الْقَرَارِ
نَفَرُوا وَحُقَّ لَهُمْ نِفَارَ	مِنْ كُلِّ صَوْبٍ بِالدِّيَارِ
قُدِّمًا مَضَوْا نَحْوَ الْوَعَى	إِقْدَامًا أُشِيدَ بِالشَّرَى
لَمْ يَحْجِمْوْا دُونَ الْمَدَى	حَيْثُ مَمَكَاتُ أَوْ عُلَى
بِحِمَى وَطَيْسٍ لِلنِّضَالِ	حَيْثُ تَدُورُ رَحَى الْقِتَالِ
لَهُمْ انْقِصَاصٌ كَالصَّقُورِ	وَلَهُمْ هُجُومٌ كَالنُّمُورِ
وَطَقَّاطِطُ الْبَنَادِقِ	عِنْدَ الْقِتَالِ بِمَأْزِقِ
وَقَعَّاقِعُ الْمَدَافِعِ	فِي سَاحَةِ الْمَعَامِعِ ^(٧)
أَخْلَى لَهُمْ بِمَسَامِعِ	مِنْ أَيِّ صَوْتِ السَّامِعِ
أَلْقَتُلْ أَخْلَى حُلْمِهِمْ	وَالْمَوْتُ أَشْهَى سُؤْلِهِمْ
مِنْ عَيْشٍ ذُلٍّ فِي الْأَسَارِ	فِي دَارِ هُؤُونٍ وَالصَّغَارِ

٦- الزهرات، محمد ناظم الندوي، ص ٢٧-٢٨.

٧- المعامع: شدة الحرب، والجدُّ في القتال، وهيج الفتن، والتهاب نارها (اللسان: م ع ع).

وَسَرُّوْا إِلَى تَلِّ أَيْبُوبَ
وَتَجَاوَزُوا حَرَسَ الْيَهُودَ
وَتَوَغَّوْا وَتَكَّوْا
رَمِيًّا شَدِيدًا بِالْبَنَانِ
ضَرْبًا وَجِيعًا لِلطَّغَاةِ
قَتْلًا ذَرِيعًا لِللَّثَامِ
أَنْتُمْ قَنَابِلُ لَانْفَجَارِ
أَنْتُمْ بَنَادِقُ وَالرَّصَاصِ
لَا تُسَلِّمُوا لِمَنْ ظَلَمَ
أَخْزَى الْبِرِّيَّةِ مُذْ قَدِمَ
أَنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ
فَانْضَوْا طِرَادًا مَنْ غَضِبَ
أَنَّ الْيَهُودَ لَا تَسُوذُ
وَلَى الظَّلَامُ الْمُدْلِهِمْ
بُشْرَى لَكُمْ فَتَحُ مَبِينِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

١ - الطغام: أرادوا الناس وأوغادهم (اللسان: ط غ م).

فهذه القصيدة قالها الشاعر حينما بلغه نبأ تلك البطولة التي حصلت في أرض الشهداء، ومسرى إمام الثقلين، نبأ عملية استشهادية قام بها مجاهدون فلسطينيون، فتأثر الشاعر بهذا النبأ، وجاشت به قريحته، بعد ما هز كيانه، وألهب مشاعره، فأنتجت شاعريته هذه القصيدة الرائعة، وقد وضعها في ست مقاطع، فبين في المقطوعة الأولى تلك الأسباب التي جعلت هؤلاء المجاهدين يلقون بأنفسهم في نيران هذه الحرب، غير مباليين بها، فمن نفى عن وطنه وممتلكاته، وسلب منه كل مقومات حياته، وأذيق الذل والهوان، وأصابه الفقر والبأساء، لا يستغرب منه أن يقوم بمثل هذه المهمة، ثم يبدي الشاعر إعجابه بهؤلاء المجاهدين، من خلال ذكر صفاتهم وشجاعتهم، فهم أسود الحرب، ولهم على أعدائهم انقضااض مثل انقضااض الصقور على فرائسها، وهم يعيشون في جوٍ مفعم بآلات الحرب وأصواتها، فتعودوها وآثروا موت العزة على حياة الذل.

ثم انتقل الشاعر إلى وصف تلك العملية بالوصول إلى تل أبيب عاصمة الكيان الصهيوني الغاشم، مجاوزين الحراس، ونجاحهم في إتمام عملياتهم بالقتل والفتك والتنكيل بالأعداء، وكان اعتمادهم فيها على رباطة جأشهم، وقوة أعضائهم. وفي المقطوعة قبل الأخيرة يقوّي عزائمهم ويدعوهم إلى الاستمرار في طريقهم، وعدم الاستسلام لأعدائهم الذين هم شر خلق الله، معروفين بالغدر والظلم ونقض العهود ونكث الذم.

ويختتم قصيدته بذكر ما يتجلى له من شعاع الأمل في المستقبل، بنهاية هذا الكيان الغاشم، الجاثم على صدر الأمة، وفتح المجاهدين عليه وعودة الحكم إليهم ويرى أن هذا الفتح - بإذن الله - محقق خلال سنوات قادمة قريبة.

ونرى أن القصيدة تدرج فيها الشاعر من فكرة إلى أختها، وكانت أجزاء القصيدة واضحة المعالم، في ذهن الشاعر وفي بنائه الشعري للقصيدة، ونلاحظ عاطفة الشاعر فيها قوية صادقة، نابعة من سبب صحيح غير زائف، سامية تدعو إلى نصر المظلوم ورفض الظلم، والأخذ على أيدي الظالم، مستمرة في كامل القصيدة، متنوعة بين الإعجاب بالمجاهدين وصفاتهم وأعمالهم، والكرهات لليهود ورذائلهم، وأيضاً بين الحزن على الحاضر الأليم، والتفاؤل بمستقبل زاهر، وفتح مبين.

وقد عبر الشاعر في هذه القصيدة عن تجربة إنسانية؛ لأنه وإن كان يبدي سروره بانتصار أبناء دينه المظلومين، على أعدائهم - مهما كان الانتصار ضئيلاً وجزئياً - إلاّ

أن الظلم والعدل قضية إنسانية تهّم البشرية جمعاء في كل عصر وحين؛ لأن بالعدل قوام الحياة ولا أدل على كون هذه المأساة إنسانية- غير مخصصة بأبناء دين معين دون غيرهم- من قرارات مجلس الأمم المتحدة العديدة الصادرة في غضون عدة عقود، مطالبة بمنع العدوان ووقف الاستيطان.

وقد صور الشيخ المفتي محمد كفاية الله في قصيدته «التهنئة بالعيد السعيد» تجربة نفسية ذاتية، يقول فيها^(١):

أَهْنَيْكَ، يَا مَنْ فَازَ بِالْخَيْرِ وَارْتَوَى	بِكَأْسٍ دِهَاقٍ مِنْ مَكَارِمٍ وَاسْتَقَى
أَهْنَيْكَ، يَا مَنْ صَادَ أَفْئِدَةَ الْوَرَى	بِأَخْلَاقِكَ الزَّهْرَاءِ طَيِّبَةِ الشَّدَى
أَهْنَيْكَ، يَا مَنْ فَاقَ بِالْفَضْلِ وَالنَّدَى	عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْطَى وَأَنْفَقَ مَاحَوَى
بِعِيدٍ إِذَا وَافَى أَتَى بِمَسْرَةٍ	تَدْبُّ إِلَى أَعْقَاقِ أَفْئِدَةِ الْوَرَى
أَهْنَيْكُمْ بِالْعِيدِ، وَالْعِيدُ مُعْجَبٌ	لِحُرِّ كَرِيمٍ فَازَ بِالْعَيْشِ وَالْمُنَى
يَعُودُ لَكُمْ عَوْدًا حَمِيدًا مُبَارَكًا	عَلَيْكُمْ وَفِيكُمْ جَالِبًا لَكُمْ الْهَنَاءَ
يَعُودُ إِلَيْكُمْ مِثْلُ حَبِّ يَزُورُكُمْ	فِيَأْتِي بِمَا يَأْنِي الْحَبِيبُ إِذَا أَتَى
يَعُودُ إِلَى مَا تَشْتَهِيهِ وَتَرْضَى	مِنَ الْعُمَرِ بِالْخَيْرَاتِ وَالرُّشْدِ وَالْهُدَى
يَزُورُ الْمُحِبُّونَ الْأَحِبَّةَ بِكُرَّةٍ	وَيَلْتَدُّ كُلُّ بِالْعِنَاقِ وَبِاللِّقَا
إِذَا الْعِيدُ يَأْتِي الْمَرْءَ وَالْمَرْءَ مُحْتَظً	بِأَهْلٍ وَمَعْنَى أَوْرَثَ اللَّطْفِ وَالْهَنَاءَ
وَلَكِنَّهُ إِنْ حَلَّ وَالسَّجْنُ مُوصَدٌ	عَلَى الْمَرْءِ لَمْ يُورِثْ سِوَى الْحُزْنِ وَالشَّجَى
وَكَمْ بَيْنَ حُرٍّ إِذْ يُنَاغِي غَزَالَةً	وَبَيْنَ أَسِيرٍ يَصْطَلِي ضَرْمَةَ النَّوَى
وَكَمْ بَيْنَ حُرِّ قَرَّرَ عَيْنَاهُ بِالْهَوَى	وَبَيْنَ أَسِيرٍ يَصْطَلِي ضَرْمَةَ النَّوَى

١- نفحة العرب، محمد إعزاز على ديوبندی ٢٧٢-٢٧٥. كتب خانہ اعزازیہ، دیوبند ١٩٨٣ م.

وَلَكِنَّنَا قَوْمٌ نُلَاعِبُ بِالظُّبَا
وَنَحْنُ كِرَامٌ نَمْلِكُ الْخَيْرِ فِي النَّدَى
أُبَيِّنَا إِبَاءَ اللَّيْثِ ذُلَّ تَعَبْدِ
حُبْسَنَا وَأُذِنَنَا بِغَيْرِ جَرِيْمَةٍ
وَأِنْ غَاشِمٌ عَدَّ الدَّفَاعَ جَرِيْمَةً
وَأِنْ خَانَنَا الدَّهْرُ الْعُشُومُ فَلَا تَكُنْ
فَأَنْتَ كَرِيْمٌ ابْنُ الْكَرِيْمِ وَلَمْ نَجِدْ
نَرَى الْأَسْرَ لِلْحُرِّ الْوَفَى كَرَامَةً
وَمَا السَّجْنُ لِلْمَظْلُومِ إِلَّا عَطِيَّةٌ
فَيَارَبِّ تَشِيْتًا وَصَبْرًا عَلَى الْبَلَاءِ
وَبُورِكَتْ فَضْلَ الدِّينِ (٣) وَأَزْدَدَتْ رِفْعَةً
لِيَهْنِكَ عَيْدُ الْفَطْرِ هَذَا، وَبَعْدَهُ
وَنَقْلِي ظِبَاءٍ إِذْ تَدَاعَتْ إِلَى الْوَنَى
وَنَحْنُ لِيُوثُ نَحْسِمُ الشَّرَّ فِي الْوَعَى
فَلَا سُبَّةَ أَخْزَى مِنَ الذَّلِّ لِلْعَدَى
فَمَا ذَنْبُنَا إِلَّا الدَّفَاعُ عَنِ الْحَمَى
فَإِنَّا نَرَى مِنْ هَذَاكَ، سُودَدَ الْفَتَى (١)
يَدًا لِحُثُونٍ وَاقِفٍ حَقًّا إِذَا انْجَلَى
كَرِيْمًا مُعِينًا لِلَّذِي جَارَ وَاعْتَدَى
وَأِنْ كَانَ رَجْزًا لِلْمَوَاقِعِ فِي الْخَنَا (٢)
يَمْنُ بِهَا الْمَوْلَى عَلَى عَبْدٍ اصْطَفَى
وَيَارَبَّ عَوْنًا وَانْتِصَارًا عَلَى الْعَدَى
وَوُفِّقَتْ بِالطَّاعَاتِ وَالْخَيْرِ وَالتَّقَى
تَمَتَّعَتْ بِالْأَعْيَادِ مَا شَرِقَ الذُّكَا (٤)

صور الشاعر في هذه القصيدة تجربة عاشها بنفسه، وعاني أحداثها في دخائله، وهي تجربة معاناة السجن - مع ماله من منزلة علمية سامية خاصة ومكانة اجتماعية وسياسية مرموقة إذ كان أحد أبرز أعضاء جمعية علماء الهند - بسبب مشاركته في حركة التحرير والاستقلال ضد الاستعمار البريطاني الغاشم.

والشاعر وإن بدأ القصيدة بتهنئة مدير السجن بحلول عيد الفطر المبارك، ورأيانه يكرر التهنئة عدّة مرات، ويدعو لمدير السجن بعودة العيد إليه مرّات إلا أن الشاعر

١- غاشم: من غشم يغشم غشما: الظلم (اللسان: مادة غ ش م).

٢- الرجز بالكسر والضم: القدر (القاموس: مادة رج ز). الخنا: الفحش، (اللسان: خ ن و).

٣- مدير سجن ملتان الذي كان مسجوناً فيه الشاعر.

٤- نفحة العرب، إعزاز علي، ص ٢٧٢-٢٧٥، كتب خانة إعزازية ديوبند ١٩٨٣م.

يجعل هذه التهنئة ستراً لهموه وآلامه وأحزانه، على نحو ما يقول الشاعر الاردني:

غم كوجها ليا هي لباس نشاط مين دنيا سمجهر هي هي بهت شادمان هون مين
وتظهر في القصيدة عاطفة الحزن على الغربة وفقد الأهل والأحباب في هذه المناسبة
المباركة، والعيد العظيم، كما تظهر عاطفة الطموح والشموخ والعزة، وعدم الرضوخ
للذلة، وعدم القبول للاستعمار الغاشم، مهما كان الاستعمار جباراً عاتياً، ومهما كان
الشاعر ضعيفاً مغلوباً على أمره، مبتلى بأنواع المصائب والمحن بسبب تحديه للاستعمار.
والشاعر وإن كان يعبر عن تجربة شخصية ذاتية إلا أنه استطاع أن يجعل منها
موضوعاً إنسانياً عاماً، لما نجد له من صدى وتجاوب في نفوسنا، وكل من يمرّ بظروف
مشابهة قد يستعير بعض أبياته للدلالة على نفسيته في مثل هذه المناسبة الكريمة.

سمات العاطفة:

العاطفة «من أسس التجربة الشعرية في القصيدة الغنائية»^(١)، لأن الشعر «هو
التصوير الخيالي للعواطف»^(٢). والعواطف هي التي تكسب الشعر صفة الخلود وتجعله
محبباً لدى قلوب الناس^(٣). ويعرف النقاد العاطفة بأنها «انفعال نفس منظم يجتمع حول
شخص أو شيء معين، وأنها تتكون عادة من اتصال الفرد بموضوع العاطفة في مواقف
مختلفة، فإذا أرضت صاحبها أثارت في نفسه مشاعر لذيذة سارة وإذا أحبطت دوافعه
أثارت في نفسه مشاعر مؤلمة مريرة»^(٤).

والعاطفة الشعرية تختلف باختلاف ميول الشعراء وطبائعهم، كما تختلف قوة تأثير
العواطف في السامع، وعلى قدر قوة العاطفة المتأججة والمضطربة في نفس الشاعر
يكون شعره أكثر قوة ونفوذاً في نفوس السامعين^(٥).

وقد وضع النقاد لنقد عنصر العاطفة في العمل الأدبي خمسة مقاييس، هي:

١ - صدق العاطفة: ويقصد به أن تكون العاطفة منبعثة «عن سبب صحيح غير

١ - التجربة الشعرية في القصيدة العربية القديمة، د. مصطفى عمر. ص ٦١ دار المعارف، مصر، ١٩٨٩م

٢ - أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب ص ٢٣٠

٣ - النقد الأدبي، أحمد أمين ص ٢٣ بتصرف.

٤ - فصول في النقد الأدبي وتاريخه، ضياء الصديقي وعباس محبوب ص ٢١

٥ - في النقد الأدبي عند العرب، د. طاهر درويش ص ٢٢٠

زائف ولا مصطنع^(١) لتكون عميقة تهب للأدب قيمة خالدة، ومؤثرة في نفوس المتلقين.

٢- قوة العاطفة: ويقصد بها قدرة العمل الأدبي على إيقاظ نفس متلقيه، وإثارته وتحريكه كما يشاء ذلك العمل، فإن كان النص ثائراً صاحباً أحال المتلقي إلى قوة عاتية وشعلة ملتهبة، وإن كان متهاكاً حزيناً أشعر بجلال الخطب وعظم المصيبة^(٢).

وليس المراد بقوة العاطفة ثورتها وحدتها، فقد تكون رزينة هادئة، ومع ذلك تكون أبعد أثراً وأقوى إيجاءً لعمقها وأصالتها، فتكون أبقى وأخلد^(٣).

٣- ثبات العاطفة واستمرارها: ولذلك معنيان:

١- بقاء أثرها في نفوس السامعين زمناً طويلاً فتكون كالقطعة الموسيقية يسمعها السامع ثم لا تزال في أذنه بعض الأنغام، وتكرر أمداً بعيداً.

٢- أن تكون القطعة الأدبية تثير شعوراً متجانساً متسلسلاً^(٤).

٤- سمو العاطفة: ويقصد به أن تثير العاطفة في القارئ المشاعر الصحيحة السامية، لا المريضة والرذيلة، وترفعه إلى المثل الأعلى، لا أن تهبط به إلى الغرائز الدنيا^(٥).

٥- تنوع العاطفة ويعنون به: كثرة التجارب التي تجعل في استطاعة الأديب إذا تعرض لنوع من العاطفة، أن يستوفي الكلام فيها، كما يستطيع أن ينوع في كتابته أو شعره، فيمس مشاعر مختلفة وهو في كل منها غزير^(٦).

وليس جميع الأدباء أو الشعراء يستطيعون هذا، بل أعظم الشعراء هم الذين يقدرّون على إثارة العواطف المختلفة لدى القراء بدرجة قوية، كالحماسة والإعجاب والشفقة والإجلال^(٧).

ويعد تنوع العاطفة مظهراً من مظاهر الثراء في النصوص الأدبية؛ لأن المتلقين على

١- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب ص ١٩٠

٢- دراسات في النقد الأدبي الحديث ص ١٤٥-١٤٦ بتصرف

٣- أصول النقد الأدبي ص ١٩٣ بتصرف

٤- النقد الأدبي ص ٣٢

٥- مع النقد العربي القديم في تاريخه وقضاياه، د. طه مصطفى أبوكريشة ص ١٧١-١٧٢

٦- النقد الأدبي ص ٣٣

٧- المدخل إلى النقد الأدبي د. السعيد الباز ص ٥٨، مكتبة الزهراء ١٩٩٠ م

مختلف فئاتهم، يجد كل منهم ما يميل إليه، ويتفق مع حالته^(١). وإذا نظرنا إلى الشعر العربي في الهند لنعرف مدى تحقق هذه المقاييس فيه نلاحظ أن وضوح العاطفة الدينية وقوتها، وبروز الروح الإسلامية وظهورها من أهم سمات العاطفة في هذا الشعر. يقول الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي: «أما الثقافة العربية فلا يزال الشعب الإسلامي الهندي متمسكاً بها، محافظاً عليها، منتجاً فيها، وتدل الآثار والقرائن على تَكُون مدرسة أدبية خاصة فيها، في الأدب العربي والكتابات الإسلامية، تجمع بين البراعة الأدبية، والإشراق الروحي، والإيمان العميق، والدعوة الصريحة القوية»^(٢).

وأرى أن لهذه العاطفة الدينية القوية لدى المسلمين أسباب عديدة، من أهمها:

١- كون المسلمين في تلك البلاد النائية عن مركز الإسلام بين أغلبية الهندوس المشركين، المتعصبين لدينهم، والإنجليز النصاري المنصرين الذين كانوا يوسعون جاهدين في نشر ديانتهم بين سكان الهند، وكانوا يختلقون تهماً وافتراءات على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما كانوا يثيرون الشكوك حول القرآن الكريم وعقيدة الإسلام الصّافية النقية، ليبينوا بذلك أحقيتهم وأفضلية دينهم، فكون المسلمين في صراع دائم مستمر مع هذه الطوائف المختلفة قد سبّب إذكاء العاطفة الدينية القوية لديهم، والاعتزاز بالدين الحنيف، والتمسك بكل ما ورد فيه، والاستماتة في الدفاع عنه.

٢- أغلب هؤلاء الشعراء كانوا من أوعية علوم الكتاب والسنة، وحملوا الشريعة الغراء، يبيتون ويسهرون في جمعها وتحصيلها، ويكدون في نشرها، ولم تقتصر جهودهم على حجرات العلم، وزوايا المكتبات، بالتعلم والتعليم، تاركين بذلك الحياة العملية لغيرهم، بل كان لهم مواقف قيادية في التصدي لجميع تحديات العصر، فحينما نرى الشيخ محمد قاسم النانوتوى، مثلاً: يضع أساس مدرسة إسلامية في ديوبند، لتكون معقلاً للدين الحنيف وعلومه، ولتتحول بعد ذلك إلى حركة تعليمية انتشرت في شبه القارة الهندية كلّها، بل آتت ثمارها عبر القارات، في أوروبا، وأمريكا، وإفريقية، وأستراليا، وأغلب بلدان قارة آسيا، نراه أيضاً حاملاً لواء الجهاد، في ساحة

١- شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثالث، د. سفير القشامي ص ٣٦٨

٢- المسلمون في الهند ص ٥٧

«شاملي»^(١) ليقود المجاهدين الذين يحاولون طرد الإنجليز من الهند، وتطهير البلاد من عدوانهم وجورهم، ولتعود الهند دار إسلام كما بقيت قروناً طويلة متتابعة، وقد شارك الكثيرون من هؤلاء الشعراء العلماء في هذه الفريضة المقدسة، ومن أشهرهم في هذا المجال عبر الأجيال، الشاه عبدالعزيز الدهلوي، والشيخ فضل حق خيرآبادي، ورحمت الله الكيرانوي، والمفتي محمد كفايت الله، وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والأخوان محمد علي وشوكت علي، وأبو الكلام آزاد^(٢).

وقد تعرض أغلب هؤلاء الشعراء لمحنة السجن أو النفي من البلاد، والبعد عن الأهل والأصحاب، من قبل الحكام الإنجليز، مما غذى شاعريتهم بهذه العاطفة النبيلة، كما أيقظ لدى أتباعهم وتلاميذهم شياطين شعرهم، فنظموا فيهم وفي تلك الأحوال قصائد مفعمة بالعاطفة القوية المؤثرة.

٣- ومن أسباب هذه العاطفة الدينية أيضاً حبّ المسلمين الهنود للنبي العربي ﷺ حباً أصبح لهم شعاراً وسمة، وظهر في حياتهم وأدبهم وشعرهم، فنشأ لديهم أدب زاخرقوي، ومكتبة عظيمة غنية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ووصف حليته وشمائله، ونظم سيرته، وغزواته ومعجزاته، فيه كل معجب مطرب، يثر الحنان، ويقوي الإيمان، ويدل على قوة العاطفة الدينية، والحبّ العميق المخلص، والشاعرية القوية.

وأبرز ما تتجلى فيه هذه العاطفة السامية في شعر الدعوة الإسلامية، في التضرع إلى الله تعالى، وشعر استنهاض الهمم، وشعر الجهاد، كما رأينا عند الشيخ عبد الحميد الصادق بوري^(٣)، وأحمد الجيتيكر الكوكني^(٤)، وعبد الحق حقي الأعظمي^(٥)، وحמיד الدين الفراهي^(٦) وغيرهم.

١- علم على قسبة شهيرة بين دلهي وسهارةفور على بعد ١٠٠ كيلومتر تقريباً.

٢- قد سبق الحديث عن مواقف هؤلاء الأبطال القيادية في الجهاد ضد الإنجليز في التمهيد: حالة الهند السياسية، وينظر للاستزادة: علماء ميدان سياست مين، برصغير جنوبي ايشيا كه علماء كي سياسى سر كرميون كا مطالعه ١٠٧ تا ١٩٤٧ مؤلف. د. اشتياق حسين قريشي، مترجم: بلال أحمد زيري شعبه تصنيف وتاليف وترجمه، كراتشي يونيورستي، كراتشي ١٩٩٤م ينظر من ص ١٧٠ إلى نهاية الكتاب.

٣- يرجع إلى المبحث الأول، الفصل الثاني ص ٦٩-٨١.

٤- يرجع إلى المبحث الأول، الفصل الثاني ص ٧٠.

٥- يرجع إلى المبحث الأول، الفصل الثاني ص ٧٨-٨١.

٦- يرجع إلى المبحث الأول، الفصل الثاني ص ٨٦-٩٥.

وقد اتبع الشعراء في إبراز هذه العاطفة عدة مسالك، فلجأ الشيخ عبدالحق حقي، وعبد الحميد الصادق بوري إلى عقد المقارنة بين ماضي الأمة الإسلامية المجيد، وحاضرها الأليم؛ ليعمقوا في نفوس متلقيهم هذه العاطفة ويقووها، بينما اتبع الشيخ أحمد الجيتيكر وعبدالحق حقي أيضاً، أساليب الندبة، والاستغاثة، وتكرار بعض الكلمات الدالة على شدة الحزن بسبب النكبات التي مني بها المسلمون مثل كلمات: داء، خطب، والإكثار من الاستفهام، ولا شك أن الاستفهام، وغيره من هذه الأساليب ممن وسائل التأثير والتعميق للفكرة، في قلوب المتلقين.

ونلمس بجلاء في هذا الشعر قوة العاطفة لما يحدث في نفوسنا من أثر بالغ، وتأثير قوي، كما نلمس صدق العاطفة في كون الشعراء صدروا عن تجارب عاشوها وعانوها وقاسوا مرارتها، ويتضح سمو العاطفة في دعوة هذه القصائد إلى الجد، والتأمل في أحداث الدهر، والعبرة بمن سلف، وطلب بذل الجهد، ودفع الكسل لنيل المعالي، والحفاظ على الشرف، كما نجدها مستمرة في جميع أجزاء النصوص، ونلمس تأثيرها ممتداً إلى يومنا هذا بعد مضي عقود من الزمن، وقد غذت العاطفة الدينية الرئيسة عواطف أخرى، كعاطفة الإعجاب بالآباء العظام، وعاطفة الإشادة بأعمالهم وأمجادهم، وعاطفة الفخر بهم، وعاطفة الأسى على حال المسلمين، والسخط على أفعالهم والعوارض التي ابتلوا بها، وعاطفة الطموح إلى تغيير تلك الأحوال السيئة والتطلع إلى مستقبل زاهر مشرق واعد.

ومن الشعر الذي اتسم بعمق العاطفة أيضاً ذلكم الشعر الذي قاله شعراء العربية في الهند في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان شمائله، وذكر الحنين إلى دياره، مركز الإسلام، وموئل المسلمين.

ولا شك في صدق عاطفة هذا الشعر وسموها وقوتها، لأن باعته حب النبي ﷺ الذي هو من شروط كمال الإيمان، ومن نماذجه قول الشيخ عبدالرحمن سيوهاروي^(١) في ذكر الشوق إلى المدينة المنورة^(٢):

١- هو الشيخ عبد الرحمن بن نور الحق، ولد في سيوهار في مديرية بجنور، في أسرة القضاة، وسافر للعلم ودرس على الشيخ المحدث أحمد حسن الأمروهي، تولى التدريس في مدرسة إسلامية في بهوال وبقي فيها إلى أن توفاه الله سنة ١٣١٩ هـ. له شعر بالعربية والفارسية والأردية. (هندوستان كي عربي شاعري ص ٢٦٤-٢٦٥).

٢- القاسم، جمادى الأولى ١٣٣٢ هـ ص ٥-٧

أَيَا نَسِيمِ الصَّبَا مِنْ أَيْنَ مَسْرَاكِ؟
 مِنْ أَيِّ رَوْضِ الْحَمَى قَدْ جِئْتَ عَاطِرَةً؟
 أَهْدَيْتِ طَيْبًا إِلَى مُشْتَاقِهِ سَحْرًا
 نَفَحْتَ رُوحًا بِجِسْمٍ لَا حَرَكَ بِهِ
 رَوَائِحُ الْأَنْسِ مِنْ مَسْرَاكِ قَدْ عَبَقَتْ
 لَعَلَّهَا سَرَتْ مِنْ أَرْجَاءِ كَاطِمَةٍ
 وَحُزَّتِ أَطْيَبُ طَيْبٍ عَرَفُهُ عَبَقُ
 لِلَّهِ طَيْبُ ثَرَابٍ ضَمَّ عُنْصُرَهُ
 إِنْ نِلْتَ طَيْبَةً فِي مَسْرَاكِ ثَانِيَةً
 وَأَخْبِرِيهَا أَنَّ فِي بُوفَالٍ مُكْتَبِيًّا
 شَوْقُ الْوُصُولِ إِلَى مَغْنَاكِ يُزْعِجُهُ
 زَادَتْ شِمْلَكَ تَهَيَّمًا بِذِي سَلَمٍ
 يَظَلُّ هَيْمَانُ مُشْتَاقًا إِلَى أَحَدٍ
 نَهَارُهُ فِكْرٌ بَلْ لَيْلُهُ سَهْرٌ
 لَوْلَا الْعَوَائِقُ وَالْأَقْدَارُ تَمْتَنِعُهُ
 يَالَيْتَ طَيْبَةً تُؤْوِيْنِي وَتَرْحَمُنِي
 يَالَيْتَ لِي فِيكَ مَأْوَى هَلْ أَفُوزُ بِهِ؟
 حَسْبِي ضِيَائُكَ لَا أَلْوِي إِلَى بَلَدٍ

أَفَاقَ مُضْنَى الْهَوَى شَيْئًا بِرِيَاكِ
 مِنْ أَيِّ وَادِي النَّقَاقِدِ طَابَ مَجْرَاكِ؟
 وَنَفَحَةُ الطَّيِّبِ مِنْ أَسْنَى هَدَايَاكِ
 أَبَقَيْتِ نَفْسًا - أَطَالَ اللَّهُ بِقِيَاكِ -
 فَشَمَّ مِنْهَا شَمِيمُ الْبُرْءِ مُضْنَاكِ
 بِطَيْبِ طَيْبَةٍ إِنَّا قَدْ عَرَفْنَاكِ
 وَزُرْتَ قَبْرِ النَّبِيِّ الطَّيِّبِ الزَّاجِي
 يَفُوحُ مِنْهُ الشَّدَا كَالْعَنْبَرِ الذَّاخِي
 فَبَلَّغِيهَا سَلَامِي حِينَ تَلْقَاكِ
 لَهُ حَزِينٌ إِلَى إِدْرَاكِ لُقْيَاكِ
 يَهْزُهُ طَرَبٌ مِنْ طَيْبِ ذِكْرَاكِ
 هَاجَتْ نَزْوَعًا إِلَى سَلْعٍ نَعَامَاكِ
 يَبِيتُ حَيْرَانٌ فِي أَشْوَاكِ رِضْوَاكِ
 مَتَى يَكُونُ لَهُ حَلٌّ بِمَغْنَاكِ
 لَطَارَ مِنْ أَرْضِ بُوفَالٍ وَوَأَفَاكِ
 طُوبَاكِ طَبَّتْ مَأْوَى ثُمَّ طُوبَاكِ
 أَبْغِيكِ مَأْوَى وَقَلْبِي فِيهِ مَأْوَاكِ
 غَدَاةٌ يُسْفِرُ عَنْ نُورٍ مُحْيَاكِ

مَنْ فَاهَ بِاسْمِكَ يَا اللَّهُ نَكْهَتْهُ
وَلَفْظُ طَيِّبَةٍ مَا أَحْلَى تَلَفُظُهُ
أَبْكِي وَأَشْكُو وَمَا لِي مَنْ يُسْأَلُنِي
فَجَذْوَةٌ مِنْ جَحِيمٍ كَبْدُ ذِي كَمَدٍ
وَالْقَلْبُ يَخْفِقُ فِي الْأَضْلَاعِ مُضْطَرَباً
حُبُّ الدَّيَّارِ أَتَى مِنْ حُبِّ سَاكِينِهَا
هُوَ الَّذِي جَاءَ بِالْبَيْضَاءِ وَاضِحَةً
أَعْمَتَ بَصَائِرَ أَهْوَاءٍ مُفَرَّقَةً
سِرُّ الْوُجُودِ فَلَوْلَاهُ لَمَا وَجِدْتُ
لَا الْبَرْ لَ الْبَحْرِ لَا الْإِنْسَانَ قَاطِبَةً
لَا الْأَنْبِيَاءَ وَلَا مَنْ آمَنُوا بِهِمْ
لَا الْعَامُ، لَا الشَّهْرُ، لَا الْيَوْمُ دَائِرَةٌ
وَجُودُهُ جَادٌ بِالْمَوْجُودِ وَاسِطَةٌ
إِنْ كُنْتُ فِي الشَّكِّ مَا قَدْ نَطَقْتُ بِهِ
يَا رَبِّي اجْعَلْ مَمَّائِي فِي مَدِينَتِهِ
إِذَا أُمُوتُ بِهِ تَلَقَّاءَ رَوْضَتِهِ

فَفَاحٍ مِنْ فِيهِ طَيْبٌ حِينَ سَمَّاكَ
وَمَا حَلَاوَتُهُ إِلَّا لِمَعْنَاكَ
كَمْ حَرْدَمَعٍ جَرَى، كَمْ لَوْعَةٍ الشَّاكِي
وَقَطْرَةٌ مِنْ حَيْمٍ دَمْعَةُ الْبَاكِي
كَأَنَّهُ الطَّيْرُ مَحْبُوساً بِأَشْرَاكَ
قَلْبِي لِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ يَهْوَاكَ
مَحَا بِأَنْوَارِهِ ظُلُمَاءَ إِشْرَاكَ
فَأَبْصَرْتُ بِهِدَاهُ عَيْنٌ إِدْرَاكَ
حَدِيقَةُ الْكَوْنِ مِنْ أَرْضٍ وَأَفْلَاكَ
وَمَا سِوَى الْإِنْسِ مِنْ جَنٍّ وَأَمْلَاكَ
مِنْ أَوْلِيَاءٍ وَعَبَّادٍ وَتَسَّكَ
وَلَا اللَّيَالِي بِأَضْوَاءٍ وَأَحْلَاكَ
مِنْ مُوْجِدٍ قَدْ دَرَاهَا فَهْمُ دَرَاكَ
حَدِيثَ لَوْلَاكَ يَنْفِي شَكَّ شَكَّاكَ^(١)
ذَا مُتْتَهَى أَمْلِي، يَا مَلِكُ أَمْلَاكَ
يَطِيرُ رُوحِي بِشَوْقٍ نَحْوَ شُبَّاكَ

١ - ينظر التعليق على مثل هذه التجاوزات العقدية في الفصل الثاني، المبحث الثاني، نهاية المطلب الأول ص ١٠٧ .

أَيَّامَ دِينَةِ طَيْبِيٍّ وَنَاعِمِيٍّ وَعَمِيٍّ وَقُيِّتَ شَرًّا وَعَيْنُ اللَّهِ تَرَعَاكَ
سَقَاكَ جُودٌ مِّنَ الْوَسْمِيِّ مِنْهُمْ مَرًّا وَصَوَّبُ وَلِيٍّ مِّنَ الْأَمْطَارِ رَوَّاكَ

فهذه القصيدة الطويلة التي بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتاً مفعمّة - مع طولها - بالحنين إلى مآرز الإيمان، والشوق إلى طيبة الطيبة، وسببُ حبه للمدينة - كما صرّح به الشاعر - هو حبّ صاحب المدينة المنورة، نبينا الأُمِّي الكريم صلى الله عليه وسلم. وتظهر عاطفة الحب والحنين في تكرار كلمات معينة، فكلمة «طيبة» استخدمها الشاعر أربع مرّات، كما كرّر مشتقاتها أربع عشرة مرة، وكذلك كلمات شوق، ومأوى، ومغنى، والكلمات الدالة على الطيب، كالعبق، وعرف، والشذا، والعنبر الذّاكي، ونفحة، وفاح، أتى بها الشاعر عدّة مرّات. ومن المقرر في البلاغة أن من أغراض التكرار ذكر الشوق والحنين.

كما استعان الشعراء في بيان هذه العاطفة القوية بكلمات تدل على الشوق والحنين مثل: الهيام، والنزوع، والحنين، والشوق، والفكر، والسهر، والبكاء، والدمع، والجذوة. وتظهر هذه العاطفة في تمني الشاعر الموت في هذه المدينة الطيبة، ودعائه لها بالسقيا. وقد ظهرت في شعر المناسبات السياسية عاطفة السخط الشديد، والكراهية العميقة لبعض الأحداث التي حصلت في تلك الآونة كما رأينا في قصيدة أبي بكر بن كنج محمد والتي سماها بـ «الوزارة الحمراء»^(١) وقصيدة عبدالرحمن الكريادي في حريق نشب في بيت المقدس سنة ١٩٦٢ م^(٢).

ويمتاز كثير من الشعر العربي في كير الابقوة العاطفة، ويحمل سمات النجاح، وخصائص الصدق؛ لأن الشعراء في هذا الجزء الجنوبي من الهند استمدوا مادة شعرهم عن تجارب حياتهم الشخصية أو الاجتماعية، وحاولوا تصوير عصرهم تصويراً صادقاً، وعبروا في شعرهم عن قضايا وأحداث عاشوها وعانوها. ولم يبق الشعر لديهم أسير التقاليد الأدبية الموروثة من الشعر الجاهلي، ولكن التعبير اللغوي يخونهم في كثير من الأحيان^(٣).

١ - ينظر: المبحث السادس في الفصل الثاني.

٢ - المرجع السابق ص ٢٤٦.

٣ - ينظر للاستزادة: الشعر العربي في كيرالا.

وقد ظهرت لدى بعض الشعراء عاطفة السخط على الدهر، والتبرم من أذاه، والشكوى من نوائبه، وهي عاطفة قديمة لدى الإنسان حتى ورد النهي عن سب الدهر في السنة المطهرة^(١)، وممن ظهر لديهم هذه العاطفة القاضي أحمد بن مصطفى الكوبامثوي يقول^(٢):

جَنَى دَهْرٌ عَلَيَّ وَأَيُّ خَانَ رَجُوتُ الرِّفْقَ مِنْهُ وَقَدْ أَذَانِي
وَبَعَّدَنِي عَنِ الْأَتْرَابِ بُعْدًا وَبَالَغَ فِي هَوَانِي وَازْدِرَائِي^(٣)
وَلَفَّظَنِي بِأَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا قَرِيبٌ أَوْ أَنْيْسُ أَوْ وِرَانِي
وَمَا لَأَقِيْتُ مِنْ إِثْنَيْنِ إِلَّا وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَتَحَاسَدَانِ

ولا شك أن الشاعر في هذه المقطوعة ينطلق من مشاكل حياته الخاصة، ويعبر عن عاطفة صادقة، فقد عانى الغربة، وتردد بين «مدراس» ومسقط رأسه، وموطن عشيرته كوبامثو عدة مرات، وتقلد مناصب عالية، وعانى من الحساد والأعداء، مما ولد لديه هذا الشعور البغيض تجاه الدهر.

ونلاحظ معاً أن العاطفة الدينية كانت هي الغالبة والمسيطرة على أغلب الشعر العربي في الهند، أما بقية العواطف فكانت تغذيها وتقويها أو تنفرع عنها، فالشاعر مثلاً لا يمدح الخليفة العثماني إلا من أجل موافقه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ولأنه رمز للقوة الإسلامية ووحدتها، ولا يمدح الولاة في الهند إلا لأنهم حماة المسلمين هناك، ويقومون برعاية العلم والعلماء، ويسعون لنشر الفضائل، ولا يرثون ملكاً كالملك فيصل إلا ويرثون معه جهوده التي قام بها في خدمة الإسلام والمسلمين. ولا يرثون عالماً إلا ويكون من خلال رثائه العلم الضائع، والزهد المفقود، والورع المنشود، ولا يمدحونه إلا ويمدحونه معه العلم والصلاح والتقوى ومراقبته لله، وتعبه في نشر العلم، حتى رثاء الأقارب امتزج بهذه العاطفة الدينية، فالزوجة تُرثى لأنها كانت معينة على طاعة الرب، والوالد يُرثى لأنه ربى أولاده على الصلاح، وغرس فيهم حب العلم، وأعانهم

١- أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه ٢٩٩/٥، ٣١١.

٢- الإعلام ٩٠٤/٣.

٣- ازدرى: حقّر وعاب. (المعجم الوسيط: زرى).

على البر والتقوى.

وقد ظهرت في بعض القصائد عواطف لا تتسم بالقوة والصدق، وإنما يبدو فيها الضعف والزيف على نحو ما، كما نرى في الغزل لدى إسماعيل بن وجيه المرادآبادي^(١) ولدى الشيخ فيض الحسن السهارنفوري^(٢)، أو في شعر الإخوانيات لدى الشيخ محمد يوسف البنوري^(٣) وغيره، وفي بعض شعر المديح.

وذلك لأن هؤلاء الشعراء لم يصدروا في قصائدهم هذه عن تجربة ومعاناة ومعيشة، وإنما نظموا في هذه الأغراض اتباعاً للشعراء الجاهليين، أو إظهاراً لمقدرتهم، أو مجازاةً لشعور الآخرين، ولم يكن ذلك الشعر نابعاً عن من دخالهم وأعماقهم.

ويمكن أن يكون التطويل سبب ضعف العاطفة في كثير من القصائد، فقد تبارى الشعراء في إطالة قصائدهم حتى بلغت بعضها ٣٠٠ بيت، وبعضها ٥٠٠ بيت؛ ظناً من الشعراء أن الإطالة - في نفسها - مفخرة، ودلالة على قوة الشاعرية، ولو حملت غثاءً، فبالغوا في الإطالة، ولم يدروا ما قيل: «إن القصيدة الطويلة تسمية متناقضة، فليست شعراً إذ لا تسودها عاطفة قوية»^(٤).



١ - المبحث الرابع من الفصل الثاني.

٢ - المبحث الثالث من الفصل الثاني.

٣ - المبحث الخامس من الفصل الثاني.

٤ - أصول النقد الأدبي ص ٢٠٠.

الخاتمة

ذكرت في التمهيد جغرافية الهند، والحالة السياسية في هذه الفترة، وبينت أن هذه الفترة كانت مليئة بالقلق والأحداث الجسيمة، بسبب محاولة الإنجليز القضاء على الحكم الإسلامي في شبه القارة الهندية، والسيطرة على هذه البلاد، وأعقب ذلك تلك الحوادث التي حصلت في سبيل الاستقلال عن هذا العدو المستعمر، وتبين لي أن هذه الأحداث تركت بصماتها في الشعر العربي في الهند. وبينت أن المسلمين في الهند كانوا يولون باللغة العربية عناية فائقة، درساً وقرأة، وتأليفاً وكتابة، وأثروا المكتبة العربية في شتى فروعها بكتب يعد كثير منها قمة في بابها.

_ في المبحث الأول من الفصل الأول حاولت تحديد أشهر شعراء القرنين، فظهر لي أن أشهرهم الشيخ فيض الحسن السهارنفوري، والشيخ فضل حق الخير آبادي، والشيخ أحمد حسن عرشي، والشيخ حميد الدين الفراهي، والشيخ أبو محفوظ الكريم المعصومي.

_ في المبحث الثاني من الفصل الأول حاولت تحديد العوامل المؤثرة في الشعر العربي في الهند، وبينت أن للمدارس الإسلامية بمنهجها المشتعلة على مدارس الكتاب والسنة والأدب العربي، ولهجرة الشعراء من الجزيرة العربية وغيرها إلى الهند، ولتنقل الشعراء داخل الهند آثاراً إيجابية في ازدهار الشعر، كما كان لأجنبية البيئة، وانعدام التشجيع

والحوافز، وقلة العناية بالنقد، وقصور مواهب الشعراء، وقربهم من عصور الضعف آثار سلبية على هذا الشعر.

— في الفصل الثاني درست موضوعات الشعر العربي في الهند ووجدت أن هذا الشعر تناول أكثر الموضوعات التقليدية في الشعر العربي كالدعوة الإسلامية، والمدح، والثناء، والغزل، والإخوانيات، والمناسبات.

— في المبحث الأول من الفصل الثاني أبان البحث أن غرض الدعوة الإسلامية كان أكثر الأغراض وفرة في الشعر العربي في الهند؛ وذلك لأن أغلب شعراء العربية هناك كانوا من حملة العلم الشرعي، ومن الدعاة إلى الله تعالى، وتناولوا في شعر الدعوة موضوعات متعلقة بالعقيدة كالإيمان بالله سبحانه وتعالى، ووصف الجنة والنار، وأحوال القيامة والحشر والنشر، والردّ على الفرق الباطلة، وتناولوا قضايا الزهد كالترضع إلى الله، والتحذير من الدنيا، والدعوة إلى الاستعداد لما بعد الموت، وبينوا حالة المسلمين المؤسفة في تلك الفترة، وأدّى الشعر العربي دوره في استنهاض الهمم والدعوة إلى الجِدِّ والمثابرة، وحث على الجهاد، وأشاد بالمجاهدين الأبطال، ووصف قتال المسلمين لأعدائهم في شتى بقاع المعمورة.

— في المبحث الثاني من الفصل الثاني درست المديح، فتبينت أنه أخذ حيزاً كبيراً من هذا الشعر، كما هو في الشعر العربي عموماً، وتبينت أيضاً أن شعراء العربية في الهند أكثروا من المديح النبوي، ويمتاز هذا المديح بصدق العاطفة وحرارتها واستمرارها وتنوعها وذلك راجع إلى حب هؤلاء الشعراء الشديد لصاحب المقام المحمود. -وفي غير المديح النبوي- أبان البحث أن الممدوحين تنوعوا بين الساسة والولاة والعلماء والمشايخ وأصحاب الدين والخلق الكريم. ومُدح كل فئة من الممدوحين بما يليق بمقامه.

— وفي المبحث الثالث درست الرثاء وبينت أن المرثيين يتنوعون بين الولاة والأمراء، والعلماء والمشايخ، والأقارب والأصدقاء، ولم نجد رثاءً للمدن والممالك الزائلة، مع أن المدن والولايات كانت تسقط في أيدي الإنجليز متتابعة، ولعل شدة الأحداث، ومرارة الأحوال، وتتابع الأزمات حالت دون ذلك، وبينت أن الشعراء في الهند اتبعوا في رثائهم المنهج المتبع في رثاء الجاهليين بدءاً بالندبة، ثم تعداد مناقب المرثي، ثم التسلي، وقد يذكرون في باب التسلي الأقوام الغابرة ويوردون بعض الحكم والأمثال.

– وفي مبحث الغزل بينت كثرة الغزل لدى شعراء العربية في الهند، وأن أغلبه كان يأتي في مقدمات القصائد، وقد تُفرد له قصائد كاملة، ويتنوع بين الغزل العفيف العذري، والغزل الحسيّ اللاهبي، وبينت انعدام الغزل بالمذكر، بل كان بعض الشعراء يذكرون الحبيب بصيغة التذكير بسبب تأثرهم بالأدب الأردني، وتوصلت إلى أن سبب ضعف الغزل لدى البعض هو كونهم لم يصدروا فيه عن تجربة ومعاناة، بل نظموا الغزل تقليداً ومحاكاة.

– وفي مبحث الإخوانيات وجدت أن التهاني قد لقيت اهتماماً أكثر من التعازي، وأن الشعراء عبروا في رسائلهم عن الحنين والشوق إلى المرسل إليهم، وأنهم أخلصوا لهذا الغرض –في الغالب– قصائد كاملة.

– وفي المبحث السادس الخاص بغرض المناسبات أبان البحث عن مشاركات الشعر العربي الهندي القوية في مناسبات عصره سياسية كانت تلك المناسبات أو ثقافية أو اجتماعية، ووطنية كانت أو عالمية.

– وفي الفصل الثالث درست خصائص الشعر العربي الفنية في الهند، وظهر لي في مبحث الألفاظ والتراكيب استخدام الشعراء ألفاظاً وتراكيب دقيقة، موحية، سهلة، واضحة، وابتعادهم عن التعقيد والتقعر، وكثرة استخدام الألفاظ والتراكيب الإسلامية، وظهور ألفاظ الطبيعة بشكل ملفت، وتكرار بعض الألفاظ والتراكيب، كما ظهرت أخطاء في استخدام الألفاظ والتراكيب فيعدد من القصائد.

– وفي مبحث الصورة الفنية تبين لي أن الشعر العربي في الهند يزر بصور كثيرة كلية وجزئية، يشتمل كثير منها على الأساليب البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، ومن خلال تلك الصور أضفى الشعراء الحياة على الجمادات، وجسدوا بها المعنويات، وأتوا بصور حية متحركة، مستمدين مادة صورهم من الكتاب والسنة، ثم من التراث الشعري عند العرب، وكذلك من مصطلحات علمية، وشخصيات تاريخية، وأماكن بدوية عربية.

– في مبحث موسيقى الشعر تبين لي أن استخدام شعراء العربية في البحور الشعرية جاء متناغماً مع منظومة الشعر العربي، من حيث كثرة النظم في بعض البحور، وقلته في بحور أخرى، كما جاء استخدامهم للقوافي وحروف الروي –أيضاً– متناغماً مع منظومة الشعر العربي من حيث شيوع استخدام بعض الحروف، وغلبة حروف الجهر

على حروف الهمس، كما ظهر الاهتمام بموسيقى الشعر الداخلية، باستخدام الوسائل البلاغية كالسجع والجناس وردّ العجز على الصدر، والإكثار من التصريع في مطالع القصائد، لجذب انتباه السامع أو القارئ، كما أبان البحث عن وجود أخطاء عديدة في استخدام الأوزان، والقوافي.

– وفي مبحث بناء القصيدة أبان البحث عن اهتمام الشعراء بالمطالع والخروج والخواتيم، ومجيء المقدمات على أنواع عديدة كمقدمة طللية، ومقدمة ربيعية، ومقدمة زهدية، وخلو بعض القصائد عن أي نوع من المقدمات، وأبان عن تنوع الخواتيم بين الخاتمة بالدعاء، والخاتمة بالحكمة وغيرها. كما أبان البحث عن تعدد موضوعات القصائد في الشعر العربي الهندي، مع وجود قصائد ذات موضوع واحد، تحققت في بعضها الوحدة العضوية أيضاً، مع الإشارة إلى غلبة الطول على القصر في قصائد الشعر العربي في الهند.

– وفي مبحث المعاني والأفكار تبين لي أن كثيراً من معاني الشعر العربي في الهند مستمدة من الكتاب والسنة، أو من الشعراء العرب السابقين، وأن بعض الشعراء في الهند حاولوا إثراء اللغة العربية بإدخال معاني جديدة فيها أخذوها من بيئتهم المحلية، كما قام بعض الشعراء بترجمة بعض عيون الشعر الأردني إلى الشعر العربي، وتبين لي – أيضاً – وضوح أغلب المعاني، وكونها قريبة التناول، وخلو الشعر العربي الهندي عن المعاني العميقة والفلسفية.

– وفي المبحث الأخير أبان البحث عن قلة التجارب الناضجة في الشعر العربي في الهند، وأن سببه راجع إلى زيف عواطف الشعراء، مع وجود جملة صالحة من القصائد تتسم بسمات النجاح، كما أبان أن وضوح العاطفة الدينية هو أبرز سمات الشعر العربي في الهند.



الفهارس

وتشتمل على أربع فهارس:

فهرس الآيات القرآنية.
فهرس الأحاديث الشريفة.
فهرس المصادر والمراجع.
فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾	١٤	١٥٣

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾	١٣٤	٣٠٩
سورة النساء		
﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾	٧٨	٢٤٨
سورة المائدة		
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾	٣	٣٠٧
﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	١١٨	٣٠٨
سورة الأنعام		
﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾	١٤٥	٢٤٩
سورة الأعراف		
﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾	١٥٧	٣٠٩
سورة الأنفال		
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾	٣٣	٣٠٨

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة التوبة		
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾	١٢٨	٣٠٩
سورة يونس		
﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾	١٠٧	١٠٦
سورة الحج		
﴿أُذِّنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٤٠﴾	٣٩ - ٤٠	٣١٠
سورة الصافات		
﴿وَإِنْ يُؤْخَذِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾	١٣٩ - ١٤٥	٢٤٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحقاف		
﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾	٢٥	٢٢٧ - ٣١٠
سورة النجم		
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾	٤-٣	٣٠٩
سورة الحشر		
﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِهُمْ أَنْفُسُهم﴾	١٩	٣٠٥
سورة الصف		
﴿يَصْرُفُ مِنَ اللَّهِ وَفُتِحَ قَرِيبٌ﴾	١٣	٨٩
سورة القيامة		
﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾	٣٦	٣٠٨

فهرس الأحاديث الشريفة

رقم الصفحة	طرف الحديث	
٣١٢	إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ...	١-
٢٠٦	إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ...	٢-
١٣٢	الأرواح جنود مجندة ...	٣-

رقم الصفحة	طرف الحديث	
٢٢٠	اللهم أعني على سكرات الموت	٤-
٣١٢	إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً ...	٥-
٢٢٠	أن للموت لسكرات	٦-
٢٤٩	أن النبي ﷺ قبل عثمان بن مظعون ..	٧-
٣١١	أي الناس أشد بلاء ...	٨-
٨٣	رأس الأمر الإسلام ...	٩-
٣١١	كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته	١٠-
	لا تسبوا الدهر ..	١١-
١٠٧	لا تكذبوا علي، فإنه من كذب علي فليلق النار	١٢-
٥	لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر ...	١٣-
١٥٣	ما تركت بعدي فتنة أضّر على الرجال من النساء	١٤-
٣١٢	من أشرط الساعة أن يظهر الجهل ...	١٥-
٢٤١	من حج هذا البيت ...	١٦-



فهرس المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية

(أ) المطبوعات

القرآن الكريم.

(أ)

- أبجد العلوم، سيد صديق حسن خان القنوجي، أعده للطبع: عبد الجبار زكار، وزارة الثقافة والغرشاد القومي، دمشق ١٩٧٨ م.
- أبو العلاء الناقد الأدبي، د. السعيد السيد عبادة، دار المعارف، ط ١، ١٩٨٧ م.
- أبو الكلام آزاد، د. عبد المنعم النمر، لجنة التعريف بالإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٣ م.
- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، د. منصور عبد الرحمن، دار العلم للطباعة، القاهرة، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، منصور عبد الرحمن، دار العلم للطباعة، القاهرة، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
- الآداب العربية في شبه القارة الهندية، د. زبيد أحمد، ترجمه عن الإنجليزية وعلق عليه: د. عبد المقصود محمد شلقامي، دار الحرية للطباعة بغداد ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- الأدب الهندي المعاصر، د. محيي الدين الألوائي، دار العلوم للطباعة، القاهرة، ط ١، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
- الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، د. عمرو موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، القاهرة.
- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٧١ م.

- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، مكتبة النهضة، القاهرة، ط ٨، ١٩٧٣ م.
- أصول النقد الأدبي، د. طه مصطفى أبو كريشة، الشركة المصرية العالمية للنشر ١٩٩٦ م.

- أعجب العجب من أحوال العرب في ماضيهم المنيف وحاضرهم المخيف، سيد عبد الحق حقي الأعظمي، تقديم: مصطفى صادق الرافعي، البيانات غير مذكورة.
- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، المسمى بـ"نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر"، سيد عبد الحي الحسني، دار ابن حزم، بيروت ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٨ هـ.

(ب)

- بحوث وتنبهات، أبو محفوظ الكريم المعصومي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠١ م.
- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق: د. أحمد بدوي ود. حامد عبد المجيد، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٨٠ هـ - ١٩٧٠ م.
- البديع، ابن المعتز، تحقيق: آغناطيوس فسكي.
- البديع، أسامة بن منقذ.
- بغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

- بناء القصيدة العربية القديمة.
- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، د. سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٨ م.
- بين شاعرين مجددين: إيليا أبو ماضي، وعلي محمود طه المهندس، د. عبد المجيد عابدين، مطبعة مخيمر، القاهرة، ١٩٦٣ م.

(ت)

- تاج العروس، السيد محمد مرتضى الزبيدي، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.
- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي بمصر.

- التاج المكمل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، نواب صديق حسن خان، مطبع صديقي بهوفال ١٢٩٩هـ.
- تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط ١٨.
- تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ٨، ١٩٨٢ م.
- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، د. شوقي ضيف. (الجزيرة، العراق، إيران) دار المعارف بمصر، ط ٢.
- تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٢، (مصر والشام).
- تاريخ الأعظمية، وليد الخطاط الأعظمي، ط ١، سنة ٢٠٠٠ م.
- تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، مسعود عالم الندوي، دار العربية، (البيانات الباقية غير موجودة في الكتاب).
- تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، د. إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٩هـ.
- تاريخ الهند الحديث، د. عادل نعيم ود. عبد الرحيم عبد الرحمن، مكتبة الخانجي بمصر، ط ١، ١٩٨٠ م.
- تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية، إحسان حقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧ م.
- التجربة الشعرية في القصيدة العربية القديمة، د. مصطفى عمر، دار المعارف، مصر، ١٩٨٩ م.
- تصويب البيان في شرح الديوان، عبد المنعم الجاتكامي، مطبع مجيدي كانفور، ١٣٤٨هـ.
- التصوير البياني، د. حفني شرف، مكتبة الشباب، القاهرة ط ١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠ م.
- تقويم البلدان، عماد الدين إسماعيل بن محمد أبو الفداء، دار صادر، بيروت، طبعة مصورة من طبعة باريس سنة ١٨٥٠ م، تاريخ الطبع غير مذكور.

• تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، أبو الحسن الكناني، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ.

(ث)

• الثقافة الإسلامية في الهند، عبد الحي الحسني، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣هـ.

(ج)

• جرعة الضرب في مدح سيد العرب والعجم، محمد ناصر البلياي، مطبعة الجامعة الملكية بدلهي ١٣٥١هـ.

• الجواهر الزاهرة في مدح النبي وآله الطاهرة، محمد وحيد الدين عالي، نيشل برنتنك بريس، حيدر آباد ١٩٥٨م.

(ح)

• حديقة الأفراح لإزالة الأتراح، أحمد بن محمد الشرواني، طبع كلكته ١٣٣٦هـ.

• الحرب العالمية الثانية، عرض مصور، رمضان لاوند، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٩، ١٩٨٢م.

• حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، د. جميل أحمد، طبعة باكستان.

• الحيوان، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م.

• خزانة الأدب وغاية الأدب، ابن حجة الحموي المطبعة العامرية، القاهرة، ١٢٩١هـ.

(خ)

• الخصائص، أبو الفتح بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، التاريخ غير مذكور.

(د)

• دالية العلمي مع الرائية، عبد الصمد علمي، مطبع الحقاني بمدراس.

• الدخيل في اللغة العربية الحديثة ولهجاتها، د. ف- عبد الرحيم، مطبعة الأصيل، حلب، ١٣٩٣هـ-١٩٧٥م.

• الدر النضيد في غر القصيد، عبد الأول الجونفوري، مطبعة الآسي، لكهنؤ، بدون تاريخ.

- دراسات أدبية، إصدار نادي المدينة المنورة الأدبي، المجلد الرابع، ط ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- دراسات في الشعر الجاهلي، د. يوسف خليف، مكتبة غريب، القاهرة.
- دراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات أبو ستيث.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ديوان ابن الرومي، شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنا، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.
- ديوان أبي العتاهية، تحقيق: شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥م.
- ديوان أحمد حسين مباركفوري، مرتب: قاضي أطهر مباركفوري، قادري بريس، بومباي، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.
- ديوان أصغر علي روعي، تحقيق: رانا ذو الفقار علي، المجمع العربي بباكستان، التاريخ غير مذكور.
- ديوان الإمام الشافعي، جمعه وحققه وشرحه: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- ديوان الفراهي، عبد الحميد الفراهي، جمعه: بدر الدين الإصلاحي، الدائرة الحميدية بسرايمير أعظم كده ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- ديوان الفرزدق، تقديم وشرح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- ديوان الفيض، فيض الحسن السهارنفوري، تحقيق: د. ظهور أحمد أظهر، المجمع العربي الباكستاني، لاهور ١٩٩٥م.
- ديوان المتنبي مع الشرح المنسوب إلى العكبري، ضبطه وصححه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي بمصر، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- ديوان رطب العرب، مفتي محمد عباس، مطبع جعفري، لكهنؤ، التاريخ غير مذكور.

(ر)

- الرثاء في الشعر العربي أو جراحات القلوب، د. محمود حسن أبو ناجي، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط ٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- الروض المعطار في خير الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميدي، تحقيق: د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥م.
- رياض الفردوس، محمد حسين خان شاه جهان فوري، مطبع نولكشور، لكهنؤ ١٢٨٠هـ.

(ز)

- الزهرات، عبد الرحمن الكاشغري الندوي، تقديم: مسعود عالم الندوي، سنة ١٣٥٤هـ.
- الزهرات، محمد ناظم الندوي، دار التأليف والترجمة، كراتشي.

(س)

- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، التاريخ غير مذكور.
- سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، دار الدعوة، إسطنبول، التاريخ غير مذكور.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: مأمون الصاغر جي، مؤسسة الرسائل، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- السيرة المحمدية والطريقة الأحمدية، كرامت علي دهلوي، طبع بومباي، ١٢٧٠هـ.

(ش)

- شرح المعلقات السبع، الزوزني، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٣م.
- شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- شرح شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- الشعر العربي في كيرالا مبدؤه وتطوره، د. ويران محيي الدين الفاروقي، مكتبة عربيت كاليكوت سنة ١٤٠٠هـ.
 - الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث، مصطفى عبد اللطيف السحرتي، مطبوعات تهامة جدة، ط٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
 - شعر المهذلين في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. أحمد كمال زكي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
 - شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلام الششمري، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
 - الشعر في المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن، د. عبد الله الحامد، نادي المدينة المنورة الادبي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
 - الشعر والشعراء، ابن قتيبة، شرح أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.
 - الشعراء وإنشاد الشعر، علي الجندي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
- (ص)
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، التاريخ غير مذكور.
 - الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
 - الصور البديعية بين النظرية والتطبيق، د. حفي شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، ١٩٦٦م.
 - الصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف، مكتبة مصر، ١٩٥٨م.
 - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، دار التنوير، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.
 - الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، عبد الرحمن نصرت، مكتبة الأقصى، عمان - الأردن، ط٢، ١٩٨٢م.
 - الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د. علي البطل، دار الأندلس، ط١، ١٩٨٠م.
 - الصورة في شعر بشار بن برد، د. عبد الفتاح صالح نافع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨١م.

- الصورة والبناء الشعري، د. محمد حسن عبد الله، دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٨١ م.
(ض)
- ضياء السالك إلى ألفية ابن مالك، محمد عبد العزيز النجار، طبعة مصر، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
(ط)
- طبيعة الأمثال بين العربية والإنجليزية، د. عبد الجواد محمد فاضل، ط ١، ١٩٩٢ م.
• الطريف للأديب الطريف، عبد الأول الجونفوري، مطبعة مجتبائي دهلي ١٩٦٤ م.
(ع)
- عجب العجائب فيما يفيد الكتاب، أحمد محمد اليمني، مطبع المحمدي، بومباي، ١٢٧٥ هـ.
- العروض الواضح، د. ممدوح حقّي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط ١٤، ١٩٧٠ م.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.
- عقد اللآلي ونظم المعالي، سيد علي حسن بن أمجد علي، مطبع بستان مرتضوي، لكهنؤ ١٣٠٤ هـ.
- علم اللغة، د. علي عبد الواحد وافي، دار النهضة مصر، ط ٧.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار الفكر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٧ م.
- العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: ت. د. عبد الحميد هندواني، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- عن اللغة والأدب والنقد رؤية تاريخية ورؤية فنية، د. محمد أحمد العزب، المركز العربي للثقافة والعلوم، ط ١.
- عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د. علي عشري زايد، مكتبة دارالعلوم، ط ٢، ١٩٧٩ م.
- عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي، تحقيق: الدكتور عبد العزيز المناع، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٥ هـ.

(غ)

- الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر، د. سعد دعبيس، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٩ م.

(ف)

- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، دمشق، التاريخ غير مذكور.
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، عبد القاهر البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧ م.
- فصول في الشعر والنقد، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧ م.
- فصول في النقد الأدبي وتاريخه، ضياء الصديقي وعباس محجوب.
- فقه اللغة العربية وخصائصها، د. إميل بديع يعقوب، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٧٢ م.

- الفكرة في الأدب، د. محمد عبد الرحمن شعيب، مطبعة دار التأليف، مصر ١٩٧٥ م.
- في النقد الأدبي عند العرب، د. محمود درويش، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩ م.
- في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط ٥، ١٩٦٢ م.
- في النقد الأدبي، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢ م.
- في ميزان النقد الأدبي، د. طه مصطفى أبو كريشة، القاهرة، ١٣٩٦ هـ.

(ق)

- القافية في العروض والأدب، د. حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢ هـ-٢٠٠٢ م.
- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤١٣ هـ-١٩٩٣ م.
- القصائد البنورية، جمعه وعلق عليه: د. محمد حبيب الله مختار، المكتبة البنورية، كراتشي، ١٤٠٤ هـ.
- القصائد العباسية، علي عباس جرياقوتي، مطبع سكندري، بهوفال، ١٢٧٣ هـ.
- القصائد الهاشميات، يعقوب بخش راغب، المطبع الشرواني، علي كره، التاريخ غير مذكور.

- قصائد قاسمي مطبع مجتبائي، دهلي، ١٣٠٩ هـ.

- القصيدة النعتية، أبو محمد طاهر سيف الدين، برتش انديا بريس، بومباي، التاريخ غير مذكور.
- قصيدة عربية، محمد وحيد الدين عالي، ترجمة: الطاف حسين حالي، حيدرآباد، ١٩٥٩م.
- قضاء الأرب من رطب العرب، محمد شفيع الديوبندي، دار الإشاعت، ديو بند ١٣٤٨هـ.
- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩م. (ك)
- الكامل في العروض والقوافي، محمد قناوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- كفاح المسلمين في تحرير الهند، د. عبد المنعم النمر، مكتبة وهبة بمصر ١٣٨٤هـ.
- الكواكب الدرية، سيد محمد مهدي أديب، مطبع بستان مرتضوي، لكهنؤ ١٣٠٧هـ. (ل)
- اللامية مع البائية، عبد الصمد علمي، طبع وانم باري، التاريخ غير مذكور.
- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، التاريخ غير مذكور. (م)
- المثل السائر، ابن الأثير، دار نهضة، مصر.
- محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧م.
- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- المدخل إلى النقد الأدبي، د. السعيد الباز، مكتبة الزهراء، ١٩٩٠م.
- المديح، سامي الدهان، دار المعارف بمصر، ط ٢.
- مرثية شمس العلماء المولوي عبد الوهاب الويلوري، ضياء الدين أحمد، ط مدراس، ١٣٣٧.
- مرثية شيخ حسين عرب، أبو خليل محمد بن حسين اليماني، بيانات النشر غير مذكورة.

- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب، دار الفكر، الخرطوم، ط ٢، ١٩٧٠م.
- مروج الذهب، المسعودي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت ١٤٢٠هـ.
- مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي في الهند، د. زبير أحمد الفاروقي، دار الفاروقي، دلهي، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- المستدرك في شعر بني عامر من الجاهلية حتى العصر الأموي، د. عبد الرحمن الوصيفي، نادي المدينة المنورة الأدبي.
- المسلمون في الهند، أبو الحسن علي الندوي، مكتبة دار الفتح بدمشق ١٣٨١هـ-١٩٦٣م.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، التاريخ غير مذكور.
- المصباح المنير، أحمد الفيومي، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- مع النقد العربي القديم في تاريخه وقضاياه، د. طه مصطفى أبو كريشه.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، اسطنبول.
- معجم مصطلحات الحديث ولطائف الأسانيد، د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، أضواء السلف، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.
- معين اللبيب في جمع قصائد الحبيب، جمعه: محمد إعزاز علي، مطبوعة جامعة، دلهي، ١٣٥٠هـ-١٩٣٢م.
- المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت، ط ٢، التاريخ غير مذكور.
- مقدمة إعلاء السنن (قواعد في علوم الحديث)، ظفر أحمد التهانوي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٣، ١٣٩٣هـ-١٩٧٢م.
- مقدمة الإلياذة، سليمان البستاني، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٠٤م.
- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي، د. حسين عطوان، دار المعارف، مصر ١٩٧٤م.
- مقدمة ديوان عابر سبيل، عباس العقاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، د. محمد خلف الله أحمد، دار العلوم، الرياض، ط ٣، ١٤٠٤هـ.
 - من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، عثمان موافي، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ١٩٧٥م.
 - المنجد في اللغة والأعلام، المكتبة الشرقية، بيروت، ط ١٢.
 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، التاريخ غير مذكور.
 - الموسوعة العربية، مؤسسة أعمال الموسوعة، بيروت.
 - موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، محمد أعلى التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ١٩٩٦م.
 - موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت - لبنان، ط ٤، ١٩٧٢م.
 - الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، للمرزباني، طبعة محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٥هـ.
 - الموضوعات من الأحاديث المرفوعات، ابن الجوزي، تحقيق: نور الدين جيلار، أضواء السلف، الرياض، ١٤١٨هـ.
 - ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، سيد أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- (ن)
- نشأة الطرب في أشواق العرب، محمد طلا البشاوري، مطبع أفتاب، بشاور، ١٢٩٢هـ.
 - نفحة العرب، إعزاز علي، كتب خانة إعزازية، ديوبند ١٩٨٣م.
 - نفحة العنبر من هدي الشيخ الأنور، محمد يوسف البنوري المجلس العلمي، داهيل (سورت) الهند، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م.
 - نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، أحمد الشرواني، طبع كلكتة.
 - نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، أحمد محمد اليمني الشرواني، الطبع المجتبائي، دهلي، ١٣٤٥هـ.
 - النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- النقد الأدبي الحديث، د. غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧ م.
- النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٧ م.
- النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي، مؤسسة الخانجي بمصر، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

● نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، التاريخ غير مذكور.
- الهند في العهد الإسلامي، الشريف عبد الحي الحسني، دار عرفات، راي بريلي ١٤٢٢ هـ.

(و)

- الوافي في العروض والقوافي، الخطيب التبريزي، تحقيق: عمر يحيى فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٣٩٥ هـ.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم علي محمد البجاوي، طبعة عيسى الحلبي.
- وفيات الأعيان بأبناء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، التاريخ والطبعة غير مذكوران.

(ب) الرسائل والمخطوطات

(أ)

- أثر اللغة العربية في اللغة الأردنية، دراسة لغوية، إعداد: محمد قاسم خواجه، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

(د)

- الدراسات العربية والإسلامية في تمل نادو، محمد سليمان عمري، جامعة مدراس، الهند، ١٤١٤هـ.

- ديوان السيد أحمد عرشي القنوجي، رقم ١٤٦٢، كتب خانة شبلي نعماني، دار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ.

- ديوان الشاه ولي الله الدهلوي، مخطوط برقم ٣٥٨، كتب خانة شبلي، دار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ.

- ديوان حسرت، خانقاه مجيبه فلواري شريف، بتنه.

- ديوان فضل حق الخير آبادي، رقم، كتب خانة آزاد، جامعة علي كره.

(ش)

- شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثالث، سفير القتامي، قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤١٧هـ-١٤١٨هـ.

(ص)

- الصورة الفنية في المفضليات أنماطها، وموضوعاتها ومصادرها وقيمتها الفنية، د. زيد بن محمد غانم الجهني، قسم الأدب والبلاغة، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤١٦هـ-١٤١٧هـ.

(ق)

- قصائد بهجة الأدب، مجلدان، برقم ٣٠٥-٣٠٦، المكتبة الناصرية، لكهنؤ.

- القصيدة المدحية، ظهور الحق رامفوري، رقمها ٤٤٠٧، مكتبة رضا رامفور.

(و)

- ورقة مخطوطة، مكتبة رامفور.

(ج) المجلات والدوريات

(ب)

- البعث الإسلامي، دار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ، شوال ١٣٩٨هـ.

(م)

- مجلة «البيان»، دار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ، جمادى الآخرة ١٣٢٦هـ.
- مجلة الباقيات الصالحات، الصادرة بمناسبة الحفلة المئوية.
- مجلة الضياء، جمادى الثانية، سنة ١٣٥١هـ.
- مجلة الضياء، دار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ، ذوالقعدة ١٣٥١هـ.
- مجلة الضياء، دار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ، شعبان ١٣٥١هـ.
- مجلة الضياء، ربيع الآخر، سنة ١٣٥٤هـ.
- مجلة المجمع الهندي، قسم جامعة عليكره، العدد الممتاز عن الأستاذ العلامة عبد العزيز الميمني رحمه الله، شوال ١٤٠٥هـ - يونيو ١٩٨٥م.



ثانياً: المصادر الأجنبية

أ- الأردنية

(١) المطبوعات

(أ)

- آثار الشعراء، ت حافظ سيد ممتاز علي، مطبع شاه جهاني بهوفال، ١٣٠٧هـ.
- آثار الصناديد، سر سيد أحمد خان، ترتيب وتدوين: خالد نصير هاشمي، سنترل بكدبو، دهلي، ١٩٦٥م.
- آر، ايس، ايس ايك مطالعه، حارث بشير، كاسمن بكز، دهلي، ط ١، ٢٠٠٣م.
- أعيان وطن، سيد محمد شعيب نير، آزاد بريس، بننه، ١٣٧٢هـ-١٩٥٣م.
- الأنور، عبد الرحمن كوندو، ندوة المصنفين، دهلي، ١٩٧٥م.

(ب)

- باغي هندوستان، عبد الشاهد خان شرواني، مدينه بريس، بجنور، ١٣٦٦هـ-١٩٤٧م.
 - براني جراغ، سيد أبو الحسن ندوي، مكتبه فردوس، لكهنؤ، ١٩٩٨م.
- (ت)

- تاريخ دار العلوم ديوبند، مرتبه: محبوب رضوي، بإيلاء: قاري محمد طيب صاحب، مهتم دار العلوم ديوبند.
- تاريخ عباس، مرزا محمد هادي عزيز، لكهنوي، مطبع نظامي، لكهنؤ، ١٣٤٤هـ.
- تذكره شاه عبد العزيز، نسيم أحمد فريدي أمروهي، ط لكهنؤ، ١٩٩٢م.
- تذكره علماء هند، رحمان علي، مطبع نولكشور لكهنؤ، ١٩١٤هـ.
- تذكره كاملان رامفور، حافظ أحمد علي شوق، همدرد بريس دهلي، ١٩٢٩م.
- تذكره بي بها، سيد مجتبي حسين لوكانوي، جيد برقي بريس، دهلي، ١٣٣١هـ.
- تذكره مولانا محمد إدريس كاندهلوي، محمد ميان صديقي، ط لاهور، ١٣٩٦هـ.
- تراجم علماء حديث هند، أبو يحيى إمام خان نوشهروي، جيد برقي بريس، دهلي، ١٣٥٦هـ-١٩٣٨م.
- تلاش حق، مهاتما كاندهي، ترقي اردو بورد، دهلي، ١٩٧٣م.

• تلامذه غالب، مالك رام، كوه نور برنتنك بريس، دهلي، ١٩٥٧ م.

(ح)

• حجة الإسلام إمام محمد قاسم نانوتوي حيات، أفكار، خدمات، تنظيم أبناء قديم دار العلوم ديوبند، نئي دهلي، ٢٠٠٥ م.

• حدائق الحنفية، حافظ فقير محمد جهلمي لاهوري، مطبع نولكشور، لكهنؤ، ١٣٠٣ هـ.

• حيات أجمل، قاضي عبد الغفار، مدينه بريس، بجنور، التاريخ غير مذكور.
• حياة شبلي، سيد سليمان ندوي، مطبع معارف، أعظم كده، ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م.
• حيات ولي، محمد رحيم بخش دهلوي، أفضل المطابع، دهلي، ١٣١٩ هـ.

(خ)

• خم خانه جاويد، لاله سري رام، مطبع نولكشور، لكهنؤ، ١٩٠٨ م.
• الدر المشور في تراجم أهل الصادقور.

(د)

• ديوان غالب، نيا إداره، لاهور، ١٩٩٥ م.

(ر)

• روداد إجلاس سوم ندوة العلماء لكهنؤ، ١٣١٣ هـ، أصح المطابع، لكهنؤ.
• روداد اجلاس نهم ندوة العلماء، محمود المطابع، كانفور، ١٣١٩ هـ.
• رياض الفردوس، محمد حسين خان، مطبع نولكشور، لكهنؤ، ١٢٨٠ هـ.

(س)

• سوانح عمري مولانا محمد قاسم نانوتوي، سيد مناظر أحسن كيلاني، تنظيم ابناء قديم دارالعلوم ديوبند بدلهي، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

• سوانح عمري، محمد يعقوب نانوتوي، مطبع مجتبائي، دهلي، ١٣٧٤ هـ.
• سوانح مفكر إسلام حضرت مولانا سيد أبو الحسن علي ندوي، بلال عبد الحي حسني ندوي، سيد أحمد شهيد اكيدي، رائى بريلي، ١٤٢٢ هـ.
• سيرة تيو سلطان شهيد، محمد إلياس الندوي.

• سيرت سيد أحمد شهيد، أبو الحسن علي الحسيني الندوي، نامي بريس لكهنؤ، ١٩٣٩ م.

• سیرت مولانا عبد الأول الجونفوري، عبد الباطن جونفوري، کریمی بریس، إله آباد، ۱۳۷۰ھ۔

(ش)

• شاہ ولی اللہ اور انکی سیاسی تحریک، عید اللہ سندھی، دین محمدی بریس، لاہور، ۱۹۴۲م۔

• شمع انجمن، نواب زوار علیخان، تصویر عالم بریس، لکھنؤ، ۱۳۲۲ھ۔

(ص)

• صدائی رستا خیز، اعدہ للنشر: خلیل أحمد الحامدی، إداره معارف إسلامی، لاہور، ۱۹۹۳ھ۔

(ض)

• ضمیمہ اردو کلیات نظم حالی، ألطاف حسین حالی، البیانات غیر مذکورہ۔

(ع)

• عرب اور هندوستان، خواجہ بہاء الدین إکرامی ندوی، دار السلام بہتکل، ۱۴۰۰ھ-۱۹۸۰م۔

• علامہ حمید الدین فراہی ایک عظیم مفسر، ایک مایہ ناز محقق ایک بلند پایہ مجدد، محمد عنایت اللہ سبحانی إصلاحي، مکتبۃ الإصلاح، سرائیر، اعظم کدھ، ۱۹۷۸م۔

• علماء میدان سیاست مین برصغیر جنوبی ایشیا کی علماء کی سیاسی سرکرمیون کا مطالعہ، ۱۰۰۷ تا ۱۹۴۷م، د. إشتیاق حسین قریشی، مترجم: بلال أحمد زبیری، شعبہ تصنیف وتالیف وترجمہ، کراتشی یونیورسٹی، کراتشی، ۱۹۹۴م۔

• علماء ہند کا شاندار ماضی، محمد میان مراد آبادی، الجمعية بریس، دہلی، ۱۳۵۸ھ-۱۹۳۹م۔

(ف)

• فرائد الدھر، کریم الدین بانی بٹی، مطبع مطلع العلوم، دہلی، ۱۹۴۷م۔

• فیروز اللغات، محمد فیروز الدین، ایجو کیشنل پبلشنگ ہاؤس، دہلی، ۲۰۰۰م۔

(ک)

• کلیات اقبال، محمد اقبال، شیخ غلام علی ایند سنز پبلشرز لاہور، حیدر آباد - کراتشی، ط ۳، ۱۹۷۷م۔

(م)

- مجموعہء قصائد مرثیہ و قطعات تاریخ وفات، رتبہا: حبیب الرحمن العثماني، دیوبند، ۱۳۳۶ھ۔
- مختصر تاریخ مدرسہ امینیہ اسلامیہ، دہلی، حفیظ الرحمن واصف، یونین برتنک بریس، دہلی، ۱۳۷۷ھ۔
- مفتی صدر الدین آزردہ، عبد الرحمن برواز اصلاحی، مکتبہء جامعہ، نئی دہلی۔
- مولانا باقر آگاہ ویلوری، شخصیت اور فن، د۔ ذاکرہ غوث تملنادو اردو بلی کیشنز، مدراس ۱۹۹۵ م۔

(هـ)

- ہماری آزادی، أبو الکلام آزاد، اورینٹ لونک مین، ط ۱، ۱۹۹۱ م۔
- ہند وباك مین عربی أدب، اقبال أحمد سلفی، تاج آفست بریس، إله آباد، ۱۴۰۱ھ-۱۹۸۲ م۔
- ہندو عرب کی تعلقات، سید سلیمان ندوی، دار المصنفین، اعظم کدھ، ۱۹۶۰ م۔
- ہندوستان مین عربی علوم و فنون کی ممتاز علماء اور ان کی علمی خدمات، د۔ محمد اویس نکرامی ندوی، نامی بریس، لکھنؤ، ۱۹۷۹ م۔
- ہندوستانی مسلمان، أبو الحسن علی ندوی، مجلس تحقیقات و نشریات اسلام، لکھنؤ، ۱۹۶۱۔

(و)

- وفیات المشاہیر، عبد الأول الجونفوری، جادو بریس جونفور، ۱۳۲۳ھ۔

(ي)

- یادکار دہلی، أحمد ولي اللہی، مطبع أحمدی، دہلی، ۱۳۲۳ھ۔

(۲) الرسائل والمخطوطات

- هندوستان كي عربي شاعري، د. حامد عليخان، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عليكره۔

(۳) المجلات والدوريات

(أ)

- أخبار أهلحديث، دلهي، جلد ۵، عدد ۳۲، ربيع الثاني ۱۳۷۵هـ - ۱۵ ديسمبر ۱۹۵۵م.

- أفكار ملي، دلهي، مسلم شخصيات نمبر، يوليو ۲۰۰۵م.

(ب)

- البلاغ، تعليمي نمبر، كريمي بريس، بمباي.

(س)

- سه ماهي تحقيقات إسلامي، علي كره، عدد يوليو - سبتمبر ۱۹۹۴م.

(م)

- ماهنامه الرشيد، لاهور، دار العلوم ديوبند نمبر، ۱۳۹۶هـ - ۱۹۷۶م.
- ماهنامه نقوش، شخصيات نمبر، مطبع فروغ اردو، لاهور ط ۲، يناير ۱۹۵۶م.
- مجلة «القاسم»، دار العلوم ديوبند، شوال ۱۳۳۰هـ.
- مجلة البيانات، كراتشي، العدد الخاص يناير - فبراير ۱۹۷۸م.
- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، جمادى الأولى ۱۳۳۶هـ.
- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، ربيع الأول ۱۳۳۸هـ.
- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، ربيع الثاني ۱۳۳۷هـ.
- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، عدد رمضان ۱۳۳۱هـ.
- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، عدد شوال ۱۳۲۹هـ.
- معارف، دار المصنفين، اعظم كده، مجلد ۲۷، عدد ۱.
- معارف، دار المصنفين، اعظم كده، مجلد ۲۷، عدد ۲.

مجلات

(أ)

- أخبار أهل الحديث، دهلي، مجلده، عدد ١٢.

(ر)

- الرائد، دار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ، عدد ١١-٢٦ صفر ١٤١٤هـ.

(م)

- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، صفر ١٣٣١هـ.

- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، شعبان ١٣٣١هـ.

- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، شهر ذوالقعدة ١٣٣١هـ.

- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، جمادى الأولى، ١٣٣٢هـ.

- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، شهر صفر، ١٣٣٧هـ.

- مجلة القاسم، دار العلوم ديوبند، صفر ١٣٣٩هـ.

- مجلة معارف، دار المصنفين، أعظم كده، عدد ٤، مجلد ٥٩.

- مجلة معارف، دار المصنفين، أعظم كده، عدد ٤، مجلد ٦٧.

- مجلة معارف، دار المصنفين، أعظم كده، عدد ٦١.

- مجلة معارف، دار المصنفين، أعظم كده، عدد ٧٧.

ب - الفارسية

(١) المطبوعات

(أ)

- إتحاف النبلاء في تراجم الكملا، نواب سيد صديق حسن خان، مطبع نظامي كانفور، ١٢٨٩هـ.

(ت)

- تجلي نور، سيد نور الدين زيدي، جادو بريس، حيدر آباد، ١٣١٦هـ.

(ح)

- حظيرة التقديس وذخيرة التأنيس، أبو النصر علي بن عتيق، مطبعة شاهجهاني، بهوفال، ١٣٠٧هـ.

(ك)

- كليات نظم آصفی، عبد الجبار خان، اختر دكن بريس، حيدر آباد، ١٣٢٦هـ.

(ن)

- نفح الطيب من ذكر المنزل والحبيب، نواب صديق حسن خان، مطبع صديقي بهوفال، ١٢٩٦هـ.

ج - الإنجليزية

- English Proverbs، explained by Ronald Ridout & Clifford Witting – page: 72، printed in (1)، Lebonon by Typo press – 1976.
- Encyclopedia of Britannica، 15th Edition.

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١٣	التمهيد
١٣	بلاد الهند وجغرافيتها
١٥	حالة الهند السياسية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين
٣٣	حالة اللغة العربية وآدابها في الهند
٤١	الفصل الأول : أشهر شعراء القرنين وأهم العوامل المؤثرة في شعرهم
٤١	المبحث الأول: أشهر شعراء القرنين
٥٠	المبحث الثاني: أهم العوامل المؤثرة في شعرهم
٥٥	الفصل الثاني : أغراض الشعر العربي في الهند

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الأول: الدعوة الإسلامية	٥٦
المطلب الأول: شعر العقيدة الإسلامية والشعائر	٥٦
المطلب الثاني: شعر الزهد	٦٠
المطلب الثالث: شعر التأسف على ما آل إليه حال المسلمين والدعوة إلى استنهاض الهمم	٦٨
المطلب الرابع: شعر الجهاد في سبيل الله	٨٣
المبحث الثاني: المدح	٩٨
المطلب الأول: المديح النبوي	٩٩
المطلب الثاني: مدح الخلفاء والولاة	١٠٩
المطلب الثالث: مدح الشخصيات الإسلامية والعلماء والأساتذة	١٢٢
المبحث الثالث: الرثاء	١٣٢
المطلب الأول: رثاء العظماء	١٣٣
المطلب الثاني: رثاء الأقباب	١٤٣
المبحث الرابع: الغزل	١٥٢
المبحث الخامس: الإخوانيات	١٧٢
المبحث السادس: المناسبات	١٩٤
المطلب الأول: المناسبات السياسية	١٩٤
المطلب الثاني: المناسبات الثقافية والاجتماعية	٢٠٤

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثالث : الخصائص الفنية للشعر العربي في الهند	٢١٥
المبحث الأول: خصائص الشكل	٢١٥
المطلب الأول: الألفاظ والتراكيب	٢١٦
المطلب الثاني: الصورة الفنية	٢٣٩
المطلب الثالث: موسيقى الشعر	٢٥٧
المطلب الرابع: بناء القصيدة	٢٧٨
المبحث الثاني: خصائص المضمون	٣٠٦
المطلب الأول: المعاني والأفكار	٣٠٦
المطلب الثاني: التجربة الشعرية	٣٣٠
الخاتمة	٣٤٩
الفهارس	٣٥٣
الفهرس الأول: فهرس الآيات القرآنية	٣٥٣
الفهرس الثاني: فهرس الأحاديث الشريفة	٣٥٦
الفهرس الثالث: فهرس المصادر والمراجع	٣٥٨
الفهرس الرابع: فهرس الموضوعات	٣٨٠

هذا الكتاب

يحرص مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية الدولي على أن يكون قائدا للأعمال الكبرى التي تسهم في خدمة اللغة العربية في المدى البعيد، وتحقيق التكامل مع المؤسسات الدولية المهتمة باللغة العربية في أنحاء العالم المختلفة وتنمية التبادل المعرفي والثقافي، عبر تأسيس شراكات تعاون ونطاقات أعمال مشتركة معها.

كما ينفذ المجمع برامج وفعاليات محلية ودولية، مستقلاً أو بالتعاون مع الجامعات. والملحقيات الثقافية وغيرها، ومن تلك البرامج والفعاليات: شهر اللغة العربية ويتضمن فعاليات ومناشط لغوية متنوعة لمدة شهر كامل في إحدى الدول غير العربية وقد نفذ هذا البرنامج في كل من الصين، واندونيسيا، ويعمل حالياً على الإعداد لتنفيذه في الهند.

ويأتي هذا الكتاب ضمن المسار العام الذي يؤكد اهتمام المركز بنشر النتاج العلمي المعني بالجمهورية الهندية، حرصاً من المركز على توثيق الصلات الثقافية وتجسير العلاقات مع المؤسسات اللغوية في كافة أنحاء العالم.

